

المؤسسة
العربية
للدراسات
والنشر

جبرا ابراهيم جبرا   عبد الرحمن مُنيف

عالمٌ بلا خرائط



المؤسسة العربية
للدراسات والنشر

المركز الرئيسي:
بيروت، ساقية الجنزير، بناية
برج الكارلتون، ص.ب: ٥٤٦٠-١١
العنوان البرقي: موكيالي، هـ ٨٠٧٩٠٠/١
تلكس: LE/DIRKAY ٤٠٠٦٧

التوزيع في الأردن:
دار الفارس للنشر والتوزيع: عمان
ص.ب: ٩١٥٧، هاتف: ٦٠٥٤٣٢، فاكس
٦٨٥٥٠١ - تلكس ٢١٤٩٧

الطبعة الثانية
١٩٩٢



جبرا ابراهيم جبرا   عبد الرحمن منيف

عالم بلا خرائط

رواية

المؤسسة
العربية
للدراسات
والنشر

يودّ المؤلفان أن يؤكدا أن الشخصيات والأحداث في هذه الرواية من خلق الخيال، وأن الأماكن، وبخاصة عمورية، هي من خلق الخيال أيضاً، وهما يؤكدان أنهما ليسا أول المؤلفين الروائيين الذين أوجدوا مدناً وقرى هم مالكوها الوحيدون، ولن يكونا الأخيرين.



إلى
لميعة وسعاد

كانت السيبيلا، عرّافة كوماي، قد أتت من الشرق، من بلاد بابل، مهد المعارف والحكمة، والتنبؤ بالمستقبل.

أُعجب بها الإله ابولو أيام شبابها، فوعدها بأن يحقق لها أي مطلب تطلبه. فأخذت حفنة من الرمل في كف يدها، وقالت: «اعطني سنيناً للحياة بقدر ما في راحتي من ذرات هذا الرمل!» ولكنها نسيت أن تطلب مع طول العمر، بقاء الشباب والعافية. فعاشت مئات السنين، وشاخت، وتقلصت عظامها. وبقيت عرّافة قرناً بعد قرن.

وعاشت لزمن طويل في كهف، كانت تكدّس في مدخله أوارق الشجر. فاذا جاءها سائل يطلب معرفتها وحكمتها، قذفت إليه حفنة من هذه الأوراق، وقد كتبت حرفاً على كل ورقة. وعلى السائل عندئذ أن يجمع الأوراق، ويرتبها في شكل ما، يستطيع أن يقرأ في حروفه جوابها...



[١]

اللذة، الألم، الرعب ـ إنها تعود كرؤيا شهوانية، كرؤيا محرّمة حادة، متوتر، قاهرة، فتتكثّف اللذات واللوعات التي حفلت بها أعوام مضت، خلت، انقضت. اسمع موسيقى، أعضعض جسداً جميلاً، تملّخني أيدٍ شرسة، تعذبني أصوات تخرقني إلى الأعماق، وتتهاوى قصائد كالحمم المتساقطة... هل كنت ألتهب ولا أحترق، هل كنت أفترس ولا انتهي، هل كنت أغوص في اللجج الهادرة ولا أغرق؟

مرة أخرى! مرة أخرى أن أرى ذلك كله، أن أعرف ذلك كله! لا، إنه خيالي اللجوج. هذا التصور الجامح الأهوج المنطلق حيث يعجز الجسد أن ينطلق بقدراته المحدودة، أو يتجاوز النطاقات المضروبة عليه. هل للزمن أن ينقلب رأساً على عقب، فتتساقط منه هذه الأعاجيب ـ هذه التي حلمت بها في البدء، ثم عرفتها واحدة واحدة، ثم تملصت، وهربت في منعطفات لا حدود لها؟ وإذا ما عادت الرؤيا، لم تكن ثمة حكمة أتت بها السنون، ولا حزن. لا. ما من حكمة هنا، وما الحزن إلا قسوة يفرضها المرء على نفسه، ولا يجني إلا الهباء. والندم لا أعرف له أي معنى.

إذا كان لها أن تموت، فهي قد ماتت. إذا كان لي أن أكون القاتل، فأنا كنت القاتل. إذا كان لها ان تهرب ولم تهرب، فهي لم تحاول ان تفتح الباب الذي اغلقته أنا علينا. كان كل شيء يجري، وكأنه قد خُطط له منذ زمن بعيد، وها هو الآن ينفذ. بشراسة، نعم. بحماقة، نعم. ولكن برضا أيضاً. وإذا كان لي أن اتساءل، فتساؤلي هو: كيف رضينا معاً بأمر لا يقبله المنطق؟ اللذة، الألم، الرعب. هذا ما أرادته، وما عرفته، هي أيضاً. وجعلتني أقوم بدور ربما هي التي اختطته لي أصلاً. أنا لم أفهمها قط منذ يوم عرفتها. كنت أتصور أنني أفهم ما تقول، وما تبغي، وما تفعل، وأنا في دخيلتي أعلم أنني أكذب على نفسي. وأكذب عليها. أو أنني لم أكذب عليها، وانما رضيت، وتمتعت، بأن اتفق مع هواها. ربما هي التي كانت تكذب على نفسها، وتكذب عليّ، دون أن تدري. أو ربما كنا كلانا صادقين ـ صادقين حتى الموت.

في زوايا الظلام أرى أضواءً تتفجر. في الغرفة المقفلة، تتسع أرضيات الغرف الوهاجة، وتترامى السجاجيد بزخارفها الفردوسية، وتنهض جدران متألقة، مزدانة بلوحات مجهولة. من أعماق الصمت يتصاعد اللغط شيئاً فشيئاً، وتمتلىء الغرف بالرجال والنساء، يدوسون الزخارف السجادية وكأنهم يراوحون بأقدامهم على أرض جنّة بعيدة. يتناقشون، ولكنهم لشدة الضوضاء، يكاد لا يسمع بعضهم بعضاً. ولا يهمهم ذلك. ومن زاوية قصيّة مظلمة، أو من خلال باب ينفتح فجأة، ينبثق وجهها ـ أراه ولا أراه، أعرف أنه وجهها، ولكنني في شك منه، إلى أن يعبر بحراً من الوجوه إليّ. هل الموتى يعودون، والأطياف تتجسّد؟ «كل شيء ممكن هنا.» هذا ما تقوله. صوتها واضح، فيه تلك الغنّة الغريبة التي تثيرني.

قلت: «بالنسبة إليك، كان كل شيء ممكناً ـ دائماً.»

نظرت في عينيها البراقتين، والكحل حولهما يجعلهما باتساع السماوات السبع. أكاد أرى نبضاً في شفتيها الريانتين وهي تضحك، وتقول: «ابق على ظنك هذا!» تتلفت حولها، وتردف: «أتعرف هؤلاء

الناس كلهم؟».

اتلفّت معها: «هؤلاء الناس؟ طبعاً أعرفهم. وإلا كيف أدعوهم إلى داري؟»

داري؟ هل هذه داري؟ وهم آخر، لا بأس.. أم لعلها فعلاً داري، وهؤلاء كلهم ضيوفي هذه الليلة؟ ولكنها لم تصدقني.

- «أنت غريب هنا، ولا تدري. ليس بين هؤلاء الناس من يعرفك. ما الذي يبقينا هنا، غريبِيْن بين الأغراب؟»

كانت تلك إحدى مقولاتها، تلجأ إليها كلما أرادت أن تخرج على العادات والأعراف.

فقلت: «ولكنهم يعرفونك أنت أيضاً. باستطاعتك أن تتجاهليهم، ولكنهم لن يتجاهلوك.»

- أمتأكد أنت؟

- فلنجرب اذن.

ومدّت يدها إلى يدي. أمسكت بها، وتلفتُّ حولي. لم ينتبه إلينا أحد. دنت مني، لامس نهداها صدري. فقلت: «لنخرج.» شعرت بوطأة الازدحام تشتد حولي، ويعلو الضجيج. شققت طريقاً بين الكثافة البشرية، وهي ورائي، أجرّها من يدها. كانت الردهة كبيرة، لا تنتهي. ودخان السكائر يعتمّ الجو، وأنا أشق طريقي، ويدها طرية، باردة في كفي. وبلغنا ردهة أخرى، أقل ازدحاماً. ومنها اسرعنا إلى الباب، فتحته، وعبرنا الحديقة إلى الشارع. كانت السيارات تملأ جانبي الطريق. قالت: «أين سيارتك؟»

- إنها في الكراج. أرجو ألا يكون أحد قد أوقف سيارته في المدخل خلفها.

انعطفنا نحوها. لا، لم تكن هناك سيارة في طريقها. دخلنا السيارة شغّلتها، وسرت بها إلى الوراء حتى الشارع. وقبل أن انطلق نظرت إلى داري. الباب مغلق، ومن ورائه يترامى إلينا اللغط كالصدى.

[٢]

يتراءى لي كل شيء حلماً أو كالسراب. لم يحصل ذلك قط. . لا. لم يحصل في أي وقت. هل أريد أن أقنع نفسي؟ أن أقنع الآخرين؟ هل أكذب؟ أحلم؟ أتوهم؟ يجب أن أحصر ذهني جيداً لكي أتذكر، وإذا أردت أن أكون واثقاً فيجب أن أمتطي جواداً وأسوح في هذا العالم. أن أسأل بلا توقف. أن أدق الأبواب والجدران، لعل أحداً يستطيع أن يخبرني بما حصل أو أن يقول لي بضع كلمات لعلها تنقذني.

كانت دماؤها تسيل من ذلك العنق الشفاف. البشرة أقرب إلى البلور. لا لم تكن هناك بشرة أبداً. كنت أرى الدماء الراكضة تحت الأبط حين ترفع ذراعها. كنت أراها تتموج في الصدر حين تصعد إلى القلب وحين تغادره. أما عند الفخذين فكنت أرى الدماء والحمم. أجد نفسي مسحوراً صامتاً أول الأمر، ثم مذعوراً، وأخيراً أتحول إلى ذئب: أريد أن أوقف الدماء. أن امتصها. لماذا حصلت الأشياء بهذا الشكل؟ أية قوة مجهولة تخطط وتدفع الأمور بهذا الاتجاه؟ لا أعرف أبداً كيف حصل ذلك.

الصراع يقص رأسي كالمنجل. يحصدني. وقوة غامضة ملعونة ترفعني مرة أخرى لكي أقف أمام الشفرة الحادة. وانزف. أحس الدماء حارة لاهبة. أحس بالعطش، أنادي، يموت صوتي قبل أن يصل إلى شفتي. أبذل جهداً كبيراً وأرفع صوتي. لكن أحس بذلك الثقل. أتوسل. . أغيب عن الوعي. . أشعر بالعطش، بالانهاك. أتمنى لحظة واحدة من الهواء، من القوة، وأصرخ. أحس صوتي يصطدم بجدران سميكة، أحسه يتراجع ثقيلاً متموجاً ثم يسقط كالحجارة: «يا الهي، لماذا تريدني أن أعاني، أن أحمل صليباً لا أقوى على حمله؟» أغيب. . تشتبك الصور، تتداخل. تهتز كل الأشياء. تتراكض «يا إلهي، هل أنا خاطىء إلى هذه الدرجة؟» ويندفع رأسي في ماء طيني مالح، يملكني شهيق مجنون. أرفس، أصرخ. لكن صوتي يموت، يتراجع إليّ مالحاً نفاذاً. وحين أعب

الهواء مرة أخرى أسمع من بعيد صوتاً واحداً غامضاً: «اعترف.. يجب أن تعترف.. أنت القاتل؟».

أنا القاتل؟ أنا المقتول.. المسبي.. الملعون. كنت أبحث عن اللذة. وصلت، ثملت، جننت. وفي وقت لاحق أصبحت أبحث عن الألم. عانيت كثيراً، تألمت، صرخت من الألم واللذة معاً، أما حين كانت تنظر إليّ بتلك الطريقة فكنت أصرخ:

«يجب أن تتوقفي.. يجب أن تتوقفي وإلا...»

وتغيم كل الأشياء والأشكال. في مرات كثيرة كانت تكتفي بأن تخفّض أهدابها، أن تتشاغل بالنظر إلى الأرض أو إلى اللوحات، وعند ذاك أحس بالهبوط. أتراجع.. أما إذا نظرت بتلك الطريقة التي نظرت بها إليّ أول مرة، فيجب أن أفعل شيئاً مجنوناً. كانت تعرف كل شيء، كانت تعرف تماماً. وتحاربني. ماذا أستطيع أن أفعل إزاء هذا الجنون؟ كنت أقول لنفسي: «انس.. لا تنظر.. لا تهتم.» فجأة أجد قوة أخرى تحارب إلى جانبي، تحرّضني. كنت مسلوباً ومندفعاً. كان شيء ما ينفجر، يتمطى كشيطان، يمد لي لساناً ساخراً إذا وجدني ساكتاً، ودون انتظار انقذف كالسهم، أحارب. ولشد ما حاربت وخسرت. حتى الخسارة كانت لذيذة معها. كنت أقامر بكل شيء من أجل أن ترضى، أن تضيء عيناها. خسارتي هي الشيء الوحيد الذي كان يرضيها.. وأخسر.. وأخسر. لا، لم أخسر مرة واحدة. كنت الرابح الوحيد. كنت أربح دون توقف: يدها وهي تشتعل حول عنقي. صدرها وهو يخفق بذلك الترنيم العجيب. بشرتها البيضاء المزروعة في ذاكرتي إلى الأبد. يجب أن أتوقف عن ذلك المشوار الأرعن. أريد قليلاً من الهواء، أريد قطرة من ماء.. أريدها.. لا.. لا أريدها..

قال صادق الرمحي آخر مرة التقينا:

ـ علاء.. يجب أن تتوقف، أن تترك هذه المرأة، لان استمرارك معناه أن تدمر كل شيء.

ـ وأي ضرر إذا تدمر كل شيء؟

ـ أنت لست جاداً!

وتطلع إليّ باستغراب، وسألني:

ـ هل أنت جاد؟

ـ وماذا لو كنت جاداً؟

قلت ذلك ونهضت. أتجهت إلى النافذة. فتحتها. تنفست بعمق. ملأت صدري بهواء الليل البارد. كنت أشعر بألم في صدري وبشيء من الضيق. لم أكن أريد لصادق أن يتدخل، وإذا اعتبرت أن أحاديثنا السابقة تتيح له مثل هذا الحق فلم أكن أتصور أنه يتخذ مثل هذا الموقف. جاءني صوته بعيداً غامضاً:

ـ يجب أن تكون عاقلاً يا علاء!

واقترب مني صوته. شعرت بالحرارة وكثافة الأشياء حولي:

ـ ثم، لم يبقَ أحد إلا وعرف.

تراجعت إلى الوراء. كنت أشير بيدي لصادق أن يكفّ. ارتميت على مقعد بعيد ووضعت يدي على جبهتي. شعرت بألم حاد في صدري. ربما ظهرت علامات المرض أو الألم على وجهي. ظل صادق من بعيد ينظر، أحسست بذلك من الصمت، ثم من حركة الكعب وهو يدور ليقترب.. وجاءني صوته وهو يتقدم:

ـ عمورية مليئة بالنساء. كل امرأة تتمنى لو تكون لك زوجة، أو عشيقة. ألا ترضيك إلا هذه المرأة؟

ـ كفى. لا أريد أن نستمر في هذا الموضوع!

ـ ولكن أنا الذي يريد!

ـ ماذا؟

ـ أن نبحث هذا الموضوع إلى نهايته وأن نصل إلى نتيجة!

لما رآني ابتسم بسخرية، قال بانفعال:

ـ أريد لهذه المسخرة أن تنتهي!

ـ لا أسمح لك أن تتكلم بهذه الطريقة.

ـ لا أنتظر أن تسمح لي. الموضوع أكبر من ذلك، وهو يعنيني ويعني الآخرين بنفس المقدار الذي يعنيك، يجب أن تعرف ذلك وأن تتصرف على أساس ذلك.

قلت وأنا أقف وانظر إليه بحدة:

ـ اسمع يا صادق. إذا كنت قد تساهلت في الماضي وسمحت للآخرين أن يخوضوا في هذا الموضوع، فابتداء من هذه اللحظة لن أسمح لأي إنسان أن يذكره، ولو بكلمة!

شعرت بمزيد من الألم والضيق. وبدا لي وجه صادق منفّراً كريهاً، أو كأني لا أعرفه أبداً. تابعت:

ـ ثم إن هذا الموضوع خاص، خاص جداً، ولا أدري لماذا يتدخل فيه الآخرون ويريدون أن يفرضوا أنفسهم أوصياء!

ـ يمكن أن تقول هذا الكلام لإنسان غيري يا علاء.

ـ ويمكن أن أقوله لك أيضاً!

تبادلنا الأدوار الآن. جلس صادق على مقعد في نهاية الغرفة، قريباً من طاولة الكتابة. كان يبتسم بسخرية ويهز رأسه، وبين فترة وأخرى ينظر إليّ. إنها المرة الأولى، أو ربما من المرات القليلة، التي نتحدث فيها بهذه الطريقة، ونصل إلى حالة من المجابهة. أكاد أحس الآن أن كل شيء يوشك أن ينتهي. بدأت علاقتي بصادق تضايقني. لا يمكن أن أتركهم يقررون مصيري، ان اتصرف على ضوء رغباتهم وأمزجتهم، أو أن يتصرفوا نيابة عني. ثم ماذا يعنيهم أن تكون لي علاقة بنجوى أم لا؟ ماذا يعرفون عن جحيمي معها؟ ألا يفاخرون بعلاقاتهم؟ إنهم حين يتحدثون عن ذلك يضعون مسافة من الوهم ويبدأون الحديث كالممثلين: يختارون الكلمات، الابتسامات، حتى الأكاذيب التي يريدون لها أن تعم، يختارونها بعناية. أما إذا أرادوا أن ينفوا خبراً أو علاقة فانهم يفعلون ذلك ليؤكدوا الخبر أو العلاقة، فمع كلمات النفي يرسلون تلك الابتسامات ـ والاشارات.. أو كلمات التهرب.. فقط ليؤكدوا علاقة من هذا النوع.

إنهم يفعلون ذلك بطريقة مسرحية بائسة. وبعد ذلك يرفعون أصواتهم المزكومة:

«علاء.. إفعل»، «علاء.. لا تفعل»، «يجب أن تكون عاقلاً وأميناً فلا تخرب بيوت الناس ولا تستغل الثقة التي وضعوها فيك.»

قلت لصادق وقد اشتعلت نجوى في ذاكرتي:

ـ هذه آخر مرة اسمح لانسان أن يتحدث معي في هذا الموضوع.

لما نظر إلّي بتلك الطريقة صرخت من الغيظ:

ـ ثم أنا الذي اختار هذه العلاقة وأتحمّل كامل المسؤولية. لا أريد أحداً يدافع عني، أو ينصحني كأب.

ـ ولكنك بهذه الطريقة تعرّض نفسك وتعرض نجوى وخلدون، وتعرض الآخرين، لمأساة. ألا ترى كل ذلك بعينك؟

ـ قلت لك: أنا اتحمل المسؤولية.

ـ وماذا عن الآخرين؟

ـ كل إنسان يتصرف حسب قناعاته ومزاجه.

ـ ولكنك تدفع الآخرين لكي يتصرفوا بحماقة.

وتغيرت نبرة صوته وهو يضيف:

ـ ألم تلاحظ ما حصل في السهرة الأخيرة؟ بعد أن شربت كأساً توهمت أنك أصبحت وحيداً في هذا الكون، وأن كل شيء ملكك ويمكن أن تتصرف كما يحلو لك، ودون أي اعتبار للزوج، للأصدقاء، لأي انسان من الموجودين...

وعاد إلى نبرته الأولى:

ـ يجب أن تعرف إذا كان خلدون حتى الآن صامتاً متسامحاً، فليس لأنه عاجز أو لا يعرف. لقد أصبح كل شيء مكشوفاً. ليس مكشوفاً فقط، أصبح مدعاة للاستفزاز والإثارة، ويمكن أن يؤدي إلى نتائج لا يعرفها إلا الله.

ـ صادق، مثلما قلت لك، هذا الموضوع خاص.. شخصي..

أتعرف معنى شخصي؟ ولا أريد أحداً أن يقول لي كلمة واحدة فيه.

امتلأت بالجنون دفعة واحدة. كنت أريدها في تلك الساعة، كنت أشتهيها. كنت أرى بريق العينين وتلك الابتسامة التي تخض الدم. فجأة وجدت نفسي أضع السترة على كتفي دون أن ألبسها، وأقول لصادق:

ـ لم أعد أحتمل.. يجب أن أخرج.

وخرجت. وظل صادق يراقب، ينظر، ولا يصدق.

[٣]

ذهبنا إلى «المجنونة». وهي التي أصرت على ذهابنا إلى«المجنونة». قالت: «ريثما نذهب إليها ونعود إلى دارك، يكون ضيوفك قد انتهوا من سهرتهم.»

ـ ولعلهم حينئذ يفتقدونني؟

ـ فليفتقدوك في تلك الساعة.

ـ ويتقولون. . .

ـ وليتقوّلوا. . ما نفع الحياة إذا لم يكن فيها تقولات، إذا لم أذب على صدرك، إذا لم أشعر أن البحر من تحت الدار يحسد نفسه على سماع أصواتنا من غرفتنا الصغيرة المقفلة. . .

اللمسة من يدها تزعزعني، هذه القاسية الماكرة، العاشقة عشق المخابيل، الطاهرة طهر الملائكة، الزنديقة زندقة الشياطين. تضع يدها على عيني وأنا أسوق فلا أعود سائقاً في مدينة أعرفها، بل فارساً تجمح به فرسه في غابات المجاهيل، في صحاري الجنة.

غير أن اللغط الذي ترامى إليّ من وراء باب داري بقي يطاردني. كنت أسمعهم كلهم يتحدثون، ويتضاحكون، وقطع الثلج تقرقع في كؤوسهم. ولكن من بين أصابعها الرخصة، العطرة، لا أرى إلا أشياء لا أعرفها، ولا أفهمها. وعندما انحدرنا إلى الساحل الصخري الذي تنهض عليه «المجنونة»، وخرجنا من السيارة، لم أكن واثقاً من أنني أنزل معها إلى الدار التي أعرفها. حتى خشيت أن مفتاحي ـ ونحن نعبر الممر الصخري الذي تكاد تضربه أمواج المدّ، لن يفتح باب «المجنونة». ولكنه فتحه. وعندما دخلنا، أخذت نجوى المفتاح من يدي، وأغلقت الباب وراءنا، وقفلته بنفسها.

«لا! لا تفتح الضوء!» قالت، وقفزت إلى المقعد المركبّ في النافذة المطلّة على البحر، ثم ركعت عليه، وقد أدارت ظهرها إليّ، وتأملت

الظلام الممتد إلى ما لا نهاية. «مسكين هذا البحر الطويل العريض... كل مياهه لا تحوي عشر معشار الهوج الذي في دمي... ودمك...» وقذفت بنفسها بين ذراعي، وفي لحظات، كانت عارية - «كالبحر، كالبحر» قلت، وأنا أتمرغ في جسدها. وقالت:

- لا مفرّ، لا مفرّ.

- نجوى، أعدنا مرة أخرى؟

- للمرة الأخيرة، علاء... لا مفرّ من موتي بين يديك... هيا اسرع، أخرج المسدس الذي وضعته لك في هذا المجرّ القريب.

ومدت يدها إلى المجرّ، وأخرجت المسدس. وقالت: «هنا! هنا!» وأشارت إلى عنقها الرائع، وقد رفعت عنه شعرها الطويل.

ومن على بعد أصبعين، أطلقت النار. واندهشت لحظة لشدة الصوت الذي سمعته يتردد عبر أصوات البحر.

لا، مستحيل! هذا ما كنت فعلته مرة فيما مضى. وبدفع منها هي بالذات... ولكن ذلك كان في سيارتها هي، عندما زعمت أنها تأخذني إلى بستانهم في الضاحية الشرقية من عمورية. دخلت بي من خلال بوابة عريضة مفتوحة، بين صفين من أشجار النخيل - وأذكر عثوق التمر وهي تتدلى من أعاليها، صفراء تتوهج، حين وقع عليها النور من مصباحَيْ السيارة. كان البيت في البستان مظلماً. وعندما أردت الخروج من السيارة، أوقفتني مكاني. «نسيت المفتاح،» قالت، وضحكت... ومدت يدها إلى المجر الأيمن من سيارتها، وأخرجت مسدساً. وقالت: «خذ! ضعه على الأرضية عند قدميك...» وحسبت أول الأمر أنها تخشى المفاجأة من غريب، وعندها قد اضطر إلى اشهار المسدس.

ولكنها قالت: «لا بد من موتي بين يديك... في سيارتي. لن يكتشف أحد الأمر. لأيام على الأقل...»

وملّختني بأظافرها. ولن أنسى كيف أنها كررت: «هنا، هنا، هنا...» مشيرة إلى عنقها الطويل، السامق، الذي لو مسّته ريشة عصفور لانجرح.

وقلت: «فليكن!» وأطلقت النار. وسقط رأسها البديع الشعر، على كتفي... وصحت: «لعبتك المرعبة هذه، متى تنتهي؟» حسبت أن الرصاصة خلّب، تلهو بها، كجزء من ساديتها، أو ماسوكيتها.

ولكن الدم كان يدفق عليّ، وأنا لا أفهم... وعليّ أن أعود إلى داري، إلى ضيوفي، إلى ألف شغل ينتظرني. وخطر لي خاطر مضحك: «ماذا سيقول صادق الرمحي الآن؟ وخلدون، هل سيجن ـ أم سيقول: اف! انتهينا والحمدلله!»

لا، لم يجن خلدون. لعله كان يعلم أن الأمور لم تقع على ذلك النحو... كما أعلم أنا الآن. لأن المكان الذي أطلقت فيه النار على نجوى لم يكن سيارتها ولا سيارتي. أراني أداور، كأنني أخشى الحقيقة. أخشى رعبها. لأن المكان كان غرفة ـ غرفةً ما، هذا لا شك فيه. ربما كانت الغرفة تطل من طابق عال على النهر ـ أو على مسبح؟ كان ذلك ـ بدأت الوقائع تتضح لي الآن ـ في «فندق السياحة». في المطلة، حيث تعودت في الصيف الماضي أن أقضي بعض أيام الخميس والجمعة في الكتابة، متقصداً الابتعاد عن عين فجار. وعرفت نجوى بمكان «اختفائي»، ولحقت بي... أو، لا، أنا الذي تلفنت لها، وأخبرتها برقم الغرفة التي نزلت بها في الفندق. في ذلك المساء بالذات، كانت معي في قاعة الطعام. كنا نتعشى على مائدة في ركن من المطعم، وليس فيه إلا بضعة آخرون بعيدون عنا. كانت تغافل الآخرين، وتستغل غياب النُّدُل في المطبخ، وتقبلني. فتثير فيّ شهوة ضارية. ولمحنا مرة أحد الندل وشفاهنا تلتقي، ولكنه ابتسم وابتعد. وليظن ما يريد! ألا يحق «للأزواج» أن يتغازلوا في غفلة من الناس؟ واستحق مني اكرامية جيدة عند نهاية العشاء، لأنه شغل نفسه عما نحن فيه.

وكانت في تلك الليلة في غرفتي.

ـ ألم يرك أحد تدخلين عليّ؟

ـ أبداً... اطفىء النور، أرجوك!

ـ ولكنني أريد أن أراك بكل فتنتك، وروعتك.

أطفأت النور بنفسها. ومن قرب النافذة، كانت تنظر إلى النهر. قفلت الباب، وشهوتي القاسية تعذّبني. ورحت أنزع عنها قميصها.

ولست أدري كيف ومن أين أخرجت ذلك المسدس اللعين ـ من حقيبة يدها، ولا شك ـ ووضعته في يدي، وهي تضحك، وتلهث، وتشير إلى عنقها اللذيذ، وتقول: «هنا، هنا...»

لماذا أجدني أقلب الأدوار، كلما تذكرت التفاصيل؟ لماذا لا أقول، كما قلت أول مرة، إنني أنا الذي استدرجتها ـ إلى المجنونة، إلى البستان، إلى الفندق، وفي نفسي غرض مبهم، غرض لم يتضح إلا بعد أن رأيت دمها يسيل من بين نهديها، تحت أبطها، وقطرات منه تنحدر بين فخذيها. أيّ قربان، لأي إله جميل غاشم، كنت أقدم، ثم وجدتني أزعم أنني أنا القربان، وأنها هي الإله الجميل الغاشم؟ ثم... ألم تكن هناك امرأة أخرى؟

مهلاً... ثمة تفاصيل نسيتها، فتخلخل الموضوع، وتخلخلت الذكرى. فلأحاول مرة ثانية، وبدقة أكبر.

[٤]

كنت خارجاً لتوي من المرض. كان مرضاً غامضاً طويلاً لم يستطع الأطباء أن يجدوا له تعليلاً أو دواءً ناجعاً، وأكثر الناس قرباً لي كانوا يشكّون بمرضي، ويعتبرون أن ما أشكو منه مجرد أعراض تصيب ذوي الحساسية المفرطة، وينظرون إلى الآلام التي أعاني منها بنوع من الشفقة المصطنعة، فالمشكلة الأساسية، كما يقولون، هي الفراغ والبطالة.

كنت أريد أن أؤكد خطأ الشكوك والظنون التي كانت تملأ رؤوس الذين حولي، وكنت أريد أن اتجاوز حالة من الغرق لا اعرف كيف وقعت فيها.

في إحدى مراحل المرض، خاصة الشهر الأخير، حين كنت ألقي نظرة على الطاولة الصغيرة بجانب السرير وأرى عليها عدداًيتزايد كل يوم من زجاجات الدواء، ولا انفك انظر الى الساعة لكي لا يفوتني وقت تناول واحد من هذه الأدوية الكثيرة المتراكمة، وجدت نفسي ذات يوم أنهض بشكل مفاجيء فافتح النافذة وألقي منها بعصبية الأدوية كلها. ألقيت بها إلى الحديقة، وصرخت أنادي على سعيد وأطلب منه ألا يذكر أمامي الدواء أو المرض أو أي أمر يمت إليهما بصلة. بدت الدهشة على وجه الرجل الذي لم يفارقني منذ وقت طويل، وكان لي مثل ظلي طوال هذه السنين، ويعتبر أن العلاقة بيننا تتجاوز القرابة والخدمة إلى نوع من الصلة الغامضة المتشابكة المليئة بالتناقض والفهم معاً. بدا الاستغراب وشيء من الاحتجاج في وجه سعيد، وكأنه لمس لديّ نوعاً من اليأس أو ربما رغبة في الانتحار. وحين أراد أن يوضح أو يحتج قلت له بحزم:

ـ منذ هذه اللحظة لن أتناول أي نوع من الدواء. لا تقل لي كلمة واحدة، كل ما أريده منك الآن هو أن تجمع الأدوية التي رميتها من النافذة، أن تجمعها وتدفنها أو تحرقها. المهم أن لا أراها مرة أخرى.

وتقدمت نحو النافذة وأشرت بعصبية:

ـ تلك هي، أحرقها، اتسمع؟

هز كتفيه دلالة التعجب وغادر الغرفة. عدت إلى سريري، وبعد قليل سمعت خطواته تحت النافذة.خيل إلّي اني سمعت صوته يتحدث إلى نفسه. كان يتكلم بطريقته الخاصة، إذ يكتفي بتلك الكلمات المختصرة الغامضة وبعض الأحيان بحكمة أو بيت من الشعر.

ظللت بعض الوقت اسمع حركته وهمهماته، ثم خيم الصمت. ومنذ تلك اللحظة انتابتني حالة من الصفاء لم أحس بمثلها من قبل، وسيطرت عليّ أفكار أقرب إلى الفرح والطفولة، فوجدت نفسي اتذكر أشياء بعيدة، حين كنت أتمرغ على الحشيش الناعم وأخوض في مياه النبع الصغير قرب أشجار الحور، وحين كنت أقف تحت المطر والقطرات الصغيرة تداعب وجهي وتخلق في جسدي رائحة من نوع معين. كيف بدأت هذه الحالة؟ إلى متى استمرت؟ لا أعرف، إذ ما كدت اسمع اصطفاق الباب حتى شعرت أني أعود من مكان بعيد. تركت سريري واتجهت إلى المطبخ. وقفت مستنداً إلى إطار الباب. تطلعت إلى الأشياء والأواني والجدران. بدت لي في ضوء الشمس، في ذلك اليوم الخريفي، وكأنها تضجّ بالفرح. وسعيد الذي بدا عليه الخوف وما يشبه الدهشة، وهو يراني أدخل عليه، لم يستطع أن يتفوه بكلمة واحدة، لكن وجهه، أكثر من أية مرة سابقة، كان يتكلم، ويبدو أن المفاجأة الأولى برمي الدواء، كانت لا تزال تسيطر عليه وتمنعه عن التصرف. والآن، وهو يراني أدخل، ازداد دهشة واستغراباً.

قلت وأنا اتقدم نحوه وأكشف غطاء القدر الصغير الذي كان يعدّ لي فيه طعامي الخاص كل يوم:

ـ لك أن ترمي بهذا الطعام إلى القطط والكلاب لأني منذ اليوم لن آكل منه!

رفع يديه الاثنتين باحتجاج. قلت وأنا اطفىء نار الطباخ:

ـ أنا الذي أقرر ما أريد أن آكل!

صرخ بعصبية:

- ولكن...

ولم أترك له فرصة لكي يتابع:

- منذ هذه اللحظة سآكل كل شيء ممنوع... اتسمع؟

ولكي لا أترك له مجالاً سألته:

- ماذا حضّرت لنفسك؟

لما بدأ يعترض ويتذرع بأنه لم يعدّ لنفسه شيئاً بعد، وأنه لا يجد في نفسه الشهية، قلت لأحسم الأمر:

- ستذهب وتحضّر لنا سمكة، وسوف نأكلها معاً!

بعد أن خرج سعيد وعدت إلى سريري كنت منهوك القوى وأشعر برغبة التقيؤ، لأن وقتاً طويلاً انقضى على الدواء الذي تعودت أن أتناوله قبل الأكل كل يوم، في محاولة لأن أثبت معدتي في مكانها فلا تخرج من حلقي.

إنني استعيد الآن هذه التفاصيل الصغيرة كلها لأؤكد حقيقة واحدة: الألم أقوى محرك في هذه الحياة، بوسعه أن يدمر الانسان بقدر ما بوسعه أن ينقذه.

لم اكتف برمي الدواء وتحدّي الطبيب، فقد تصرفت بعد ذلك تصرفات لا تقل حماقة، خاصة من حيث الأكل والسهر، ثم أرهاق نفسي بالكتابة. هل كنت أريد أن انتحر؟ هل كنت أختبر قواي ومقدرتي على التحمل أم كنت أنتقم من شيء ما؟

سعيد رفض أن يصدق ما يراه، واعتبر تصرفاتي مجرد نزوة طارئة، أو مثل نزوات كثيرة أرتكبتها سابقاً، مطمئناً إلى أن الندم سوف يعاودني فأتراجع وأسلك سلوك الطفل المذنب في طلب الصفح. غير أنه ازداد استغراباً وخوفاً وهو يراني ازداد تطرفاً في سلوكي.

أكاد لا أصدق هذا الذي حصل، وحين استعيده الآن أشعر بنوع

من الفخر والاستغراب وما يشبه الانكار. لكن الأمور التي حصلت بعد ذلك لا تقل غرابة، إذ مـا كادت الأيام الأولى تنقضي وأنا بين الحياة والموت، حتى ظن كل من يعرفني وسمع بطريقتي في مواجهة المرض، أني موشك على الموت. كنت أرى وجوه الأصدقاء والأقرباء راجية محزونة تريدني أن أتوقف عن هذا العناد لكي يتوقف الألم وأعود إلى حالة طبيعية، أو إلى حالة معقولة يمكن بعدها للدواء (للطب. . . للعلم) أن يفعل شيئاً. لكن كلما ازداد الحاح الأقرباء والأصدقاء، وكلما رأيت وجوههم الصفراء القلقة، ركبني جنّي آخر يحرضني دون توقف على التحدي، فأتحدى وأتألم وأفرح!

تلك الأيام الواقعة بين التوقف عن الدواء ومغادرة السرير، بلغت من الكثافة والتعقيد درجة يستحيل أن تعرف مثلها أيام أخرى. كانت طويلة حافلة بالألم اللذيذ، ذلك الألم الذي يصل حد الصراخ، وحافلة بساعات من الصفاء ترجعني إلى أيام الطفولة. كنت انتظر الألم بلهفة. كنت أحبه وأجد فيه جمالاً من نوع خاصّ. لم أشعر بالخوف لحظة واحدة. اتذكر أني في لحظات كثيرة كنت أصرخ بأعلى صوتي: سيأتي. . . سيأتي الآن. وسعيد الذي بدا مستغرباً منتظراً لم يفهم في المرات الأولى. لعله تصور أن هواجس من نوع ما سيطرت عليّ، وكنت تحت تأثيرها اضطر إلى الصراخ بتلك الطريقة، ولعله فسّر الحالة على أنها هذيان الحمى. كان يضع يده على جبيني ليتأكد من حرارتي، ويحضّر الخرق المبلولة بالخل ويجبرني على أن أضعها على جبيني، ولكنني انتزعها بقوة وأرمي بها بعيداً. وإذا ما تأكد من عقم محاولاته وتفسيراته، خاصة وأن نوبات الألم لم يكن يرافقها ارتفاع في درجة الحرارة، راح يتراكض حائراً ملوعاً لا يعرف كيف يساعدني ويحميني، وأنا أردد بفرح تلك الكلمات حول اللذة والانتظار والاتحاد، وابتسم، وربما تصدر عني اشارات جنسية. أما اسئلته بعد تلك النوبات فكانت تتسم بمقدار كبيرمن الحيرة والمواربة. نظر في عينيّ مرّة، وقال راجياً:

ـ يجب أن تقول لي كل شيء!

وحين هززت رأسي موافقاً تابع:

ـ قل لي... عندما تكون في تلك الحالة، هل تتألم أو يركبك شيطان؟

ضحكت ولم أجب. اعتبر سعيد موقفي تهرباً أو أني لا أتعامل معه بأمانة. اقترب من وجهي أكثر مما تعود أن يفعل. وقال بحدة:

ـ حيرتني، أريد أن أفهم ماذا يحل بك؟

ـ ......

ـ لولا القيء والصراخ لقلت إنك تكذب أو تمثل، لكني رأيت كل شيء بعينيّ هاتين!

هززت رأسي مرة أخرى موافقاً فتابع بحدة:

ـ هل كنت تتألم؟

ـ نعم ولا.

ـ لماذا كنت تضحك؟ لماذا كنت تتكلم بتلك الطريقة الشيطانية؟

ـ لا أعرف!

ـ ولكن كيف تشعر؟ أقصد هل تتألم؟ أين؟

ولما شرحت له كيف تبدأ الآلام وكيف تتحول، ثم كيف تنتشر اللذة في جميع أنحاء جسدي، قال بحدة وسخرية:

ـ انك تحيرني!

ـ ....

ـ أنا لا أفهم شيئاً أبداً، أصبحت حماراً.

لقد أدركت شيئاً فشيئاً أن أموراً أخرى تحصل مع النوبات المجنونة. إذ إضافة إلى القيء، ثم اصفرار الوجه، والارتجاف، فإن حالة من الصفاء الأبيض الأخاذ تسيطر عليّ في بعض الحالات، ترتسم على وجهي، ترافقها كلمات متألقة مليئة بالشعر لا أتوقف عن ترديدها، وسعيد يفتن بما أقول ويحفظه فوراً، ويؤكد أن ما أقوله لا يقوله أرقّ الشعراء. إلى أن جاءت

ساعات أصبحت فيها حالة الصفاء تسيطر عليّ تماماً وتمتد لفترة طويلة، حتى ان كثيراً من الأسباب التي دفعتني إلى المرض تبدو لي الآن نتيجة المرض ذاته!

لا يمكنني أن أفسر الأشياء برؤية واضحة، فالوهم جزء من حياة كل انسان، وربما كان الوهم هو الحياة كلها بالنسبة للكثيرين. فحالة العجز التي سيطرت عليّ بعد روايتي الثانية «النوارس» جعلتني أشعر أني فقدت القدرة على الكتابة، ولن استطيع بعد ذلك كتابة أي شيء. لم يكن ما أقوله الآن مجرد وهم، إذ أن المحاولات الكثيرة التي لجأت إليها، وعشرات الصفحات التي أهملتها، تقف دليلاً لا يمكن رده أو تجاوزه على حالة العجز التي سيطرت عليّ. هل كانت تلك الحالة سبباً في المرض؟ هل كنت أعيش في حالة من الوهم الكلي؟

لكن لماذا أخلط الأمور بهذه الطريقة الماكرة وأتهرب من الحقائق؟ هل أصبحت كتابة رواية بالنسبة لي أهم من الحياة ذاتها؟ والمرض، هل يمكن أن يكون تبريراً كافياً بالنسبة لي أو بالنسبة للآخرين فأختبىء وراءه؟ لقد كان المرض، ثم فترات الصفاء، طريقاً مضيئاً شديد البياض والوضوح... أريد أن استعيد بعض الصور أو الحالات التي كانت تسيطر عليّ. أنا مدين للمرض بالشيء الكثير، ومدين أيضاً لتلك اللحظات الخصبة التي داهمتني فجأة دونما أي تفسير.

إنني استبق الأمور، أضع الحواجز، أتخطاها، أعيش حالة من الوهم اللذيذ، احلم. وأتألم، ويعود إليّ الوهم.

عندما صدرت روايتي الثانية، لم يرض عنها النقاد كثيراً، وقالوا إنها ملأى بالغموض والتناقض، وادعوا أنها لا تمثل عمورية كما يعرفونها بقدر ما تمثل محاولات مؤلفها خلق مدينة لا يمكن أن توجد في رقعه معلومة من الأرض - وكلام كثير آخر قالوه لا علاقة له بالرواية. وشعرت أن «النوارس» بقيت تحلق فوق رؤوسهم. أما أنا فقررت أن أتحدى، أن أمدّ لساني لهذا الكون، أن أقول للناس: لديّ مئة رواية.. مئة أو أكثر قليلاً، وكل رواية لا علاقة لها بالأخرى. كل واحدة عالم حافل بالمتعة والخصوبة

والعجائب. إذا لم تستطيعوا أن تجدوا مكانها من عالمكم، فذلك ذنبكم... وضعت مئة عنوان. شطبت بعض العناوين. استبدلتها. غيرت في الأفكار، في البدايات والنهايات. غير أن كل شيء بالنسبة لي كان شديد الوضوح، حتى لكأني أراه بكل تفاصيله. لكن ما كدت أجلس إلى المنضدة وأبدأ الكتابة حتى انتابتني تلك الهواجس الملعونة: وجدت نفسي عاجزاً عن كتابة أي شيء... ثم سقطت مريضاً. وفي أثناء المرض، أو في الفترة التي تلته مباشرة، تغير كل شيء... وكتبت روايتي الثالثة «شجرة النار».

دعوني أحدد، رغم الصعوبة في التحديد. هل هذا نور ساطع يقضي على الرؤية، أم انه ظلام دامس عليّ أن أتحسس الأشياء من خلاله بحواسي الأخرى؟

[٥]

أن يمتلىء الرأس بالصور، شيء، وأن يفلح القلم في رسمها شيء آخر. كان همي أن أجعل قلمي متصلاً بالحركة المضطربة أبداً في دماغي، فيضطرب قلمي ويتحطم بين يديّ. فأعيد الكرة، مرة بعد أخرى. أنا أعلم تماماً أن عالمي الداخلي، حين أحاول صبه واضحاً على الورق، يختنق في عنق زجاجة: وهو عنق رفيع، ضيق. ولعل مرضي كان نوعاً من المحاولة لكسر هذا العنق، لكسر الزجاجة: وإذا العالم الداخلي يندلق حولي، وينغل كالنمل بتفاصيله في كل اتجاه، وأعجز عن لملمته. فانطلق بما لا يفهمه سعيد، وغير سعيد. واتصرف على نحو لا أستطيع حتى أنا تبريره، وان كنت أعرف أنه غني بمنطقه الخاص، هذا المنطق الذي ينكره عليّ الجميع. ينكره عليّ حتى صادق نفسه، وكنت أحسبه أقرب الناس إليّ.

ويوم رأيت شخصاً يقول إنه يرى المنطق الخفي في تصرفي، بل يراه واضحاً مضيئاً، غنياً عن أي تبرير ذهلت، طرت من الفرح. وخيل إليّ انني شفيت أخيراً من مرضي ولن يعاودني. وخُيِّل إلي انني عدت سوّياً، معافىً، قوياً، ولي معدة عملاقة تستطيع طحن الحصى، وهضم الصخور. وكان ذلك الشخص نجوى. وحدها نجوى العامري استطاعت ان تلملم شتات عالمي - بل عوالمي، واستطاعت أن تصنع منها ما يمكن أن يُرى ويُلمس ويُذاق ويُشم. وأخذ قلمي يجري في مسارات كنت أحلم بها ولا تتحقق - ولكنها مسارات كمسارات النجوم والأفلاك البعيدة - أرسمها خطوطاً لا يفهمها إلا من كان على علم مسبق بمثل هذه المسارات المتداخلة، المتقاطعة، التي تتحدد بكتل واندفاعات وطاقات، كلما أردت استيضاحها، ازددت توغلاً في ما يشبه الرياضيات المعقدة. ووحدها نجوى كانت على علم بهذه الرياضيات.

عشية مات أبي، دعاني إليه على غير عادته. وقدم لي كأساً من

العرق. لم يكن كثير الشرب، ولكنه كان في بعض الليالي ـ وبخاصة في الأشهر الأخيرة من حياته ـ يجلس وحده في الصالون، ويشرب حتى ساعة متأخرة. بعد موت أمي، لم يبق له من يهتم هو به، رغم وجود زوجته الأخرى التي كانت سرا مفضوحا نرفض في البيت أية إشارة صريحة إليه. وعشية موته، حين دعاني إليه، ووضع الثلج في كأس العرق التي قدمها إليَّ ـ وأنا لم أشرب، بل لم أدخن، في حضرته يوماً ـ افصح لي عما في دخيلته. «علاء، لم يبق لي شيء أتعلق به،» قال، وهو ينظر في عيني. خشيت عليه في تلك اللحظة، كأن يداً ستختطفه من أمامي، ولا أستطيع ردها عنه. وجدته جميلاً، نبيلاً، ولكن مهدّماً. وشهقت. أردت أن أقول له: «الحياة ما زالت كلها أمامك... ما زلت تضج بالرجولة...» أو ما أشبه ذلك. ولكنني لم استطع. انقطع نَفَسي في أسفل حنجرتي. وطفرت إلى عيني دموع لم أشأ له أن يراها. ولكنه رآها. وابتسم. أخذ جرعة من كأسه وقال: «كل الذين أحببتهم راحوا... إما أنهم ماتوا، أو قُتلوا، أو غابوا في السجون. لم يبق لحياتي طعم، أو نكهة، يا علاء، سوى طعم الحزن ونكهة الألم. وأنت كبرت الآن، وما عدت بحاجة إليّ، كأخيك صفاء... وأدهم وجد ما يشغله في حياته بعيداً عنا. وأنا ما عدت بحاجة إلى الحياة... اشرب، اشرب يا حبيبي، ولو جرعتين أمامي... لا، لست يائساً. لا تظن ذلك يا علاء. ولكن ألا ترى، أنه لم يبق لي ضرورة هنا؟ انتم في غنى عني، وكل الآخرين الذين أحببتهم ماتوا، أو قتلوا، أو غابوا في السجون. وما عدت احتمل التفكير في ذلك. وهذا العرق بات يخذلني. أشربه، ولا انتشي. ولا هو ينسيني... علاء: فلأشرب نخب صحتك، نخْب مستقبلك. أردتك مهندساً ـ ولكنك أصبحت كاتباً يتحدث الناس عنك. ما حلمت به من أجلك تحقق، والحمدلله. واعذرني إن كنت عاجزاً عن قراءة ما تكتب.

«مات والدي ولم يخلّف لي سوى ذلك البستان الصغير، في المطلّة ـ اتذكره؟ ولم يعلّمني إلا قراءة القرآن ـ أو بالأحرى، جزءاً منه. كيف استطعت أن أهيىء لكم كل هذا يا علاء؟ بأية حيلة، بأي مكر، بأي جهد عملت، وراكمت لك ولإخوتك ما أرجو أن تخلّفوه يوماً، وتخلفوه

مضاعفاً، لأولادكم؟ ولكن اخوتك تركوني، وانخرطوا في أعمالهم، وانشغلوا بأزواجهم. وبقيت أنت والصغيرة صبوة. وأنت لست بحاجة إليّ. جد لك امرأة ـ اجمل امرأة في عمورية. ولا تبخل عليها بشيء، إن كنت تحبها. . . لماذا تتكتم عليّ بما في قلبك يا علاء؟ لا بأس، لا بأس». امتلأت عيناه بالدموع، ورأيتها تسيل على خديه. وتناول سيكارة بيد مرتجفة وأشعلها. . . «لا، لم يبق لي من الحياة شيء اشتهيه، أو أتمتع به. . . ».

وفي الصباح التالي وجدته ميتاً في فراشه، وعلى شفتيه ابتسامة عجيبة، ودهشت لقوة ملامح وجهه، وقد عاد إليها شباب أصبح غير وارد، ووسامة سيواريها التراب. أية عبثية كانت تلك من الطبيعة؟ من الزمن؟ من الموت؟

ندّت مني صرخة حبيسة، ثم صرخة أخرى. وقبل أن ينتبه أهل البيت إلى الذي جرى، أغلقت الباب، ونوافذ الغرفة، وصرخت. صرخت عالياً، ووقعت على الأرض، وأنا ألهث. لقد شعرت كأن أحداً احبه وأوليته كل ثقتي قد خانني. كأن الحياة نفسها قد غرّرت بي، ثم ركلتني حيث أشد الألم. . وصممت في تلك اللحظة على أن اكتب عن ذلك كله. يجب أن أغوص في مياه الحب والألم والموت ـ لعلني أفهم.

ولكن ماذا أكتب؟ وعمن اكتب؟ في أعماقي هاويات لا أعرف طريقي بينها، ولا أعرف كيف أطلّ عليها، أو أتأمل فيها. فلأحاول، فلأجازف. ساعة رحلِ أبي، غدوت علاء جديداً. ومنذ تلك الساعة، حين ادركت انني قد قُذف بي في فضاء فسيح مجهول، فضاء تلتهب فيه النجوم وتتساقط الشهب، أحسست بحرية لعينة في جسدي، وفي عقلي، معاً. وكان يكفي أن ألقي نظرة على أية جريدة أو مجلة في اليوم التالي، لأدرك، بشأن الحرية، انني انما اخدع نفسي ـ أخدعها عن وعي، فلا بد لنفسي اذن من أن تتعلم كيف تجد الثغرات في الأسوار، كيف تكتشف المنسربات الجوفية ـ للنفاذ أفقياً، وعمودياً، وفي كل اتجاه، إلى الأجواء التي تتحمل حريتي. رفضت أن أكرر تجربة أبي. رفضت أن أسعى كالثور

كل يوم من الصبح حتى العشية، لأنتهي على قمة من الأرصدة المصرفية، أعلن من فوقها: «لم يبق لي من الحياة شيء اشتهيه، أو اتمتع به.» سأشتهي. سأتمتع. سأتألم. سأفعل كل شيء. وسأكتب، كل شيء.

لم تأت الأمور متصاعدة، أو بيسر. ولا سيما الكتابة. وكلما كتبت شيئاً، أدركت فيما بعد أنني لم أقل شيئاً. إذا أحببت امرأة، فأنا في مجابهة جسدية ونفسية حقيقية، استنفر فيها كل قدراتي على الملاحقة، واللذة، والاخلاص، واللامبالاة. وكلما توثقت علاقتي بالآخرين، فأنا أيضاً في غمرة حقيقية من التماس والتضاد، من الحب والكراهية. وكلما قمت بعمل، فأنا أتداخل في الأشياء وتتداخل هي بي على نحو أرى خطوطه الداخلية والخارجية بوضوح. ولكن كلما كتبت، وجدت أن الكلمات، رغم ارادتي، انما تتبع هواها الخاص، وتتركب في أنماطها الخاصة، لتقيم في النهاية انساقاً من المراوغة، من التضبيب والتعتيم. لا تجاه الآخرين فحسب بل ـ وهو الأمضّ ـ تجاه نفسي. لماذا، لماذا، أرى الكلمات دوماً تجعل من نفسها قناعاً، بل أقنعة؟ لماذا ينبغي عليّ أن أرضى بحوار يقوم بين مقنّعين، كأنما السعي نحو الجهر الحقيقي أمر مستحيل، كأنما كل كلام أكتبه هو جزء من مسرحية رديئة التأليف، رديئة الإخراج، رديئة الايصال؟ وأخذت أشعر فيما بعد أن الكلمات تلعب هذه اللعبة معي لا في الكتابة فقط ـ بل في التخاطب مع الناس أيضاً. . . ما هذا الرعب؟ هل أنا شبح بين أشباح؟ لعل علاقاتي مع الآخرين، التي كنت أتصورها حقيقية، ومتصلةً بجذور وجودي الانساني، ليست إلا علاقات بين ممثلين: على المسرح يعشقون ويتخاصمون ويتقاتلون، وحالما ينسدل الستار يذهب كل في شأنه، كلهم منفصل، وسائر وحده في درب موحش. هل كنت في بحث دائم عن انسان حقيقي، فاضلاً كان أم غير فاضل؟ ولأبدأ بنفسي. هل أنا انسان حقيقي؟ ألست ربما من خلق كاتب روائي قرأته يوماً ونسيته، ولكنه في أثناء ذلك صنعني كما يريد، وتركني شخصاً وهمياً يحاول جاهداً، يائساً، مصارعاً، أن يجسّد نفسه، أن يحقق هويّته، أن يقف على قارعة طريق مزدحم بالبشر، ليقذف عنه بكل ما عليه من ثياب، ويرفع صوته فيهم قائلاً: «انظروا! ها أنا عارٍ كما خلقني ربي، لا كما خلقني

روائي ماكر. وهذا جسدي، تعالوا المسوه بأيديكم لتصدقوا أنني حقيقي، حقيقي كهذا الجدار الذي اتكىء عليه...».

[٦]

كنت الأوسط بين أخويّ الاثنين. ظللتُ فترة طويلة أرفض الذهاب إلى المدرسة، وحين اضطررت إلى ذلك أخذت صحتي تعتل وبدأت أعاني من أمراض غامضة حار بها الأطباء وأصحاب العطارة وكتّاب التعاويذ، إذ ما أكاد أتعرض لحالة من حالات البرد أو أرتفاع الحرارة حتى أسقط وأضطر إلى ملازمة الفراش أياماً طويلة. وعندها تبدأ مجموعة من الأدوية والمقويات والنباتات والحجب تتراكم في البيت، وتبدأ أمي بممارسة الهوايات التي تحبها كثيراً: التمريض والحزن! فاذا جاء وقت الدواء وتمنّعت أو ترددت بدأت أمي، ثم بعد ذلك عمتي، بأساليب لا حصر لها باقناعي: أنواع من السكاكر، حبات من الفاكهة النادرة، وأخيراً القصص. كانت القصص وحدها هي التي تحملني على التسليم والموافقة، فتجلس أمي الساعات الطويلة على طرف السرير تحكي لي القصص. لا أزال أتذكر الكثير من تفاصيلها، اتذكر الكلمات ذاتها وكيف كانت تقولها، واتذكر أيضاً ألوان الأشياء حولي وملامحها حتى لأحسب انني قادر على استعادتها الآن.

ما تكاد أيام المرض تنتهي وتتأكد أمي أني أصبحت قادراً على الذهاب إلى المدرسة من جديد، حتى أبدأ بخلق عشرات المشاكل والأسباب لكي انقطع مرة أخرى، ولا تنتهي هذه الحالة إلا باتفاق واضح: أن تروي لي حكايات وقصصاً جديدة، ولا أقل من واحدة ترويها أثناء تناول طعام الفطور، وإذا وافقت على التأجيل كنت اتقاضى مقابله مضاعفاً وحتى أنام!

هذه الصورة البعيدة، والتي طالما تكررت بأشكال مختلفة، هي التي شكلت نمط الحياة التي عشتها في ذلك البيت الذي كان مفعماً بالغموض والخوف والانتظار، وكانت تُروى فيه أشياء كثيرة بهمس، بعد أن ينام الأطفال. لكن حدثاً وقع ذات يوم غير حياتي كلها، فقد اصرّ أبي وهو

يخرج ليغيب عنا فترة طويلة، أصرّ على أن يأخذ معه النركيلة العجمية المطعمة بالذهب، وهي النركيلة السلطانية كما كان يسميها، والتي يروق له أن يستعملها حين يكون في حالة خاصة، حين «يسلطن».

كان أبي صاحب كيف، كما يطلق على نفسه، وكان يعتبر أن من حقه أن يعيش ويتمتع بعد الركض والتعب، وحتى فترة متأخرة ظل يردد بسخرية: «ما معنى أن يجمع الانسان الثروة إذا كان لا يتمتع بها؟ هل أنا فزاعة خضرة أم حفار قبور؟» ولم يكن ينتظر جواباً، كان يتابع كأنه يخاطب نفسه: «حتى حفار القبور، بعد أن ينفض عن يديه وثيابه التراب ورائحة الموتى يلتفت إلى نعم الحياة، إلى ما خلق الله، يلتفت إلى الأكل والشراب. . .» ولا يكتفي بذلك، كان يحبّ أن يقول كلمة أخيرة، فإن كانت أمي أو إحدى اخواتي حاضرة كان يضيف: «نعم الحياة»، أما إذا لم يكنّ حاضرات فيتعمد أن يقول كلمة بالذات: «النساء». كان يقولها أمام أبنائه الذكور ويغمز بعينيه! وأمي التي تعرف كلمته تقول بصوت عال وكأنها تخاطب نفسها: «المال ورفقة السوء ونساء المدينة تخرّب بيوت الناس، وهي تخرّب الصبي، حتى في بطن أمه، قبل أن يولد، فكيف بهذا الابليس؟»

كانت أمي تفعل ذلك في وقت مبكر، وتضيف بحزن: «يوم كان فقيراً كانت كلمة الله لا تقع من فمه، كان يحب بيته وأهله، لكن بعد أن أعطاه الله صار زنديقاً، صار يشرب ويكفر ويهرب من البيت لا أدري إلى أين!»

بهذه الطريقة، ومن حيث لا أشعر اكتشفت خيطاً من الشك والخوف، لا أتذكر كيف أو متى، لكن حين أصر أبي على أخذ النركيلة السلطانية، وقد حصل الأمر في جو عاصف مليء بالتحدي والدموع، التحدي من أبي والدموع من أمي، وأدعت، أول الأمر، أنها لا تعرف مكانها، ثم لما رأت إصراره، قالت بنوع من التسليم:

ـ يمكن أن تأخذ كل شيء، ونحن لنا الله ولن نموت.

وبعد أن سقطت من عينيها دموع غزيرة قالت بيأس:

ـ خذها. . . خذها. إنها هناك.

وأشارت إلى بيت المؤونة. فلما اتجه إلى هناك، وكان مملوءاً بشعور الظفر، قالت تخاطب نفسها:

ـ ستخرب بيتك بيدك!

عندما عاد أبي بالنركيلة، وبدا قوياً متجبراً، وقد دخلت عمتي في تلك اللحظة، هدر صوت أمي مليئاً بالغيظ والكراهية:

ـ جهل الشيب عيب!

أحس أبي بالاهانـة، تملكه الغضب، وربمـا لوجـود عمتي أو لوجودي، صرخ في وجهي بانفعال:

ـ اذهب من وجهي!

لما خرجت حزيناً منـدهشاً، سمعتـه يقول بلهجـة أقرب إلى التوضيح، وربما كان يخاطب عمتي:

ـ مجنون من يتصور أن النركيلة تمسك رجلاً!

وبعد ذلك اختلط الجو تماماً، لكن صوت عمتي كـان أقوى الأصوات وأوضحها، ومع ذلك لم تتغير المواقف، فأبي حمل نركيلته وعباءته وبعض الحاجات الأخرى وترك البيت إلى المزرعة، وغاب فترة طويلة. وأمي كان يجب أن تبكي لهذا السبب أو لأسباب غيره، كما هي العادة، أغلب الأحيان، وعمتي لا بد أن تتولى التوضيح والتهدئة!

هذه القصة التي أرويها الآن وقعت، أو وقع شيء قريب منها، لأن أبي ضحك كثيراً حين رويتها له في وقت متأخر، وكنا نتحدث عن تدين امي الزائد وأغراقها في تلك الطرق الصوفية التي كانت تصرفها عن كل ما حولها، وتجعلها العوبة بأيدي الدجالين والمشعوذين. قال لي أن زواجه من العجمية قد تم بعد ذلك بسنين من هذه الحادثة، وأن رغبته في ذلك الوقت في أخذ النركيلة السلطانية لم تكن سوى رغبة رجل غني في أن يظهر بين أصدقائه بشكل متفوق، وأنه في نطاق البحث عن المتع كان يروق له أن

يدخّن بهذه النركيلة بالذات. وأمّي تؤكد العكس تماماً. أما عمتي التي تعرف كل شيء عن الماضي ولا تقول إلا القليل، فقد قالت كلاماً من نوع آخر:

ـ كان أبوك يحب أمك، لكن أهلها زوجوها لرجل آخر، وكان ذلك الرجل تاجراً غنياً، غير أنها لم تستطع البقاء معه أكثر من ستة أشهر، اضطر بعدها لأن يطلقها. وبعد مشاكل وتعقيدات تزوجت أباك. قاطعت أهلها وحاربتهم. كان أبوك فقيراً، لكن قوياً، ولما فتح الله عليه، بدل أن يشكر الله ويجازي أمك على التعب والفقر والعذاب بدأ... وأنت تعرف الباقي!

لم تكن النركيلة السلطانية اذن السبب الحقيقي في تلك العاصفة التي ألّمت بدارنا في ذلك الوقت المبكر. حتى زواج أبي، الذي ظل سرياً طوال سنة ونصف، ثم انكشف أمره بعد ذلك، جاراً معه الكثير من المنغّصات لم يكن السبب الوحيد في الشرخ الذي أصاب حياتنا وجعلنا دائماً خائفين وننتظر شيئاً ما. فعمتي كانت أيضاً سبباً بل وطرفاً في كثير من المشكلات التي حصلت فيما بعد، وإليها يمكن أن يعزى ذلك الجو الذي سيطر على حياتنا وجعلنا باستمرار شديدي التنبّه والحذر، أو بالأحرى جعلني أنا وحدي كذلك. لأن أخويّ واخواتي كانت لهم هموم وطريقة في الحياة تختلف عني كثيراً، وكانوا يقابلون، بعدم اهتمام، الصمت وحتى المرض الذي يسيطر عليّ حين أرى عمتي تمسك أمي وتهمس بأذنها شيئاً، تجهش أمي بعده بالبكاء.

الآن وقد انقضت سنوات طويلة منذ ذلك الوقت، أشعر أني لم أصبح مثل الآخرين. صحيح أني ذهبت إلى المدرسة مثل الآخرين، وحاولت أن أكون مثلهم في الحياة والسلوك، ولكنني أخفقت. الاخفاق ظِلٌّ آخر يلاحقني منذ اللحظة الأولى لولادتي. تقول عمتي أنها ظنتني ميتاً حين انقذفتُ من رحم أمي، فقد ظللت للحظات صامتاً، فلما ضربتني على خدّي بقوة صرخت وبدأت أعّب الهواء، لكن أثر الضربة ظل باقياً ورافقه نوع من العناد لا يطيقه الآخرون. ولذلك دبّ بيني وبين العالم

سوء تفاهم منذ وقت مبكر. لم أقصد ذلك ولم أخطط له، لكنه بدأ يتكون لا شعورياً، ولم أفطن لذلك إلا في وقت متأخر، واكتشفت أيضاً، بالصدفة، بعد أن ساءت علاقتي بالكثيرين، نتيجة كلمات قلتها أو تصرفات اضطررت إليها، بسبب أخطائهم وأكاذيبهم، أن رد فعلي تجاه ذلك يختلف عنهم.

لم يقتصر الأمر على ذلك، فقد كنت منذ الصغر، شديد الحساسية تجاه الظلم والقسوة، أياً كانت أسبابها ومن أي مصدر جاءا، وهذه الحساسية كانت تظهر في الاحتجاج والمقاطعة، وفي وقت لاحق محاولة منع ذلك، فلما عجزت أصبحت عصبي المزاج سريع الإثارة، وأي تصرف خاطىء قد يخرجني عن طوري ويجعلني إنساناً غير محتمل. كانوا يقولون إن الحياة ستعلمني، وأن المثالية التي تملأ رأسي لا بد أن تتراجع وتتلاشى ليمتلىء الرأس، بعد ذلك، بالأمور الواقعية، أو التي يمكن أن يقبلها المجتمع ويرضى عنها الآخرون، لكن شيئاً من هذا لم يحصل!

أضع الآن مسافة بيني وبين نفسي لكي اتحدث عن ذلك الكائن الآخر، والذي يخلق لي الكثير من المتاعب والهموم، بحياد. هل أتوهم؟ يجب أن أكون صادقاً وأقول إن ذلك البيت، على الرابية التي تطل على عمورية، وفي تلك الفترة بالذات، هو الذي أفسد حياتي، أو بكلمات أخرى هو الذي جعل لحياتي ذلك الطعم. فحزن أمي، ثم تلك الهلوسة التي تاهت فيها، وأخيراً النهاية التي انتهت إليها، تلاحقني حتى اليوم. وأبي الذي كان منذ البداية، وظل حتى الليلة الأخيرة، يتصور أن الحياة هي ما يمكن أن يفعله الانسان على هذه الأرض، وأن لا مكان آخر للانسان، ولذلك يجب عليه، في هذه الحياة، أن يعيش، أن يأكل ويتمتع ويغنّي ويبكي، وعليه أن يكون واقعياً لدرجة يرفض عندها الذهاب إلى مجالس الفاتحة أو زيارة القبور، وان يكون عاقلاً بحيث يتأكد أنه إذا انتهى هنا ينتهي إلى الأبد. . . هذا الشعور الواقعي الحاد بالأشياء، ورفضه للفلسفة التي تتحدث عنها أمي، ثم عمتي وما امتلأت به من هوس بالماضي البعيد، وما امتلأت به من روح قاسية أقرب إلى روح البشر

الضائعين الذين يمكن أن يفعلوا أي شيء دون أن يعرفوا لماذا، وما يحيط ذلك من التكتم والمداورة ـ كل تلك الأمور تظل مثل رقاص الساعة في حركة دائمة وتداخل لا يعرف التعب، تظل تلاحقني وتضغط عليّ حتى أصبح مسلوب الارادة، ضائعاً، فاقداً لكل رغبة أو حافز.

صحيح أن الأمر لم يحصل فجأة ولم يحصل بهذا الشكل الذي أرويه الآن، لكنه بدا مثل غيمة بعيدة، بدا مثل شبكة صياد ذكي وحريص. يوماً بعد آخر، حادثة بعد أخرى، أخذت الأمور هذا الشكل الذي يشبه الحصار.

لقد وقعت في الشبكة، وقفت تحت الغيمة المنهمرة، تلقيت الضربات، سمعت الصرخات المرعبة، رأيت حالات الجنون، رأيت القتل، رأيت الأنذال وهم يتجبرون ويثرون، حصل كل ذلك أمامي. رأيت كل ذلك. صرخت، أشرت بأصبعي، قلت إن النذالة والضمائر الميتة لا تنتصر، لكن كل شيء مرّ بصلابة البغايا وجبروت القتلة، وانتصب قانوناً أسود يقص ويقتل ويمنح الأوسمة. أصبت بالتعاسة والأرق، وانتابتني الآلام القاسية ثم المرض، ثم اكتسبت حالة من الحزن والشك لا تفارقني. كنت ولا أزال أرى العالم مقلوباً، واقفاً على رأسه. وكنت لا أزال أرى الصورة وظلها، حتى أني ما رأيت فرحاً إلا ورأيت إلى جانبه جثة لم تجد من يدفنها!

اتذكر صادق مرة، وكنا لا نزال ندرس في مانشستر، قال لي بطريقة قاسية، وكنا نستضيف في شقتنا الصغيرة فتاتين من النمسا، ونحاول، أو بالأحرى كان صادق يحاول، اقناعهما بالبقاء وقضاء الليلة معنا. في تلك اللحظات كنت احترق من الشهوة والرغبة والشعور بعدم الجدوى. قال لي صادق:

ـ يجب أن تنتزع عن وجهك القشرة الفلسفية البائسة، لأنك إذا ظللت هكذا فسوف يهرب منك حتى ظلك. تكلم، اضحك، افعل شيئاً لكي يصبح الجو مشجعاً، وتبقى هاتان الغزالتان!

كنت في أعماقي أريدهما، أريد الاثنتين معاً، وكنت أريدهما أن

تضحكا، أن ترقصا، أن تشتعلا، وفي نفس الوقت كنت مليئاً بالتعاسة وعدم الرغبة!

وفي صباح اليوم التالي، قال صادق وهو يرى تلك الغزالة الشقراء ترفع العباءة التي أضعها على كتفي وتندس تحتها بطريقة ماكرة وشديدة الإغراء:

ـ ألم يكف الصراخ؟ ألم يكف الشخير والنخير طوال الليل حتى تستفزنا الآن؟

قلت استفزه:

ـ أنت ترى، لا أزال أضع على وجهي تلك القشرة الفلسفية البائسة ولم أتفوه بكلمة!

رد بسخرية:

ـ أنت تعرف كيف تجعل الآخرين يحلمون، ولذلك فهذه القطة تحلم الآن!

هربت فتاة صادق بعد تلك الليلة، وحتى عندما اضطرت للعودة مع هيلدا، كانت تحرص على سلوك لا يشجعه على الاقتراب منها. ومثلما هربت فتاة صادق فعلت أنا الكثير من أجل أن أهرب من هيلدا. حتى هذه اللحظة لا أعرف لماذا، لكني فعلت بتصميم أخرق، رغم أني كنت اتحرق لها شوقاً وانتظرها بلهفة لا تحد، ورغم أنها فعلت الكثير من أجلي، وبكت وانتظرت. هل كنت أشعر بخطيئة من نوع ما زرعتها في اللاوعي مني قصص أمي وهي ترويها وتريدها أن تكون لنا عظة؟ وعمتي، أية مسؤولية وأي خطأ خلفتهما في نفسي وهي تروي تلك الأساطير عن السوالمة الأوائل؟ وأبي أية مسؤولية يتحمل حين خلفني على هذه الشاكلة؟

كنت أحار في تفسير أي الرجال أكون، إذ بمقدار ما أملك من أمي أملك من أبي ومن السوالمة الأوائل... وربما من أشخاص آخرين مجهولين!

تختلط الأمور في رأسي لدرجة لا أعرف عندها ماذا أريد أو ماذا

أقول. كنت أريد أن أتحدث عن أيام طفولتي، عن أيام قديمة، ليس لأن في هذه الطفولة أو تلك الأيام شيئاً خارقاً يستحق أن يروى، وإنما لأن وضوحها الحاد، والوقائع الكثيرة التي حصلت خلالها، جعلتها تبدو لي عملاً روائياً كاملاً، بل جميلاً مؤثراً. هذه القناعة هي التي ملأتني خلال فترة طويلة. ولأن الأمر بهذا الوضوح، ولأني استعدت الوقائع مرات ومرات، وأتعبت ذهني بترتيبها، ثم أدخلت عليها مقداراً من التمويه، لكي لا تبدو صور الأشخاص، خاصة الأحياء منهم، واضحة ومعروفة، بعد أن فعلت ذلك، وكنت متأكداً أن الأمر لا يتطلب سوى أن أجلس إلى منضدتي لكي أشرع بالكتابة، وخلال أسابيع قليلة سيكون لدّي رواية كبيرة تعج بالتفاصيل المهمة والكائنات الحية وأخيراً المغزى الكبير، لم استطع أن أقول شيئاً حقيقياً واحداً مما في نفسي.

ما كدت اشتري مستلزمات العمل، وهي كميات كبيرة من الأوراق الصقيلة، وعدد من أقلام الحبر الجاف، وأجلس وراء المنضدة التي جعلتها بمواجهة الشباك العريض، لكي أرى من خلاله الأشجار وزرقة السماء، حتى داهمني العجز. كتبت عشرات الأوراق، ومزقت عشرات الأوراق. بدأت عشرات البدايات لكن أياًمنها لم ترضني، اعتبرت العجز حالة طارئة متعلقة بالمزاج أو بالنوم القلق لليلة السابقة. اعتبرت الجو، خاصة في هذه الفترة من السنة، عاملاً سلبياً، ولا بد أن تتغير الأمور حالما يميل الطقس إلى البرودة، لكن البرد القاسي أصبح سبباً حقيقياً يمنعني من الجلوس وراء الطاولة ومحاولة الكتابة.

لا أريد أن استعيد الآن كل ما فعلته، لأن جزءاً كبيراً مما فعلت أقرب إلى تصرفات المجانين. فالساعات الطويلة التي قضيتها في الشوارع، هائماً على وجهي، غائباً عن الاحساس بضجة البشر وصراخ الباعة والأطفال، غير عابيء بالتعب أو الجوع، كانت هذه المشاوير تولد في نفسي الاضطراب والخوف بدل أن توحي ببداية من نوعٍ أرضى عنه. أما محاولاتي في تحبير بدايات شامخة بقراءة بعض الروايات التي طالعتها في فترات سابقة، فلم تكن إلا لتزيدني عجزاً وتجعل الأمر أكثر صعوبة.

إذا كانت تلك الأشياء التي مرت عليّ وكوّنت حياتي الماضية تبدو عند الكتابة بمثل هذه الصعوبة، فكيف إذا أردت أن أقيم عالماً من الوهم والخيال؟ كيف استطيع أن اخترع بشراً وأحداثاً، وأن أعطي لهؤلاء البشر أسماء وملامح، وأجعلهم يتكلمون ويفكرون ويحلمون، وأن أجعل الأحداث تعني موقفاً وتقدم فكرة؟

آه لشدّ ما ارتسمت في خيالي الحياة الماضية بتألقها، بجبروتها، بمصائبها، وكنت أنظر إلى نفسي بنوع من الزهو لأنني عشت كل ذلك، ولأنني عشت كل ذلك فليس أسهل من أن أقبض على القلم كما أقبض على سكين وأشرع في كتابة واحدة من أخطر الروايات وأعظمها.

لقد كانت اللعبة من السهولة بحيث لا تتطلب سوى أن أبدأ، لكن مع كل بداية، مع كل بضعة حروف سوداء، تنشقّ أمامي هوة تزداد اتساعاً ما دمت أحصر نفسي وأجبرها على الكتابة.

لعل ذلك كله لم يكن إلا نوعاً من الهلوسة أو خداع النفس، أو لعلني الآن ما زلت فريسة الهلوسة وخداع النفس، لأن أموراً كثيرة حصلت بشكل مختلف تماماً، وما حاولت قوله لا يعدو مجرد كونه بداية لرواية من نوع ما، أما الحقيقة فقد حصلت بشكل مختلف. دعوني أروي ما حصل، لأن هذا الذي حصل لا يحتاج إلى خيال روائي أو أوهام شاعر. لقد كان شديد الوضوح. رأيت جميع التفاصيل بدقة. لم أر فقط التفاصيل، بل كان لي دور فيها، وربما الدور الرئيسي، واكتشفت وعشت وعرفت، اكتشفت هذه الفتنة التي يسمونها الحياة، عشت اللذة والألم والرعب، وعرفت الكثير. لكن عن أي شيء أتحدث الآن؟ عن الحياة؟ لا، تمويه آخر أريد أن أوقعكم فيه. ما قصدت أن أحدثكم عنه هو نجوى. نجوى هي الماضي، وهي الحاضر، ولقلت أيضاً هي المستقبل لو كان لي بعد مستقبل.

ولتغفر لي ميادة هذا الكلام إلى الأبد!

[٧]

صفاء وأدهم: هذان هما أخواي؛ وأنا الأوسط بينهما. وأما سليم، توأم صفاء، فقد مات في طفولته قبل أن أولد. ثم هناك أخواتي الثلاث، ولا حاجة بي إلى ذكرهن. أو فلأذكرهن، لأتأكد من أن ذاكرتي، التي تبدو مشوشة في أمور كثيرة، ما زالت على سلامتها، بخصوص أفراد عائلتي على الأقل. لي اختان تكبراننا، هما عدويّة وماجدة، كلتاهما متزوجة، وذات أولاد. وأختي الصغرى، خاتمة العنقود، هي التي جاءت وأبي قد تخطّى الخمسين، وعلى غير توقع من أبي وأمي، فيما يبدو، فسمياها في ساعة من التجلي، صبوة. لقد تعلقت بها أكثر من تعلقي بأي من أخوتي كلهم، وأنا أكبرها بحوالي عشر سنوات. ولكنني لم أحب اسمها كثيراً، فجعلت أدعوها بـ «صبا» ـ فقد وجدتها طرية، ناعمة، سريعة الحركة، كريح الصبا. وعندما كبرت، شاء لها الله، كعادته في خواتم العناقيد، أن يجعلها أجمل من في العائلة، وربما اذكاهم قاطبة.

إذن، هؤلاء نحن، أو كنا: أبي نجيب سليم السلّوم، وأمي فاطمة جاسم الرعد، وعمتي نصرت، ثم: عدوّية وماجدة، وصفاء وأنا وأدهم، وصبوة ـ التي سأسميها من الآن فصاعداً بـ «صبا».

لم يخفَ علينا، عندما كبرت قليلاً، أن عمتي على حبنا لها، وحبها لنا، كانت بالنسبة إلى أمي مشكلة خاصة. يبدو أنها هي التي ساعدت أبي أول الأمر في الزواج من أمي: كان فيها ضرب من التطلع الاجتماعي إلى ما تحسبه هي «أعلى» منها، ولما علمت أن بامكان أبي أن يصاهر من هم أغنى منه، وأوسع نفوذاً، جعلت من نفسها الصلة بينه وبين فاطمة الرعد، وكان ذلك قبل أن يموت زوج عمتي في ظروف «غامضة» لم تكن تسهب فيها قط. وأنا لا أشك قطعاً أنها كانت فيما بعد سعيدة بموته، أو أنها على الأقل، لم تحزن كثيراً لفقدانه، مؤمّلة في زواج ثان من أحد أقارب فاطمة الرعد ـ ولكن «النذل» خذلها وبقيت في دار أبي تنتظر، عبثاً.

وبقدر ما كانت عمتي تظهر لأمي الحب، وقد كان في السنوات الأوائل حباً حقيقياً يمازجه إعجاب كثير، فانها عندما كبرت أنا، وبدأت ألحظ أشياء لا أفهمها بوضوح ولكنها تلفت نظري، تحول حبها إلى حسد وغيرة، ثم إلى كراهية خفية تطل برأسها القبيح في لحظات معينة، ولا سيما في غياب أمي. لم تكن تستطيع في البداية مجابهة أمي بشيء: صيحة واحدة من أم صفاء كانت كفيلة بأن تسكت العمة نصرت يوماً كاملاً. فلم يكن لها حينئذ إلا أن تلجأ إلى أساليبها التآمرية الصغيرة. لم يكن كافياً لها أن توغر صدور الأولاد على أمهم إذا استطاعت، ولو بشكل غير مباشر. فنجاحها الحقيقي كان لا بد له أن يتحقق، إذا تحقق أبداً، في منطقة الجنس الأشد ظلاماً. لقد كان نجاحها يدفع أبي في اتجاه لم يكن قد خطر له في البداية: دفعته إلى إهمال أمي بشكل أو بآخر، وإذا استطاعت أن تزوّجه من امرأة أخرى، فإنها لن تحجم عن ذلك - ولو أنها كانت تقسم أغلظ الأيمان في النكران حين تجابهها أمي بتلك التهمة، وتستعيذ بالله من شرّ ذلك. ولست أدري إن كانت أمي تعلم فعلاً بأن «المرأة الأخرى»، تلك «العجمية» التي تزوجها أبي سراً، كانت عمتي هي التي شجعته عليها. النركيلة والمرأة الأخرى - كانتا كلتاهما من خلق عمتي، تمتع نفسها عن طريقهما بتعذيب امرأة تنتمي إلى أسرة ربما كانت فيما مضى قد استخدمت أجداداً لأبي، وهذه الأسرة نفسها خذلتها فلم تهيىء لها الزوج الذي حلمت به طويلاً، دونما جدوى.

يجب أن أقول هنا، على الفور، إن الكثير من هذا قد لا يتعدى كونه وهماً من أوهامي. فأنا أرى عائلتنا متماسكة على نحو ما، وأراها في الوقت نفسه مفككة متهافتة. أرى عمتي حلوة مسكينة تستظل بكنف أبي، وأراها كذلك روحاً عاتية تدبر في الخفاء ما يزعـزع كيان الأسرة كلها. أرى أخوتي وأخواتي ثمرات حب، وثمرات كراهية، في آن معاً. يتباعدون عني مع الزمن، ويبقون على اتصال بي ليطمئنوا عليّ... إلا صبا. صبا وحدها بقيت قريبة، لصيقة بي، منذ البداية. وبقيت اهتم بشؤونها اهتمامي بشؤوني. عندما ذهبت إلى الدراسة إلى انكلترا، كانت هي في العاشرة أو ما يقاربها. وكان حنيني إليها هو الحنين الأكبر كلما فكرت بأهلي وأخوتي.

وبعد عشر سنوات أو أكثر بقليل، تزوجت صبا من شاب لا يمت لعائلتنا بأية صلة، اسمه نبيل الصالح، كانت قد تعرفت عليه في كلية الآداب التي درست فيها. كان الدكتور نبيل أحد المدرسين الشباب الذين يلذ لهم الاختلاط بالطلاب، والمساهمة في نشاطاتهم اللاصفية. كان أقرب إلى عمري، ولا أنكر أنني وجدته شاباً شديد الجاذبية، ولعله أوقع نصف بنات الكلية ـ على الأقل النصف الملتهب الخيال، المتعطش إلى الحب الرومانسي ـ في حبه. ولم أتردد في الموافقة حين جاء إليّ يخطبها، ولم يبق في دارنا سواي أنا وصبا، وعمتي العجوز التي كان يبدو أنها مصممة على أن تقبرنا جميعاً قبل أن تلقى في «مثواها الأخير».

ولست أدري بالضبط لماذا اشترطت على نبيل وصبا، إذا أرادا أن أبارك لهما زواجهما، أن يقيما في دارنا، قائلاً، إن الدار كبيرة، وان لها على الأقل مدخلين مستقلين، وان العروسين بحاجة في السنوات القليلة الأولى إلى اسعاف مادي، وتوفير من الراتب الشحيح، ريثما تستقيم أمورهما على نحو أرضى لهما به. نبيل، في واقع الأمر، من أب سوري الأصل استقر في عمورية في أوائل الثلاثينات، معلماً في إحدى المدارس الثانوية أول الأمر، إلى أن توفي وهو لم يحرز من الحياة سوى تعليم أبنائه في الكليات الجامعية، وإرسال نبيل لنيل الدكتوراه من جامعة عين شمس بالقاهرة.

أغلب الظن أنني أردت لنبيل وصبا أن يقيما معي في الدار، لا عوناً لهما فقط، بل خوفاً من الوحشة ـ وتعلقاً بأختي. لو كنت تزوجت أيامئذ، لربما جعلت نفسي في غنى عن عطفها وعنايتها بي. ولكنني ماطلت في الزواج زمناً طويلاً. أفسدتني حياة التلمذة في مانشستر، حيث وجدت صداقة النساء سهلة، ووجدت في التنويع فيهن تأكيداً على حريتي. كثيراً ما تذكرت قول أحدهم: «إنني اجتذب الكلاب والأطفال أينما ذهبت». يظهر أنني كنت اجتذب الكلاب والنساء. وكنت أعجب لذلك. فبينما كان الطالب العادي ينفق قرابة الألف جنيه في السنة، لم يكن لدّي إلا نصف ذلك المبلغ أو أقل. كان عليّ أن أدّبر أمري كيفما اتفق. وكنت بالفعل اجتذب الكلاب من كل نوع أيضاً، الأليف منها والمسعور. وفي

جسمي أكثر من ندبة لعضة شرسة! وأما النُّدب في نفسي، فلا أعدّها. فأنا كاتب. ومن يكتب تنشب في لحمه أشرس الأنياب. هذا غير الكلاب التي تنبح عليّ، على رسلها، ليل نهار.

من أين جاءت نجوى إذن؟

من أعماق الجحيم الملتهبة. من أعماق الشلالات الصاخبة. من نسمات تموز القائظة. من زوابع شباط الهادرة. من حناجر الملائكة إذا ضحكت، ومن حناجرها إذا بكت، أو ترنمت. ذات يوم جمعة أخرجتها أختي صبا من بين يديها الفارغتين، كما يخرج الساحر أرنباً من قبعته. دعتها إلى الغداء معها ومع زوجها نبيل. والتقيتها ساعة الغداء، على المائدة.

التقيتها كما ألتقي العديد من صديقات صبا، والعديد من الغرباء الذين يتحولون مع الزمن إلى معارف وأصدقاء. التقيتها قبل سنوات. ولن أدعي أنني وقعت في غرامها من أول نظرة. أبداً. راقت لي، جداً. حسبتها ذكية، نعم. وحسبتها جميلة أيضاً، نعم. ولكنها لم تكن كثيرة الكلام إلا مع صبا. كان خجلها، أو خفرها، من النوع التقليدي الذي سئمته في فتياتنا. أريد من الفتاة ألا تلعب دور الجاهلة الغريرة المسكينة عندما تلتقي الآخرين لأول مرة. فلتكن طبيعية. فلتسمح لضحكتها بأن تنطلق من حنجرة حرة سمحاء، لا تهاب الضحك. أبداً... فتياتنا عند أول لقاء، وثاني لقاء، وثالث لقاء، تخدش الهمسة آذانهن، والكلمة لا تخرج من بين شفاههن إلا بالكلاليب. وإذا هن بعد حين، ربات الصوت وربات الكلمات كلها... وهكذا كانت نجوى العامري.

ولكن الملعونة تركت في نفسي أثراً ما، ولحظت صبا ذلك، حين اكثرتُ من اسئلتي عنها. وحصيلة ما قالته إنها من زميلاتها أيام الدراسة في كلية الآداب. وأنها قرأت روايتي (الأولى، الرديئة، «وجوه في الظل») ولذّ لها أن تلتقي بي.. طيّب، اعزميها مرة أخرى.. فعزمتها. وكانت نجوى أكثر انطلاقاً في المرة الثانية. ولكنها اخبرتنا ـ والكلام لك يا صبا، واسمع يا علاء ـ أنها خطبت قبل أيام، وبعد مدة قصيرة جاءتنا أنا ونبيل دعوتان

لحضور عقد قران خلدون نجل عبد العظيم الثغراني على نجوى كريمة محسن سليمان العامري.

لا، لم أطر فرحاً لذلك. لبرهتين شعرت أنني خلصت من عبء علاقة كان يمكن أن تقوم بيني وبين نجوى تؤدي إلى زواج مضطرب ـ لا بسبب منها، بل مني أنا، المزاجي، الزئبقي. ولكنني بعد تينك البرهتين شعرت بالامتعاض، بل الغضب. لماذا استعجلت هذه الفتاة أمر خطبتها؟ ألم تشعر الغبية بأنني اهتممت بها؟ لماذا لم تتقرب مني أكثر مما فعلت في زيارتين اثنتين؟ وقلت لصبا: «صديقتك هذه سخيفة.»

ـ لأنها دعتك إلى عقد قرانها؟

ـ لا. لأنها لم تنتظر كلمة مني.

ـ علاء! لماذا لم تنطق؟

ـ لقد نطقت!

ـ تأخرت...

ـ هل من طريقة؟

ـ مستحيل، علاء! خلدون شاب طيب. ونجوى تحبه منذ زمن. ثم أنت...

ـ طيب، فهمنا. انتهى الموضوع.

انتهى الموضوع! اذكر هاتين الكلمتين بوضوح عجيب. قبل سنوات قلتهما، وما زالتا تترددان في ذهني. وكان عليّ أن أقول، لو دريت: الآن نبدأ.

هل كان الأمر فعلاً كذلك؟

لا، لا. لم يكن الأمر كذلك بالضبط... كان للقائي بنجوى علاقة بأختي صبا. وهي كانت إحدى صديقاتها أيام الكلية. صحيح. غير أن لقائي بنجوى بدأ بما يشبه الانفجار. ولما تزوجت...

فلأعد إلى الموضوع بشكل آخر. ذاكرتي تمكر بي، تتحايل عليّ. فلأتحايل عليها.

[٨]

كنا في سيارة. هذا اذكره جيداً. في سيارة نجوى، وهي تسوق. فتاة في أواسط العشرينات من عمرها. صديقة صبا. جاءت في سيارتها لتصطحب صبا إلى معرض فني أقامه رسام أعرفه - رسام كان قبل سنتين أو ثلاث قد تخرج من الأكاديمية التي أحاضر فيها عن تاريخ الفن. كانت سيارتي تحت التصليح. وصبا إذ جاءها عصر ذلك اليوم ضيف طارىء من دمشق، وجدت أنها لن تستطيع مرافقة نجوى إلى المعرض. هكذا القدر يحوك مؤامرته الصغيرة عليك وأنت لا تدري. فقد صمم القدر على شيء لا بد منه: التقائي بهذه الفتاة، وهي لا تدري بالمؤامرة ولا أنا أدري. عندما جاءت إلى بيتنا، خرجت إليها صبا تعتذر - وخرجت أنا اتساءل إن كان لها أن توصلني إلى المعرض. المهم: فجأة وجدت نفسي جالساً في سيارة بجانب فتاة غريبة، زعمت أنها رأتني مرتين أو ثلاثاً من قبل. والحق، انني بعد قليل أدركت أنني كنت رأيتها أنا أيضاً - مع صبا. ولكن لم يخطر لي أنها ستباغتني بهجوم مركز.

قالت: «لماذا تجعل نساءك من ورق؟»

قلت: «نعم؟»

- لماذا تجعل نساءك من ورق؟

- نسائي؟ أية نساء؟

- في روايتيك الاثنتين.

- آه، طمأنتني!

- تطمئن لأن نساءك من ورق؟

- نسائي . . .

- نعم؟

- والله لا أدري. ألسن من خلق مجتمعنا؟

- أي مجتمع؟

ـ مجتمعنا هذا.

ـ ستقول لي مجتمعنا المتغير، المتفجر... وتأتي المرأة بين يديك إمّا مسكينة عاجزة، أو قطعة من شوكولاته.

ـ وما الخطأ في الشوكولاته؟

ـ طيبة في أول عضتين أو ثلاث، ثم لا تستطيع إلا أن تبعدها عن شفتيك. وكلهن ورق يتمـزق. لا يصلح حتى للكتابة.

ـ اذن، انت لا تحبين رواياتي؟

ـ لا أحب بطلاتك. أرجو أن تلاحظ الفرق. هل يمثلن حقاً تجربتك مع المرأة، أم عدم تجربتك؟

نظرت إليها مندهشاً. ما هذا الاستجواب؟

وبأقصى ما استطعت من ضبط للأعصاب، واصطناع للكياسة، قلت مفتعلاً ضحكة صغيرة:

ـ هل تعرفين أنت شيئاً عن الرجل؟ أو عن تجربة الرجل مع المرأة؟

ودون أن تستدير نجوى، قالت وهي تركز على سياقتها: «لا تغير الموضوع. ولكن ـ ها قد وصلنا.»

عندما نزلنا من السيارة، خطر لي أنها ربما تريد أن تغادرني. غير أنها، بعد أن أقفلت السيارة، انضمت إليّ وقالت: «استاذ، هل تمانع في بقائي معك في المعرض؟»

ـ أبداً، أبداً.

في القاعة التقيت بأناس عديدين أعرفهم، فعرّفتهم عليها. والتقت هي بفتاتين تعرفها، فعرّفتني عليهما. لم نكد نرى اللوحات المعروضة، كالعادة، لكثرة من نصطدم بهم، فينصرفون إلى أحاديث لا علاقة لها بأعمال الفنان المسكين الذي قد حَدَّ سمعَه طوال أسابيع تهيؤه للمعرض لسماع كلمتي إطراء من هذا، وكلمتي ثناء من تلك. ولكن اللوحات لم تثر رفيقتي في شيء. وكانت خيبتي في القليل الذي رأيت أكثر من واضحة، وخشيت أن ألقى الفنان في ركن من القاعة ـ وقد رأيته يدافع

عن فنه مع جماعة من الطلبة ـ فتعمدت الخروج قبل أن يراني. وقالت نجوى: «هل أوصلك إلى البيت؟»

قلت: «إن كنت لا تمانعين.»

وفي السيارة قالت: «لماذا يكررون أنفسهم إلى ما لا نهاية ـ هؤلاء الفنانون؟»

ـ القحط، يا نجوى. إنه القحط. قطرة يتيمة من الماء تبدو لهم وكأنها سيل عارم.

ـ هل هناك سيل عارم في مكان ما من عمورية؟

قررت عندها أن أجابه بحدة هذه الفتاة «المتشاطرة» أكثر مما يبرر عمرها. قلت: «يتوقف الأمر عليك. السيل العارم لا بد موجود، ولكن السؤال هو: هل تريدين أن تشربي، أم أن تسبحي، أم أن... تغرقي؟»

فأدارت وجهها كاملاً نحوي، وكانت السيارة قد توقفت لشدة الازدحام، وقالت ضاحكة: «استاذ علاء. أنا لا أسبح، أنا أغرق.»

ـ عن صُدْفة، أم اختيار؟
ـ عن اختيار، طبعاً.
ـ اذن، سنبحث معاً عن الطوفان. وسنبدأ غداً مساء. أين ألقاكِ؟
ـ آسفة. أنا مخطوبة.
ـ اذن ركزّي على السياقة، واكتفي بالـ...

ولم أكمل. غير أنها ضحكت مرة أخرى، وركزت عينيها (رأيت بريقهما، في داخل السيارة المظلمة، كلمعة البرق) في عيني، وقالت: «قلها: اكتفي بالقطرات اليتيمة...» وبدرت مني ضحكة صغيرة حاقدة إذ قلت: «بالضبط!»

ـ أهذا كل ما استحق؟

وفجأة أحسست برغبة عنيفة في غرز أصابعي في ذراعيها، في إلقائها على ظهرها والسقوط بفمي على شفتيها حتى تختنق أنفاسها على شفتي لذةً،

أو كراهية. ولم أقل شيئاً. ولكنها أكملت: «ومن قال إن الطوفان سيسلم نفسه ليديك؟»

لم أجب. كان الاستمرار بالكلام مستحيلاً. إمّا أن اندفع بحركة غير لائقة، أو اسمّر نفسي في المقعد، وأقص لساني. وقد أدركتِ هي ما أنا فيه من الاحتدام، ولا شك. خيل إليّ أن خدها احمّر ثم ابيضّ - ولو أنني لم أنظر إليها طويلاً. وقلت لها: «نجوى، أرجوك أن تنزليني هنا.»

- ولكن بيتكم بعيد.

- أرجوك، لا أريد العودة إلى البيت. عندي من أراه هنا...

ونزلت إلى رصيف يعجّ بالبشر، وليس فيهم واحد أريد أن أراه.

استمررتُ في السير بين الناس. توقفت عند بائعي المرطّبات وشربت بارداً. تصفحت كتباً ملقاة على مداخل المكتبات، وأشتريت كتابين. بلغت الجسر. تمشيت على جانبه أرقب تراقص الأضواء في مياه النهر. بدا الجبل بعيداً، وقد رشقت عليه حفنة من نجوم تتلألأ. وبقيت نجوى تشدني من عنقي إلى حيث لا أدري. استقللت سيارة أجرة، وذهبت إلى بيت صادق.

ومرت ثلاثة أيام أو أربعة لم أر فيها نجوى. ولكن هل الرؤية بالعين هي كل شيء؟ ليتها كانت! ما الذي عذبني، ويعذبني، ولسوف يلاحقني إلى الأبد، إلا تلك الرؤية الداخلية الهائلة، المريعة، اللذيذة، التي تقتادني في قفار لا معالم فيها، في أقاليم لا تخوم لها، في أحاسيس ليس ما يشبه عنفها إلا الزلزال والموت؟

وإذا رسالتان تصلان معاً - بدا لي من خطهما ونوع غلافيهما أنهما من مرسل واحد.

وهكذا كانتا: من مرسلة واحدة. تأخر البريد بأحداهما، وأسرع بالأخرى، فوصلتا في صباح واحد معاً.

[٩]

عزيزي الاستاذ علاء الدين نجيب،

أرجو ألا تدهشك هذه الرسالة. ستعرف قبل البدء بقراءتها من هي صاحبتها، فيضعك ذلك في حالة ذهنية مسبقة: هل ستكون حالة عداء، أم تهجم، أم استخفاف؟ ما يهمني هو ألا تندهش لأنني أكتب إليك هكذا، من الباب إلى الطاقة، كما يقولون. بل أن تعتبر الأمر طبيعياً ـ كأنه امتداد للحديث الذي أوقفته أنت فجأة، وهربت. أجل، هربت. جعلتني أوقف السيارة في مكان مزدحم يكاد يستحيل الوقوف فيه، ونزلت دون أن تؤشر لي بيدك من على الرصيف ولو إشارة خفيفة توحي بأنني كنت أكثر من سائق تكسي لديك. أقول «كنت» ـ لأنني ربما في هذه الأثناء قد أصبحت لديك شيئاً آخر بالمرة. فتاة «جسورة؟» سليطة؟ سأترك الكلمة الصحيحة لك. أنا، كما ترى، أنا. عدت إلى روايتك الأخيرة «النوارس» حالما وصلت إلى البيت. وأعدت قراءة الكثير منها بسرعة. وتوقفت عند بعض الصفحات، لأرى، هل أذنبت معك فيما قلت لك عن بطلاتك. فشعرت أنني، ربما، ربما، لم أصب تماماً فيما قلت. أترى كم منصفة أنا؟ وقلت اذن، سأكتب إليك رسالة. ألستَ معتاداً على تسلّم الرسائل من المعجبين والمعجبات؟ ولكن، كما ترى، أنا لا أكتب كمعجبة. أرجوك أن تنتبه إلى ذلك. أنا أكتب كمناقشة، كمتسائلة، كمطالبة. وأكتب بشيء من الغضب ـ فلا تنخدع بلغتي الدمثة هذه ـ لأنك تركتني في وسط الشارع وأدرت لي ظهرك، وأنا بعد لم أقل شيئاً حقيقياً. كان بإمكاني أن أقول إنك في وادٍ، والمرأة في واد. كان بامكاني أن أقول إن تجربتك السياسية شوهت عواطفك، ولم تبلغ بك ما تريد. كان بإمكاني أن أقول إن العلاقات الانسانية في روايتك مزيج من

اضطهاد متبادل، وأن الحب لم يتخطَّ عندك حدود الحلم ليقع على صخور العنف والمشيئة الخارقة. ولكنني لن أقول شيئاً من هذا، حتى الآن. فأنا لن أنكر، عندما عدت إلى «النوارس» أنني وجدت نفسي أنزلق في مزالق عذبة، لذيذة، وأن بعض أشخاصك وهبوني من عزائمهم عزيمة غريبة تنهض بي على قدمي وتعطيني ثقة في عضلاتي الذهنية، أو الروحية، أو. . . ما هي الكلمة «الميتافيزيقية» التي تصلح للغرض هنا؟ وكان هذا شفيعاً كافياً. ولبضع ثوان، وقعت في ذلك الخطأ الذي تقعِ فيه الكثيرات من النساء: توحّدتُ أنا مع سُها، جميلتك، وتوحدتَ أنت مع عمّار، ضحيتها. ولكنني هززت رأسي، وزجرت نفسي، لأرفض هذا الوهم الذي هو بالضبط ما تريده أنت لقارئك. وعاد إليّ الغضب لأنك أدرت لي ظهرك، وقطعت النقاش. حتى في «النوارس»، رأيتك تقطع المجابهة، بشكل ما. فكيف لا يسقط بطلك ضحيةً رغم كفاحه، وحبه، وعطائه؟ وتساءلت: هل أريد اذن أن تكون سُها هي الضحية، ويبقى عمار منتصراً ـ ذلك الانتصار الزائف الذي لا يوجد إلا في أفلام الكاوبوي؟ وتساءلت مرة أخرى: ترى هَل أنت بالذات، أنت الذي أوجدت عمار، هل أنت ضحية من نوع ما؟ ضحية امرأة؟ لا أظن. سُها ليست حقيقية. إنها كناية، كما كان يقول لنا أستاذ الأدب. لقد وضعتَ في كتابك إنساناً حقيقياً إزاء إنسان غير حقيقي: وضعت جسداً وروحاً إزاء فكرة، إزاء رمز، سميته سُها. ولم تقل لنا بالتحديد، ما وراء هذه الفكرة ـ وما وراء هذا الرمز. امرأة، فقط؟ قطعاً، لا! على كل، امرأتك، اقصد بطلتك، لم تكن كلها شوكولاته. لم تذب كلها بين شفتيّ. ولا أنكر، انها في النهاية تركت في الحلق ما يشبه المرارة، أو حرقة الفلفل الأسود. . . وتذكرتُ أنني عندما كنت طفلة، اذا فعلت أو قلت شيئاً تعتبره أمي نابياً، ملأت فمي بالفلفل قصاصاً. ومع ذلك، لم تكن سها بالنسبة لي حقيقية. فكيف لو جعلتها فعلاً حقيقية؟ أي فلفل لكنت حرقت به حلوقنا جميعاً؟

عزيزي الأستاذ علاء الدين، هذه الأسطر كلها فقرة واحدة؟ . . . سوف تتهمني بأنني لا أستطيع أن أسلسل أفكاري، فأضعها في فقرات يأخذ بعضها برقاب بعض، كما كان يقول أيضاً ذلك الأستاذ. طبعاً، لا أستطيع أن أسلسل أفكاري، بعد الذي حدث مساء اليوم. الساعة الآن تقارب الواحدة بعد منتصف الليل. وغضبي جعل يغادرني. ولم يبق لي إلا أن أقول: مزّق أو أحرق هذه الرسالة إن شئت، وتصبح على خير.

نجوى العامري

عزيزي الأستاذ علاء الدين،

هذا الصباح استعجلت، وأرسلت إليك الرسالة التي كتبتها الليلة الماضية، وشعرت بأنني حسناً فعلت، أولاً بكتابة ما كتبت، وثانياً، بالاسراع بإبراد ما كتبت. غير أنني وجدت نفسي طيلة النهار مسكونة بما فعلت، أفكر فيه، في كلماتي، فيك أنت، فيما قد تقوله أو تكتبه ـ إن كتبت أبداً ـ جواباً على رسالتي. ووجدت أنني لم «افشّ غلّي» بقدر ما كشفتُ عن زيادة ردة الفعل لديّ عما ينبغي. وخطر لي، لماذا لا أتصل بك هاتفياً، وأقول ما أريد، وأفضّ الأمر؟ ولكنني رفضت هذا الخاطر. لأن ما أقوله كتابة أوضح كثيراً، بالنسبة لّي، مما أقوله شفهياً. ثم أنا لا أريد محاججة منك، أو جدلاً معك. كما أن من يقطع النقاش مواجهة، قد يقطع المكالمة هاتفياً، فأين أكون حينئذ؟ وبما أنك تكون قد تسلمت رسالة هذا الصباح في يوم أو يومين، أريد لهذه الرسالة أن تأتي لاحقة عليها. ومن يدري، لعلك تستلم الرسالتين معاً، وبريدنا المحلي لم يدَّعِ يوماً المبالغة في سرعة الايصال. ولا أظنّ أنك حال قراءتـك الأولى، ستجلس إلى منضدتك وتقذفني بجوابٍ سريع ـ مفحم، وطويل. فأنت بصفتك كاتباً، تتروى قبل أن تُحمِّل الورقة شيئاً من فكرك ـ وقد تتروى طويلاً: أم أنني مخطئة؟ أنت تكتب، فيما أظن، وعينك على جمهور

سيقرأك ويصغي إليك أجيالاً متلاحقة، ولذا فإنك تأخذ الحذر، وتحسب للكتابة حسابات لا تهمني. أما أنا، فأكتب كما أتكلم. أخط الكلمة الأولى التي تخطر ببالي، لأن الديمومة لا تدخل يوماً في حساباتي. ولذا لا يهمني أبداً إن أنا شطحت، أو أخطأت، أو لم أحسن الأسلوب. الذي يهمني هو أن أقول في ساعتي هذه، ما يجول بخاطري في ساعتي هذه. ولكن، كما ترى، قد أغيّر رأيي - كما غيّرت رأيي عشر مرات منذ أن كتبت رسالة البارحة. ولذا تراني أسرع لأخبرك بأن عليك أن تهمل تلك الرسالة. وألا تجيبني عليها. إلا إذا وجدت أنك - لا! هذه لعبة لا ألعبها، ولا أريد أن ألعبها. بل لا أعرف كيف ألعبها. ما الذي يعطيني الحق فيها أصلاً؟ ما الذي يجيز لي أن أكتب عن سُها ما كتبت، أو عن عمار، أو عنك انت بالذات؟ ما الذي ستظن بي، إلى أن تتسلم هذه الرسالة إذا كنت قد قلت عني «جسورة»، أو «سليطة» - فسوف تقول الآن: «ونزقة أيضاً.» ولن أحاول رد التهمة عني. بل اسمح لي بأن أذكرّك بالحادثة الصغيرة في الفصل الثالث من «النوارس» - فأنت الذي كتبتها، أو اخترعتها، لا أنا. حادثة نهى، أخت سها (لماذا تجعل الأسماء أشبه بالقوافي في قصيدة عصماء؟)، حين ذهبت بسيارتها إلى الحديقة المجاورة لبيت عمار عند مغيب الشمس، لعلمها بأن من عادته أن يتمشى في اتجاهها كل مساء كرياضة يومية، وفاجأته بالقول: أنصحك بأن تترك سها وشأنها، لا لمصلحتها، بل لمصلحتك - أو شيء من هذا القبيل. (أرجو المغفرة عن تلخيص صفحاتك الكثيرة الرائعة إلى سطرين فجين.) وعندما يغضب عمار لهذا التدخل من الأخت، تقول له: أنا مسافرة غداً مع زوجي إلى فرنسا لثلاث سنوات أو أربع. ولا مصلحة لي أنا في هذا الأمر. ولا يدفعني إلى هذا اللقاء معك إلا، خوفي عليك. وتعود نهى إلى سيارتها، وتنطلق بها، لتترك المسكين في حيرة من الموضوع كله. . . غير أنك استمررت بالرواية، لتجعل من ذلك اللقاء نذيراً لم يأخذ به عمار. وصار الذي صار. . . أذكرّك بهذه الحادثة الصغيرة

(طبعاً، سيقول أكثر قرائك إن أموراً كهذه لا تقع في عمورية، وإن علاء الدين نجيب إنما يوقعنا في هذه الأوهام بقدرته الأسلوبية في التحليل والسرد والحوار، إلخ، إلخ) ـ اذكّرك بها، وكأنني الآن ألعب دور نهى، وبرسالتي هذه أترصد لك في الطريق لأسلمها لك. لا مصلحة لي أنا في الأمر، كما تعلم. بعد أسبوعين اثنين سأتزوج، واذهب مع زوجي إلى القاهرة. ولا أنا في الواقع أخشى عليك ـ بقدر ما تجدني لست أخشى على نفسي. لي ثقة عميقة بأن فطنتك لن تخونك، ولن تخون امرأة تأتمنك على خاطر خطر لها، فرأت لسبب ما أن من الضروري لها أن تطلعك عليه. فهل ستقول، بعد هذا كله، إنني نزقة؟ على الأرجح، لا. . إذن ما الذي ستقول؟ الأفضل لا شيء، لا شيء أبداً. على كل، فأنا لن أعرف. ولا أريد أن أعرف. وأنا الآن هي التي تقول لك: أستاذ، قف بسيارتك هنا، لأنني سأنزل. لي مشاغل أخرى. وألف شكر على التوصيلة. وعندما أتركك، لا تنظر من مقعدك إليّ وأنا أسرع على الرصيف ـ فأنت لن تعرف إلى أين سأذهب. ولن تسمعني أقول لك: «وأنا أيضاً لا أعرف.» أليس ذلك ما تود لو تسمعني أقوله؟

نجوى

ملاحظة: آسفة! نسيت مرة أخرى أن أسلسل أفكاري في فقرات!

وبعد أيام قليلة جاءتني رسالة أخرى:

عزيزي الأستاذ علاء الدين،

هذه رسالتي الثالثة ـ والأخيرة. مضى أسبوع على الأولى. وقد فكرت أكثر من مرة بالاتصال بصبا أو زيارتها، عسى أن أراك. كالمجرم الذي يتحرق إلى زيارة مكان جريمته. ولكنني أحجمت. أو بالأحرى، كبحت نفسي. لا أريد أن أراك إلا بعد أن يكون أثر الرسالتين الماضيتين قد تلاشى أو كاد، وتكون أنت قد نسيت ما قلته أنا بالضبط، فلا تثير عندئذ معي أمراً يتصل بهما. بعد أيام معدودة

سأسافر وسأغيب عن عمورية شهراً على الأقل. مما يساعدنا كلينا في قبر خلافنا إلى غير رجعة. لا تضحك، من فضلك، على كلمة «خلافنا». ستقول: هل بيننا خلاف؟ وحول ماذا، بالضبط؟ أي ماكرةٍ أنا! أثير خلافاً، ثم أدعي أن لا خلاف بيننا.. ثمة خلاف شديد بيني وبينك، أصبح الآن خلافاً بيني وبين نفسي، وأرجو أنه أقحم نفسه إلى داخلك فأصبح خلافاً بينك وبين نفسك أنت أيضاً. وإلا، فلماذا أجدني هذه الأيام كلها أفكر بذلك المساء، وكأنني أشعلت ناراً بثيابي أريد أن أطفئها ولا أنجح - أو أنني أشعلتها بثيابك، أريد لها ألا تنتشر، رغم إحساسي بمزيج من بؤس المذنب وشماتة المنتصر؟ من المحتمل جداً، بل هو الأرجح، أن هذا وهم من أوهامي، وأنني في رأيك لا ناراً أشعلت، ولا شرارة قدحت - حتى ولو شرارة واحدة مسكينة. فلماذا هذا التخرص، وهذا الاسترسال في خداع النفس؟ لماذا هذا التفكير فيما لا يصمد للفكر، كمن يحاول أن ينحت تمثالاً من الهواء أو الماء؟ ما أكثر تماثيلي الهوائية! أقف أحياناً معها في فضاء فسيح، أدخل في تجاويفها وأخرج منها، ثم أسقط بغتةً إلى أرض حصاها كالمسامير. سأتحدث عن هذا الخلدون قريباً. سنتحدث كثيراً، وسأجعلك موضوعاً لحديثنا أحياناً، دون أن أخبره أنني كتبت لك ثلاث رسائل ملأى بأسئلة لا أجوبة لها، وأجوبة لأسئلة لم يسألها أحد. سآخذ «النوارس» معنا إلى القاهرة، وهناك أجعله يقرأها، إن كان يحبني. هل يقرأ العرسان كتباً في شهر العسل؟ سنخرق العادة. وإذا التقيت بك بعد عودتنا - من يعلم؟ قد نلتقي ثانية، رغم كل شيء - سأخبرك بالنتيجة. وإلى ذلك الحين، أرجو ألا يتسع الخلاف بينك وبين نفسك لأكثر مما قد يسعفك في كتابة فصل آخر في روايتك القادمة. لاحظ أنني لا أقول: أرجو ألّا يكون هناك خلاف بينك وبين نفسك (مهما يكن دوري أنا فيه)، لأنني أكون حينئذ قد رجوت لك ما يوقف قلمك عن الحركة. وهذا ما لا أريده لك. هل أنا مغرورة؟ طيب، أنا مغرورة. قلها، ثم ادع لي بقران ميمون، وشهر

عسل سعيد، وأفكار أقل هوائية وأكثر صموداً للحس، والعقل، والمناقشة. وأسلم لقارئتك المشاغبة.

نون

عزيزتي الآنسة نجوى،

رسالتك الثالثة جعلتني أخيراً أعزم على كتابة جواب ما، ولو أنني واثق من أنني لن أرسله إليك. لا لأن رسائلك لم تثرني، وتحيرني، وتغضبني (وتفرحني؟). ولا لأنني في غنى عن المشاكل، وأنت فيما يبدو يروق لك خلقها حباً في المشاكل. ولا لأنني أخشى التعامل مع القارئات المشاغبات اللواتي يرسلن إليّ مع أوراق البنفسج مناخس الشوك ويطلبن إليّ فرزها ـ أو واجباً أكثر من ذلك عبثية. ولكنني تذكرت، يوم جاءتني رسالتاك معاً، إحدى العبارات التي كان ينطق بها الجنيّ في أقاصيص أميّ أيام طفولتي، جواباً على عابر سبيل ضائع سأله عن الطريق إلى مدينة كذا، والملك كذا والأميرة كذا، إذ يقول الجني: «لولا سلامك سبق كلامك، لخليت طيور السما تسمع قرقعة عظامك.» كيف يجرأ عابر السبيل على ازعاج الجني الغافي في ظل شجرته، الغافل عن المدن وملوكها وأميراتها، بأسئلة تعيده إلى ما يريد نسيانه؟ كيف تجرأين على العودة بي إلى حيث لا أريد العودة، ومطالبتي بالتأمل في ما لا أريده موضوعاً لتأملي؟ولكن سلامك سبق كلامك، ولذا فإن طيور السماء لن تسمع قرقعة عظامك ـ على الأقل بسبب منك أو مني ـ هذه المرة.

وأنا أذكر هذا الجني لأكثر من غرض في نفسي. يبدو أنك، على طريقتك الأنثوية التي ستقولين إنني لا أفهمها ـ ولعلك مصيبة هنا ـ أحسستِ، أو اكتشفتِ، أو حدستِ، أنني نوع من جني، ينبغي عليك ان تصنّفيه. هل أنا جني قائم في الغيب، كطاقة ممكنة، تستحضرني لمسة منك على خاتم في أصبعك، أو مصباح في يدك، فيجلجل صوتي في الفضاء: «لبيك، لبيك، خادمك بين يديك»؟

أم أنني جني في قمقم اصطدته في شبكتك، فخرجت منه لأملأ الفضاء بقهقتي وأهددك: «أية ميتة تشائين أن أميتك؟» وعليك أن تحتالي عليّ كيما أعود إلى قمقمي. أم أنني جني سارح في الوديان والجبال، أنام بين الدوالي، وتحت تهويم الفراشات، ولا أعير اهتماماً لأحد، إلا إذا بادرني بالسلام وكرر المبادرة. وإذا سألني حينئذ عن شيء، مهما صعب، عن الماضي كان أم المستقبل، عن الحب كان أم البغضاء، عن الأنس كان أم الجن، وجد عندي الجواب الذي هو المنتهى لكل سؤال أو جواب. هل خطرت هذه الفكرة ببالك؟

لا أظنها خطرت بهذا الوضوح. الوضوح واجب الكتّاب من أمثالي، لا القارئات المشاغبات اللواتي يكتفين بالضبابيات من أفكار تهزهن، وهن نصف حالمات، نصف واعيات، الحلم لديهن مرهق ببقايا الوعي، والوعي مرهق بشوارد الحلم. لا بأس. أنا لا أطالب بالمستحيل. وقد تلقنت من الكياسة ما يجعلني ـ إلا في بعض الأحايين ـ أسحب مخالبي إلى باطن يدي، واستجيب للسائل بشكل ما، ولا سيما إذا كان السائل طويل الأهداب سابل الشعر مثلك. هل أقول: لبيك؟ هل أعود صاغراً، منحازاً لحيلتك، إلى قمقمي؟ هل استخرج المكنونات من أعماق معرفتي وحكمتي فأفوه بالروائع، فهمتها أم لم تفهيمها؟ أي جني تريدينني أن أكون؟

ولكن لا بد لي من القول أن جنيك هذا فاجأته أنت بما لم يكن في حسبانه مرتين. المرة الأولى، في السيارة، جيئة وذهاباً. والمرة الثانية في رسائلك. وحق له أن يراجع نفسه تجاهك على الأقل مرتين، لئلا يفتضح أمره بين أهل مملكته. لأنه يعلم أن المرأة التي تُعَني نفسها بكتابة ثلاث رسائل، تناقض الواحدة الأخرى، قد تكتب رسالة رابعة، وخامسة، وسادسة، وأنّ حينئذ لجني ساذج مثله، كان يستضعف الأنس حتى وقت قريب، أن يخفي وجهه بين أقرانه، وهذه الإنسيّة تطلق عليه، لا سهماً تلو سهم (كما كان من

دأب الحسان أن يفعلن فيما مضى)، بل قنبلة تلو قنبلة، مما يتفق وروح العصر؟ ولولا أن الجني مصنوع من نار ودخان، لساءت حاله وخمت عاقبته، ولما استطاع من بين الشظايا أن يخط إليك هذه الأسطر، التي قد لا تقع بين يديك.

آراك تغارين على مصلحتي، وتستشهدين بالأمثال، وتدعين أن هناك خلافاً بيننا، وبينك وبين نفسك، وتتصورين أن هذا الخلاف من القوة بحيث يقتحم عليّ ذاتي، ويشطرني شطرين. وقد راجعت نفسي وأنا في قمقمي، فلم أجد فيها ذلك الشرخ الذي ينبيء عن خلاف في دخيلتي من النوع الذي تذكرين ـ خلاف يهمك، أو أنت طرف فيه. ولكن في نفسي مئة شرخ آخر ودخيلتي لا أدري كيف تبقى هكذا متماسكة في القمقم رغم هذا التفتّت الذي يعود إلى سنين مضت لا تعرفين أنت شيئاً عنها. وراجعت نفسي كشبح قائم في الغيب، فوجدتني أيضاً اشتعل وأدخّن بقضايا بعيدة كل البعد عنك، أتوق لمن يستحضرني كطاقة قادرة على الفعل، ولا أراه. ولكن حين راجعت نفسي جنياً يطوف في الجبال والوديان، بعيداً عن المدن ولكنه مليء بأسرارها، اكتشفت فتاة ضائعة على غير عادة الفتيات، تستفزّني ولا تسألني، وكأنها تريد قلب الأدوار، فالتمس أنا السؤالَ إليها، لكيما تتفضل هي بالجواب. وهذا يحدث خدشاً، ولا أقول شرخاً، في كبريائي. وكبرياء الجن لا يعرفها البشر. إنها شيء جنوني.

غير أنني سأتحكّم بكبريائي، وجنوني. وإذا استطعت أن تكتبي مرة أخرى ـ ولو أنني لا أنصحك بذلك ـ ساعدتني في المزيد من التحكّم بهذه الكبرياء وهذا الجنون.

أعدت قراءة ما كتبتُ في هذه الرسالة، فقررت أن أوصلها إليك بطريقة ما. سأطلب إلى صبا أن تحملها إليك. صبا أعز الناس إليّ، ولا اعتقد أنها تذهب بها الظنون. لست أدري بأية حجة سأتعذر معها. سأقول لها إنني أدعو لك، كما طلبت مني، بقران

ميمون، وشهر عسل سعيد، وأيام هانئة، وحديث ممتع كثير. ولا تعذبي خلدون بروايتي، أو أية رواية أخرى. مع أجمل التحية،

علاء الدين نجيب

بعد يومين أو ثلاثة، جاءتني الرسالة الرابعة، ولسبب ما، أو لسبب يبدو واضحاً الآن، شعرت أن الحوار الذي أقامته نجوى معي لن يكون إلا حوار الطرشان. ولسوف يستحيل عليّ الاستمرار به. وهذا نص الرسالة:

عزيزي علاء،

كلمة قصيرة، اكتبها على عجل. فأنا لا تتاح الآن لي أية خلوة للكتابة، لانشغال الأهل بي وبزواجي، والذي سيتم بعد يومين. فأغفر لي السرعة والفوضى في ما أريد أن أقول. أتت صبا، وأعطتني رسالتك، وهي تقول إنك سجلت فيها أسماء وعناوين وتلفونات بعض أصدقائك في القاهرة. ومع ذلك، فقد كان لها من حسن التصرف أن تأخذني إلى غرفة النوم لتسلمني الرسالة، لكي لا يرانا أحد. حاولت أن أكتم فرحي، ووضعتها في جزداني دون أن أقرأها، وأظن أن صبا اندهشت من أنني لم أقرأها على الفور أمامها. وتظاهرت بأن الأمر غير مهم. وبقيت أتحرق في انتظار لحظة مغادرتها كي أسرع إلى حجرة النوم، وأقفل بابها، لأقرأ كلماتك. الساعة الآن الواحدة بعد منتصف الليل. تأخر خلدون عندنا، والأقارب لم يتركونا حتى منتصف الليل. وبقي أبي غادياً رائحاً، يسمع الأخبار من الراديو، ويهيىء نفسه للنوم في مراسيمه المعتادة.

والآن أنا وحدي، أخيراً، أكتب إليك على طاولة التواليت. إذا لم أكتب غداً ـ وهو أمر مستبعد ـ قد أكتب إليك من القاهرة. ولكن لا تتوقع ذلك. ألف شكر. أنت جني رائع. إذا كنت قد انطلقت من قمقمك، لا تعد إليه. أرجوك. مهما فعلت أنا، ومهما قلت. عندما نعود إلى عمورية، سنلتقي بكل تأكيد. خلدون يشير

إليك بود كثير، وعلاقتي بصبا ونبيل حميمة ولن أفرّط بها. وإذا أردت أن تكتب إليّ، فأكتب، واحتفظ بما تكتب، إلى أن أجد طريقة لاستلامه. في رأسي زوبعة من الكلمات والعواطف والأفكار. ولكنني جعلت أخاف قليلاً. أخاف أن أبالغ في جسارتي على جني يهدد بتكسير عظامي. لأنني أخشى أن النهاية لن تكون إلا نوعاً من تكسير العظام. لا لا لا لا. هذا الكلام غير صحيح ولا أعنيه. وأسلم أبداً للمشاغبة الضبابية

نون

ملاحظة: بعد القاهرة سنذهب بالطائرة الى بغداد لثلاثة أيام. سأكحّل عيني بمرأى دجلة أخيراً... كان يجب أن أسألك، هل لك هناك أصدقاء نستطيع أن نتصل بهم؟

عندما استلمت هذه الرسالة كانت نجوى قد غادرت عمورية مع خلدون، ولم يكن ثمة مجال لجواب. ولكنني لم أكن لأجيب، حتى لو لم تكن قد سافرت. أحسست بأن المسألة كلها عبث، فيه الكثير من الصبيانية، والكثير من الخطر غير الضروري. حين كتبت رسالتي برق في خاطري أملٌ في مغامرةٍ تكون المتعة فيها موازية لما فيها من خطر: تصورت أن هذه الفتاة الذكية، المدللة، الطائشة، تبحث عن تحدٍّ، عن مجابهة مستحيلة، وإلا فكيف تبدأ مراسلةً كالتي فاتحتني بها، وهي على وشك الزواج؟ هل كانت تستدرجني، لكي تصدني؟ أم كانت تبحث عمن له من الطيش والتمتع بالتحدي ما يجعله رفيقاً لها في فعل جنوني؟ الثاني هو ما حسبت، ليوم أو يومين ـ على الأقل في الساعات التي جلست فيها لأكتب اليها رسالة نصف بريئة. لو لم أجدها جميلة، وشيطانية، وشهية، لما تزحزحت في اتجاه القلم والورقة شبراً واحداً. ولكن خيالي من شأنه دائماً أن يشطّ بي، فاتمتع بالشطط، لأن فيه لعبة تخترق المألوف. من قال إن دافع اللعب في الحضارة لا يقل خطورة عن دافع الجوع، ودافع الجنس؟ لقد صدق! لماذا يلعب بعض الناس البوكر طيلة ساعات الليل وهم يخسرون، ويركب بعضهم دواليب الهواء مع أنها ترعبهم، ويسوق بعضهم

السيارات بأخطر السرعة، ويراهنون بمدّخراتهم الأخيرة على الخيل السابحة مع الريح ولو دقيقتين؟ هناك أناس لا يقنعون بالتجربة إلا إذا انطلقت بهم على شفا الموت: حينئذ فقط يعتبرون أنفسهم أحياء، ولا سيما عندما يقهرون الموت، أو على الأقل يحتالون عليه. هكذا ظننت الأمر، حين كتبت رسالتي. إنني أغامر، أو أقامر. ولكن رسالة نجوى جاءت لتضع حداً لظني. حوار الطرشان ليس من شأني، ولن ألعب لعبةً طرفُها الثاني غافل عن أصولها. لعل نجوى أرادت شيئاً، ثم غيرت فكرها. ومن حقها أن تفعل ذلك. وإذا غيرت فكرها مرة أخرى، فلتبحث عن كاتب آخر تناقشه حول بطلاته.

[١٠]

ورطتموني.

غسلتم دماغي. وجدتم ثغرة في جداري النفسي، فوسعتموها بتهديمكم، ونفذتم منها إلى دواخلي. أكاد اسمع صوتكم في ثنايا صوتي، حين أقول: أنا قتلتها. أيعقل أنني قتلتها؟ أسألكم بالله وأنبيائه: أنا الذي فرشت لها أهدابي لتمشي عليها، أأقتلها؟ لو أنها قتلتني هي، لما هَمَّني. ولما همني من كنتم ستظنون هو قاتلي. لو أنها قتلتني ـ أنا أعلم الناس بنجوى ـ لما ترددتْ لحظة في رفع صوتها على رؤوس الأشهاد لتقول: «هذا النذل، أنا قتلته بيدي». أو «هذا الرجل الرائع، لم استطع تحمله، فقتلته». أو «هذا العاشق الخائن، غدر بي مع امرأة أخرى، فوضعت رصاصة في جبينه.»

أما أن أزعم أنني أنا الذي قتلتها، فأمرٍ عجيب حقاً. هل خانتني؟ لا. هل ضيّقت عليّ سبل الحياة؟ لا. هل سئمتُ منها يوماً واحداً؟ أبداً. هل أدخلتني في عوالم مجنونة من اللذة، ونسيان الذات؟ نعم. وهل يكون هذا مدعاة للقتل؟ أسألكم بالله! اتقولون إنني ربما قتلتها حباً؟ آ، لو كنتم تقولون ذلك، لربما طاب لي أن أصدق، فاتساهل غروراً وأقول: جائز، ممكن... ممكن؟ لا، مستحيل. اسمعوا! هذه المرأة كانت شيئاً خارقاً. بركاناً من الحيوية. واحدة من عشرة ملايين. تقرأ كل كلمة اكتبها، ثم تضيف ما تشاء، وإذا ما يتحقق من كتابة لا تصدقه عيناي. كانت لي الحد الفاصل بين الحياة واللاحياة، بين الكينونة والعدم، بين أن تجري في عروقي النار، وأن يجري فيها الماء. أنانيتي في امتلاكها كانت كافية لأن تجعلني أدفع عنها الريح إذا اشتدت، لا أن أصوّب نحو عنقها المسدس. انتم غسلتم دماغي لأمر في نفسكم، لأنكم عجزتم عن ايجاد القاتل، فاستسهلتم القبض عليّ، ولئلا تُتَّهَموا بعدم الكفاءة، وبعدم القدرة في التوصل إلى الفاعل الحقيقي، قلتم، لنلقِ القبض على علاء الدين نجيب

ـ فالكل يعرف عن علاقتـه بها. وسنجعله يقولها بالخط العريض. أسبوع أو اثنان في زنزانة مظلمة، مع العطش والاختناق حين يملأ القمل شعر رأسه وعانته، وتتجرّح رئتاه بالنتن، مع لكمتين أو ثـلاث، تكفي للغرض. نقدم له بعد ذلك كوباً من الشاي، وسيكارة مع ابتسامة، ويعترف بأنه قتل حتى أمه ـ دع عنك امرأة اطلقت ألسنة الناس في كل اتجاه. ولا نستبعد أنه قد يلذ له اعتراف كهذا. فهؤلاء الكتّاب صنف خاص من البشر: خيالهم أوسع من واقعهم، وأوهامهم تشط بهم عن حقائقهم الصغيرة، فيسكنونها ـ أو تسكنهم، حتى تصل بهم الحال نقطة لا يميزّون عندها بين اليقظة والحلم. والذي لا شك فيه أنهم يرفضون العادي، ويقبلون الغريب، والشاذ. فاذا قلنا له: «استاذ علاء، أنت قتلت حبيبتك»، سيفرح، وتحلّق به أوهامه، ويقول: «طبعاً. وهي ليست الحبيبة الوحيدة التي قتلت.» وربما اعترف بجرائم أخرى لم نكن ندري بها. آخ منكم! اصطدمت بأمثالكم في كل منعطف سرت فيه. في كل مدن الأرض رأيت أمثالكم. المصيبة هي أنكم عاديون، عاديون جداً. والله سبحانه وتعالى شاءت له حكمته أن يخلق الكثيرين منكم. كان أبي يقول إن الله يخلق أناساً جميلين في ساعات وعيه، ولكنه يؤخذ بالجميلين أحياناً، فتدعبل يداه دونما تركيز بشراً مثلكم. ولولاكم لما كان للعديد من الكتّاب والممثلين والمخرجين رزق يقتاتون به: بكم تعمر مسلسلات التلفزيون، تسليةً للنسوة والعجائز في الأمسيات الطويلة الفارغة. إنكم عنصر أساسي في المجتمع. فلا تقلقوا.

أنا الذي سأقلق. ولو كانت نجوى حية بين يدي، لقلقت هي أيضاً، كما كان من شأنها دائماً أن تقلق. كما تقلق الزهرة البرية حين تعصف الرياح حولها. كما تقلق الظبية حين ترى الصيادين يطاردونها في سياراتهم الظالمة. نجوى، في ركضها إلّي، كانت دائماً كالهارب من البنادق المصوَّبة. والساعات التي كنا نقضيها معاً ـ أم كانت تلك مجرد لحظات طائرة؟ ـ كانت ملأى بلهاث الذعر، الذي يسبق نسيان النشوة ـ ذلك البحـران الأقرب إلى الغوص في العدم، المؤدي إلى تعميق النشوة، فالنسيان، فالبحران... وفجأة: يعود الوعي: وجه قبيح، تدلّت فيه

الشفة السفلى غليظةً يسيل منها اللعاب، وجحظت العينان كمصباحين بذيئين وهما تتأملانها عاريةً، معرّضةً للتجريح والتهشيم. ولكن نجوى كانت جريئة، رغم الخوف. تضم أصابع كل يد بقوة إلى كفها، وتنتصب في وجه الذئاب المكشرة عن نيوبها. «أقسم أنك سليلة حمدي سويلم!» كنت أقول لها. فتضحك وتنطلق في سيارتها انطلاق الفارس على أصيلته.

ونجوى نفسها كانت كالفرس الأصيلة. كان دمها كبرياء سائلة تجري في عروقها ـ لا بعنقها الطويل وشعرها السارح في الفضاء فحسب: لا بساقيها المستدقتّين، وفخذيها المشدودين كالوتر فحسب ـ بل بحركتها المجننة، المارقة كالسهم نحو غايتها. وإذا كانت غايتها الموت، فليكن لها ذلك! هذه المحجَّلة الغامضة سليلة محاربين عنيدين، قد يخيفهم الموت، ولكنهم يقبلون عليه، فيهزمونه: إنهم يهزمونه، بكبرياء الاختيار، بصرخة اللذة التي تضج فيها أصوات أسلاف لهم حاربوا مثلهم من أجل إرادة عاتية لا تفارقهم.

أترون كيف تتيه حساباتكم وتنبو عن مقاصدكم، رغم كل ما رتبتم له من استجواب وتقصي؟ أأنا أقتل الظبية، والفرس الأصيلة؟ أأنا من يطلق النار على التي جسدت لي رؤى أسلافي؟

ممكن، ممكن. مهما أقل، فان في النفس مناطق مظلمة لا أستطيع النفاذ إليها بعد. ألعلني كنت أحاول قتل نفسي على نحو اسطوري لا أفهمه؟ هذه نجوى تأتيني بين الحين والحين وتقول: «أكتب عن امرأة غريبة، عجائبية، لا يستطيع الواقع الضيّق استيعابها. أجعل منها ضدّاً لكل تفاهة اجتماعية. أجعل منها مخلوقاً إشكالياً يخلق نفسه مرة واحدة لن تتكرر. حبها وحشي والهي، معاً. محي وقاتل، معاً.» فاذا ضحكتُ أنا لفكرة هذه الحسناء الرومانسية الحُلُمية الّتي عذّبت أجيالاً من الشعراء فيما مضى بإيماءاتها السرابية لهم، قالت نجوى: «ومن قال إنك لست واحداً من هؤلاء الشعراء؟»

قلت: «الشعراء الملعونين؟»

قالت: «في عصر حلت اللعنة فيه على كل شيء، لم لا تحل أيضاً

على الشعراء - أو واحد منهم على الأقل؟»

ألعلني أخفقت في تصوير امرأة كالتي أرادت نجوى، في رواياتي، فجعلتُها هي البطلة، هيٍ الغريبة العجائبية، هي الوحشية والإلٰهية، المحيية والقاتلة، ثم ختمت حياتها كما اختم رواية انتهيت منها، لأحفظ روعتها بين دفتي كتاب، لئلا يتسرب إليها مع الزمن ما يأخذ منها، ما يحيل ألوانها، ويلوث زهوها؟

أراني أنبهكم إلى نواح لم تكن في حسبانكم، وأعينكم على التشبث برأيكم. لا بأس - أنا لست أول من صاح في زنزانة، وضرب رأسه بجدران أربعة. أنا لست أول من أصر الآخرون على إساءة فهمه - ولن أكون الأخير. ولا تحسبوا أنني أريد الإيحاء بأنني ضحية عماكمٍ، أو جهلكم، أو قصوركم الذهني. لا، حاشاكم. أنا لست ضحية قطعاً. أنا ذاهب على قدمَي إلى حيث شفا الهاوية، وعيناي مفتوحتان. وتريان. كل شيء.

[١١]

أكاد أنكر أنني قلت ما قلت، لأن الأفكار التي تملأ رأسي الآن تختلف كثيراً عن تلك الهلوسات الصغيرة الغارقة في الماضي، وذلك لكيما أقدم تفسيراً واحداً يمكن أن أرضى عنه. الحاضر غير الماضي، غيره تماماً، لا صلة، من أي نوع، بين الاثنين. والشبه الذي تزعمه عمتي نصرت بين أخي صفاء وجدّي مجرد وهم، لأن الصورة الوحيدة لجدي، وهي صورة رديئة أقرب إلى القبح ولا تكاد ترى قسماتها، تظهر فروقاً أكثر مما تظهر تشابهاً. لكن عمتي نصرت تؤكد أن الشبه يصل حدود التطابق. «الخالق الناطق! كأنني أرى المرحوم أبي، ما راح ولا جاء، هو.. هو.» وإذا أبدى أحد منا شكه بكلمة، بابتسامة، فعندئذ تغضب العمة نصرت ويهدر صوتها: «الله لا يعمي العيون فقط، بل ويعمي القلوب أيضاً.» ويتغير صوتها قليلاً: «انظروا إلى فتحة العين، إلى الشفة السفلى... أما إذا ضحك، إذا نطق، فإنه أبي، رحمه الله، بلحمه ودمه». كان ذلك يجري في وقت بعيد، ولأنه تكرر مرات كثيرة أصبح يثير الملل والشفقة. فعمتي لا تريد أبداً أن تتخلى عن تاريخ العائلة وشرفها، وتعتبر أن الشبه في الملامح ليس معناه امتداد العائلة فقط بل ويعني لها أيضاً أن كل ما حاولت الحفاظ عليه وحمايته لا يزال أمامها، حياً يرزق.

صفاء وجدّي متشابهان.. مختلفان.. إن ذلك لا يهم أحداً، ولن يغيّر شيئاً. حتى صفاء، في ساعات معينة، وأمام عمتي بالذات، حين يؤكد هذا الشبه، لا يقصد أكثر من الدعابة أو تحريك النار وزحزحة الصخرة. فعمتي الحذرة المتحصنة وراء ذلك الصمت المدوّي، تنظر بعدم اهتمام إلى معظم ما يجري. إلا إذا اقترب أحد من تاريخ العائلة. عندئذ تعتبر نفسها الوحيدة التي تمتلك شرعية من نوع ما في اسم العائلة وتاريخها وشرفها، وتعتبر نفسها أيضاً القادرة على الدفاع، لأنها وحدها تمتلك الحقيقة... أما نجيب، أبي، فقد فَقَد هذه الشرعية وفَقَد القدرة على

حماية شرف العائلة وتاريخها منذ أن وافق على زواج أختي عدوية من ابن غطاس «الذي كان أبوه سقّاءً عند جدّي»، كما تقول عمتي نصرت. أما لماذا تزوجت أختي من نعيم غطاس وكيف وافق أبي على ذلك، فإن لذلك قصة تطول. ثم إن أحداً من عائلة سلّوم لا يريد أن يفتح جرحاً قديماً مرت عليه سنوات كثيرة!

عمتي نصرت اذن حجر الزاوية. هي التي أرادت ذلك ولم ينازعها أحد. صحيح إن الأمر لم يتم بهذه السهولة، لكن النزاع حوله لم يطل، لأن جنوناً من نوع ما سيطر على أبي في مرحلة من حياته، ونتيجةً لهذا الجنون لم يتخل عن تقاليد العائلة فقط، بل وعادى الكثيرين وباع، بثمن زهيد، بقايا الأرض الزراعية التي كانت له في القرية. «كل ما أريده من الأرض مجرد قبر. وحتى هذا القبر أريده بعيداً عن عائلة سلوم وعن قرية المطلة». أما لماذا حصل ذلك التحول ومتى، فإن كل واحد يرويه على طريقته. عمتي نصرت تؤكد أن عفريتاً تلبس نجيب وحمله أيام المجاعة لأن يترك المطلة. وأبي يقول شيئاً آخر. «الناس في المطلة وغيرها من القرى يموتون.. لا نجاة من الموت إلا بالهرب. هربنا. ومن مكان إلى مكان، حتى انتهى بنا الدهر إلى عمورية. والانسان العاقل يبحث عن مصلحته. ومصلحتنا كانت هنا. ومنذ ذلك اليوم عشنا والله رزقنا. وخلّينا المطلة لأهل المطلة...» ومع مرور الزمن، تنوّعت هذه الصيغة من العلاقات والأدوار. فعمتي، التي لم تستطع أن تتصور مفارقة المطلة والعيش في مكان آخر، افترضت أن الحياة خارجها لا بد أن تكون مؤقتة وسترجع إليها ذات يوم. لكنها لم ترجع. ولم تتخلّ عن نصيبها من الأرض التي ورثتها عن أبيها. وفي نطاق وهم من نوع ما ظلت روحها في المطلة، قريبة من السوالمة الأوائل، ولم تكف عن الحديث بأنها عائدة إلى هناك في وقت قريب. ولكن لكونها الأخت الكبرى لأبي، ولأن أمها، جدتي، ماتت في وقت مبكر، افترضت أن مسؤوليتها هي أن تبقى إلى جانب أخيها الأصغر وأن ترعاه!

ليس ما أرويه الآن جزءاً من تاريخ آل سلومٍ. لا، فأنا لم أقترب من هذا التاريخ. كل ما أردت أن أقوله هو أن جنوناً من نوع ما سيطر على

العائلة، وجعلها على هذه الشاكلة وملأها بالفوضى والانتظار، وانعكس لا على الفترات الماضية وحدها، وإنما استمر ونما، ثم تشعب في طرق ومتاهات أصبحت مثل شبكة أطبقت على عشر سمكات.

عمتي نصرت مسؤولة؟ أمي؟ أبي؟ أخواي؟ صفاء وأدهم وأخواتي الثلاث - لماذا خلقوا على هذا الشاكلة؟ عمتي تتحدث دون تعب عن الشبه، عن الامتداد الذي لا ينقطع لدماء آل سلوم. وأنا أرى أن الاختلاف بين فرد وآخر، بين جيل وآخر، ليس القانون الذي يحكم هذه العائلة التعيسة فقط، بل القانون الوحيد، ولا شيء غيره. فتحة العين. الشفة السفلى. رنة الصوت، وأي شيء آخر في صفاء، في أدهم، في صبا، لا يختلف عن أبي وأجدادي فقط.. إنه يناقضه! أأبالغ؟ أأسرف في الحديث عن هذا القانون، قانون الاختلاف، لكي أفسر ما يحدث الآن؟

ليس نجيب سلوم وحده الذي غادر القرية ليعيش في المدينة. ففي أعقاب الجوع والموت، وخوفاً من الأيام الآتية، لم يبق إنسان في مكانه. كانت الدنيا، في تلك الفترة التي رافقت وأعقبت الحرب العالمية الأولى، تموج بالحركة والانتقال، والبحث عن الأمن ولقمة العيش. لا يهم ما تقوله عمتي نصرت، وأية تفسيرات تقدمها. لم يبق انسان لم يركبه عفريت من نوع أو آخر، وهذا العفريت هو الذي يقود الخطى، ويدفع الظهر، ليس حباً في الانتقال والتغيير بل محاولةً للوقوف في وجه الموت. وهكذا اندفعت موجة وراء أخرى إلى المدينة طلباً للحياة أيّاً كانت.

عمورية ذلك الوقت لم تكن مثل عمورية هذه الأيام. كل شيء اختلف. وأبي الذي لا يحب الحديث عن الأيام القديمة، ولا يعتبر أن بطولة من أي نوع دفعته إلى هذه المغامرة والمجيء إلى المدينة، كان حين يضطر إلى الحديث عن تلك الأيام، يكتفي بكلمات قليلة: «لا تنظروا إلى المدينة الآن. ما ترونه الآن لا يمت إلى المدينة التي كانت في تلك الأيام. حتى أخلاق الناس تغيرت.» فإذا حاصرته الأسئلة وحدّقت به العيون تريد مزيداً من المعلومات والايضاح، تعكر وجهه وانتشر في الجو حزن غامض، وأتت كلماته بنبرة عصبية: «كانت الحياة عذاباً.. عذاباً لا يرحم،

هكذا كانت في كل مكان. في المطلة، في غسرين وتغاريت وعين فجار، هنا، في كل مكان. حتى الذين سافروا، الذين استدانوا وباعوا كل ما فوقهم وتحتهم لكي يؤمنوا ثمن تذكرة الباخرة، انقطعت أخبارهم. وكثيرون منهم ماتوا. غرقوا في البحر، ماتوا من الجوع، ماتوا من القهر. والذين لم يتيسر لهم ثمن بطاقة الباخرة وظلوا هنا، كانوا ينتظرون الموت في كل لحظة. كانت أياماً صعبة. وراحت.»

ومثل كل الذين ينزلون إلى المدينة من القرى، نزل أبي نجيب سلوم، وفي محاولة للبقاء ومقاومة الموت لم يترك وسيلة إلا ولجأ إليها، ورغم الخوف الذي كان يحدد حركة الناس ويدفعهم للالتصاق والتقارب، في السكنى والعمل وتبادل الهموم، اضافة إلى كلمات التشجيع الوهمية التي يعزُّون بها أنفسهم، فقد كان في نجيب سلوم شيء يجعله مختلفاً عن الآخرين. كان يريد أن يتخلص من الماضي، من ذلك الثقل الذي يجعله عاجزاً. ولذلك، وبعد أن سكن لفترة قصيرة قريباً من الذين جاؤوا من المطلة، وجد نفسه يرحل مرة أخرى في المدينة. صحيح أن في هذا الرجل شيئاً انفجارياً غير قابل للتفسير. لكن فيه أيضاً شيئاً يتوافق مع رغبات غامضة كانت تموج في صدره. كان يريد أن يبدأ من جديد. ولذلك لم يكن يبالي في أن يفعل أي شيء.

إني أكرر: لا أريد أن أروي تاريخ عائلة سلوم. فهذه العائلة المشؤومة، الملقاة في هذا المكان من العالم، رمز للتعاسات كلها التي يعيش فيها الناس. نجيب سلوم ليس أكثر من رقم، مجرد رقم في هذا العالم الشديد الاضطراب والفوضى. كان يقول إن الثور الذي يحمل الأرض على قرنه لم يتعب فقط وإنما أصيب بالهرم، ولذلك فإن هذا الثور الذي يحمل الأرض أصبح عاجزاً عن احتمال هذا الثقل، وهو ينقلها من قرن إلى آخر دون توقف وبسرعة خارقة، قبل أن تهوي إلى الجحيم. عمتي نصرت كانت تقول شيئاً مختلفاً. أما أنا، الذي كنت أرقب، أتابع، أتأمل، فأحسست بأنني أعرف السبب الحقيقي. لم استطع أن أقول كل شيء لأبي، لعمتي، حتى لنفسي. لم استطع أن أقول كل شيء بصوت عال.

لكنني أصبحت متأكداً أن العالم الذي نعيش فيه، الأرض التي نحن فوقها، تهتز، ترتج، وتوشك أن تنهار. وخلال فترة قصيرة، كنت أقول، سوف نشهد أموراً عجيبة.

لكي أزيل أي احتمال للخطأ أو سوء الفهم يجب أن أبادر إلى القول إن عائلة جدّي، سليم أدهم السلوم، كانت عائلة بسيطة، أقرب إلى الفقر، ولن يفكر أحد أن يكتب عنها شيئاً ذا بال. كما أنني لا أنوي الآن أن أكتب تاريخ هذه العائلة، لأن فكرة من هذا النوع، لو تحمست لها، لكان معناها الضياع في متاهات لا نهاية لها، والاتصال بمجموعات من الناس، معظمهم من المسنين، وهؤلاء أقرب إلى الخَرَف ويملأهم الحقد، وتسكنهم حكايات الثأر. ولذلك سيملأون تاريخ العائلة بالترّهات والأكاذيب، الأمر الذي يجعل الفكرة أقرب إلى العبث. ولست مجنوناً بالمقدار الذي يورطني في كتابة تاريخ عائلة ليست أكثر من رقم واحد من مجموعة هائلة من الأرقام. ولا يمكن أن تكون أكثر من ذلك. إذن لماذا أحوم الآن حول مجموعة من الوقائع الصغيرة والأوهام والذكريات أملاً في استعادة حياة هؤلاء الذين ذهبوا؟ لماذ أعطي أحداثاً لا يكاد أحد يتذكرها، هذه الأهمية المبالغ بها؟ ولو أسقطت من حساباتي أهمية العائلة، وأحقاد الآخرين، والمغزى الذي قد يشكل نمطاً مفهوماً لحياة تلك الفترة، فهل في تاريخ عائلة سليم سلوم، وجده الأول حمدي سويلم، شيء يستحق أن يروى للآخرين؟ هل ثمة من حكمة أو مغزى في استعراض هذه المجموعة من المهووسين والأبطال والقتلة والمدّعين، والمساكين أيضاً؟ ولكن، مع ذلك كله، اعتقد أن هناك قضية تستحق التوقف والتأمل. لماذا كانت عائلة سلوم بهذا المقدار من التعاسة وسوء الحظ؟

هذه القضية شغلتني منذ وقت مبكر، وعمتي نصرت لم تتعب يوماً من تأكيد ذلك، حتى غدت كلماتها، لفرط ما رددتها، مثل لعنة تطاردنا دون توقف: «جدكم الأول حمدي سويلم تآخى مع الجن والعفاريت وتزوج منهم، وبدل أن يأتيه أولاد وبنات جاءه عفاريت. وإذا كان ذلك الجد قد عاش ودوّخ الدنيا فإن العفاريت الذين ولدوا له داخوا في هذه الدنيا ولم يفعلوا شيئاً يرفع الرأس.»

كان أولئك «الأفذاذ» الذين ولدوا لحمدي سويلم، ثم من خلفوا من أولاد وأحفاد، يحتاجون إلى مجموعة من الشروط لكي يعبّروا عن العبقرية الكامنة فيهم، لكن هذه الشروط لم تتوفر قط، ولذلك هاموا على وجوههم في هذا العالم، ينتقلون من مكان إلى مكان، حاملين مع أحزانهم وهمومهم أحزان العالم وهمومه. حتى إذا وصلوا إلى عمورية، وكان العالم في ذروة بؤسه وتعاسته وجنونه، جُنّوا، وما زلوا كذلك!

لقد حصل شيء في هذا العالم فغيّره وغير الناس. لم يكن هكذا ولم يكن الناس بهذه التعاسة، لكن هذه التعاسة لن تستمر ولن تطول.

جدّي الكبير، رئيف، وهو الذي اعتبره عن حق مؤسس العائلة. لا أحد من الأحياء رآه، أو يذكره، لأن بيننا وبين موته ما يزيد على المئة وعشرة أعوام. وعائلتنا لا تعمر.. الكبير الكبير يبلغ الستين. رئيف مات في الثانية والخمسين ولا أحد يقول كيف مات. والذين تلوا رئيف سلوم ماتوا أيضاً صغاراً، أو ماتوا قبل أن يشبعوا من الحياة. فحفيده المشهور، أي جدي، مات مقتولاً. الجميع يعرف ذلك. وعمتي نصرت تروي ذلك بصوت عالٍ مليء بالفخر: سليم سلوم مات يوم أراد الأتراك أن يحلقوا نصف لحية رؤوف الزين. قال لهم: «أنا رجل.. وأعرف معنى الرجولة والشرف. أن تحلق نصف اللحية إهانة. ورؤوف الزين أكبر من هذه الإهانة. ولن أسمح لكم، ودمي بيني وبينكم...» بصق في وجوه الجندرمة، شتم المختار الجديد. لكن سليم سلوم مات فجأة في اليوم التالي. وبقيت عمتي تصر على أن الأتراك سمموه. أما أمي فقد قالت ذات يوم إن الموت يمكن أن يحصل أيضاً نتيجة القهر. وسليم سلوم مات قهراً. وأبوه أدهم قتل رئيس الجندرمة وهرب إلى الغابة. لم يره أحد، ولم يسمع عنه أحد شيئاً. لكن الكثيرين يؤكدون أن لعنة تطارد عائلة سلوم، ويستدلون على ذلك من أمور كثيرة: الجد الأول دوّخ العالم وخلق أعداء لا يستطيع رجل بمفرده أن يخلق بعددهم. وحفيده أدهم كان يبول في الشارع، ويتعمّد أن يفعل ذلك بوجه خاص أمام الجندرمة والمسؤولين، وهو يقول: «هذا رأيي فيكم». والآخرون فعلوا أشياء كثيرة، منها ما هو نبيل ومنها ـ ولأقلها بصراحة ـ ما هو مشين تماماً.

مرة أخرى اؤكد: لا، لن أروي تاريخ عائلة سلوم. إن ذلك أبعد ما يكون عن ذهني. لكن ما يثير الحيرة ويسقط في اليد هو أنه لا يمكن تفسير ما يجري الآن دون البحث في ذاكرة الزمان، لعل بصيصاً من الضوء ينير الجوانب المعتمة في حياة هذه المجموعة من البشر، ويجعل من الممكن فهم هذا الغموض الذي يملأ كل شيء الآن. يستفزني هذا الغموض بين الحين والآخر، وتبقى المطاردة قائمة بيننا، إلى أن نجد سلاماً من نوع ما. قد يكون هذا السلام بالموت يطوينا، أو بأن اكتشف سر هذه اللعنة التي سببت دماراً لعائلة سلوم ولاحقتهم عشرات السنين دون توقف.

ومع ذلك فبأي كبرياء كان أبي يذكر أباه، وجده، وجده الأكبر، إلى أن يبلغ الجد الأول، وكأنه يبلغ بذاكرته المعتمة آدم وأول الخليقة ـ حمدي سويلم. كان يسلسل الكبرياء والقهر، الشموخ والجنون، على نحو تخالفه فيه العمة نصرت، لأنها ما عاد يهمها أن تجد في أسلافها مصدر الكبرياء، بل بداية اللعنة. أما أبي، فكان يتقلب في نظرته إلى اسلافه مع تقلب الشقاء والحب في حياته. آه، حمدي سويلم ـ يقول أبي ـ حمدي سويلم، أول السوالمة الكبار... كان عملاقاً من زمن مضى، عاش على عشرة أمتارٍ مربعة من الأرض عيشة أمير يملك الدساكر والبساتين. كان الأتراك يرسلون إليه من عمورية كل اسبوع سرية من الشرطة على البغال، ولا يعلمون إن كانت ستعود السرية سالمة، أو يتحوّل أفرادها إلى عشيرة أخرى يحكمها حمدي السويلم، فيعلّمهم ركب الخيل، ويرسلهم كالزنابيرفي وجوه الأغوات والمخاتير وعبيد السلطان العثماني. وهل كان زواج يتم في ربوع الجبل، من غسرين إلى الفارعة إلى قرى عمورية كلها، إلا بموافقة حمدي السويلم؟ وكم امرأة تزوج هذا المتمرد، الحامل سيفه في وجه الظلم، وحصانه يخبّ به من قرية إلى قرية، من دار إلى دار، أميراً لا تعترف به السلطة، ولكنها تتفاهم معه سراً بين الحين والحين لكي لا يفضح عجزها؟ اتعلم، يقول أبي، ماذا كان يقول جدي المرحوم أدهم عن جده هذا؟ كان يقول إن نصف القرى التي انبثقت على سفوح الجبل في السبعين سنة التي سبقت سقوط السلطان عبد الحميد، بناها أبناء حمدي

سويلم وأحفاده، المعترف بهم وغير المعترف بهم. اسأل عنه شيوخ عين فجار، والمطلة... ولكنه بقدر ما أحب من نساء، فانه لم يستنكف عن سفك الدماء... كل من وقف في وجهه، أو رفض له رغبة، ذاق حد سيفه... ورثيف ابنه، جرع مرارات الانتقام حين رأى أخوته الأشقاء وغير الأشقاء، وأولاد أعمامه، بعد موت أبيه يتساقطون صرعى في حقول القرى وعلى صخور الجبل تحت خناجر المنتقمين. وكان على رئيف حمدي سلوم ـ وهو الذي يبدو أنه حرّف اسم العائلة، كأنه أول الأمر يتنصل بذلك من السوالمة الآخرين، ان يتحلى بأقصى الحكمة، والعقل، والصبر، لكي يستطيع أن يقف ولو زمناً بوجه الاغتيالات التي راحت تمحق السوالمة، وتدفع بعضهم إلى الهجرة من قرية إلى قرية، أو إلى رد الثار بالثأر من جديد. لكنه لم يستطع ذلك طويلاً. فحين عاد إلى القتل والتمرد وملاحقة الآغاوات وممثلي السلطة، قالوا روح حمدي سويلم حلّت به ولن ترتاح إلى أن يقلب الدنيا! أما العمة نصرت فكانت تهز برأسها المؤطر بالسواد، وتقول بلهجتها المطلّية القديمة: «يا حمدي يا سويلم، يا بزرة الشيطان يا حمدي! لم يزرع بيده يوماً شجرة تفاح أو دالية عنب. كان تائهاً على وجهه في وديان الجبل، رافعاً سيفه بيد، وذكره بيد. وتجابهه عائلات الفلاحين أينما ذهب، فإذا سلمت من يده الواحدة، لم تسلم من يده الأخرى. آخ يا حمدي، يا أول الملاعين!»

فأسألها: «ومن آخر الملاعين؟»

فتنظر إلّي بعينيها الواسعتين الجاحظتين ـ وأنا أعرف أنها لا ترى بهما أكثر من مجرد أشباح:

«أنت يا علاء! أنت الذي جئت على شاكلة أبيك. صفاء جاء على أبي، وانقذه الله من وصمة حمدي سويلم. لأن أبي ـ آه يا علاء، لن تدري أي ولي، أي طاهر، أي قديس كان أبي. على يديه انتعشت المطلة. بجهوده نبت الزرع على الصخر، وانحنت الأشجار بثقل أثمارها. أما نجيب... أوه! ما الفائدة الآن. لا زواجه علّمه، ولا أخته أفادته. جاء عفريتاً راكباً رأسه، وباع كرومنا في المطلة، وجاء إلى عمورية غصباً عنا

جميعاً. ورزق المهابيل على المجانين! في أربع أو خمس سنوات كان من أثرياء البلد! طبعاً أنا التي مهدت له ذلك، وزوَّجْتُه من أمك - رحمها الله...»

- تترحمين عليها الآن، عجائب!

- لا تجوز على الميت إلا الرحمة يا بني. ولكن انتبه إلى نفسك يا حبيبي يا علاء... لا تكن مثل حمدي سويلم، ولا تكن مثل أبيك... في بيتنا شياطين. اسمع همسهم في الليل. أنا لا أخاف على صبوة، هناك الآن من يعتني بها. أما أنت... آخ، لو تترك عمورية وتعود بي إلى المطلة... هل انتهيتم من تسجيل أرضي باسمك؟ أدهم لا يريدها، وصفاء يستطيع أن يشتري المطلة وفلاحيها كلهم. أما أنت؟ ما الذي تفعله كل مساء وأنت منكبٌ على المائدة؟ أتكتب؟ ماذا تكتب مما يحتاج ليلة بعد ليلة من حك القلم على الورقة؟ هل تسمع أنت أيضاً همس الشياطين في الليالي؟

وتسرح عمتي إلى ما لا نهاية، ولا يهمها أنني أكون قد خرجت من غرفتها، وانصرفت إلى مكتبتي، ورأسي تارة مليء بأصداء السوالمة، وتارة بأصداء عمورية اليوم، وتارة أخرى بأصداء العشق التي لم تكن أقل تردداً لتلك اللعنة التي لا أفهمها.

[١٢]

رأيت عمورية تتسع في ربع القرن الأخير اتساعاً مذهلاً، فكأنني كلما تقدمت في السن (مهلاً! أنا في أوائل أربعيناتي فقط)، ازدادت المدينة طولاً وعرضاً، وفوضى. من مئة ألف نسمة في أوائل العشرينات، إلى نصف مليون بعد الحرب العالمية الثانية (هكذا تقول الدراسات السكانية التي قرأتها)- إلى قرابة ثلاثة ملايين نسمة اليوم. والريف ينزف في اتجاهها دونما رأفة. المطلة، غسرين، عين فجار، العريشة، الطيبة، المحمودية - هذه إنما هي القرى القريبة فقط التي عذّى أهلوها الجبليون عمورية - كما فعل أبي وأخوته ذات يوم - حتى لم يبق في القرى إلا العاجزون عن الهجرة. هذا فضلاً عن الذين هاجروا إلى أمريكا وغيرها. ولكن شيئاً غريباً كان يحدث في تلك الأثناء، جعلت التفت إليه في السنوات القليلة الماضية. كادت القرى تفرغ من فلاحيها، وإذا هي تعمر شيئاً فشيئاً بأناس أغراب، لا يعرف المرء بالضبط من أين يأتون. الطبيعة تكره الفراغ - ولكنها تملأ الفراغ حسب أهوائها هي، لا أهوائك أنت. حركة عشوائية تموج في البلد كله: كأنما نحن في أول مرحلة من مراحل تاريخ قادم بالعجائب - أو في نهاية مرحلة نراها تبتعد في أحشاء أفق بعيد، تحت أبصارنا.

وهذا أمر مهم. بل في غاية الأهمية. تتزلزل الأرض، فتتصدع. وتنهار جبال وتصعد أودية. وتتشكل الطبيعة من جديد على نحو لا نستطيع التكهن به، مع كل علمنا وإحصائياتنا. والنفس البشرية؟ آه، إنها هي أيضاً تتزلزل، وتتصدع، وتنهار فيها جبال وتصعد أودية، وتتشكل تضاريسها على نحو يتحدانا جميعاً. من قال إن النفس ثابتة، وإن أعماقها مستقرة؟ وأنا، وأبي وأخوتي، ونجوى، وكل الذين عرفتهم والذين لم أعرفهم، أقاربي وأجدادي القرويون، وأسلافي العشائريون - وأهل الأرياف الذين انتزعتهم يد الزمن، وفرّقتهم، وأعادت جمعهم، ثم

مزّقتهم، وأعادت تركيبهم ـ اننا كلّنا نحيا عقابيل الزلازل. سهولنا أضحت جبالاً، كرومنا أضحت مصانع، خيولنا تحولت إلى حافلات مكتظة حارقة، وحكايانا القديمة ما عدنا نجدها إلا في أطروحات دارسين ينالون بها درجاتهم الجامعية، ثم ينسونها على رفوف تراكمَ عليها الغبار.

توصلت في مرحلة من المراحل إلى أن عمورية هي التي خلقت فيّ وفي الآخرين هذا المقدار الهائل من القلق والشك. فهذه المدينة التي تربض على سفح الجبل وتمد نفسها برخاوة قاتلة في أنحاء عديدة حتى البحر، وتحرص على أن تغلق ذهنيّاً على نفسها الأبواب بعد غياب الشمس، هذه المدينة التي تتحدث بصوت عال عن الفضيلة، وتعطي الفضيلة طابعاً عملياً يتحدد بمقدار الربح والخسارة، وتفرح بخجل كأنها تقترف إثماً، وتحزن بفجور، وتنظر بلا مبالاة، وبعض الأحيان بسخرية، إلى الكثير مما يجري، كأنه لا يعنيها. هذه المدينة بفجاجتها ظاهرياً ولا مبالاتها باطنياً، والقذارة المعنوية التي تختزنها، وتلك القيم السائدة فيها، جعلتني في مرحلة من المراحل اعتبرها مسؤولة عن حالة الضيق وبالتالي عدم القدرة على التكيف مع ما يجري، وجعلتني أحس أن الجبل اللابد فوقها، وكأنه الرأس الأقرع، والخضرة المغبرّة الكامدة التي تهمد فوق أشجارها، ثم الحجارة الكلسية الرخوة التي ترتفع مدماكاً فوق آخر لتشكل بيوتها، هي التي تجعل الناس هكذا، إذ لا يعقل أن يكون الناس على هذا القدر الهائل من الرخاوة والمداجاة وفساد النفس, لولا الريح النتنة التي تهب على عمورية معظم أيام السنة. كما لا يُعْقل أن يكون الناس هكذا لولا أن المدينة لا تكفّ عن ترويضهم وإعادة تكوينهم باستمرار، لكي يصبحوا في النهاية هذه الابتسامات البلهاء التي تفترس الوجوه، دونما معنى، وتبقى بواطنهم أسراراً لا تُخترق.

لو لم يكن الأمر كذلك، كيف أفسر هذه القوة الخارقة التي تمتلكها عمورية، والتي تحيل الناس، خلال فترة قصيرة، إلى مخلوقات مشوهة عاجزة، أقرب إلى الحيوانات المدجنّة؟ كيف أفسر هذا التشابه الذي يزداد ويترسّخ بين أهل عمورية القدامى، وبين الذين جاؤوا من الأرياف؟ إن

للمدن أسواراً، وهذه الأسوار ترفض أن تسلّم مفاتيحها بسهولة للغرباء والعابرين، أو للذين يبحثون عن الطرافة أو الصدفة العابرة. وإذا كان لكل مدينة أسوار ومفاتيح غير ميسّرة، فإن مدينة كعمورية غارقة في القدم، محملة بالتاريخ، تضيع فيها الأسرار، وتتصاعد فيها الأوهام إزاء الذين لا تسلّم نفسها لهم بسهولة.

هكذا كنت أفكر. وتوصلت بنتيجة هذا التفكير إلى نوع من التوهم بأنني أقوى على تفسير بعض الأحداث والظواهر. لكن تفسيراتي لم تكن ثابتة إلى الدرجة التي أثق بها كل الوثوق أو اعتبرها طريقي للخلاص. فإن تكون عمورية جبلية لا يعني تميزاً لها، لأن هناك مدناً أخرى كثيرة تنهض فوق الجبال: فدمشق وعمان والقدس والجزائر، ومدن أخرى كثيرة غيرها، تكاد تشبه عمورية من حيث الموقع. وأن تهب عليها الرياح في معظم أيام السنة، فإن أكثر مدن الشرق، المطوقة بالصحارى والمياه، ونتيجة الحرارة والبرودة، تكون عرضة للتيارات الهوائية، ومع التيارات والرياح تحمل الصحارى «خيراتها» إلى هذه المدن فتجعلها تغتسل في ذرات الغبار ليل نهار، وتحيل لونها إلى صفرة، ثم لا تلبث هذه الصفرة أن تكمد تدريجياً بفعل القذارة والأجساد المتفسخة... أما الحجارة، فأن تكون من الكلس الهش أو الغرانيت الصلد فلا يعني شيئاً في قيام مدينة من المدن. هل كانت عمورية تختلف كثيراً لو قامت في سهل غريني من آجر مفخور أو مجفف في الشمس؟.

هكذا كانت تتوازى في ذهني الصور والتفسيرات. ما أكون قد حسمته في الليلة الفائتة، وكنت شديد الاقتناع في أنه يفسّر الظاهرة، لا ألبث أن اكتشف ضعفه. وبعض الأحيان نهايته وسقوطه. وأبدأ مجدّداً البحث في أسباب أخرى تفسر الظاهرة. طبعاً للنفط أثره العميق. اكتشفه الأمريكيون، وعلموا الناس الخطيئة، بل الخطايا السبع كلها.

ان تكون عمورية واقفة كالصخرة، في وجه الصحراء، متحصّنة بالجبل الأول ثم بمجموعة الجبال التي تليه، ان تكون مغبّرة مليئة بالذباب، وان تغلق أبواب عقلها عند غياب الشمس، وتنام قلقة منتظرة،

ويتطلع أناسها بتساؤل مستمر إلى ما يجري وقد أعياهم الترقب وأمضّهم الانتظار يجعل منها شيئاً متفرّداً. ربما. ولكنها بهذا الوجه المتفرد، المليء بالندوب، بمقدار ما هي واحدة، هي الكل أيضـاً... هي موران والعامرية وغسرين والطيبة وعشرات المدن والقرى الأخرى الممتدة، كالعقود الرخوة، على أطراف البحر، أو النائمة في المستنقعات الداخلية.

إذن.. ليست عمورية المدينة، الحجارة والهواء والخضرة الكامدة، ما يولد الحالة التي أعيشها ويعيشها الآخرون. عمورية، ككل المدن الأخرى في العالم، محايدة في قرارتها، لا عواطف ولا مواقف.. الناس، البشر الذين يعيشون فيها هم الذين يعطونها من أنفسهم شيئاً تتميز به عن المدن الأخرى، وهم نيابة عنها يتخذون القرارات، ويصنعون المواقف، ويطلقون العاطفة ـ ويطمرونها.

عمورية الآن غير عمورية حين تركتها قبل خمس وعشرين سنة، وسافرت لمواصلة دراستي، ولو أن فيها من الثوابت ما يجعل تغيرها بطيئاً صعباً. ولكن البشر فيها تغيروا بأسرع مما تغيرت الأماكن.

كانت عمورية حين قررتُ (أو قرر لي أبي) في تلك الظروف أن أغادرها، على درجة كبيرة من الالفة، رغم فقرها والمصاعب الكثيرة التي كانت تعاني منها وتطحنها. كانت عمورية آنذاك تدرك ما تريد. وهذا ما جعلها أيامئذ متألقة، مصممة، وشجاعة.

صحيح أن الفترة التي سبقت رحيلي كانت مليئة بالألم والمعاناة، وكانت مليئة بالصرخات المكتومة أواخر الليل. لكن تلك كانت صرخات الذين يحاولون شق الطريق، الذين يريدون أن يرفعوا عن صدورهم كابوساً ثقيلاً امتد طوال عشرات السنين السابقة.

كان يفترض أن أعاند أكثر. أن أرفض أقتراحات أبي وإغراءه، وأن أبقـى فـي عمورية. لكن الأمور حصلت بسرعـة، وفي جو نفسي مشحون. ولم يفصل بين اقتراح الفكرة واتخاذ القرار، سوى ثلاثة أسابيع. أبي وحده الذي فكر عني واتخذ القرار. كنت في عالم آخر، أفكر وأتصرف بطريقة غير طريقته، لكن الأحداث السريعة، والتي شابهت الزلزال، لم

تدع أحداً يفكر برأسه، ولم تدع أحداً يتخذ القرار الذي لا يندم عليه فيما بعد. حصلت الأمور بسرعة خاطفة، وامتلأ صدري بالمرارة والحقد على أبي لأنه دفعني هكذا من ظهري، وطلب إلي أن أسرع في مغادرة عمورية قبل أن تداهم بيتنا الشرطة مرة أخرى. كان من الممكن أن تحصل الأمور بشكل آخر. وفي مطار لندن، وأنا أحمل حقائبي، بدت لي الدنيا سوداء إلى درجة القتل ـ بعد فوات الأوان.

وبقيت عمورية تشتعل في ذهني طوال سنوات الدراسة. كانت كالجوهرة ببريقها وعنفوانها، حتى أن أذني اليسرى لم تتوقف يوماً واحداً عن الطنين، لأن في عمورية دائماً من يذكرني ومن يحبها ويتحدث عنها بفخر. عمورية، هذه الجوهرة المتألقة، بمقدار ما كانت تبعث فيّ الحنين وتحرّضني باستمرار، كانت تتشكل في ذهني بأشكال لا حصر لتنوعها. غير أن الخوف عليها كان أقوى هذه الأشكال وأكثرها حضوراً. لا.. لا أقصد الخوف بمعناه العادي المألوف. إنه شيء آخر أقرب إلى الحذر أو اللذة، ويتجسد أكثر ما يكون حين أحمل نفسي بحذر، لكي أتيه في أزقة عمورية، في أزقة بعينها، لكي التقي بنائلة، وامتلىء بذلك الوجه الساحر وتلك الجدائل الطويلة التي لا تتوقف لحظة واحدة عن الرقص، أو لكي أخطّ بالأحمر على الجدران أو أوزّع المناشير. كنت حين أفعل أحد هذين العملين امتلىء بالرغبة، باللذة، بالحذر، بشيء لا أعرف ماذا أسميه أو كيف أصفه.

لكن عمورية تغيرت. أجل، تغيرت كثيراً.

لعلها الآن أكبر مدينة مشوّهة في العالم. إنها تشبه كل المدن ولا تشبه أية مدينة. إنها لا تشبه حتى نفسها. عمورية قبل ثلاثين سنة كانت أجمل. أو ربما كانت نظرتنا إليها أكثر براءة وبساطة. عمورية الآن تشبه العروس القروية التي تريد تقليد نساء المدن، ولذلك فهي تضع على وجهها كل المساحيق وبكميات كبيرة. وتضع على جسدها مجموعة من الخرق الملونة المتنافرة، ثم تتباهى باستعراضها كل هذا النشاز من الأشياء والألوان.

عمورية الآن مثل تلك العروس القروية. جاءت الأموال السهلة

لتفسدها، لتشوهها، فلم تحتفظ بالماضي ولا استطاعت أن تدخل المستقبل. وظلت تستعير من الآخرين وتكدّس، ولن يمر وقت طويل حتى تنفجر من التخمة.

هذا الموضوع بقدر ما يثير اهتمامي أحس أني عاجز تماماً عن عمل أي شيء بصدده. فلا كتابة المقالات ولا إلقاء المحاضرات، ولا حتى إقامة المهرجانات العالمية كفيلة بحل هذه المشكلة التي تزداد تعقيداً كل يوم. أذواق الناس شذّت، أصابها عطب. ما الذي استطيع أن أفعل لكي أقف في وجه هذه الموجة العاتية؟ ماذا يستطيع روائي، أو أستاذ في أكاديمية الفنون، أن يفعل؟ كيف أفسر تأثير البيئة على أذواق الناس وتصرفاتهم؟ أم أن الأموال، إذ أتت بيسر ودونما جهد فكري وعضلي، أفسدت الناس؟ ولكن من ذا الذي يريد أناساً فقراء ومدينة معدومة؟

هل تضخمت عمورية من غير حساب؟ هل أفلست روحياً إلى الحد الذي لا يمكن عنده انقاذها؟ أكاد أقول، وقلبي يتحطم، إنها دخلت في حالة من الغيبوبة رغم حركتها الظاهرة. وما لم ينفخ في أرجائها في صور من نوع خارق، لست أدري كيف سيتاح لها أن تستيقظ على حقيقتها. لست أول من قال ذلك، ولن أكون الأخير. وأخي أدهم أكثر إصراراً مني على الكثير من هذا. وخالي، حسام الرعد، قد يترنح على الأرصفة كقصبة تهزها الريح، ولكنه لا يتورع عن أن يوقف أي عابر سبيل في الليل ليقول له: «ألا تظن أن عمورية آن لها أن تلتهب؟» ثم يرسل قهقهة مخمورة ترتج لها نوافذ العمارات المظلمة. وقد سألته مرة تعقيباً على سؤاله: «وإذا لم يبق منها إلا الرماد؟» نظر إلي بحدة، وأمسكني من كتفي وهزني بقوة، ثم أطلق قهقهة مخمورة أخرى لتملأ جوانب الليل.

[١٣]

حين كنت بعيداً، كانت عمورية تتمـدد في ذاكرتي كما لو أنها حورية البحر: مشعة، زاخرة، مليئة بالعنفوان. كنت أتذكر شوارعها شارعاً شارعاً، وأتذكر المنعطفات والزوايا، لكن أكثر ما أتذكر، الناس في عمورية. وحين تشمخ المدينة في ذاكرتي تعاودني الرغبة في الدفء والاقتراب من الآخرين، وتنتابني حالة من الهياج والنزق لا أعرف إن كان عليّ خنقها أم الامتثال لها، فأحس بحاجة إلى الغناء أو البكاء. هل كانت نائلة هي التي تولّد في قلبي هذه المشاعر؟ هل كان الشعور بالذنب نتيجة التخلي عنها والامتثال لأوامر أبي؟ كان أبي، أول الأمر، يضحك بسخرية، ويعتبر تلك المهمات السياسية التي أقوم بها مضيعة للوقت، ولا بد أن أتخلى عنها حالما أكبر قليلاً أو حين أقع في غرام فتاة.. لكن بدا له الأمر خطراً في وقت لاحق، فبعد أن أوقفتني الشرطة لاشتراكي في مظاهرة ضد الأحلاف العسكرية الأجنبية، وبقيت في النظارة ثلاثة أيام، وهو يرفض أن يأتي أو أن يبعث أحداً لتقديم الكفالة المطلوبة كي أخرج من النظارة، بعد هذه الأيام الثلاثة، جاء. كان يبدو لي رجلاً مختلفاً، كان شديد العصبية، نزقاً، وبكلمات قليلة، أقرب إلى الشتيمة، طلب إليّ أن أتوقف عن هذه «السخافات»، كما سماها، وقال إنه إذا اضطر هذه المرة إلى المجيء وتقديم الكفالة المطلوبة، فلن يفعل ذلك مرة أخرى حتى لو رأى جسدي يهتز في الهواء معلقاً على مشنقة. تطورت الأمور بعد ذلك بسرعة، وبدل أن يحاول اقناعي أو يحدد حركاتي وعلاقاتي اتخذ ذلك القرار: قرار السفر. وكما ذكرت، خلال ثلاثة أسابيع وجدت نفسي في مطار لندن. ارسلني مع صديق له كان مسافراً، وفي بضعة أيام كنت في فصل من فصول الطلبة الأجانب أتعلم اللغة الانكليزية، وما كادت شهور تنتهي حتى بدأت أهيىء نفسي لدخول الجامعة. صحيح أن صعوبات كثيرة قابلتني، وكدت أتوقف عن متابعة الدراسة أكثر من مرة، ولم أكن السبب

في ذلك كل المرات، لكـن قوة ما هي التي ظلت تدفعني حتى وجدت نفسي، وقبل انقضاء سنة ونصف على وصولي إلى لندن، طالباً في جامعة مانشستر.

عمورية قاتلة. عمورية استطاعت أن تقتلني أو أن توقع بي إصابات لا حصر لها، حتى على ذلك البعد. كانت معي أينما ذهبت. كانت تراقبني، تنظر إليّ، وتستمع إلى الهمسات التي كنت أوشوش بها الفتيات اللواتي تعرفت عليهن. لم تكن عمورية وحدها. كانت نائلة تبرز إليّ من المنعطفات، وتقف في الزوايا المظلمة. أو... انني أتذكر الآن بمرارة حارقة تلك اللحظات من الخوف، حين أراها تبرز أمامي وأنا أسير مع فتاة، أما حين تنظر إلي من خلال عينين سحريتين، وأنا اتحادث مع امرأة، فكانت تثير في نفسي الخوف والحقد، في آن واحد.

طوال ست سنوات كنت مطارداً. كنت اتخفى، أتوارى. كنت أنتحل لنفسي أسماء لا حصر لها. وإذا تذكرت الآن الأسماء المستعارة التي انتحلتها أشعر بنوع من المتعة والاستغراب معاً. لماذا كنت هكذا؟ ولماذا كنت أحمل معي عمورية أينما ذهبت؟ولماذا أحرص على هذا العالم الوهمي المتمثل أيامئذ بنائلة؟ كانت نائلة تنظر وتبكي. كانت عاجزة عن الكلام. لم تستطع أن تقول كلمات كثيرة حين أبلغتها بالسفر. قالت إنها ستبقى وإنها ستنتظر، لكن بعد السنة الثانية، وبعد عدة رسائل تبادلناها خلال الفترة الأولى، لم يبق شيء. جاءها واحد من أبناء عمورية، من أقربائها. ودون انتظار طويل، ودون اعتراضات كثيرة، ذهبت معه. أتوهم، إن أنا تصورت شيئاً آخـر. لكن نائلة التي غادرتني بعد السنة الثانية من إقامتي بعيداً عن عمورية ظلت شبحاً، ظلت حلماً. حين كنت أعتلي التلال الخضراء النديّة، حين كنت انفلت، مثل قرد، في كل الاتجاهات، كنت اتصور نائلة. كانت القبلات الثلاث، وتلك المسكات الصغيرة من الذراع، ومرة واحدة في الفخذ، شيئاً رائعاً، مستحيلاً... وحتى وقت متأخر أتذكر تلك الارتعاشات والخوف وما يشبه السقوط.. ثم تلك التمتمات التي ظلت تدوّي في الرأس والذاكرة، كما لو أنها تحدث الآن.

العيش في المدن الباردة المعتمة يولد في النفس رغبة غير محدودة في إقامة توازن من نوع ما مع الطبيعة، توازن يواجه البرودة والعتمة. إذ ما كدت افتقد عمورية، أو ما كادت عمورية تبتعد، حتى داهمتني البرودة والعتمة، بدت لي الشمس حلماً، وأصبح الدفء أمنية، وغدا جسدي شديد الالحاح عليّ إلى درجة لا أعرف عندها كيف أتعامل معه. هل أن جدي الأول حمدي سويلم، قاطع الطريق، المغني، فاتن النساء، اخترق الزمن والأجيال وجاء ليحل في هذا الجسد، ليمنحني القوة والجرأة؟ هل الخوف من الآخرين ومن المدن الغريبة ولّد فيّ تلك الرغبة في التنكّر والتخفي؟ شيء ما وُلد في نفسي فجأة. وهذا الشيء بمقدار ما كان يسوقني، يدفعني، كان يجرّني إلى الخلف، يمنعني عن الحركة الحرة.

المرأة هي بداية الخليقة، هي كل المتعة وهي أصل الأشياء، قبل آدم، ومن غير الضلوع والطين هي. البياض المشرب بحمرة خفيفة، النعومة الزلقة الرطبة، الاشتعال القاتل، الصوت الصغير المقتول من غير الصوت، النظرة التي تنبع من أكثر من العين، الهسهسات في الحركة، في الالتفات.. اتذكر ذلك فأحس بالتخاذل والقوة معاً، أحس بحالة من التجمع والتكاثف، ثم الانفجار.

كان ذلك أول رد فعل لدي على المدينة، على برودتها. كنت أريد أن أقاوم. جاء حمدي سويلم ذات ليلة وقال لي بصوت شديد الوضوح: «تعرّف على نفسك في الآخرين... في أجساد الآخرين». وحين نظرت إليه باستغراب، تابع وهو يقهقه: «المرأة طريق المعرفة». وغاب حمدي سويلم. ومنذ ذلك اليوم لم أكذّب خبره، إذ ما كاد وقت قصير ينقضي حتى بدأت أدرك معنى الكلمات التي قالها ذلك الشيطان الذي ترك في دمائنا هذا المقدار الهائل من القسوة، ورغبة المعرفة، والعناد.

ولكي أتوازن وأتغلب على الخوف، عزمت على تطبيق وصية الجد الذي ما يزال قبره على التلة الغربية في المطلة، وبدأت أعرف معنى أن يحيا الإنسان: معنى أن يحيا وأن يموت، أن يعرف وأن لا يعرف، أن تكون له إرادة، وأن لا تكون. وكلما حصلت على شيء عن غير حق، بررت ذلك

بأنه من لعنة جدي الأول. حتى حبي لنجوى فيا بعد ـ بعد عشرين أو ثلاثين امرأة بينها وبين نائلة ـ كان ضرباً من قطع الطريق، ضرباً من السلب ـ والعنجهية النفسية. إنني أمير غير معترف به. ولي حقوق الأمراء وشهواتهم. خيولي تحمحم عبر مئات الصفحات التي أكتبها وأخرى تنتظر، وعليّ أن أطلقها في حملة هنا وغزوة هناك تأكيداً على إرادتي. وسألتقي يوماً بحمدي سويلم بين صخور المطلة وأقول له: «أنت بدأت، وأنا أكملت». واستعرض معه الغنائم، ولن يقول إنه كان أنجح مني فيما أدرك وحقق ـ مع فارق الزمن والبيئة: مملكته مئة كيلومتر مربع، ومملكتي الكرة الأرضية كلها. مملكته حرة كالرياح الأربـع، رغم الآغاوات والجندرمة، ومملكتي تملأها الرياح الأربع بالآغوات والجندرمة.

[١٤]

نجوى تعرف كيف تولّد الشكوك في كل لحظة. حتى ابتسامتها، في أحيان كثيرة، تثير التساؤل أكثر مما تولد الراحة.

ومرة أخرى أحاول الآن الالتفاف. نجوى لم تكن هكذا. أو بالأحرى لم ألاحظ ذلك في البداية. كانت نجوى كالندى، أو كالضوء.. هكذا كانت منذ ست سنوات. هكذا كانت عندما التقينا قبل أن تتزوج. في المرة الأولى بدت خجولة، وتعثرت بكلماتها. ورغم أني اكتسبت عادات «سيئة» خلال اقامتي في انكلترا، ومن تلك العادات إقامة العلاقات العابرة مع النساء، بالحديث الضاحك الصريح، وأحياناً برواية النكات البذيئة، فقد شعرت بما يشبه الحرج في لقائي الأول مع نجوى، لكن هذا الحرج زال وتلاشى في المرات التالية. أما نجوى فقد تقبلت جرأتي بمرح، إلا أن الخجل لم يزايلها. كانت تهرب بنظراتها. كانت تبتسم دون أن تدعني أراها. وبعض الأحيان تستعمل كلمات احتجاج مباشرة وعلنية، لكني كنت أدرك أنها لا تعنيها. كنت أحس أن في نجوى شيئاً ما يجذبني إليها، لكن لم أكن صغيراً أو غريراً بحيث أفكر بالكلمات الكبيرة، بالأحلام التي تراود العشاق والمراهقين. كنت أعرف أن أمراً مثل هذا يجب ألا أفكر فيه. كما لن أنجر إلى مغامرات وإحباطات. كنت أحتفظ بمسافة كافية بيني وبين أية امرأة. لا أزعم أني أعرف عالم النساء معرفة كاملة، لكني على ثقة بأنني أعرف عن هذا العالم الكثير، أعرف عجائبه وروعته وجنونه. وأعرف أكثر من ذلك نوعاً من النساء لا يرضى إلا بالسيطرة الكاملة والامتلاك الكلي. وهذا النوع من النساء كنت أخشاه بقدر ما أريد أن أحاوره، أن أبارزه، أن أدخل معه في معركة. نجوى كانت من هذا النوع.

بدأت القصة بشكل بسيط للغاية، كما تبدأ آلاف القصص مثلها، وكان يمكن لها أن تنتهي دون أن تخلف ذكرى أو تترك أثراً، فتُنسىٰ حتى من الذين كانوا «أبطالها»! لكن الأمر بدا، منذ اللقاء الأول، مختلفاً.

صحيح أنه خلال ذلك اللقاء، واللقاءات التي بعده، لم تحصل أمور غير عادية، بل كان الجو فيها مليئاً بالحذر وتخلله صمت طويل، حتى قلت لنفسي في فترة من الفترات أن نجوى بليدة ولا تخلو من كبرياء مصطنعة، ولذلك لم أفكر بتوثيق العلاقة، ولم أحرص على اللجوء إلى الحيل الصغيرة التي كثيراً ما يلجأ إليها العشاق أو الصيادون.

وفي هذه الفترة انشغلت بأمور كثيرة، إذ إضافة إلى جمع المعلومات عن منمنمات القرنين الثاني عشرة والثالث عشر للميلاد، كنت أنوي وضع دراسة دقيقة عنها، كنت أريد أن انتهي من كتاب عن تاريخ الفن المقرر للطلاب الصف الرابع في الأكاديمية. وكنت مشغولاً أيضاً في وضع روايتي الجديدة «شجرة النار» في شكلها الأخير ـ وقد انجرفت إلى العيش في أجوائها ومع شخصياتها ليلاً ونهاراً. لم يكن لديّ الوقت أو الاستعداد النفسي لأن أعيش قصة حب أخرى، خاصة مع امرءأ مثل نجوى. ولو أنني، في زاوية مظلمة من نفسي، تصورت أن نجوى لا تخلو من شبه بإحدى نساء «شجرة النار». ولكنني اسقطت ذلك من ذهني، قائلاً إن العلاقات التي يمكن أن أقيمها باتت وكأنها لعبة معروفة ومستنفدة. هذه العلاقات كنت أعرف مداها، وتطوراتها، ثم نهاياتها، وكل طرف آخر يعرف أيضاً، دون كلمات ودون مناقشات، هذا المدى، وما ينتظره من تطورات ثم نهاية. هناك أمور في الحياة، رغم أهميتها وضرورة الحديث فيها وعنها، إلا أن حالة من البكم تحيط بها. وبمرور الوقت تصبح مثل هذه الأمور أسراراً غامضة وحالة من العجز والحيرة، ثم تحيط بها مجموعة من التفسيرات تحيلها إلى وهم حقيقي... هكذا كانت علاقاتي مع عدد من النساء.

نجوى اذن لم ترد في بالي، لم تشغلني كثيراً، غير أنني اعترف في ذات الوقت أنها كانت تترك في نفسي، بعد كل مرة نلتقي، أثراً لا أستطيع تحديده. ورغم أني لم أفطن لهذا الأمر في البداية، إلا أن حالة الضيق، وبعض الأحيان حالة العصبية أو الاستغراق في أفكار غامضة مشوشة، جعلتني استعيد أموراً لم تكن تخطر في بالي من قبل.

أريد أحياناً أن أجمع حياتي الماضية كلها، علاقاتي، قناعاتي،

أوهامي، أن أجمعها في بؤرة واحدة، لا لكي انظر من خلالها، وإنما لكي أفجرها وأبعثرها، حتى تصبح نثاراً من الذرات الهائمة في فضاء لا نهاية له. ثم أحاول جمعها من جديد، أحاول جمعها وإعادة ترتيبها، كل ذلك أفعله مدفوعاً بوهم استعادة أيامي الماضية ضمن نسق استطيع أن أفهم له منطقاً، أياً كان هذا المنطق.

محاولة عسيرة، ولا تعتمد منطقاً، كما أنها قد لا تعني شيئاً حقيقياً، حتى على افتراض إمكانيتها. لعل الباعث لهذه المحاولة هو الرغبة في إعادة صياغة الحياة، أو على الأقل تذكرها جميعاً على نحو متصل.. وبين الرغبة والمحاولة تختلط الأشياء، وتتراكم.

دماء العائلة... لقد تركت خطاً عميقاً. إنه لا يظهر في الملامح، كما تؤكد عمتي نصرت، ولكن لهذه الملامح ناحية خفية، لا تراها العين بسهولة، حتى بالنسبة لي ظلت خافية فترة طويلة من الزمن.. وحين تكشفت أصبت بالفزع، ثم بالحيرة، وأخيراً وقعت في دوامة تساؤلات لا إجابات عليها، قطعاً.

لا دماء العائلة وحدها. فتلك الأحداث المدوية، وتلك التي مرت دونما دوّي، ولكنها مرقت في اللحم كالسكين، والتغيرات التي حصلت خلال هذه الفترة، وما خلفته من مآسي وحماقات سيطرت على حياتنا، هذه كلها تركت مرارات كثيرة.

ثم جاءت العلاقات النسائية: علاقات من الصعوبة أن تجتمع في وقت واحد، وفي مكان مثل عمورية، لكن هذا الذي حصل عملياً. ونتيجة هذه العلاقات المتداخلة تولدت حالات مضطربة، فيها متعة ولذة، وفيها مخاطر وآلام. لأن نجوى لم تكن الوحيدة بل كانت واحدة من علاقات. صحيح أن وضعها كان متميزاً وأساسياً، لكنها لم تكن الوحيدة.

عن أي شيء أتحدث الآن؟ اختلطت الأفكار، والرغبات، مع الوقائع مرة أخرى. وفرزها أمر شديد التحدي، ومهمتي هي أن أعيد ترتيب الأجزاء، أن أجمع الذرات المتنافرة، لعل الصورة تتضح ـ تتضح لي أنا، على الأقل.

[١٥]

هناك ما لا يتحدد بالزمان. ولا يتحدد بالمكان. شيء ما أشبه بالوجود المطلق، يتعدى كل حس بالزمان والمكان. ينتاب المرء بغتة، على غير ما انتظار. ينتابه في لحظات لا بد أنهاتكوّنت نتيجة فعل غريب لا يفسر في خلايا الدماغ. وهي «لحظات» بالمصطلح الزمني، غير أنها خارجة على الزمن، بقدر ما هي «مسافة» بالمصطلح الجغرافي، ولكنها خارجة على الجغرافيا. كأن فجوة في الكينونة تقع، تؤكد الكينونة وتتخطاها معاً. مثل هذا الشعور كان ينتابني أحياناً، ويرعبني. وكلما تأملت فيه فيما بعد، كنت كالمتخبط في فراغ. وهو يعاودني الآن أكثر من قبل، ويرعبني كل مرة، ولا أستطيع التعود عليه. أشبه بغيبوبة، ولكنها غيبوبة واعية. كيف أصف هذا الحس المتناقض؟ وكما أنك في ثوانٍ قد تحلم حلماً فيه أحداث سنوات، هكذا تعي ما لا يستطيع الوعي حصره من وجود مكثف ولكنه شفاف، متحرك ولكنه ساكن. هل هي رفرفات أجنحة الجنون تباغتني، تعدني وتنذرني معاً؟ أن أرى حياة كاملة، تعلو وتسقط، تتبلور وتتفجر، تُلتهم شبقاً ولذة، تذوب حزناً وأسى، وتستوي عنيفة وفاجرة، وتغيب في أعماق أوقيانوس مجهول - أي زمن ذاك؟ أي حدود فضائية تلك؟ أي مرحلة من مراحل العمر، أو الكينونة، أو الولادة، أو الموت؟ أي وجود آخر يفرض نفسه ويلغي كل ما هو سواه؟ أأحيا فيه حياة أخرى، هي ربما الحياة التي كان يجب أن أحياها وأنا لا أدري؟ أثمة علاء آخر بين جُنحَيّ، يسكن في أهدابي دون معرفة أو إذنٍ مني، يفلح في وهلات الرعب في التأكيد على وجوده فيّ؟

لو كنت فقط نتاج تجربتي الشخصية (ولتدخل فيها تجربتي العائلية)، لهان الأمر. أو لو كنت فقط نتاج تجربتي القومية التاريخية، لهان الأمر كذلك. أو على الأقل لأتضح الطريق أمامي، ولعرفت وجهة سيري - ولو إلى الحد الذي يكون ثمة هناك ما، أو من، ينقذني من الضرب في التيه.

ولكن التجربة الشخصية كانت متداخلة مع التجربة التاريخية. كنت في دخيلة نفسي أربّي إنساناً لا يخشى التمرد في سبيل ما يرى أنه الحق، أو الرغبة، أو مهما يكن ذلك الذي تطلبه الذات على رؤوس الأشهاد كما تطلبه في أحلامها السرية ونشواتها المكتومة. وكنت في الوقت نفسه أربّي إنساناً يريد تسيير التاريخ بصحبة جماعته على نحو يدفعها إليه شعورها بألف سنة من الاضطهاد وسلب الارادة، والسيطرة من قوى شريرة غامضة تنقّض عليها من فوق، أو تتآكلها من الداخل. ولكن ما مقدار ما اتفق هذان الانسانان فيّ؟ ما مقدار ما اتفق انسانان كهذين في أي شخص عرفته طيلة عمري؟ يكفي أن تتحرك جَماعياً، لتُسلب إرادتك الذاتية بعد يومين أو ثلاثة. يكفي أن تتحرك كفرد، ليفرض عليك الحظر، بشكل أو بآخر. وإذا حاولتَ ايجاد الصلة ـ التي تتصور أنها لا بد أن تكون حركية، جدلية، ومولِّدة ـ بين دخيلة ذاتك (بمؤثراتها التي لا تحصر، بنوازعها التي تعجز التحكم بها إلا تحت طائلة العقاب أو الطرد من المجتمع) وبين دخيلة جماعة تدفعها اللهفة إلى المستقبل، ويتحكم بها الارهاب من كل صوب في الداخل والخارج، اكتشفت أن ما أقمته من صلة ليس إلا وهماً آخر لا يكاد يترك خدشاً في واقعك التاريخي، ويشوّش عليك أصواتك الداخلية.

عمورية ليست المسؤولة. الناس في عمورية هم المسؤولون. قد تكون عمورية بامتدادتها السرطانية واتساعها غير المنطقي، ثم تلك الطريقة الغبية في البناء، المستعارة من البداوة بشكلها دون أن تكون ممثلة لروح البداوة، والتي تأخذ شكل البقع أو البثور الجلدية في سطوح وسلاسل غير منتظمة، قد تكون عمورية بهذا الشكل سبباً في خلق الفجوة بين الناس وما حولهم من طبيعة وأشياء. لكن هذه المدينة لم تختر شكلها وأسلوب الحياة التي يلائمها، كما لم تختر هذا الامتداد والاتساع. البشر هم الذين اختاروا وقرروا. ونتيجة هذه الاختيارات الفظة اكتسبت عمورية هذا التجهم الذي يلمسه الانسان، بل يصدم به في كل لحظة. الناس الأوائل في عمورية، والذين تعاقبوا جيلاً بعد جيل، وتركوا آثارهم في الأشياء المتواضعة التي خلّفوها، كانوا أكثر عقلاً ورأفة بأنفسهم وبما

حولهم. لكن السنوات التي تلت الحرب الأخيرة غيرت حياة الناس وأفكارهم وسلوكهم، وتبعاً لهذا التغير تغير كل شيء.

نعم. ما كانت عمورية لتأخذ هذا النسق من الامتداد والاتساع، وما كانت لتكتسب هذه القسوة والوحشية لولا انبثاق هذه الثروة ـ اللعنة فجأة، ودونما جدارة من أي نوع، ودونما استحقاق أيضاً. نامت عمورية ذات ليلة وقامت في الصباح لتجد نفسها شيئاً جديداً.

من حقي أن أتذكر الأيام القديمة لعمورية. قد تكون أياماً قاسية مليئة بالعذاب، لكنها كانت ضمن أي مقياس يختاره الانسان، أكثر رحمة وانسانية. لا، لن أدافع عن قسوة البشر الذين راحوا. ولن أكون غبياً لكي أدافع عن هياكل الدراويش والآغوات، وأولئك المبطونين الذين اختبأوا طيلة الفترة التي حارب خلالها البائسون والفقراء، والذين لا أسماء لهم، حتى إذا انتزعوا الاستقلال وحرروا أرض الوطن، جاء أبناء الدراويش والآغوات والمبطونين، لكي يعفّروا وجوههم، في اللحظات الأخيرة، بغبار المعركة، ويرفعوا أصواتهم أكثر من أصوات الفقراء، لكي ينتزعوا كل شيء لأنفسهم. نعم لن أدافع عن أيام قديمة. الأيام القديمة انزلقت إلى التاريخ، وقد تجد من يستعيدها لكي يعطيها قيمة من نوع ما. ما أحرص عليه الآن هو ألا أترك الحياة المزورة تسيطر على كل شيء. أعرف أني مجرد فرد. فرد أعزل. ولا أملك من وسائل الدفاع سوى تلك الأوراق التي سودتها، والنوايا المثالية. وقد أسقط في هذه المعركة الكبيرة الطاحنة. لكن وقتاً سيأتي يلّذ لي أن أتخيله، لا يحول الكلمات إلى رصاص ـ وسوف يكون رصاصاً قاتلاً ـ بل يجعلها وعياً متوثباً، وحباً للإنسان والوطن.

في سفرة واحدة قطعت مرحلتين. وإذا واصلت السير بهذه الطريقة فسوف أكون كالمُنْبَتّ، لا أرضاً قطع ولا ظهراً أبقى... أدرك ذلك. ولكن تلك الحمىّ التي تشتعل في داخلي لا تترك لي فرصة كافية، وتجعل ذهني مضطرباً وعصبياً، فتتداخل الأفكار والمراحل، وأضيع بين الحلم والواقع، بين الإمكانية والرغبة. لكن مهلاً، فعمورية التي تبدو لي الآن

متفردّة ضاجة، إنما يختال في شوارعها عشرات الخواجات الجدد. عمورية التي أراها الآن، أرى أنها مع كل حجر تقيمه، مع كل ضربة فأس في أرضهـا، تخنق روحاً وتقتل حلماً. وهي تفعل ذلك بتعمد وبصوت عال.

أعرف أني الآن أتعدى وأني تجاوزت الحدود المسموح بها، ولا بد أن ينهض واحد من أبناء عمورية الغياري ويطلب أن يعلق علاء سلوم في أحد الميادين عقاباً على ما اقترفه لسانه، أو أن تغمز عينٌ مشيرةً لأحد الذين عرفوا النعمة مؤخراً، وينطلق هذا الصنديد لكي يخلص عمورية من هذا الوباء، وينتهي علاء سلوم كما انتهى آلاف قبله ـ وكما سوف ينتهي آلاف بعده إذا ظلت الأمور كما هي الآن!

لا أقول هذا الكلام تحريضاً أو إثارة. لا، لست على هذه الدرجة من الرعونة، وما عدت بسذاجة صباي أعتبر نفسي نبياً أو قديساً عليه أن يبشّر ويدعو. أنا إنما فقدت الثقة، وأوشك الآن أن أنسحب بهدوء من المسرح دون أن يحس بي أحد، ودون رغبة من أي نوع: ما دفعني لقول ما قلت هو أن عمورية البشر، عمـورية القلوب، تضخمت وتغيرت، تغير من فيها من بشر وقلوب. ولكنت ربما أرضى بذلك كله، لولا أن نجوى، منقذتي ذات يوم، أثارت في نفسي الدهشة والحيرة، ثم الغضب لفرط ما تغيرت هي أيضاً.

[١٦]

في أكثر من فترة واحدة في حياتي، كـان العيش مستحيلاً عليّ، لولا سعيد، وحبه، وبراعته. ربته أمي على العناية بي منذ طفولته. وقد جاءت فترة في الستينات تركنا فيها ليُعنى بشؤون خالي، حسام الرعد، ولكنها لم تطل، وعاد إلينا، ووُفِّقت أمي في تزويجه من كلثومة، كما كانت قد زوجت أمه قبل ذلك بربع قرن أو أكثر من أبيه، حمد الشاكر.

كانت امه عوّاشة فتاة يتيمة من إحدى القرى الجبلية أتت بها أمي، في السنين الأولى من استقرار أبي في عمورية، وجعلتها في خدمتها، حتى غدت جزءاً من العائلة. ولعلها لم تكن يوم مجيئها إلينا قد بلغت الخامسة عشرة من عمرها. وقصة زواجها ـ بعد ذلك، بسنوات ـ بقيت من تراث عائلتنا: ترويها أمي، وترويها عواشة حتى بعد أن ترملت، وشاخت، بتلذذ كبير.

فقد كان يتردد علينا في بعض الأحايين جندي، أصله من المطلة، يدعى حمد الشاكر، وكلما جاء أقام عندنا لثلاث ليال أو أربع. أحبته عواشة حباً جنونياً وباتت تتطلع إلى زياراته بلهفة وقلق، ولكنه فيما يبدو لم يكن يفكر كثيراً بالزواج. فنذرت عواشة، بينها وبين أمي، إذا تزوجها هذا الجندي، الذي ترى بدلته الخاكية أجمل من عباءات الفرو وأثواب الحرير، فإنها ستحبو على الأربع، على يديها وركبتيها، طيلة الطريق من دار نجيب سلوم إلى جامع السلطان علي. . . والمسافة بينهما ليست بالقصيرة أبداً.

أفلحت أمي باقناع الفتى، ووعدته إن هو تزوج من هذه الفتاة السمراء، الحلوة الذكية، الضاحكة، فإنها ستسمح لهما بالسكن في «المشتمل» الذي أضافه أبي يومها إلى الدار. وهكذا كان. وتزوجت عواشة من حبيبها.

ولشد ما كانت دهشة أهل الحي حين رأوا ذات صباح باكر، امرأة

تحبو على الأربع على رصيف الطريق، تحبو كحيوان خرافي، ملفعة بعباءة سوداء، وترفع رأسها بكبرياء، وقد كحلت عينيها والوشم الأزرق يتلألأ مكان حاجبيها وعلى ذقنها وظاهر يديها، في أصابعها الخواتم، وعلى كل رسغ يبرز سوار سميك من الفضة، وعلى كل كاحل خلخال كبير من الفضة يلتمع عند أطراف عباءتها.

وكانوا يسألونها: «ما بك يا عواشة؟ هل جننت؟!» فتردّ، دون أن تتوقف عن حبوها: «عليّ نذر، يا أهل الخير. حقق الله مرادكم جميعاً!»

لم ترزق عواشة وزوجها إلا بسعيد. كان طفلاً كثير النشاط والحركة، لا يترك آلة لا يعبث بها أو جداراً لا يتسلقه، كما لا يترك زائراً أو مستطرقاً لا يسأله عن اسمه، أو يلاعبه، أو يشاكسه. أدخله أبي في مدرسة ابتدائية قريبة، وانتهى منها بنجاح، فأدخلناه في ثانوية متوسطة، ولكنه لم ينه منها إلا سنة واحدة، رسب فيها، ورفض العودة إلى المدرسة.

وبعد موت والديه، غدا اعتمادنا عليه في شؤون البيت كلياً. وعندما تزوج بعد ذلك ببضع سنوات، كان الكثير من أمور حياتنا، بعد وفاة أمي، ثم أبي، في عهدة سعيد وزوجته كلثومة. كان يتباهى بأنني أطلعه على ما أكتب قبل أن أطلع أي شخص آخر. لست أدري كيف تطورت الأمور «الفكرية» بنا بحيث جعلته محكّاً، أو مختبراً، للكثير مما أكتب. فهو، إلى مهارته اليدوية في كل ما يحتاج عناية ميكانيكية، جعل يقرأ كلما أتيح له الوقت ـ ويقرأ بتركيز واهتمام، ويعلق معي على ما يقرأ بملء حريته. يناقشني على نحو كان يدهشني أحياناً بدقته. طبعاً كنا نختلف كثيراً. فهو أميل إلى المحافظة في ذوقه، وفي غرفة نومه في «المشتمل»، كان ينزع إلى جمع القواميس والكتب التراثية، قائلاً إن حسبه من الكتب الحديثة ما يراه في مكتبتي! وأنا أبقي على صلتي بكثير من القضايا اللغوية عن طريق اهتماماته هو، ولعله يعرف ذلك فيشعر سراً بأن له مساهمته الخفية فيما أكتب وأنشر!

وكان سعيد أدق مني ومن صبا في الحفاظ على علاقاتنا مع أفراد الأسرة كلها: فهو يحفظ أرقامهم التلفونية ويعرف أماكن سكناهم،

ويتعقب الكثير من شؤون حياتهم، ويبقى كالمكّوك غادياً رائحاً بيننا وبينهم على دراجته النارية التي أشتريتها له هدية في إحدى المناسبات العائلية. والعمة نصرت، ما عليها إلا أن تفتح النافذة من غرفتها في الطابق الأعلى، والمشرفة على «المشتمل»، وتصيح: كلثومة! سعيد! حتى يأتي أحدهما راكضاً إليها، ليتلقى، في الأغلب، طوفاناً من الكلمات لا يربط بينها رابط من أي معنى.

كان سعيد يعرف مبلغ حرصي على سعادة صبا وراحتها، حتى بعد زواجها، فيسعى إلى إرضائها هي ونبيل، بقدر ما يسعى إلى ارضائي. ولا أعرف هل لاحظ اهتمامي بنجوى على نحو يثير الشكوك. فهو يهيىء لنا العشاء كلما اجتمعنا في الليالي معاً في غرفة جلوسي - أنا وصبا ونبيل، ونجوى وخلدون، وقد يكون هناك أيضاً صادق أو غيره من الأصحاب، مع زوجاتهم أو بدونهن. إن الذي يعرفه، هو أن بين صبا ونجوى صداقة اشتدت عمقاً بعد زواج نجوى، لكثرة ما شاهد من زيارات نجوى لنا - وهو لا يعلم (أو كنت أرجو أنه لا يعلم) أن لي علاقة بالأمر.

على كل، بعد فترة، لم يعد يهمني ما يعرف سعيد أو لا يعرف عن العلاقة بيني وبين نجوى. أما صبا، فإنها لم تذكر لي الموضوع، ولو من طرف بعيد. هل كانت راضية عن كل شيء؟

صبا، لو طلبت الشمس مني، لأعطيتها القمر أيضاً. كان جمالها، بالاضافة إلى رقتها وسماحة طبعها، يبدد الكثير من ظلمات الجو الذي كنت أجدني فيه. وعندما تناصفت معها بيتنا، لكي تبقى مع زوجها قريبة مني ومن العمة نصرت - وأخي أدهم نكاد لا نراه مرة في السنة، إذ يعيش في لبنان وسوريا مع الفدائيين الفلسطينيين - لم أمن عليها بشيء، بل شعرت أن ذلك من طبيعة الأمور. ورغم أنها توظفت، وكان لها راتب (مهما تكن هذه الرواتب الموضوعة وفق نظم استخدامية عتيقة لا علاقة لها بتكاليف العيش المتصاعدة)، فقد كنت أعطيها من النقود بين الحين والحين ما لا أحاول أن أذكر مقداره. وبعد زواجها من نبيل الصالح واضافة راتبه إلى راتبها، لم أكف عن طريقتي القديمة معها. أريد لها السعادة، والراحة.

أريدها أن تكون قريبة مني في البيت، ومستقلة عني في الوقت نفسه. وإذا فرضت على نفسي العزلة، مهما يكن السبب، احترمت هي ذلك مني، ولم تقحم نفسها عليّ، إلا بطلب مني.

هل كانت تعرف شيئاً عن حقيقة ما يجري بيني وبين نجوى؟هل أخبرتها نجوى؟ هل همها الأمر، أم لم يهمها؟

هل كانت تريدني أن أبقى متعلقاً بصديقتها ـ لحبها لها، أو لي، أو لأي سبب آخر لن يخطر ببالي؟ ولكن من، بحق السماء، من استطاع أن يدرك أعماق ذهن العمة نصرت ـ تلك الأعماق السحيقة المظلمة ـ ليفهمها أنني لا أستطيع أن أحيا يومين متواليين بغير نجوى؟

في إحدى الليالي كنت وحدي في البيت ـ باستثناء عمتي، المقيمة أبداً في ملكوتها الخفي في الطابق الأعلى ـ في انتظار نجوى، التي اتصلت بي تلفونياً وقالت إنها ستمر بي لبضع دقائق. كنت قد صببت لي كأساً اتسلى بها في فترة الانتظار. كلما انتظرت نجوى، عذبني الانتظار وكأنها أول مرة انتظرها فيها، وعليّ أن أشغل نفسي بأمر ما. آخذ كتاباً، وشيئاً من الويسكي، وأعزف اسطوانة أو كاسيتة على الستريو. وقد أعزف عدة اسطوانات، حتى باتت الموسيقى عندي مقرونة بذلك الجحيم اللذيذ الواعد بكل ما اشتهي. وما كادت الموسيقى تبدأ، وما كدت أجلس، والكتاب في حضني، وأرفع الكأس إلى شفتي، حتى رأيت بباب الغرفة، دونما صوت، قوام العمة نصرت الممشوق، سوداء كالليل، ما عدا وجهها الأبيض الغضين، ويداها تلوحان بسلاميات عظمية مستطيلة بيضاء. وعيناها فجوتان رهيبتان من ليل آخر.

ـ أفزعتني، يا عمتي!

قلت ونهضت، وهممت بالسير نحوها. ولكنها رفعت سلامياتها عالياً، حيث هي واقفة، وقالت بصوت خفيض أولاً:

ـ لا تقترب مني يا علاء ـ يا حبيبي يا علاء. هل أنت وحدك؟

ـ نعم. هل من حاجة؟

ارتفع صوتها بغتة، كأنها تخاطب جمهوراً من الناس.

ـ أية حاجة؟ أنا لست بحاجة! علاء! أسمع همس الشياطين في هذا البيت من جديد... أخاف عليك من أنفاس الشياطين، وقاك الله وصانك! هذه المرأة القادمة إليك، أتعرف من هي؟ أتعرف ماذا تريد منك؟ علاء، حرستك الملائكة من أنفاس الشياطين... حمدي سويلم صرخ في أذني وأنا جالسة فوق، قرب الشباك، وقال: الحقيه يا نصرت، الحقيه! وعرفت أن هذه المرأة قادمة إليك، تركض وهي حافية، والدم يسيل منها، وحمدي سويلم أبو الملاعين كلهم يصيح: «الحقيه يا نصرت، الحقيه! والحقيها هي أيضاً، الحقيها!.. ولكن مالي ولها؟»

وهبط صوتها مرة واحدة، وقد سقطت يداها إلى جانبيها: «طيب، يا حمدي يا سويلم. الذي عليّ أنا سوّيته... كلثومة! سعيد!»

خرجت وهي تنادي، وراحت تصعد الدرج ونداؤها مستمر، إلى أن دخلت غرفتها وانقطع صوتها. وانتبهت إلى أن الموسيقى ما زالت تنطلق من سماعتي الستيريو الضخمتين. وأسرعت، ورفعت الصوت دفعة واحدة حتى اهتز البيت بزعقات الأوركسترا، وأنا كالمأخوذ جامد في مكاني. جرعت ما في كأسي، والموسيقى تمزّق سمعي. وإذا بي رغم ذلك، اسمع خبطاً عنيفاً على باب المدخل. فأسرعت إليه، وفتحته. وكانت نجوى. فسحبتها من يدها إلى الداخل، وطبقت الباب وراءها. وقالت ضاحكة: «ما بك يا علاء؟ ما هذه الأصوات الطاحنة؟ ضغطت جرس الباب عشر مرات. ألم تسمعني؟» هززت رأسي، ولم أعرف ماذا أقول. فضحكت مرة أخرى، وسارعت بي نحو غرفة الجلوس واتجهت حالاً نحو الستيريو، وأدارت زر الصوت دفعة واحدة، حتى كادت الموسيقى تتلاشى، وجاءت أشبه بهمس بعيد.

كانت الكأس الفارغة ما زالت بيدي، فتناولتها نجوى مني ووضعتها جانباً. «ما بك يا علاء؟ ألا تسمعني، علاء!» وأمسكت بوجهي بين يديها ورفعت شفتيها إلى شفتي. «ما بك يا حبيبي، ما بك؟ لا أستطيع البقاء طويلاً...» وأعادت تقبيلي، وأنا أتلقى شفتيها على فمي، وخدي،

وذقني، ولا أستجيب.

وأظن أنني عندئذ سألتها: «اتسمعين همس الشياطين؟»

فرنت حنجرتها بضحكة فضية: «أتقول همس الشياطين؟ تقصد صراخ الشياطين!»

ـ ماذا؟ أية شياطين؟
ـ أنت الذي تتكلم عن الشياطين.
ـ أوه... أنت والعمة نصرت، كلتاكما مهووستان بالشياطين...

فنظرت في عيني، ومررت أصابعها في شعري، وبعض شعرها تائه على خديها، «علاء، أتهذي؟ أتهذي من الحب، أم أنك شربت كثيراً؟» ثم وضعت كفها على جبيني: «أنت محموم!»

ـ لا، لست محموماً. أبداً.

وأخذت وجهها أنا هذه المرة بين يدي، والتقمت شفتيها حارتين، نديتين، بين شفتي. «ما ألذك!» قلت، وفمي على شفتيها، وجسدها ينهصر بين ذراعيّ، ناسياً كل شيء. للحظتين أو ثلاث فقط، لأن كلمات العمة نصرت داهمتني مرة أخرى: «حافية، والدم يسيل منها.» فدفعت نجوى عني، وبكل جدية نظرت إلى قدميها قائلاً: «هل أنت حافية؟»

فتساءلت منذهلة: «حافية؟!» ثم مدت قدمها اليسرى. «لا يعجبك حذائي؟» وضحكت.

وسألتها، مستمراً بجديتي إزاء تندرها: «هل أنجرحت اليوم؟»

وأصابتني رعشة في العنق، في فروة الرأس، حين أجابت، مستمرة بضحكتها: «دست على شظية زجاج في المطبخ صباح اليوم... كيف عرفت؟ أوه... وسال الدم من قدمي... شوف.»

ونزعت حذاءها الأيسر بسرعة، ورفعت قدمها وأرتني شريطاً صغيراً لاصقاً فوق الشاش بأخمصها. ومع الرعب الذي أصابني، فاجأني إحساس لذيذ جعلني أهوي إلى الأرض، وأقبّل ضمادة الجرح، وأقبل

أخمصها، وأصابع رجلها، وقد تملكتني شهوة قاتلة. ونجوى تضحك، وتحاول المحافظة على توازنها على قدم واحدة، ولا تكف عن القهقهة إلى أن سقطت عليّ، وأنا ما زلت أقبّل قدمها، ثم ساقها، وجعلت أعضعض فخذيها الحاسرين اللذيذين... ثم أخذتها بين ذراعيّ على أرض الغرفة الباردة... ولا أذكر بعد ذلك إلا قولها: «ولكنني مستعجلة، مستعجلة...»

لقد خفت تلك الليلة، بعد ذهاب نجوى: خفت من وجود العمة نصرت في البيت نذيراً لشؤم لا أدريه ولا أفهمه. ما كان يهمني منها لو أنها بقيت تثرثر بشأن أبي، وجدي وأسلافي، إلى ما شاء الله. لربما كان في ذهنها من الأحداث والأصوات والأخيلة ما يملأ الكتب لو كتبت ـ وذهنها كمرجل يفور ويمور ويقذف من بواطنه كل شيء وقد أختلط حابله بنابله. وكنت حتى ما قبل سنة أو سنتين استمتع بما تهذي به وهو ما زال ذا صلة بأشياء معينة، وأسماء معينة. أما تلك الليلة فقد خفت منها، لأنها أوحت إليّ بأنها باتت ترى أكثر من ذلك. وهو أكثر مما أتحمل. أنا لا أريد معرفة الغيب. ولا أريد معرفة المستقبل. ولا أرغب في أن يريني أحد صوراً غائمة عن نكبات محتملة ومصائب قادمة. ولا سيما بصدد من أحب. فالذين أحبهم لا أريد أن أعرف عنهم إلا الساعة الحاضرة، وفي ذلك الكفاية. الساعة الحاضرة! هل ثمة ما هو أروع منها! وليذهب المستقبل بقضّه وقضيضه إلى الجحيم!

لم اسمع صوت العمة نصرت لبضعة أيام بعد ذلك. فهي في شقتها العليا مكتفية بذاتها، ما دامت صبا تصعد إليها أحياناً، وكلثومة تأخذ طفلتها معها وتجالسها ساعة أو ساعتين كل يوم. وقد اعتاد نبيل أن يصعد إليها في بعض الليالي ويصغي إلى مونولوغاتها الطويلة، فيطلع في أجزائها الشتيته على تفاصيل عائلية يجد في معرفتها ما يعزّز صلته بأسرة زوجته. أو هكذا يقول. ولكن فرحتها الكبرى كانت دائماً بزيارات أخي صفاء، على قلّتها. «أبي، أبي بعينه!» تقول له. تنهض وتقبل خدّيه، وهو يضاحكها ويترك لها (دون علم منا ـ ولكننا نعرف فيما بعد) مبالغ نقدية كانت بدورها

تعطيها هبة لصبا، أو تعطيها لسعيد ليشتري لها لست أدري ماذا. ولم يفتني أن أحد أسرار اهتمام سعيد وزوجته بها، عدا عن ولائهما للأسرة، هو هذه المبالغ التي تنتقل خفيةً من كفها إلى كف سعيد أو كلثومة. هنأهما الله بها.

وصبيحة ذات يوم، وقد أتاني سعيد إلى المائدة بصحن فيه بيضتان مقليتان أريد أن أتناولهما بسرعة لكي لا أتأخر عن موعد محاضرتي الأولى في الأكاديمية التي تبدأ في الثامنة، رأيت العمة نصرت تدلف إليّ، مرتديةً ثوبها الأبيض هذه المرة، وكعادتها تقف بالباب وتقول بما يشبه الهلع: «أين صبوة؟ أين صبوة؟»

فأمسكت عن الأكل، وقلت: «عمتي؟ صباح الخير، أولاً.»

أجالت عينيها في الغرفة كمن يرى ولا يرى، وأعادت السؤال: «أين صبوة؟ أريد صبوة!»

- تعرفين أنها في القسم الآخر من البيت.

- نادوها، نادوها حالاً... لم أذق طعم النوم طيلة الـليـل...

فتشاءمت من لهجتها، وناديت سعيد، وقلت له: «اذهب وقل لصبا أن تأتي لعمتها بسرعة.»

وعندما خرج، سألتها: «خير، إن شاء الله! لماذا لم تنامي يا عمتي؟»

ضربت صدرها بقبضة يدها، ورأسها يتمايل يمنة ويسرة: «يا ويلي عليك يا صبوة، يا ويلي عليك...»

- اف! عدنا إلى الكلام الفارغ! أصعدي إلى غرفتك، واستريحي. سأرسل صبوة إليك.

غير أنها بقيت واقفة بالباب، وراحت تقول بصوت غريب، صوت واضح النبرات ولكنه يبدو قادماً من أعماق دهور سحيقة: «لم يبق خير في الدنيا، لم يبق خير في هذا البيت. أبي مات. وزوجي مات. وأخي مات. والحبل على الجرار... الله يحفظك يا علاء. الله يصونك ويحرسك. الله يحفظك يا صفاء، يا أدهم... يا ويلي عليك يا صبوة... سبعة شياطين

تتعارك عليك طيلة الليل... يا حبيبتي يا صبوة.»

فصحت بها، وقد انفجرت غضباً: «كافي! كافي! أهلكتنا بشياطينك! لا أريد أن اسمع هذا الكلام الفارغ... اطلعي إلى فوق، وخلصينا! اف!...»

وتركت مكاني، وهممت بالخروج. ولكنها بقيت واقفة بالباب، وكأنها لا تسمع صراخي. «احضروها لي. احضروها...»

ثم استدارت ومشت ببطء نحو الدرج. وعاد سعيد إليّ يهز رأسه، ويقول: «صبوة خرجت قبل ربع ساعة. وكذلك عمي نبيل. خرجا معاً، تقول كلثومة، بسيارتها.»

كانت عمتي ما تزال عند أسفل الدرج، فقلت له: «أفهم العمة نصرت ذلك.» ثم أخفضت له صوتي: «ولا تلّج معها. يبدو أنها مضطربة.»

وإذا هي تبدأ بالصعود وتقول: «سأكون في انتظارها. حفظك الله يا صبوة. كان الله في عونك يا حبيبتي.»

فرددت ساخراً، مقلداً لهجتها، وكأنني بذلك أدفع الخوف عني: «حفظك الله يا نصرت. كان الله في عونك يا حبيبتي...» وتمتمت لنفسي: «وفي عوننا جميعاً على هذا الجحيم!»

واجتاحني حنين عاتٍ إلى نجوى، أوسّد رأسي بين كتفها وعنقها، وأغمر وجهي بشعرها، وأشكو لها أحزاني وأحزان البشرية كلها.

[١٧]

في أوقات كثيرة أبالغ في الحياد والقسر، فأقول لنفسي: «العمة نصرت معتوهة، ويمكن للمعتوهين أن يثرثروا ويسرفوا في الثرثرة إلى الحد الذي قد يقولون عنده شيئاً ويصدق، لكن العاقل لا يتوقف عند هذه الأجزاء الصغيرة المتناثرة من الحقيقة!» وانتهي بعد تفكير طويل إلى اعتبار العمة نصرت معتوهة. ولا شيء غير ذلك.

لكن ما أكاد أطمئن إلى هذه الحقيقة حتى تصدمني مجموعة من الوقائع التي تزعزعني: كيف عرفت بجرح نجوى؟ كيف تنبأت بموت أبي؟ ولماذا هذرت ذلك الصباح وملأت الدنيا ضجيجاً وهي تسأل عن صبا؟ وكيف عرفت أن مستودعاً للأخشاب يملكه صفاء قد احترق قبل أن يعرف أي انسان آخر؟

إزاء كثير من الوقائع، والتي تغيب في الضجيج ومحاولات تغليب العقل، لا تلبث أن تسقط القناعات القديمة وترتفع على أنقاضها تساؤلات أخرى: كيف أفسر وكيف أعلل النبوءات الكثيرة التي تتوالى؟ وإذا توقعت رعباً قادماً، ألا يبقى سيفاً معلقاً فوق رقابنا لا ندري متى وبأية صورة سيقع؟ وهل يكفي أن أصف العمة نصرت بالبله لكي استريح وأختم على تلك التساؤلات؟

ذات مرة، وكنت قد قررت أن أغادر البيت إلى الكروم في عين فجار، لكي اقضي في الجبل بضعة أيام، بعيداً عن ضجة عمورية ومتاعبها، وبعد أن طلبت من سعيد أعداد ما أحتاجه من ثياب وبعض الأطعمة، جهزت أوراقي وبعض الكتب، وكدت أن أغادر دون أن يحس بي أحد، وإذ بالعمة نصرت تدخل. كانت عيناها نصف مغمضتين وكانت تتمتم بأدعية وكلمات غامضة، ولما حاولت أن ابتسم أو أتكلم رفعت إليّ يديها طالبة مني السكوت والانتظار إلى أن تنتهي. امتثلت. كنت قد

تعودت منها مثل هذه التصرفات، ولكي لا أخلق سوء تفاهم أو معركة ظللت أنظر إليها صامتاً، وبعد وقت لم يطل كثيراً بدأت تقترب، ومع كل خطوة تستعيد نفسها من الغيبوبة التي كانت فيها، وفي اللحظة الأخيرة نفضت رأسها بقوة كمن يحاول أن يستفيق أو كمن يطرد عن نفسه روحاً شريرة. ظللت صامتاً أرقب المشهد بنوع من الضيق. قالت وهي تمسك كتفي وتهزني:

- اذبح يا علاء... الدم يطهر كل شيء.. اذبح!

رددت وراءها باستغراب وتساؤل:

- اذبح؟ اذبح ماذا؟

- اذبح خروفاً.. ديكاً.. المهم أن ينزل الدم.

قلت بنفاد صبر، وقد بدأت اللعبة تثيرني وتضايقني:

- عمتي.. يمكن لسعيد أن يذبح أي شيء.. وسوف يأتي بجمل ويذبحه!

توقفت لحظة، ثم تابعت بسخرية:

- استريحي في غرفتك، وسوف نغرق البيت كله بالدماء!

قالت بحدة:

- أتمزح؟ كان أبوك وجدك، كان السوالمة كلهم يذبحون إذا ضاقت الدنيا وخيّم الشر!

قلت بسخرية:

- الدنيا بخير. والشر في عيون الشيطان.. ثم أن سعيد سيذبح!

وما كدت أبعدها بيدي قليلاً لكي أخرج حتى صرخت:

- علاء.. لن أتركك تذهب.

إنها إحدى المرات القليلة التي تسلك فيها العمة نصرت هذا السلوك. لم تكن تتدخل في أموري، ولم تكن تعرف متى أغادر ومتى أعود،

كما لا تعرف إلى أين ذهبت ولماذا. هذه المرة بدت شديدة الاصرار إلى درجة تثير الاستغراب. وفي محاولة لأن تمنعني ركضت هي نحو الباب وأغلقته واستندت إليه بظهرها وبدت مضطربة. قلت بحدة لكي أنهي كل شيء:

ـ عمتي، يجب أن أذهب إلى عين فجار. سأقضي في الكروم أياماً وأعود، وبعد ذلك يمكننا أن نتفاهم ونتفق على كل شيء!

بصعوبة، وبعد جهود كبيرة، تخللتها رجاءات ودموع، خرجت، ولكن كلمة واحدة ظلت ترددها العمة نصرت، حتى بعد أن غادرت الغرفة ثم الممشى الطويل باتجاه الباب الخارجي:

ـ الله يحميك ويبعد عنك عيون الظلام!

وبعد أن أغلقت الباب الخارجي ورائي سمعتها تقول:

ـ الله يحرسك!

وقبل أن أبلغ سيارتي، وجدتني أعود من الباب الخلفي إلى الدار، وآخذ بندقية الصيد التي أحتفظ بها في غرفة نومي، مع الخراطيش، وأخرج.

استعيد الآن هذه الوقائع لأن ما تلاها زاد في نفسي التساؤل والخوف. فأنا ما كدت أرتب أموري في الدار القديمة، وما كدت أضع ثيابي في الدولاب، وأفرد أوراقي على المنضدة ثم أرتمي على السرير لكي استريح، حتى أحسست شيئاً لزجاً دافئاً يتمدد إلى جانبي على السرير. قفزت مرعوباً ونظرت. كانت حية سوداء لم أر في حياتي واحدة بحجمها وقبحها تتمدد ثم تتحرك. كانت تنظر إليّ باستفهام. ولفترة غير قصيرة تملكني العجز، جمدت مكاني، لم أعرف ماذا أفعل، لكنني تراجعت لا شعورياً، ولا أعرف كيف تناولت البندقية وأطلقت عليها النار. لا أكاد أصدق ما حصل، لكن هذا ما وقع بالضبط. وقد تساءلت فيما بعد: ما الذي جعلني أحضر بندقية الصيد في ذلك اليوم بالذات؟ أي هاتف خفّي استجبتُ له، وأنا لا أعي السبب؟

في نفس اليوم، قبيل الغروب، قررت العودة إلى عمورية، على عكس ما كنت صممت عليه، وما كدت أصل إلى البيت، حتى رأيت العمة نصرت من نافذة غرفتها العليا، تنتظر بلباسها الأبيض، وكأنه الكفن، وسبحتها الطويلة في يدها. وقبل أن أصل إلى غرفتي كانت تهرول كالكرة اللينة لتلتقي بي، ثم تهجم علي وتقبلني وتبكي. كانت لا تصدق عينيها، تبتسم وتبكي في وقت واحد، وبين آن وآخر تمد يدها إلى ذراعي، أو صدري، تتلمسني وتتأكد من وجودي. وأخيراً قالت:

ـ قلت لك لا تخرج!

وهزت رأسها عدة مرات، ثم أضافت كأنها تكلم نفسها، قبل أن تعود إلى غرفتها:

ـ الله سبحانه وتعالى نجّـاك. لقد رأيت كل شيء! نجاك الله من التالية!

كنت لا أزال، بعد ذلك بثلاثة أيام أو أربعة تحت وطأة حالة نفسية ثقيلة، ولم أكن مستعداً للحديث طويلاً مع أحد. كنا نشرب القهوة في الشرفة الغربية عند الصباح، وفي حضني كتاب أحاول أن أقرأه، عندما قالت عمتي نصرت، وهي تضحك بفرح:

ـ قلت لك يجب أن تذبح.

تظاهرت بأنني أشغل نفسي عنها بالكتاب المفتوح بين يديّ، غير أنها استمرت في الكلام، وما عاد يهمها سمعت أنا أم لم أسمع. قالت إنها كانت تعرف أن عدوّاً يرقد في سريري، وأكدت لِّي أنها صرخت، وأحرقت بخوراً، وضربت بجمع يدها على ظل تكثف أمامها. وبقيت فترة غير قصيرة خائفة. ثم لما أجهزت على العدوّ، وتأكدت من موته، بكت من الفرح!

لم أعلّق. لم أقل كلمة واحدة. والعمة نصرت التي بدت أول الأمر مهتمة بأن تعرف إن كان هذا فعلاً ما وقع أم لا، كانت شديدة التأكد من وقوعه فلم تلح كثيراً في السؤال أو الاستفسار. وأخيراً قامت، وحدقت بي

بعينيها العمشاوين، وتمتمت: «عسى أن تكون تلك آخر عـدوّ في سريرك!» وانسحبت من الشرفة.

هذه الوقائع تركت في نفسي كثيراً من القلق والحيرة ورغم أني ظللت أحارب بشراسة، وأرفض تصديق الكثير مما تقوله العمة نصرة، وأرفض أكثر من ذلك الوقوع في شرك الخرافات والتصوف والطرق، فإن أموراً غامضة ظلت تخيم على جو البيت، وجعلت أتساءل مكرهاً أليس صحيحاً حديث العمة عن أن أرواح السوالمة الأوائل تحوم هائمة جاذبة - وبعض الأحيان مروعة أو مستغيثة، كأن حالة من الشر أو الخطيئة ملأت المطلة وعمورية وعين فجار، ومدن الجبال والسهول، وتوغلت إلى أماكن أخرى أبعد من عمورية؟ وجعلت أتصور أن حالة الشر أو الخطيئة هذه التي ملأت جميع الأمكنة، لا يمكن أن تزول وتنتهي إلا إذا فعل السوالمة الجدد شيئاً - شيئاً مهماً وخطيراً، لكي يطردوا العدوّ ويتغلبوا على الذين صنعوا الشر. تماماً كما حصل قبل أكثر من مئة عام، حين كان الجد الأول للسوالمة يجوب الجبال والأودية، لا يخاف الجندرمة ولا الظلام، ولا يستطيع النوم أو الراحة ما دام هناك ظلم أو خيانة! وما الذي كنت أنا أستطيع أن أفعله، سوى أن أعود إلى منضـدتي، وأعانق شكـوكي وتساؤلاتي، وأكتب، وأكتب...

[١٨]

لكي لا أقع في الفخ الذي نصبته عمتي نصرت، وأحاول الاثبات أن لا شبه أبداً بين جدّي وأخي صفاء، سواء في ملامح الوجه أو نظرة العينين، عليّ أن اعترف أن شبها عكسياًما يجمع بينه وبين أبي، قد لا يكون هذا الشبه ظاهراً من النظرة الأولى، أو من النظرة السريعة، لكنه مع ذلك موجود بكل تأكيد. صحيح أن الاختلاف بينهما شديد، ويكاد يعلن عن نفسه في كثيرمن المظاهر والتصرفات، في النظرة إلى الحياة، كما تعبر عنها الأفعال الحقيقية وليس الكلمات، في العلاقات التي يحاول كل واحد منهما أن يقيمها مع الآخرين، وفي طريقة التصرف تجاه النفس وتجاه العالم. فأبي كان يعتبر المال وسيلة في هذه الدنيا، ولم ينظر إليه في يوم من الأيام كقيمة مستقلة أو مقدسة، بل ويبلغ به الأمر، في بعض الأحيان، درجة احتقار المال وعدم الاكتراث به. ولكن ما دام يملك مالاً فلا بد أن يتصرف به بطريقة حكيمة. والحكمة لا تعني أبداً بالنسبة له الحرص أو عدم الانفاق، وإنما التمتع. كان يريد أن يتمتع إلى أقصى حد، وكان يريد أن يشاركه الآخرون هذه المتعة. ولذلك وصلت إلى يد أبي كميات كبيرة من المال، غير أن هذه الكميات رحلت من بين يديه، كأنها طيور لا تعرف التوقف إلا لفترة قصيرة، تعاود بعدها الرحيل بحثاً عن أمكنة أكثر اطمئناناً ودفئاً.

هذه الطريقة التي أتبعها أبي بمقدار ما كانت تكسبه الأصدقاء، كانت تثير الكثيرين أيضاً. وصفته عمتي ذات مرة بالطائش. وكانت تحرّض صفاء على تولّي الأمور المالية، ومنع أبي من التصرف، أما الحجة التي تذرعت بها فكانت بسيطة للغاية: نظره أصبح ضعيفاً، وعينه لا تميز بين البارة والمجيدي. هــكـذا كانت تردد، خاصة حين تسمع القصص الكثيرة التي تروي عن إسرافه وتبذيره.

صفاء، الذي يكبرني بست سنوات، يلتقي مع أبي بنقاط كثيرة،

ويختلف معه بأخرى. المال بالنسبة لصفاء أكثر من كونه وسيلة للمتعة: إن له جمالاً خاصاً. كان يقول وهو يضحك بفرح:

ـ الفلوس حلوة.. الفلوس تخلق البشر. وأكبر كذّاب من يكره الفلوس!

لكن صفاء لم يكن بخيلاً. بل كان كريماً أحياناً إلى درجة تثير عمتي أيضاً، ولكنه يعرف متى يتوقف، وكان هذا يطمئنها. كانت نظرة أبي إلى المال بسيطة: المال يخرّب، يفرّق بين الناس، ويحمل شيئاً من القذارة. كثيراً ما كان يتصرف كالأطفال، إذ يخرج من جيبه مقداراً كبيراً ويمد يده للآخرين لكي يأخذوا منه. وهذه الطريقة، بقدر ما تدلل على اللامبالاة وعدم الاهتمام، تخلق ردود فعل سيئة لدى الكثيرين. قال له صفاء ذات مرة:

ـ كلهم يعرفون إنك تملك مالاً، لكن أن تخرج الفلوس بهذه الطريقة عيب. إضافة إلى أنها تُطمع الناس فيك!

نظر إليه أبي باستغراب وتساؤل. فتابع صفاء:

ـ لا حاجة إلى إخراج كل هذه الفلوس. ورقة واحدة تكفي.

قال أبي بغضب:

ـ وكيف تريدني أن أعرف الدينار من العشرة؟

ـ الدينار يكفي. ولا حاجة للعشرة.

ـ خرّبتك الدنيا يا ابني! ما الذي ستفعل بك الأيام القادمة!

في وقت من الأوقات، وقد حصل ذلك في فترة متأخرة، توقفت المناقشات بين الاثنين، توقفت لا نتيجة اقتناع أحدهما بفلسفة الآخر، وإنما لشعور كل منهما بعدم جدوى الكلمات، ولأن المال قلّ بين يدي أبي، ولم تعد المشكلة التي تثير هذا المقدار من الصخب قائمة. ومع ذلك ظللت أراقب بانتباه وصمت. أبي ظل على عادته: ما أن تصل إلى يده مبالغ من المال حتى يحاول التخلص منها وكأنها عبء أو خطيئة، يعطي دون توقف ودون انتظار. أما صفاء فكان يمتلك عقلاً عملياً، حسب التعابير الشائعة

هذه الأيام، إذ كان يبدو للكثيرين كريماً، بل ومسرفاً. أما بالنسبة لي فكان يبدو بشكل آخر: لا يضع الفلس في مكان إلا ويريده أن يكون كالبيضة، ينتظر منه أن يفرّخ ويتكاثر. هذه القناعة وصلت إليها في وقت متأخر، ونتيجة مناقشات مضنية، وإن كانت هذه المناقشات تجري أغلب الأحيان بعيداً عن الحديث المباشر عن المال. كان صفاء يريدني أن أكون رجلاً عملياً. هذا التعبير، «الرجل العملي»، شديد الإغراء بالنسبة له، أما ما هي صفات هذا الرجل، فإنها تتخذ صيغاً وأشكالاً لا حصر لها، وحسب الحالة التي يريدها صفاء. الرجل العملي بنظره في بعض الحالات هو ذلك الذي لا يمانع في سماع أبيات من الشعر أو حتى حفظها، لكنه يصبح غير عملي، بل أبله، إن هو فكر يوماً في نظم الشعر. والرجل العملي هو الذي لا يبدأ من الصفر، وكان يصر على هذا التعبير، ولا يسير خطوة خطوة. أما الذي يفكر ويتصرف بطريقة الفقير القانع بأقلّ النتائج، فإنه انسان لا أمل فيه، وخير له أن يرمى إلى الكلاب. والرجل العملي بنظر صفاء هو الذي يفكر بنفسه وبيومه ويبتعد عن الأحلام والسياسة ومشاكل الآخرين. أما إذا غرق في الأحلام والسياسة ومشاكل الآخرين، فلن يحصد سوى الخيبة ووجع الرأس.. إضافة إلى الفقر المؤكّد!

كان يروق له أن يسخر من عملي السياسي ومن قناعاتي، ويفعل ذلك أحياناً أمام الآخرين، خاصة أمام أبي، وكأنه يحرضه عليّ. وإذا كنت قد تعودت منذ وقت طويل أن أظل صامتاً أو قليل الكلام أمام أبي، فإن طريقة صفاء والحاحه كانا يثيراني، فاكتفي بكلمات مقتضبة لكن جارحة، لكي أمنعه عن مواصلة الحديث. وأبي الذي كان يراقب مثل هذه المناقشات صامتاً أغلب الأحيان، أو يقول بضع كلمات مؤيدة لصفاء، كانت تصدر من عينيه نظرات كنت أفهمها تأييداً لي، أو على الأقل دليلاً على عدم الاعتراض. أما حين يسأل صفاء عن «العمل والنتائج» فإن ذلك يعني أن يكف عن مواصلة الحديث الذي كان فيه، ويعني في الوقت نفسه نوعاً من التحريض. وكنت أشعر أن أبي يريد أن يقول، دون كلمات، إن هذين الولدين، كلا على طريقته، لم يعودا امتداداً للسوالمة، قطعاً.

•

هل أحمل حقداً على صفاء؟ هل أشعر بالغيرة منه؟ استطيع أن أقول إن حباً قوياً يشدني إليه، ولعل أبي بالذات إذ أقارن صفاء به، هو الذي جسّم لي أخطاءه وحماقاته. كنت أريده أن يكون أفضل مما هو، أكبر نفساً وأكثر نبلاً. وكنت أحس أن وجود خلافات بيننا، حتى لو لم نعلنها، أو لم نكشفها، سوف تفرقّنا في يوم من الأيام. أحس الآن، أكثر من أية فترة مضت، بأننا مختلفان جداً. ولم نكن كذلك حين كنا صغاراً. في ذلك الوقت كان صفاء أقرب بكثير إليّ، يدافع عني، يحميني، يتستر على أخطائي، بكلمة واحدة: كنا نواجه العالم معاً. أشعر الآن اننا مختلفان، أو أننا في أحسن الأحوال، لم نعد كما كنا. إنه الآن ينظر إليّ بتساؤل ويأس. يريدني أن أتغير... وأنا، بمقدار ما كنت أحب صفاء، جعلت أخشى أن نصل إلى درجة يمزّق عندها كلانا الآخر بالأسنان. ألا يجوز أن تكون الأمور المالية، ومنها البقايا التي كان يملكها أبي وعمتي في المطلة وعمورية، سبباً في ذلك؟ ولكن صفاء يمتلك الآن الكثير. وكل خلاف أو احتمال خلاف حول المال، عند وفاة أبي، كان سابقاً لأوانه. ومهما يكن، فإن أبي ترك لنا عدة مفاجآت بعد موته وفرّت علينا خلافاً كذاك. (وهل أنسى يوم جاءتنا أخيراً، زوجته الأخرى، الراقصة السابقة، ساكنة الرابية، تطالب بحصتها من ميراثه؟ كنا حتى ذلك اليوم نتجاهلها بإصرار، نرفض الاعتراف بوجودها. حتى اسمها زهور كان ذكره محظوراً في البيت، ولا نعرفه كاملاً، ولا يجرأ أحد على النطق به إلا عند أقصى الضرورة. كانت يوم جاءتنا، على الأقل في الخمسين من عمرها، ولكنها تبدو أصغر من ذلك بكثير، وما زالت تملك ذلك الجمال السوقي، تلك الجاذبية السليطة العين واللسان والحركة، التي يجدها العديد من الرجال مثيرة. ومن كان يرافقها في زيارتها؟ شاب طويل، وسيم، في حوالي السابعة والعشرين قالت إنه أبنها الوحيد من «زوجها» الأول، وأضافت في الحال انه عاد قبل سنتين من جامعة السوربون، حيث كان زوجها الثاني، زوجها الحبيب نجيب سلوم، ألف رحمة على روحه، ينفق على تعليمه، ونحن لا ندري! «هادي عدّاي السارح» - هكذا قدّم نفسه إلينا بمزيج من الأدب والاستنكاف. وقال إنه يعمل في الدائرة الحقوقية في شركة نفط

عمورية. . . وكرهته في الحال. كرهته بشدة. ربما لوسامته، أو للكبرياء السخيفة في تصرفه. ربما للسيارة التي جاءنا فيها مع أمه، رينو ١٧. ربما لأنني لاحظت أنه نظر إلى صبا بشراهة، كأن لعابه يسيل توقاً للفريسة. ربما لأنني أحسست أن صبا اضطربت، لذةً، لنظراته. . .) أكاد أجزم أن شيئاً غير المال كان يولّد في نفسينا ـ أنا وصفاء ـ هذا القدر من المرارة والشعور بالضيق، فضلاً عن الاختلاف. السياسة؟ السياسة ليست السبب الوحيد الذي ولّد بيننا هذه الفجوة، ثم ما يشبه الجفاء. صفاء لم يحب السياسة في يوم من الأيام. كان ينظر إليها نظرة هي مزيج من الخوف والاحترام العميق والكراهية، وهو بمقدار ما كان يريد الابتعاد، كان يتزلف. كان يقترب من الجانب الآخر. أتذكر الحماس الذي كان يبديه وهو مراهق في كثير من المناسبات الرسمية، كيف يلبس ثيابه الجديدة ويكون أول الذاهبين للاستعراضات، كيف يتبرع حين تطلب السلطة ذلك، وكيف يتصبب عرقاً وهو يثبت العلم في ساحة المدرسة في عيد الدولة. ثم ما صار يبديه فيما بعد من مودة مبالغ فيها تجاه كل ما يمت إلى السلطة. حتى موظفا الكهرباء والماء، باعتبارهما ممثلين للسلطة، كان يتعامل معهما بمودة زائدة، ويبالغ كثيراً في الثناء على أعمال الحكومة. . دون أن يحس به أحد!

قلت له ذات مرة، وقد دق شرطي بابنا يسأل عن جار مطلوب للمحكمة:

ـ هذا مجرد شرطي. واصرارك على دعوته، ثم ذهابك معه إلى قرب بيت الجار، عمل غير مناسب!

قال، ولا أزال أتذكر ذلك جيداً:

ـ إنه ممثل الحكومة. وأنت تعرف معنى الحكومة. . ألا تعرف؟

لو أني أصبحت شرطياً من نوع ما، أي لو أصبحت امتداداً لسياسة التي ترضي أو تقنع صفاء، لاعتبر موقفي عاقلاً وذكياًأو، حسب تعبيره، موقفاً عملياً، أما أن اتخذ ذلك الموقف الرافض، وأن اشتم الحكومة أحياناً

دون تردد وبصوت عال وأمام الآخرين، وأن أعلن التحدي ورغبتي في أن أغير هذا العالم القائم، فكان يثير صفاء ويخيفه في آن واحد.

فلأفترض اذن أن السياسة أحد الأسباب التي تفرّقنا- أو على الأقل تباعد بيننا. لكن هذا السبب، إذا كان صحيحاً في وقت من الأوقات، فإنه لم يعد كذلك فيما بعد. أصبح صفاء يدرك، استناداً إلى كثير من المعلومات والقرائن، وليس اعتماداً على الحدس، أو التقدير المبهم، أني تمزقت سياسياً، أي بكلمات أخرى، هجرت كثيراً من قناعاتي وعلاقاتي السابقة، لأني اكتشفت، في وقت متأخر للأسف، أني كنت أحمل في داخلي مجموعة من البلاهات وعلى كتفي مجموعة من الجيف. أحاول الآن أن أعزّي نفسي، استعمل كلمات كبيرة لكي أتوصل إلى قناعة من نوع معين: تعلمت الكثير، استفدت خبرة لا تقدر، عرفت معنى الحياة. ويمكن أن أضيف أوصافاً أخرى لكي أخلص إلى نتيجة: ليس كل عملي السابق حماقة، وليست كل علاقاتي الماضية جثثاً متحركة.. قد تتاح لي فرصة مراجعة هذه التجربة في وقت من الأوقات لكي استخلص منها «الدروس والعبر»، وقد تتاح قرائن ومعلومات جديدة تثبت صحة تقديراتي حول قضايا معينة وأشخاص معينين.. الآن وأنا أتحدث عن تلك الفترة أشعر بخيبة كاوية، أشعر بما يشبه الوقوع تحت فعل الخديعة. لقد أدرك صفاء في فترة من الفترات أن خيوطي تقطعت، أن عالمي القديم انهار. أما الصوت العالي، أما المجابهات الحادة، أما تلك النظرات الحمراء التي ميزت مناقشاتنا خلال فترة طويلة، فقد انتهت تماماً. حل مكانها ذلك التأمل الصامت، وهزات الرأس التي لا يمكن أن تفهم أبداً. وحل مكانها أيضاً ذلك الضيق الذي ولّد كآبة أراها تمتد وتتسع كل يوم، وهذه الكآبة لا تقتصر على الشك بالآخرين أو بناء الحواجز بيني وبينهم، إنها تطال كل ما يحيط بي، فلا الطبيعة الآن هي الطبيعة التي كانت، ولا لهيب الشمس الذي يندلق من السماء الآن يشبه ذلك اللهيب الذي كان يدفعني بمتعة في أوقات كثيرة سابقة لأن أقطع المسافات راكضاً وأتحمل الأعباء.

لقد اختلطت الصور والذكريات في رأسي وقلبي إلى درجة لا

أستطيع معها أن أواصل حديثاً هادئاً . .

أحس، بغموض، أن صفاء كان مسؤولاً عن قسم مما حدث. صفاء يتميز بشيء أساسي، وهذا الشيء لا يتنازل عنه ولا يخطىء فيه. إنه المثابرة. كلماته الساخرة، وبعض الأحيان نظراته أو تعليقاته العابرة، كانت تفعل الكثير. صحيح أني كنت عنيداً وكنت أتحدى، ولكن بتراكم الكلمات، بتكرارها، ثم بتلك الخيبات التي أخذت تندفع كالطلقات الطائشة حولي، ولّدت في نفسي شعوراً عميقاً باللاجدوى.

[١٩]

في ذلك المساء البعيد، مطر أول الخريف ينهمر بغزارة، رائحة الأرض تنفجر كما لو أنها رائحة الولادة أو الموت. الأطفال بصخبهم المذهول وانفعالهم الحاد يملأون نهاية النهار وبداية المساء بأكثر من الصراخ وأكثر من الضجيج. كان الأطفال، دون وعي، يلامسون البدايات الأولى للأشياء. لا يلامسونها فقط، كانوا يصنعونها أيضاً، فالوقوف الطويل تحت المطر، والاغتسال الحار بتلك القطرات التي تهبط ثقيلة من السماء، بعد الرعد والبرق، وذلك الركض الحافل بالرعونة، كان ذلك يولد لديّ أحاسيس قوية تحثني على فعل شيء غير عادي!

لم يكن الأطفال وحدهم الذين يولدون تلك المشاعر. فالمراهقون الذين كبروا في غفلة من الآخرين، والذين أحسوا بذلك قبل غيرهم، من خشونة الأصوات والأحلام المبكرة، وفي ارتفاع الصدور أو توتر الأعضاء، ومن أمور أخرى كثيرة، وأبوا أن يشاركوا الأطفال صخبهم، كانوا مستعدين لأن يفعلوا أكثر مما يفعل الأطفال لو أنهم في أمكنة أخرى وأوقات أخرى - هؤلاء المراهقون والمراهقات ارتفقوا حواف الأبواب والنوافذ، وراقبوا بإمعان وتأمل كل شيء، وامتلأوا بالتساؤلات والأحلام والتوق، وعبرت صدورهم عشرات الأفكار الغامضة.

أظن أنني، في ذلك المساء البعيد، كنت قد تجاوزت الطفولة. ومحاولاتي في إنبات الشعر فوق شفتي لم تكن قد نجحت بعد، رغم المرات الفاشلة التي استعملت فيها ماكنة الحلاقة التي يستعملها صفاء. كنت أراوح في تلك المسافة الحادة المؤرقة، بين الأحداث والرجال. كنت أقرأ وأحلم، وبعض الأحيان اكتب سراً أبياتاً من الشعر، وكنت أركض لأدخل عالم الرجال. تتداخل الصور في ذاكرتي، لكن ما أتذكره بوضوح حاد هو ذلك المساء المنهمر بأول أمطار الخريف، وعمورية التي كانت تغرق في غبار أواخر الصيف والحصاد، ثم الجفاف الذي بدأت نذره تحوم في الجو،

كانت تخلق شهوة للفعل. فبعد البرق الحاد الغاضب جاءت الرعود. كان صوت الرعود صاخباً أخاذاً ويحمل معنى التهديد والارهاب. والأطفال الذين انتظروا بلهفة، وكانوا يحرصون على البقاء متقاربين بدوا غير خائفين وهم يتراكضون ويصرخون، أو يحاولون التغلب على الخوف بالحركة الزائدة والصراخ، ورأوا في كل ما يجري امتحاناً وتجربة من نوع جديد.

ما جرى لم يكن شيئاً غير طبيعي، ولم يكن يجري للمرة الأولى. وإذا تجاوزت بعض المقاييس قد أزعم، لنفسي على الأقل، أني لم أكن طفلاً ضمن الجموع الصاخبة، كما لم أكن مراهقاً متوحداً أخوض امتحاناً غامضاً عسيراً. كنت قد فرغت لتويّ من قراءة «النبي» لجبران وكانت تلك القراءة، في ذلك الوقت، قد جسّدت في ذهني أفكاراً وصوراً رأيت وضوحها الأخاذ في البرق والرعد، ثم التحدي.

كان يمكن أن استرسل في مواضيع تقع ما بين صخب الأطفال وتأملات المراهقين. أو قد أتظاهر بأني تجاوزت ذلك كله وأصبحت في عداد الرجال، وبأنـي أرى من الهموم والأفكار، خاصة من خلال القراءة، ما يرفعني ويجعلني بعيداً عن تلك الأجواء.

ذلك المساء كآلاف الأمسيات التي تشبهه أو تقاربه، ما كان ليخلّف هذا الأثر، بل ما كان ليعني شيئاً خاصاً، لولا أني سمعت صخباً يزداد ويعلو في الطابق السفلي. بعد أن أصخت السمع أدركت أن أمي وعمتي في معركة مع صفاء. وهي هذه المرة معركة أكثر خطورة وحدة من كل المعارك السابقة. اشتبكت الأفكار والتقديرات في رأسي. وخلال لحظات توصلت إلى فكرة مقنعة: استغل صفاء سفر أبي وبدأ معركة جديدة!

ألح كثيراً على هذه التفاصيل لكي أصل إلى نتيجة واحدة: لو أني لم أتدخل ذلك المساء، لو أن أمي وعمتي لم تطلبا أن أكون حكماً، لو لم أكن موجوداً، لأخذت الأمور مجرى آخر. لن يغفر لي صفاء وجودي، ثم تدخلي. فبعد أن سمعت ما كان يدور بين الثلاثة واستمتعت كثيراً بما كان يقال، وربما كنت اشتفي، نزلت بهدوء. تعمدت أن أتنحنح أثناء هبوطي على الدرج كما كان يفعل أبي، ولدقائق ملأ الصمت البيت... ربما ظن

صفاء، وأكثر من ذلك ربما ظنت أمي، أن أبي في البيت لم يغادره. إذ كثيراً ما كان يتنحنح أثناء هبوطه الدرج. حين نظرت في الوجوه، وجدت صفاء شاحباً وأقرب إلى الخوف! وبطريقة، هي مزيج من الارتباك والاحتيال البريء والصدفة، قالت عمتي لكي تبدأ فعلاً جديداً:

- نسأل علاء..

تغيرت لهجة عمتي وهي تتابع:

- علاء أخوك، أخوك ويحبك، وما يقوله نوافق عليه.

نظرت بإمعان، مرة أخرى، إلى الوجوه، وكأني الرجل الأكبر، وأقرأ بنظرات فاحصة ما كان يدور. صمت، دلالة الموافقة على اقتراح عمتي. قالت أمي:

- إذا كان الاختيار غير ملائم فلا تتعبوا أنفسكم.

تغافلت عن كلام أمي. قلت لأواصل لعب الدور:

- أنا مستعد لأن أكون حكماً!

كنا نلجأ إلى مثل هذه الاختيارات في أحيان كثيرة، شرط ألا يكون أبي موجوداً. كنا نختلف ونتفق، لكن كنا دائماً نقبل المراهنة. بدا صفاء محرجاً وكأنه لم يكن يريد وجودي أو لا يوافق على أن أكون حكماً. قالت عمتي نصرت لكي تسيطر على الموقف:

- وعلاء يفهم ويقرأ الكتب كثيراً، وفي تلك الكتب لم يتركوا شيئاً إلا وكتبوه.

ودون انتظار موافقة من أحد، اندفعت تروي القصة.

القصة شديدة الطول والتعقيد، خاصة إذا روتها امرأة مثل عمتي نصرت. تأكدت من الكلمات الكثيرة التي قيلت، ان أخي صفاء لا يزال يصر ويهدد على أن لا يتزوج إلا «تلك الفتاة». لم يذكروا اسمها، لكن بعض الإشارات كان شديد الوضوح والدلالة. وعرفت.. كانت بدرية فتاة جميلة، وقد رفضت كثيرين تقدموا لها، وهي على عادة البلاد التي

جاءت منها، وعلى عادة القوم الذين عاشت معهم، تشبعت بعادات وتقاليد، وهذه العادات والتقاليد لم تكن في صالح أخي صفاء. فهو لا يعرف ركوب الخيل ولا هوس الصيد، ولا الغناء!. هذه هي الأسباب التي قالتها أم الفتاة بارتباك، وقالت إن الأمر غير قابل للبحث بالنسبة لابنتها. هل يمكن اعتبار أسبابها صحيحة؟ صادقة؟ لا أحد يدري. عمتي تؤكد أن بدرية بنت عزيز لم ترفض بصورة نهائية، لكن هذا الرفض الذي أبلغ إلى أبي أدى إلى إغلاق الموضوع. والوحيد الذي رفض التصديق أو التسليم هو صفاء. كان يراهن ويصرّ، وإذا بدا راضياً مسلّماً أمام رفض أبي، فقد كان لا يتوقف لحظة واحدة عن المحاولة، وبخاصة مع أمي وعمتي. وكانت هذه المحاولات تجري بعيداً عن الآخرين، وبأساليب شديدة الالتواء: الإغراء، الاستعانة بالأقرباء، الضغط على أبي لتجديد المحاولة، فضلاً عن الاستعراض البائس الذي بدأ يلجأ إليه في عصارى تلك الأيام: يلبس ثياباً أنيقة وغالية السعر، يمشط شعره بعناية زائدة، وأحياناً يحمل عرقاً من الريحان.. ويمر أمام بيت عزيز الهندي، لعله يراها.. أو لعلها تراه.

تكررت مثل هذه المحاولات مرات لا حصر لها، وبدرية التي كانت تظهر أحياناً قبيل الغروب قريباً من بيتها، ما تكاد تلمح صفاء حتى تتوارى. أما إذا كانت مع رفيقات لها فتتعمد أن تدير وجهها وأن تتجاهله. وصفاء يشتعل، يحترق، يزداد اصراراً، يزداد جنوناً.. وتزداد محاولاته أيضاً. وبدت محاولاته مثيرة للسخرية والشفقة، وإذ كنت أرى ذلك كنت امتلىء بمشاعر متناقضة تجاه ما يحصل: فأنا من ناحية لا أريده أن يصبح ذليلاً إلى هذه الدرجة، وأحسّ من ناحية أخرى مدى العذاب الذي يعانيه. لقد تحول إلى مخلوق آخر، سواء بشكله أو بتصرفاته.

ما زاد في تعقيد الأمور، في تلك الفترة بالذات، وما زاد في المي ومعاناتي، هو أني تعلقت بنائلة بنت عزيز الهندي، أخت بدرية الصغرى. أقول «تعلقت» لكي لا أجرح مشاعر صفاء أو أتعالى عليه، وإن أخذت العلاقة صيغة أخرى...

نحن السوالمة نعرف كيف نحترق. نظل ندور حول النار حتى نسقط فيها.

خلال علاقتي مع نائلة عرفت أن بدرية لا تنظر إلى صفاء بعدم اهتمام فقط، بل لا تطيق أن تراه أو تسمع اسمه. أما فكرة أن تتزوجه فكانت تثير في نفسها السخرية، ولذلك لا فائدة من أية محاولة. ومحاولات صفاء المستمرة انما تعرّضه إلى مزيد من الاهانة والتندّر. كنت أعرف ذلك تمام المعرفة، وكنت متأكداً أن كل ما يجري ليس إلا مضيعة للوقت وإهانة لنا جميعاً، ولكن لم أستطع أن أقول ذلك صراحة لأحد، وإن كنت قد ألمحت إلى أمي بأكثر من طريقة لكي تفهم. . ولعل أمي عرفت، أيامئذ، عن علاقتي بنائلة.

كان لا بد أن تنتهي قصة صفاء ذات يوم. وهذا ما حصل. إذ ما كادت بضعة شهور تنقضي حتى هربت بدرية مع أحد الشباب. وكلمة الهرب قد تبدو كبيرة أو غير دقيقة، لأن العادات كانت تتيح قيام نوع من العلاقة. . ثم تنتهي بالهرب تمهيداً للزواج!

هذه القصة، أو قصة مثلها، كان من الممكن أن تنتهي دون أن تخلف آثاراً، ولكن أن يكتشف صفاء علاقتي بنائلة، وأن يقبض علينا ذات يوم وحيدين في بستان أبو زريق، وبعد هروب بدرية ببضعة أيام، كان ذلك إهانة شخصية له!

نائلة بالنسبة لي ذكرى بعيدة، حتى لا أكاد أتذكرها في زحمة الأحداث والوجوه والذكريات. والنهاية التي انتهت إليها علاقتنا، لأسباب لا علاقة لصفاء بها، والمعارك الطاحنة، بيني وبينه، ومحاولاته أن يحرضّ الآخرين عليّ، وإشاراته غير المباشرة لأبي حول سلوكي وانغماسي في السياسة، ثم ما حصل بعد ذلك، لا يمكن أن أفسر جزءاً كبيراً مما حصل دون أن تلتمع بدرية ونائلة في ذاكرتي - تلتمع كل واحدة على غرارها.

في ذلك المساء - المطر وصراخ الأطفال. . وذلك الدخول المفاجىء. قلت، بعد أن صرت حكماً:

ـ صفاء، يجب أن تكون عاقلاً، وتكف عن المحاولة. ثم أن استمرار محاولاتك، وبهذه الطريقة، إهانة للعائلة كلها. ولا يمكن أن يرضى بها أحد!

كانت تلك الكلمات مثل السكين، وأنا أرى آثارها وهي تنغرز بهدوء، لكن بحدة، في قلب صفاء.. ثم أرى تشنج الشفتين والحنك. وحين خيم الصمت وطغى على أصوات الأطفال والمطر في الظلمة الخفيفة، رأيت دمعتين تسقطان على خدّي صفاء ـ ويخرج من الغرفة بعصبية، وهو يصيح: «بقدر رجلي، وينصحني!»

هل كانت كلماتي، طريقة قولها، المعاني التي تكمن وراءها، هي التي دفعته إلى مواقف معينة كثيرة في أوقات لاحقة؟

وأنا.. لماذا اخترت تلك الكلمات، تلك الطريقة في قولها؟ وهل رأى هو معاني من نوع ما وراءها؟ وعلاقتي بنائلة في ذلك الوقت، هل كانت دافعاً لأن أقول تلك الكلمات وبتلك الطريقة؟

ليست بدرية المرأة الوحيدة التي ولّدت بيننا هذه الفجوة. فقد ظهرت بعد ذلك نساء أخريات، ولّدن في قلبه وقلبي مرارة بعد مرارة، دون أن يتحدث أي منّا عنهن يوماً بشكل مباشر.

ولكن نجوى، يا الله! نجوى الحبيبة، الغامضة، الرائعة ـ هل كانت لها علاقة بذلك، بعد كل تلك السنين؟ في حسابات الجذب والدفع بيني وبين أخي، قد أدخل السياسة، قد أدخل المال، قد أدخل المزاج، النجاح، الفشل، امرأة هنا وامرأة هناك ـ أما نجوى؟.. لا! حتى خيالي المحموم لن يلتفت في اتجاه كذاك.

ولو أنني يجب أن أذكر الأمور بحقائقها الأولية. فلئن كانت صبا صديقة نجوى، والسبب في الأيام الأولى في رؤيتنا لها في بيتنا مرتين أو ثلاثاً، فإن التقارب إنما كان سببه الحقيقي خلدون، زوجها. كان خلدون شريكاً لصفاء ـ في إحدى شركات صفاء العديدة التي لم أكن أهتم بتفاصيلها. لست أدري أي نبي كان جدّي الذي تتغنى العمة نصرت

بقداساته ومثالياته ـ غير أن أخي صفاء، وهي تدعي أنه صورة ناطقة عن أبيها، لم يكن قريباً جداً من القداسات والمثاليات. كان طيّباً إلى أقصى حدود الطيبة، صادقاً في معاملاته مع الناس، ملتزماً بأي وعد أو اتفاق يقطعه على نفسه ـ ولكنه يعتبر النجاح في الأعمال المالية المثل الأعلى والأوحد الذي يسعى من أجله. حال تخرجه من كلية التجارة أعطاه أبي ألفي ومئة دينار ـ قبل حوالي ثلاثين سنة، وقال له: «صفاء، إليك هذا المبلغ، ولك أن تحرقه إن شئت! ولكنك لن تحصل مني على مثلة مرة أخرى!» وبرهن أبي بذلك ـ ولا سيما بعد خيبة صفاء الساحقة ببدرية أيامئذ ـ على نفاذ بصيرته. لقد أطلق عبقرية صفاء من عقالها. . وما كدت أذهب إلى انكلترا بعد ذلك بأربع أو خمس سنوات حتى كان صفاء أسماً يحسب له الحساب في حياة عمورية التجارية. وعندما عدت، ملتهباً بحماساتي الفكرية والسياسية، أريد أن اقتحم العالم بأفكاري وكتبي، كان صفاء غنياً كبيراً. ويجتذب بين الحين والآخر شباباً واعدين، يشركهم في أعماله ومؤسساته. وكان خلدون عبد العظيم الثغراني، المهندس الميكانيكي، واحداً من هؤلاء. وقد تزوج صفاء، ولو متأخراً، بفتاة تصغره كثيراً ـ رفيعة النظّام، وهي ابنة أحد شركائه الكبار، عبد المجيد النظام. يعجبه أن يتباهى بشبابها وجمالها وأناقتها كلما سنحت لذلك مناسبة اجتماعية، كأنها ربح آخر حققه في عالمه التجاري المزدحم!

في أعماق صفاء، رغم قدرته على الانغمار كلياً في قضايا الصناعة، وانتاج القمصان واللبان، والمشروبات الغازية، والبيرة، والأواني البلاستيكية، والأحذية، والرخام، ومواد البناء الجاهزة (قائمة منتجاته ومستحضراته من أكبر القوائم في غرفة تجارة عمورية، التي كان رئيساً لها لفترة في أواخر الستينات)، في أعماق صفاء، بقي ذلك الشاب المسكين الذي لم يحظ بفتاة اسمها بدرية، وهو يعلم أن أخاه المراهق استطاع أن يختلي مراتٍ بأختها نائلة (ولكنه لن يصدق أية خلوات بريئة كانت!): فكان دائماً يريد أن يؤكد لنفسه أن ما من امرأة ينتبه إليها، إلا ويستطيع أن يأسرها، بشكل أو بآخر ـ بسحره المالي، أو سحر علاقاته الاجتماعية المعقدة.

وبعد أن رأى بدرية تتزوج خاطفها، وتتحول من هيفاء لعوب إلى امرأة بادية السمنة، ثقيلة الحركة، كان لا يتورع عن الشماتة (ولو في حدود الأسرة فقط) ويزعم أن الله أنقذه في اللحظة المناسبة من امرأة يتضاعف وزنها كل خمس سنوات! ويُسِرّ إليّ، كلما أثير الموضوع، أن المرأة لا تفهم الحب، وإذا أحبت فإنها لا تحب إلا الرجل الخطأ. «خذها مني، علاء. المرأة في النهاية لا تقدّر إلا القرش، ودع عنك أوهامك الشعرية...» لست أشك في أنه كان ينفق الكثير من ماله على ملذاته: فهو في ذلك يشبه أبي كثيراً، ولكن مع فارق كبير - كان أبي عميق الولاء تجاه من يحب، أما صفاء فلا يقيم وزناً لمثل هذا الولاء. ينفق على المرأة بسخاء إذا تعلق بها زمناً، ثم يدفعها عنه بصفعة ضاحكة منه على ردفها. والعبارة التي أتخيلها تتردد على شفتيه أكثر من غيرها، هي عبارته المحببة: «لا عواطف، أرجوك!» ومع ذلك كله فلم أكن دائماً لأخدع بكلامه. بقيت بدرية جرحاً في نفسه لا يندمل. وكلما استقرت عيناه على وجه جميل، حتى بعد زواجه من رفيعة، تمنى في دخيلته لو ينتقم في صاحبته من بدرية... وهو سعيد الحظ بأن زوجته لم تكن قط في هذا الوارد. فهي تنعم بدفء ثروته، وهي ما زالت في عشريناتها، ولم تنجب إلا ولداً واحداً (يدعى «نجيب» باسم أبي)، ولم تسمن بعد... تقضي معظم أصيافها في لندن أو باريس مع ابنها وخادمتها، وتقول إنها تريد أن تتقن الانكليزية والفرنسية في سفراتها الطويلة هذه. (ولا أدري لماذا. لأنني لم أرها تحاول يوماً أن تقرأ كتاباً بأية لغة كانت.)

وقد تعرّف صفاء على خلدون عن طريق حميه، عبد المجيد النظّام، ولست متأكداً إن كان ثمة نوع من قرابة أو نسابة بين أسرة الثغراني وأسرة النظّام. ولكن الذي لا شك فيه هو أن محسن العامري، والد نجوى، كان من أصدقاء عبد المجيد منذ أيام الحرب - تلك الأيام التي أتت بغنائم فجائية، مشروعة أو غير مشروعة، للكثير من الناس، وكان أبي واحداً منهم. ورغم أن محسن العامري كان أكبر سناً بكثير من عبد المجيد النظّام، فقد بقيا صديقين حميمين حتى وفاة محسن مؤخراً شيخاً جليلاً ليس له من خلف إلا نجوى. وأكثر من مرة قالت لي نجوى إنها لا تذكره

إلّا عجوزاً يحبها حب عبادة، وأنها تكاد لا تذكر أمها، لوفاتها ونجوى صغيرة.

في عصر يوم في أوائل الخريف، والمطر يسقط رذاذاً في زخات قصيرة، تكاد تشرق الشمس عليها لحظات من بين الغيوم المتباعدة، فتنقطع، لتعود مرة أخرى مع غيمة زاحفة، وتطلق روائح الأرض: شذى التراب والعشب وأوراق الشجر في نهاية يوم حار مغبّر، خرجت إلى الشرفة لأتلقّى الرذاذ الناعم، واستمع إلى الصبية وهم يلعبون في الشارع، ويتصايحون ويغنون لأول أمطار الموسم، ثم عدت إلى الداخل، لأطلب إلى سعيد أن يغلي لي فنجان قهوة. وعندما خرجت إلى الشرفة مرة أخرى، رأيت صفاء يعبر بسيارته أمام الدار، وينعطف داخلاً الكراج.

«متنعم بالمطر؟» قال ضاحكاً وهو يترجل من السيارة. «ألا تخشى البلل؟ أم أنك ـ» فضحكت، وقاطعته: «بالضبط! غريق، فأي بلل أخشى!»

وأخذته من ذراعه ودخلنا إلى غرفة الاستقبال، وجاء سعيد راكضاً يحييه، ثم أسرع إلى المطبخ ليعود بفنجانين من القهوة.

قلت: «ما هذه المفاجأة الحلوة؟ مات يهودي!»

قال: «هل أنا مثلك؟ لا تمر علينا إلا بدعوة رسمية!..»

قلت: «حقك، حقك... وسيارتي دائماً عاطلة، مما يبرر عدم الحركة.»

فقال، وهو يأخذ رشفة من فنجان القهوة: «سيارتك هذه أرسلها إلى المتحف. قطعة أثرية.»

ـ اهتمامي هذه الأيام بدارنا في عين فجار. قريباً ستكون جاهزة.

ـ وستقيم لنا حفلات فيها؟

ـ حفلات؟ العياذ بالله. البيت للحفلات، وهذه الدار للابتعاد عنها.

ـ طيب يا سيدي. خلِّ الحفلات علينا. وهاك دعوة رسمية من أخيك صفاء نجيب والسيدة عقيلته.. إلى العشاء يوم الخميس القادم.

ـ جلسة عائلية؟

ـ لا، لا. دعوت عدداً من الناس على شرف أحد شركائي، خلدون الثغراني. تزوج قبل أيام، و ـ

ـ آ، تزوج نجوى العامري. أدري، أدري.

ـ أتعرف خلدون؟

ـ قليلاً. ولكني أعرف نجوى.

وانتصب صفاء في قعدته كمن لدغته عقرب. «أتعرف نجوى؟»

ـ لا تندهش!

ـ أقصد..

ـ التقيت بها هنا، في البيت. إنها صديقة صبا. ألا تعرف؟

ـ بالله عليك؟ لم أكن أعرف... حسبت أنها فتاة جميلة أخرى سبقت أنت الجميع إليها. كالعادة!

وضحك ضحكة غريبة.

كان التظاهر بعدم الاكتراث صعباً. كان التظاهر بأنني لم أناقشها يوماً، ولم تهاجمني، ولم تكتب إليّ رسائل أقفلت عليها الدرج بين أوراقي ـ كان التظاهر بذلك كله صعباً. ولكنني حاولته. ولا أحسب أن صفاء، في عتمة الغرفة التي لم يكن يأتيها إلا ضوء نهاية النهار من خلال الرذاذ والنافذة العريضة، قد لمح أي عاطفة ترتسم على وجهي. أو أي خيبة. فبعد الرسائل التي تبادلناها عشية زواجها، لم أرها حتى ذلك اليوم ولو مرة عابرة واحدة.

وقلت: «أتراها جميلة؟»

ـ جميلة؟ إنها رائعة! ومحبوبة جداً.

ـ صفاء، أخشى أن حفلة العشاء.. من أجلها هي؟ انتظر حتى أخبر رفيعة.

ـ رفيعة؟ رفيعة لا تغار من أحد.

ونهض على قدميه، وأردف: «أنا مستعجل، علاء. عندنا اجتماع مجلس إدارة في الساعة السابعة. قل لصبوة إنها مدعوة هي أيضاً ـ هي

ونبيل. وسلّم لي عليهما.»

وعندما خرجت معه إلى الشرفة، والرذاذ يهمي ناعماً، مسترسلاً، وأصوات الصبية تملأ الطرقات، تذكرت فجأة ذلك المساء البعيد، وصفاء وبدرية، وأمي، والعمة نصرت ونائلة... أما نجوى فلم يكن لها مكان بين هؤلاء. غير أنها أقحمت نفسها فيها بينهم، رغماً عن إرادتي. لماذا؟ لماذا؟ ما الذي كان بعد بيني وبينها؟ أو بينها وبين أي شخص آخر يهمني؟

[٢٠]

لم تكتب نجوى إليّ من القاهرة، ولم أكن أعرف بالضبط متى عادت مع خلدون إلى عمورية، لولا أن صبا أخبرتني وبذلك، وبطريق الصدفة. جاءت إليّ هي ونبيل، وفي يدها قطعة خزفية جميلة كنت برفقتها يوم اشترتها من معرض أقامه صديقي الخزاف سعدون حامد، قبل ذلك ببضعة أشهر. قلت ضاحكاً: «أتريدين أن تهديها إليّ؟»

فقالت: «أأهديك قطعة سيراميك، أم قطعة من حياتي؟»

- لا، صبا. قطعة سيراميك تكفيني!

- نريد استشارتك. ما رأيك في أن نأخذها هدية لنجوى وخلدون؟

- هل عادا من شهر العسل؟

- من زمان. وأشعر أننا تأخرنا بالزيارة والتبريك.

فتساءلت، بشيء من المكر: «وهل يقدّران الفن؟ أعني، هل سترى نجوى -»

سلمتني صبا الخزفية لأتأملها مجدداً، وهي تقول: «أنت لا تعرف نجوى.. إنها تموت على الأشياء الفنية.»

فأعدتها إليها. «اذن، هذه أثمن هدية.»

وقال نبيل: «ماذا تهدي رجلاً كخلدون؟ عنده كل شيء...»

قلت ساخراً: «طنجرة من الألومنيوم. لكي يعلم زوجته الطبخ.»

فضحك الاثنان. «اذن أنت موافق؟»

- «من حيث المبدأ، نعم. ولكن أسمحا لي أن أقول: من المؤسف أن تخسرا قطعة خزفية جميلة كهذه.»

فقالت صبا: «أبداً، أبداً. نجوى تستحق شيئاً عزيزاً نحبه نحن أيضاً.»

وأضاف نبيل: «وكذلك خلدون. يلاّ صبا، لفّيها بورق الهدايا.

علاء، أتريد أن نبلغها تحياتك؟»

فأجبت مرحاً: «ولو! طبعاً. وتبريكاتي أيضاً.» وشعرت في أعماقي شعوراً لئيماً بأنني لن أهديها - وبخاصة نجوى - حتى علبة كبريت. لماذا لم تتصل بي بطريقة ما؟ لماذا لم تخبرني على الأقل بعودتهما؟

ومرت أيام قبل أن يحل موعد حفلة العشاء التي أقامها صفاء ورفيعة على شرف شريكه. كدت أرفض الذهاب، لولا أن صبا ونبيل أصرا على أن أرافقهما إليها. وأختي تقول: «يجب أن تذهب. إذا لم يكن من أجل أصدقائنا، فعلى الأقل من أجل أخيك... وصفاء زعول جداً، ولا حاجة بي لتذكيرك بذلك.»

فقلت: «طيب، طيب. سأذهب من أجلك أنت، ومن أجل نبيل. غاب عَنّي أن أسألكما في حينه: هل راقت لهما المنحوتة الخزفية؟»

قال نبيل: «اختطفها خلدون من يد نجوى حالما كشفت الغلاف عنها، وقال: الله! رائعة! سنجعلها هنا! وانزل تمثالاً قديماً من خانة في الجدار فوق الموقد الكبير، ووضعها فيه..»

أما صبا، فقد نظرت في عيني نظرة مازحة وقالت: «لم أخبرك بماذا قالت نجوى.» وهبطت معدتي لحظتين، وقلت: «أخبريني.»

- «أرسلت إليك سلامها، ثم قالت: أسأليه، هل الجني طليق، أم أنه عاد إلى القمقم؟ أو كلاماً بهذا المعنى... ترى، ما الذي كانت تقصد؟»

- «ألم تسأليها؟»

- «سألتها. فقالت: علاء يعرف.»

- أنا؟

وهززت رأسي، متجاهلاً.

- «على كل، بلغتك السؤال، والجواب عليك أنت، هذه الليلة.»

غير أنني في دار صفاء تلك الليلة، بعد مصافحة نجوى وخلدون، باعتبارهما ضيفي الشرف، تعمدت الابتعاد عنهما. كانت الحلقة من ذلك

النوع الذي لا يبخل فيه رب الدار بشيء على أحد، وقد خططت زوجته التألق الذي ترجو أن تحسدها نساء المجتمع عليه. فتحت غرف بيتهما الكبير بعضها على بعض، ليتسع للخمسين أو الستين ضيفاً الذين جاؤوا ينافس بعضهم بعضاً في اللباس، والزوجات، والمجوهرات. أما أنا، فلشدة إصراري على عدم اظهار أي اهتمام بنجوى، شغلت نفسي بكلام كثير، وشرب كثير، مع مدعويين لا يهمني عادة أن أقول لهم مرحباً. فأصدقاء صفاء ليسوا أصدقائي، اللهم فيما عدا اثنين أو ثلاثة وزوجاتهم. ولكنني طلبت العون من الخمر، فاسعفتني، ووجدتني أنزلق بين الواقفين والواقفات، والجالسين والجالسات، وكأن النسيم يحملني في الاتجاه الذي أريد: بعيداً عن نجوى. تحدثت في السياسة، وفي الاقتصاد، وعن تمثيلية تلفزيونية سخيفة عرضت في الليلة السابقة أعجب بها المتحدثون. وتحدثت عن الازدحام في طرق عمورية، ورغبتي في الهرب إلى الجبل، وعن البيت القديم الذي كدت أفرغ من تجديده في عين فجار. وبغتة، حالما لفظت كلمة «فجار»، انسابت من خلفي، كقطة بيضاء ناعمة، المرأة التي حسبتها بعيدة في الطرف الآخر من الغرفة، وتجسّدت أمامي، وسيكارتها في يدها.

«هل قلت: عين فجار، استاذ علاء؟» قالت نجوى، وعيناها مسددتان إلى عيني.

فقلت، متخذاً المزيد من الحذر إزاء مباغتتها: «نعم، مدام.» وصرفت عيني عنها. ولكنها أصرت على سؤالي: «بنيت فيها بيتاً؟»

- «لي فيها بيت قديم، كان قد تهدم. أعدت بناءه. جددته. مجرد صومعة.»

أخذت نَفَساً من سيكارتها، ونفثت الدخان في اتجاهي (وقلت لنفسي: هائل! لقد أدركت أنني أتقصد الابتعاد عنها!) ثم قالت: «ألن تدعونا، نحن وهؤلاء الأصدقاء، إلى صومعتك يوماً؟»

- آسف! الصومعة... صومعة. إنها للعزلة.»

فاستدارت نحو إحدى السيدات قربها، وقالت: «ما رأيك يا عليّة؟ أنقوم بغزوة لصومعته؟» فضحكت عليّة كأن يداً خفية دغدغتها في صدرها: «العياذ بالله! أتريدين غواية الناسك؟»

«ولم لا؟ لم لا؟» قالت نجوى، ونفثت دخان سيكارتها بوجهي مرة أخرى، وانصرفت. وأيقنت، من طريقة تدخينها، أن تلك أول سيكارة تدخنها في حياتها.

لم أتحدث إليها ثانية فيما تبقى من السهرة. ومرّت أسابيع أخرى، لم أرها فيها ولم تأتني منها كلمة. وانصرفت إلى إكمال روايتي، وتأثيث بيتي الصغير في عين فجار. ولكن اللعينة لم يفارقني طيفها لحظة واحدة.

[٢١]

لست أدري لماذا كنت أفرح كلما مر يوم آخر لا أرى فيه نجوى. كنت كمن يوفر قرشاً على قرش يوماً بعد يوم، لينفق في يوم قادم كل الذي تراكم لديه دفعة واحدة. كنت كمن يشحن نفسه باستمرار تهيؤاً لعملية ضخمة ستتطلب منه طاقة كبرى. هذا تصوري الآن، بعد التجربة. أما حينذاك، فكنت أشعر أنني إنما أريد أن أنجز روايتي دون أي تدخل من الشخص الوحيد الذي كان بإمكانه أن يتدخل إن هو أراد. جعلت أكتب كل يوم، ولا سيما في ساعات الليل. استعجل نفسي، كأنني أريد أن انتهي من «شجرة النار» لكيما اتفرغ لأمر مهم فيما بعد، لست أدري ما هو. وكلما كتبت شيئاً للجريدة، وجدتني أكتب أشياء خفيفة لا تتطلب جهداً كثيراً ـ كأنني قصرت طاقتي الحقيقية على كتابة روايتي.

بعد شهر أو أكثر، أقام نبيل وصبا حفلة غداء لنجوى وخلدون ـ كان الغداء في غرفة الطعام الكبيرة، في القسم الذي أسكنه من الدار. وقد استضافا أيضاً صادق الرمحي وزوجته، وزميلاً أو اثنين من أساتذة كلية الآداب. وكان صفاء موجوداً دون زوجته. وبدا لي أن نجوى توليه اهتماماً خاص لا يخلو من غنج. أما أنا فتعاملني بالمثل: تقابل برودي (المصطنع) ببرود (مصطنع). وأما خلدون فقد زاد اهتمامه بي: لقد قرأ «النوارس» أخيراً مع أنه، هكذا قال، نادراً ما يقرأ الروايات ولكنه دهش لروايتي، وشكراً لنجوى التي ألحت عليه كي يقرأها. وهل لدي المزيد؟ ووعد أن يقرأ روايتي الجديدة حال صدورها ـ «ولن اسمح لنجوى باختطافها من يدي إلى أن أكملها.»

لا بد لي من الاعتراف بأنني، في تلك الأيام بالذات، رأيت ناهد عوني عدة مرات، بعد أن عادت من أبو ظبي، حيث كان أبوها يعمل في إحدى المؤسسات الحكومية الجديدة. ولكن تلك قصة أخرى ـ تكاد تكون محض عائلية، وهي خالية من تلك التوترات (على الأقل، بالنسبة لي) التي

تجعل من كل لقاء انصهاراً رهيباً عند درجة ألف مئوية. كنت فيما مضى أحسب أنني سأتزوجها، وأخذت الآن أماطل. ولم تكن ناهد تقلق كثيراً ـ ربما لاطمئنانها إلى أنني، عاجلاً أو آجلاً، سأضع خاتم الزواج في أصبعها، هي دون غيرها.

وتكررت الزيارات بين أختي وزوجها، وبين نجوى وخلدون. وفي بضعة أشهر وجدت أنني وخلدون أصبحنا صديقين. لأنني أخذت أزورهما أنا أيضاً. بل وجدت أنهما قد يمران عليّ بدون سابق إنذار، فإذا كنت في البيت قضينا سهرة قصيرة، وهيأنا عشاء مما هو موجود في الثلاجة. وسعيد وكلثومة بارعان في ارتجال عشاء كذاك، باشراف من صبا. ولم يكن من العسير أن أرى أن نجوى تمتحن قوتي ـ وتحاول كسر مقاومتي. ولم تكن تدري ـ أم لعلها كانت تدري؟ ـ أن كلمة واحدة منها كانت كافية لجعلي اسلّمها اسلحتي كلها. ولكنها بدت مصرّة على تحويل ما أردت له أن يكون شيئاً جائحاً، كاسحاً، إلى مجرد صداقة عادية لم أجد يومئذ حتى ما يبررها. هل حسبت أنها تدجّن النمر وتقتلع أنياب الأسد؟ هل راجعت نفسها في القاهرة فقررت أن تعيد الجني إلى القمقم الذي انطلق منه بفعل منها، لأنها أدركت الآن أنه فعل خاطىء؟

إن كان فعلاً خاطئاً ما بدأت به، فإنها (ربما بعد تردد، وتخوف، وتقريع ضمير) كانت مستمرة فيه على طريقتها. لم يخطر لها، أول الأمر، أنها ستفعل شيئاً يمس حياتها الزوجية بأي ضرر. وإذا وجدت فيّ ما يثيرها ـ ذهنياً، إن لم يكن عاطفياً ـ قبيل الزواج، فإنها لم ترَ في ذلك مدعاة لتغيير وجهة سيرها ـ نحو الزواج من رجل وسيم ذي مكانة يحسده عليها كثيرون ممن هم في سنه. وكبحها نفسها عن الكتابة إليّ في القاهرة إنما كان دليلاً على انزلاقها من الانشغال بي ذهنياً إلى الانشغال بي عاطفيّاً: اذن، فلتبتعد عني، هكذا قررت. فزواجها أهمّ. وفي عمورية، إذ حتّم الجو الاجتماعي علينا اللقاء ـ ولا استبعد أنها كانت تدبّر لذلك أيضاً، رغماً عن نفسها ـ فعليها أن تتصرف إزائي بما يدفع عنها تهمة أية عاطفة غير مشروعة، عاطفة «لا تليق» بها. غير أنها وجدت في تصرفي إزاءها ما مسّ

كبرياءها. إذا كان عليها هي أن تبتعد عن مشكلات الهوى الآثم، وقد سبق السيف العزل وتزوجت، فما الذي يوجب عليّ أنا أن ابتعد عن حبها، ولو من جانب واحد، وأنا رجل حرّ، لا زوجة لي ولا التزام تجاه أية امرأة؟ أين الجنّي الذي هدد بتكسير عظامها، وهي التي سيلذ لها أن تراه وعظامه تتكسر إزاء تمنعها، إزاء جدار كونها زوجة وفية؟ كبرياؤها أو، كما كانت تقول، غرورها، جسارتها، اقتضت أن تسمّرني في مكاني إزاءها: أراها وتراني وتثير فيّ ايحاءات لن تسمح لي بالجهر بها. لقد حدست بأنني أكذب باستمرار معها، بأن تظاهري مفضوح، وأن النار الصغيرة التي أشعلتها في ثيابي (في ثيابي أنا، لا في ثيابها، كما زعمت) يجب أن تصب عليها زيتاً بين الحين والحين ليستمر اشتعالها... وعندما أدركت أنني أتألم في ذلك كله، فرحت وبالغت في صب الزيت.

هذا ما قرأته في ورقة بين أوراقها التي جاءت بها يوماً إلى بيتي في عين فجار، بعد ذلك بسنتين: «كنت أعرف كل شيء، ويحسب أنني لا أعرف. وبحسبانه أنني لا أعرف، كان ألمه في ازدياد. وأرى ذلك، وأبقى صامتة أجابهه بوجه من حجر. أو من ورق، لأنه كان وجهاً يتمزّق بسهولة عندما أكون وحدي. حتى الضحكة التي ينشدها مني، أضنّ بها عليه، عن قصد. أعرف أنه يحب ضحكتي، فاتمنّع بها عليه، وأتلذذ بأن أقدم له وجهاً بارداً، حيادياً، كأنني لا أعرف... إلى أن ما عدت أنا أتحمل. وتمزقت.»

وعندما «تمزّقت» نجوى، كان تمزّقها بروقاً وعواصف وأمطاراً هادرة. وإذا هي كالشمس، التهب بها، وانتفض حيّاً ضاجّاً في أرض كلها موت، تريد الآن أن تتفجر تحت قدمّي بالخضرة والينابيع.

[٢٢]

كثيراً ما أحس بندم حقيقي لأني تأخرت، لأني لم أعرف نجوى قبل ذلك الوقت. ضحكتها الصغيرة التي تكشف عن أسنان كبيرة بعض الشيء، لكن شديدة القوة والبياض، والمسافة الصغيرة الرائعة التي تباعد قليلاً بين السنين الأماميين، ثم عيناها اللتان لم استطع أن أميز أبداً لونهما، واللتان لا تتوقفان لحظة واحدة عن احتضاني بلذة جارحة فأغيب فيها، أسافر، أبحر، ثم في خفقة أستعاد تماماً، أصبح بقرب نجوى، ذلك المخلوق المليء بالعنفوان والصخب واللعنة. . وبعض الأحيان بالصمت. أبحث في كل جزء منها عن اللذة والتعشق والانصهار، أجد ذلك في الابتسامة، في رفة العين، وفي ذلك الاقتراب الكاوي الذي يصرخ بحدة تزيد لحظة بعد أخرى، إلى أن يصبح احتراقاً كاملاً.

نجوى ليست مجرد امرأة، ليست فقط تلك الابتسامة التي تذيب العظام. إنها لا تبقي الانسان عاقلاً إذا نظر إلى عينيها. لشدّ ما أتذكر تينك العينين! أريد أن أتذكر بحدة، أريد أن استعيد لون العينين، طريقتهما في الرف، طريقتهما في النداء. أنجح في بعض اللحظات، أنجح حين أغمض عيني. أتذكر اللحظة ثم تهرب مني، وتغيب. نجوى مرض يصيب الروح. منذ اللحظة الأولى، منذ المرة الأولى، تركت في القلب شيئاً أقرب إلى السرّ. لم تقل كل ما تريد، قالت بعض الأشياء بطريقة معينة، خفية ومحرضة إلى درجة لا يمكن أن تنسى. لا زلت اتذكر رائحة الجو، والكلمات. كنا في السيارة ومرةً أخرى على مائدة الطعام. ومرة ثالثة أمام بائع التبغ. وفي كل نظرة شيء ما يستغيث، يهرب، يطير، وبعض الأحيان يهبط كأنه الغيمة الثقيلة. أحب أن استعيد تلك اللحظات المليئة بالتوقع. كانت دائماً تقول كلمة، تفعل شيئاً، يحرّك الدم، يغير مسيرته. كانت تفعل ذلك بطريقة بسيطة، عادية، وكأنها لا تفعل شيئاً. في مرات كثيرة كانت تصمت، تنظر إليّ، تبتسم. لكن بين الشفاه، في رفة العيون،

أشياء كثيرة. كنت استثار، أشعر بالارتباك، وأحياناً بالعصبية، لكن نجوى تعرف كيف تتصرف.. وكانت تفعل ذلك في الوقت المناسب.

في المرات الأولى، وكنا لا نزال يختبر كلانا الآخر بطريقة أقرب إلى الأطفال، قالت بطريقة مباشرة:

ـ علاء، اسمع ما سأقوله لك، ولا تغضب!

وحين ابتسمت وأكدت لها أني لن أغضب مهما قالت، هزّت رأسها بطريقة ساخرة، وصمتت لفترة، بدت لي طويلة، ثم تطلعت إلى عيني تماماً وسألت:

ـ هل أنت متأكد أنك لن تغضب مما سأقول؟

هززت رأسي عدة مرات مؤكداً لها أنني لن أغضب. تساءلت بمكر:

ـ وإذا غضبت؟

صرخت بنفاد صبر:

ـ قلت لك لن أغضب!

ـ اسمع اذن...

لا أتذكر كل ما قالته، لكن كلمات معينة ظلت ترن في رأسي مثل أجراس عيد الميلاد. قالت، أو ما أتذكر أنها قالته: «هناك فرق، فرق كبير بين الروائي والانسان العادي. الروائي فنان، رجل حالم، مليء بالرغبات، يريد أن يهدم العالم، ويبني عالماً جديداً، عالماً خاصاً، قد لا يعني الآخرين. ولذلك أنا أخاف كثيراً من هؤلاء الفنانين، وأخاف عليهم في الوقت نفسه... إنهم يكثرون من الأحلام إلى أن يعيشوا فيها. والعالم الذي يهدمونه، لكي يبنوه من جديد، قائم في أحلامهم فقط. وحتى أصغر الأشياء وأقلها أهمية إذا كانت قائمة ملموسة أمامهم، لا يعرفون كيف يعالجونها، كيف يتصرفون إزاءها. أقول ذلك لكي أؤكد لك حقيقة أساسية: هؤلاء الفنانون، بما فيهم الذين يكتبون الرواية، ينظرون مثلاً إلى المرأة، وكأنها جاءت من عالم آخر لا صلة له بالواقع. المرأة التي تكون

أمامهم لا يرونها. إنهم يرون شيئاً غيرها، طيفاً يتحرك في حلم. أتصورهم دائماً إما فريسة الخيبة، أو فريسة الوهم والجنون. ولذلك قد يكتب الروائي أشياء كثيرة عن الحب، لكنه لا يعرف كيف يتصرف تجاه المرأة التي يحبها فعلاً، والتي يتلذذ بحبها. فكيف الحال اذن بالأمور الأساسية الأخرى في حياتنا؟ كيف يتصرف إزاء الظلم، إزاء القهر، إزاء القسوة والقتل؟»

هذا ما أتصور أنها قالته، ولكنني أجزم أنها قالت أشياء أشد إيلاماً، وأكثر دقة. وأقف حائراً إزاءها. أتذكر في إحدى المرات، بعد مناقشة عاصفة مع نجوى، أني حاولت اقناع نفسي بمراجعة ما قالته، أن أستعيد المناقشة، ثم المعركة التي وقعت بيننا. قلت لنفسي بحدة: عليّ أن أتحول إلى شخص محايد، مراقب، وعليّ أن استعيد ما دار كما لو أنه يعني انساناً آخر، انساناً من هؤلاء البشر الذين أخلقهم، لعلي اكتشف نقاط القوة والضعف في موقف الآخرين. أتذكر اني كنت اذهب بعيداً في استعادة ما حدث: الكلمات، طريقة قولها، التصرفات، وحتى الابتسامات ورفة الأهداب، وما أكاد أضع مسافة بيني وبين ما حصل، حتى ترتج الصورة أمامي. تبرز صورة أو ابتسامة تجعلني انسى الحياد والموضوعية، وأتحول فجأة إلى مخلوق آخر.

لم أنجح مرة واحدة في استعادة كل ما حدث. لا يمكن أن يكون الانسان محايداً تجاه امرأة كنجوى. إنها تفرض حرباً من نوع أو آخر. وحتى اللحظات التي كانت تمتلىء بالابتسامات والدفء، كانت تبدو لي طاغية إلى درجة التدمير.

«علاء.. لماذا جعلت سلوى... تنتحر في روايتك الأولى؟»

ولا تتركني لكي أجيب. كانت تمتلىء فجأة بنوع من الغيظ وتضيف بحدة:

ـ هل المخلوقات البشرية بالنسبة للروائي مجرد دمى يحركها ويرسم لها المصائر كما يشاء؟

وحين أحاول جاداً استعادة وقائع معينة، لكي أربط الأحداث،

وأفسر لها انتحـار سلوى، أحس أنها سافرت بعيداً. ألاحظ ذلك من الابتسامات الصغيرة، من النظرات السارحة، وأسقط في حالة من التخبط، أقول لنفسي بحدة، وكأني أسمع مخلوقاً يكمن في داخلي كالحارس: «أيها الأحمق.. توقف!» وفجأة أصاب بحالة من الانتكاس. أصبح رجلاً صعباً، أغرق في كآبة قاتمة. وحينذاك تبذل نجوى كل جهدها، وحلاوتها، لكي تخرجني من الكآبـة. تنجح أحياناً، وتفشل أحياناً أخرى. لكن لشد ما كان يضايقني أن أشعر أن في كلامها انتقاصاً من قدرتي الروائية. أما هي، فتعتبر أن ما تقوله هو مجرد نقد موضوعي لطريقتي في كتابة الرواية!

ذات مرة، وكنا لا نزال في البداية، قالت لي بطريقة استفزازية أقرب إلى الطريقة المسرحية:

ـ علاء! هل تريد أن تعيش أم أن تمثل؟

وحين أكدت لها بكلمات مرتبكة، أني أفضل أن أقتل نفسي على أن أمثل دوراً كتبه آخرون، وأن حياة الفنان، أي الطريقة التي يحيا بها، هي الأساس، قالت ساخرة:

ـ اذن يجب عليك أن تكف عن هذه الطريقة في النـظر إلى الأشخاص والأحداث.

وحين حاولت معها أن اكتشف العيب، لكي أتوصل إلى الطريقة المناسبة، قالت وهي تضحك بصوت عال، مستفز:

ـ الطريقة الصحيحة في الكتابة هي أن يكتب الانسان، وفي عينيه نظرة مستقيمة نافذة. أن يكتب عما يحس أنه السر، أنه الحقيقة الضائعة، عما يحس أنه يصل ما بين ذاته المركزية، والأفق المحيط به كالدائرة.

ماذا يعني كلامها وكيف يمكن ترجمته؟ ومن أين تأتيني بهذه «الحِكَم» التي لا تنسجم كثيراً وشفتيها الهوجاوين؟

لم نصل إلى نتيجة. النتيجة الوحيدة التي وصلنا إليها هي أن نجوى تريدني أن أجرّب طريقة أخرى في الكتابـة، لأن الطريقة التي أحبها

وأكتب بها لا تفي الحاجة، ولا تروق لها. ولو أنها تنكر ذلك أحياناً انكاراً غير مقنع. وهذه النتيجة أثارت في نفسي تساؤلات لا نهاية لها. إذن لماذا تحبني هذه المرأة؟ ماذا تحب فيّ وماذا تكره؟ والحب والكراهية، أليس لهما علاقة بكوني كاتباً؟ أليس ذلك ما أجتذبها إليّ منذ أول يوم؟ أحار في الأسئلة، في الأفكار، وأحار، أكثر من ذلك، في أن قضية غامضة، تتجاوز الأفكار والكتابة، ولا نستطيع أن نصل فيها إلى نتيجة، هي التي تجمعنا. أو بالأحرى، ربما كانت هذه القضية الغامضة الشديدة التعقيد، هي التي تجمعنا دون غيرها.

ليس من السهل أن يحلل الانسان أفكاره ورغباته. ولكن قبل هذا، أليست المشكلة بحد ذاتها وهماً من الأوهام؟ أليس كونها وهماً أمراً وارداً جداً؟ قد يبدو أن في كلامٍ ذلك المكر الذي يروق للفنانين والمتبطلين، ومع ذلك فإن فيه عنصراً يساعد على الاكتشاف المستمر، ومحاولة الوصول.

الوصول؟ الوصول إلى ماذا؟ إلى أي شاطىء أمان؟ للمشكلة وجه آخر، ما من ريب. نعم هناك مشكلة حقيقية. ولربما كان لها أكثر من وجه.

قلت وأنا في أول تخبطي، إن المشكلة ببساطة متناهية تتلخص ببضع كلمات: كل رجل بحاجة إلى امرأة. لا يهم أن تكون هذه المرأة زوجة أو عشيقة. كثيرون يفضلون العشيقات ـ خاصة في سن معينة. وكثيرون يفضلون أن يغيروا عشيقاتهم أو أن يحتفظوا بعدد منهن. في وقت ما، ولأسباب تختلف باختلاف الأشخاص، وبتقدم العمر، تبدأ المسألة باتخاذ شكل آخر. تكون الزوجة، ثم يكون البيت، ويكون الأطفال... وأخيراً تكون الغفوة النهائية. هكذا تكون الدورة في معظم الأحيان.

المرأة لا تختلف عن الرجل في الحاجة وطريقة اشباع هذه الحاجة، وإن كانت تفضل، في الغالب، ان تصطاد رجلاً في وقت مبكر، لأن خوفها من المستقبل والشيخوخة يدفعها باستمرار لأن تحتاط، لأن تستعد لتقديم بعض التنازلات.

أما الحب فشيء وهمي. وهو يعني الصغار، الحالمين، وأولئك الذين لا يجدون شيئاً أفضل يفعلونه في أيامهم الطويلة.

توصلت مبكراً إلى هذه القناعة. أيام المراهقة، بعد عدة تجارب معذبة وفاشلة، قاسيت خلالها ألواناً من المهانة النفسية وأضعت أوقاتاً لا حصر لها. وانتظرت في الصباحات الباكرة وأوقات الغروب، وسهرت وتأوهت وبكيت... وانتهت كل أحلامي إلى لا شيء... نتيجة هذه المعاناة قررت بيني وبين نفسي أن أعبر بسرعة فترة المراهقة، وأن أصبح رجلاً عملياً (في هذا الجانب بالذات كنت امتثل لا شعورياً لآراء صفاء، ولا شك)، وأصبح أكثر حزماً وواقعية، فاتخلى عن هذه التجربة غير المجدية واسقط نهائياً من قاموسي فكرة أن أحب امرأة. كانت المرأة بالنسبة لـي جسداً طرياً حارقاً. وكانت تلك الساعات الحافلة بالشهوة والغرق، إذا انتهت، انتهى كل شيء حتى اشعار آخر، حتى يوم آخر. فاذا حان ذلك اليوم بدأت العودة مرة أخرى إلى ذلك التلمس العصبي، باليدين والشفتين والساقين، ثم بالجسد كله، ومحاولة جامحة للدخول الكامل في الجسد الآخر، والذوبان فيه، وبنفس النغم الحاد المتصاعد. حتى إذا خفت اللهاث تدريجياً، وارتخت الأيدي، وفاحت تلك الرائحة، بدأت الحركة الخفية: التراجع. ثم الانتهاء.

هكذا كانت تتكرر اللعبة مرة بعد أخرى، ونتيجة الشعور باللذة والامتلاء، ولو مؤقتاً، ولما كنت اشتهي بجسدي كله وأحس بالشهوات المقابلة وهي تزحم طريقي، لم أشأ في يوم من الأيام أن أرتبـط بامـرأة بالذات. أو أنني لم أجعل نفسي أسير امرأة. كنت شديد الرغبة في الانتقال والتغيير. وهذا التصرف الذي بدا لكثيرين حافلاً باللذة والامتياز كان يثير في نفسي التساؤل ثم الحيرة: لماذا أنا هكذا تجاه المرأة؟ لماذا اشتعل حتى الاحتراق لكي أصل، فإذا وصلت، إذا شبعت وارتويت، شعرت بنوع من الضيق لا يمكن تبديده إلا بالابتعاد والهرب؟ لقد اثارني هذا الأمر، وفي كل المرات التي حاولت أن أفسر هذا السلوك، أو أن أفهم واقعه الحقيقي لم أصل إلى نتيجة مرضية.

ظللت هكذا وقتاً طويلاً. أنا لا أريد أن أبالغ، فأدعّي أني لم التق امرأة واحدة مرتين، لكن النقطة الأساسية هي أن أية امرأة جديدة، مهما كانت المقاييس التي تتصف بها، تبدو لي أكثر جمالاً وشهية من أية امرأة سابقة. في داخلي شيء يستعصي عليّ. يحيّرني. وأكاد أخاف منه. لذلك لم تكن فكرة الارتباط بامرأة معينة واردة بالنسبة إلي، منذ ذلك الوقت البعيد، ذلك الوقت الذي سقطت فيه دمعتان من عيني نائلة، ولم استطع أن أفسر تلك الدمعتين، هل هما دمعتا حزن أم فرح؟ هل هما دمعتان لي أم عليّ؟

هل كنت سعيداً وأنا انتقل بين النساء؟ وهل كنت محظوظاً إلى الدرجة التي يتوهمها بعض الذين عرفوني في تلك الفترات؟ أكاد أقول العكس. كنت شقياً بمعنى ما. كنت أبحث وأحاول، وكانت تشغلني أفكار وهموم، وفي خضم البحث والمحاولة، وتحت وطأة الهموم التي كانت تزداد وتتكاثف كل يوم، ولا سيما بعد أن تخطيت الثلاثين، كنت اتصرف بتلك الطريقة الغامضة والحادة. لست آسفاً، ولا أشعر بتأنيب الضمير. وإذا كنت أعرض هذه الحالة الآن، فما ذلك إلا لأنني أريد أن أفهم لماذا كنت هكذا، ثم لماذا تغيرت بهذا المقدار.

قبل نجوى لم تكن الأرض خراباً، كما لم أكن شقياً إلى درجة تثير الأسى. كنت انساناً آخرْ. غير أن زمناً جاء كشف، رغماً عني، عن خوافي نفسي التي باتت تتراكم في داخلي تراكم السم في الدم. ولم يسعفني موقف، ولا كتابة. ومرضت ذلك المرض الذي لم يفهمه طبيب. وفجأة صحوت، أو غبت عن الوعي، لست أدري. كيف غدت الصحوة والغيبوبة عندي متبادلتين؟

قبل نجوى، وقبل مرضي بسنين، في تلك الأيام البعيدة، كنت أنزل القمر والنجوم كل ليلة لكي أعيد صياغتها وترتيبها، وقبل أن يأتي الفجر كنت أقذفها ضياء مرة أخرى إلى السماء، وأغفو. وفي تلك الغفوات القصيرة القليلة كان يتشكل لي العالم من جديد، فيبدو شديد الخضرة مليئاً بالدفء، أرى الناس يندفعون إلى العمل بهمة وقد امتلأت وجوههم

بالابتسامات. فإذا رأوا شرطياً أو سوراً وقفوا يتأملون هذا الارث الذي انحدر إليهم، وكأنه جزء من حياتهم، ثم انتهى..

في تلك الأيام البعيدة كانت مبادىء حياتي، رغم مصاعبها، تتلخص بأشياء بسيطة: العالم الذي نعيش فيه شديد القسوة والدمامة والظلم، وهذه الأمور يجب أن تنتهي لتقوم على أنقاضها معالم حياة جديدة. أعرف أني بتلخيص تلك المبادىء على هذه الطريقة أجعلها ربما أقرب إلى البلاهة، لكن، ولكي أكون صادقاً، عليّ أن اعترف: لم تكن أحلامي تتجاوز القضايا الأساسية المشروعة التي يجب أن يتحلّى بها كل مخلوق بشريّ. وكنت أصر على تبسيطها لأني أراها نقية وضرورية كالماء والشمس والهواء... إن الأشياء البسيطة والضرورية معاً هي تلك التي تعيش معنا في كل لحظة، ولا نكاد نحس بها. ومع ذلك فهي أيضاً الأشياء التي نهدد دوماً بالحرمان منها، بل نحرم منها على أيدي أناس لا يريدون الماء والشمس والهواء إلا لأنفسهم. لن أخوض في تفاصيل الأفكار والأحلام التي ملأت رأسي تلك الأيام. لو حاولت ذلك لأنفجرت أسىً.. ثم غيظاً. وما زلت لا أصدق أن تلك الأفكار والأحلام يمكن أن تدمَّر وتداس، كما حصل في وقت لاحق.

خرجت من تلك التجربة مجروحاً بائساً، وتحطمتْ تحت ناظريّ القداسات المزيفة والطهارات الظاهرية المصطنعة، ومات الصدق مختنقاً تحت رزم النقود، وتحول الديوك الفحول إلى خصيان. بدأت الكراسي، الحفلات، السفر، السفارات، وتلك «الامتيازات» التي كنا نأبى أن ننظر إليها أو نقترب منها غدت أحلاماً تراود الكثيريـن. ثم جاءت بعد ذلك أمور كثيرة: السلطة، القوة، النفوذ، العقارات، لتقيم أهرامات ضخمة جديدة بدل تلك الاهرامات الشفافة التي طالما حلمنا بها وبنيناها في معاركنا وأقبيتنا وسجوننا. ربما أكون مغفلاً لا أدرك الأمور على حقيقتها، وقد تكون روح الفنان المحب للجمال داخلي أقوى من روح الثائر على القبح، وقد أكون كما وصفت نجوى الفنان: بارعاً في رؤية الحلم ولكن أعمى في رؤية الواقع. المهم.. ما كادت بضع سنوات تمضي، بعد تلك

المعارك والتوقيفات والانتظارات حتى وجدت نفسي في عالم آخر: عالمي الماضي ينهار، علاقاتي تتمزق، أحلامي تنتهي، واستيقظ على دويّ مدافع الدبابات وصرخات الذين علقوا على المشانق. وبدل أن تنتهي القسوة والدمامة والظلم، يشاد للقسوة صروح جديدة، تشمخ لها رموز جديدة. وبدل الظلم الصغير الذي كان، والذي أحس بمدى ضآلته الآن، جعلت اصطدم في كل خطوة بعشرات الفراعنة الصغار. . . أما الدمامة فقد أصبحت الميزة الوحيدة التي تملأ الدنيا.

وفي تلك الفترة بالذات جاءت نجوى. هل جاءت بالصدفة؟ هل أرسلها القدر، أو بعث بها ذلك الجد، حمدي سويلم، الذي لا يتوقف لحظة واحدة عن اعادة تشكيل العالم حتى من قبره في المطلة؟ هل أرسلها أحد؟ أو لم أرها من قبل؟

أحياناً أراني لا أصدّق ان انساناً واحداً، علاء بن نجيب سلوم، قد تغيّر بهذا المقدار، وأنه رأى وعاش، تلمّس بيديه الاثنتين وتحمل كل هذا الذي جرى، وأنه غيّر قناعاته إلى هذه الدرجة.

أفضل ميزّة يتمتع بها الانسان هي قدرته على النسيان، وهذا ما سوف أحاول اتقانه بعد الآن. ولكنني أعرف أنني لن أفلح. أمور كثيرة تسكنني ـ تتصل بنجوى، أو لا تتصل. وإذا كان السوالمة قد تركوا أثراً يرفض الجمود والموت في خلايا جسدي، فهناك أيضاً آخرون. خالي، مثلاً، حسام الرعد. . . كيف لي أن أنساه ما دمت انساناً صنعه الله كتلة من عشق وحزن وغضب؟

[٢٣]

لعلني كنت في العاشرة، أو أكثر بقليل، عندما بدأت أترقب وانتظر كل يوم جمعة ـ إنه اليوم الذي فيه يتردد علينا خالي حسام الرعد. طويل، وسيم، في أوائل الثلاثينات من عمره، لا تتسع الدنيا لمرحه. يجيئنا في سيارة «سبورت» قديمة يوقفها عند البوابة، ويزمّر، فننزل إليه راكضين، ويأخذنا أنا وصفاء في سيارته المكشوفة ويتجوّل بنا في شوارع المدينة. أو يأتينا راكباً حصاناً، فأراه أميراً قادماً من عالم القصص التي جعلت أقرأها، ويدعوني أنا بالذات ويركبني أمامه على الحصان، وأمي تعترض خوفاً علي، وخالي يقول: «اسمع يا علاء، إذا لم تكن فارساً، فأنت لست شيئاً. عالم بلا فروسية لا يساوي فلساً أحمر. اتفهم؟»

وفي العطلة الصيفيـة من إحدى السنين جعل يمر بنا مبكراً من كل صباح بسيارته، ويأخذني إلى اسطبلات الخيل في حي العمادية، حيث كانت له عدة خيول عربية يعيش بها ومن أجلها. وعلمني ركوب الخيل حتى صرت، بعد بضعة أشهر أرافقه، كل منا على حصانه، في ظاهر عمورية، في خبب، ثم في حُضْر أشبه بالطراد، فامتلىء فرحاً، ولو أنني أعود بعد ذلك منهوك القوى متألماً في الإليتين، فتعلن أمي غضبتها مجدداً على أخيها الذي تتمنى لو أنه يتزوج وينجب ابناً يعلمه ركوب الخيل، ويكف شرّه عن أولادها! فيقول أبي مازحاً: «حسام تزوج الخيل...» ويقول حسام، وهو يقتاد باللجام مهرته الشقراء المحببة لمعة إلى خارج الأسطبل، «بشرفك أبو صفاء، هل في الدنيا امرأة في جمالها؟» وتتهادى لمعة إلى جانبه، وغرتها البيضاء تعابث الريح، وتصهل صهلة يطرب لها أكثر من صوت ألف غانيه. فيخبط بكفيه عنقها الطويل ويمسّده برفق، كعاشق.

وما زلت أذكر يوم أنزل لمعة إلى حلبة السباق لأول مرة ـ كان ذلك على أثر خروجي من التوقيف، قبيل ذهابي إلى انكلترا للدراسة ـ وكان

يركبها جوكي بحجم الفأر، ولكن كبرياءه بحجم الجبل. كنت بين آلاف المتفرجين والمراهنين مع خالي، وأخي الأصغر أدهم الذي صار ينافسني في حبه واهتمامه. وقد جعلنا حسام نراهن، ولو بمبلغ متواضع، على «لمعة حسام» ليزيد من إثارتنا وتوترنا، وهو يتوسط عدداً من أصحاب الخيل ولا ينقطع عن الكلام والضحك، مطمئناً إلى فوز فرسه. وبدأ الشوط والجمهور صامت متحفز، ثم جاءت الهمهمة، ونحن كل بمنظاره نراقب لمعة، رقم٤، بين خمسة عشر حصاناً، وارتفعت الأصوات فجأة عندما نفذت لمعة عند منعطف الحلبة البعيد من بين الخيول الأخرى وتقدمتها، ثم علا الضجيج وتلاه الصراخ، وقلبي يضرب في صدري كالمطرقة، وأخذت أنا أيضاً أصيح «لمعة! لمعة!» وقد انطلقت لمعة كالرصاصة، وأقرب حصان لها يتأخر عنها مسافة أمتار ـ وفازت! عدنا إلى البيت وفي جيب كل منا عشرات الدنانير. أما حسام فقد عاد بثلاثة أو أربعة آلاف دينار، لينفقها كلها بعد ذلك بأيام ـ كعادته. فهو لا يوفر شيئاً مما يكسب، ولو فلساً واحداً.

بدأت أدرك لماذا يتحلق حوله دائماً ذلك العدد الكبير من العابثين والماجنين. الذين لا أسماء لهم في ذاكرتي، ولا وجود. وهل يتزوج حسام الرعد وأجمل راقصات عمورية، القادمات من مرابع بيروت والقاهرة وبغداد، يحيين له ولصحبه الليالي الصاخبة في داره، وبالجملة، ويعزف لهن على العود بنفسه، ويتلقف الطفيليون الدنانير المتساقطة من يديه في كل اتجاه؟ وفيما كنت أنا في غمرة حماساتي الرومانسية وغرامياتي الصغيرة اللاهثة، لحظت أنه في الواقع يحتقر النساء. وكلما اقترحت أمي عليه اسم امرأة من أطراف أسرتنا، أو من معارفنا الكثار، هز كتفيه استخفافاً، وردد: «صنت نفسي عما يدنّس نفسي...» فتقول أمي: «عدنا للشعر والكلام الفارغ؟ أريد منك أن تكون جاداً ولو مرة واحدة!»

كان خالي حسام قد ذهب للدراسة في الجامعة الأمريكية ببيروت، ولم أعرف بالضبط ما الذي درس، لأنه كان يؤثر الحديث، لا عن حياته الأكاديمية، بل عن نشاطاته في «العروة الوثقى» وعلاقاته السياسية

والاجتماعية، وأسفاره بين بيروت وبغداد والقدس. ما الذي كان يهمه في الحياة فيما عدا الخيل؟ لم أعرف بالضبط. كان يتكلم الانكليزية بطلاقة، ويقتني كتباً كثيرة، انتشرت رفوفها في كل غرفة من غرف منزله. غير أن حبه للشعر بشكل خاص كان ظاهراً في رصفه ثلاثة رفوف كبيرة بدواوين شعراء العرب القدامى، وبعض المحدثين. وليلة اجتمع أفراد الأسرة في بيتنا ليودعوني، اذ كنت سأستقل الطائرة إلى لندن في الصباح التالي، جاءنا في ساعة متأخرة، وأهداني نسخة من ديوان البحتري. وقال «تعلم أية لغة تشاء في الدنيا. ولكن اقرأ كل يوم ثلاثة أبيات من هذا الديوان، فلا أخاف عليك». وما كدت آخذ الكتاب بين يدي حتى انفتح تلقائياً على:

صنتُ نفسي عما يدنّس نفسي
وترفّعت عن جَدا كل جِبْسِ
وتماسكتُ حيث زعزعني الدهرُ
التماساً منه لتَعسي ونَكْسي
وكأنّ الزمانَ أصبح محمولاً
هواه مع الأخسِّ الأخسِّ...

لم يكن قد مر وقت طويل على خروجي من التوقيف، فشعرت أن هذه الأبيات تحمل لي المعاني التي تنسجم مع إرادتي، تلك المعاني التي كان خالي أيضاً ربما يراها فيها. ولم أدرك إلا بعد ذلك بسنين المغزى الحقيقي الذي كان يروق له أن يستخرج منها.

عندما رفعت رأسي عن الكتاب، سمعت العمة نصرت تقول بلهجة صارمة: «حسام، لا تحاول المستحيل. علاء ليس من حصتك في هذه العائلة. ربما أدهم...»

فأجابها ضاحكاً: «ثلثا الولد على خاله، يا ستي...»

ـ «بالنسبة إلى أدهم، ربما... والثلث الآخر فيه سويلمي، سويلمي جداً... أما علاء ـ» وهزت رأسها بالنفي، وعيناها تحدقان فيه، ولا تريانه.

وكالعادة، كانت عمتي على شيء من الصواب. على الأقل من حيث الشاعرية التي كانت الصفة المميزة لخالي - وفروسيته ولا أباليته انما هما بعض تلك الشاعرية - والتي جعلت تتبدّى في أخي أدهم. وقد تكاملت في أثناء غيابي في انكلترا، إذ جعل أدهم يكتب إليّ رسائل ملأى بقصائده - وبما يستطيع أن يوصله إليّ عبر البريد المراقب من أخباره، وأخبار خالي وخيوله وبعض الأصدقاء. وأدهشني حين أخبرني ذات مرة أنه قضى أمسية رائعة مع حسام الرعد الذي راح يعزف لساعاتٍ انغاماً مرتجلة على العود، قائلاً إنها من وحي قصائد أدهم!

حسام الرعد! أيّ اسم رائع على أي مسمى رائع! اذكره اليوم، فأريد البكاء. «وتماسكتُ حيث زعزعني الدهر...» كان يعلم منذ اليوم الأول أن الدهر سوف يزعزعه، ولن يستطيع التماسك، والزمان محمول هواه مع الأخسّ الأخس.

ست سنوات غبت فيها عن عمورية، وعمورية لم تغب عني لحظة واحدة. لم يشجعني أبي قط على العودة أيام العُطَل الصيفية إلا مرة واحدة. كان يتقصد أن يرسل إليّ مبالغ اضافية ويحثني على الاستفادة منها في السفر في أقطار أوروبية: وأنا لم أنجح أصلاً في دراسة الهندسة الميكانيكية، وتحولت لاحقاً إلى دراسة تاريخ الفن، ولا بد لي في أثناء العطل من مشاهدة المتاحف والمعارض في العواصم الأوروبية كلها إن استطعت...
ويوم عدت بعد غيابي الطويل إلى عمورية، أو في اليوم التالي لعودتي على وجه الدقة، رحت أزور أخي أدهم - في السجن... كان قد حكم عليه، مع مجموعة من رفاقه الطلبة، إثر تهمة سياسية، بالسجن ستة أشهر.
والرجل الوحيد الذي صحبني في الزيارة كان خالي حسام - مع أمي.

كان شَعْر خالي قد أبيضّ كله بشكل مذهل. غير أن وجهه بقي على نضارته وشبابه. بقيت ضحكته عالية، ولم يخبُ التوقد في عينيه. ولحظت ما بينه وبين أدهم من تفاهم خفي: كلاهما مرح، ضاحك. حتى في السجن لم يبد على أي منهما أنه يكترث لشيء. أما أنا فلم أعرف ماذا أقول لأخي بعد ذلك الغياب الطويل، وأنا اتمزق بين الغضب والقرف لما أرى.

كان عزائي الوحيد أن أدهم قد أضحى شاباً يملأ العين، لا يُخفي ضحكهُ العصبي صلابةً تلتمع بين الحيْن والآخر كحد النصل في نظرته حين يتقطب حاجباه فجأة، وتنطبق شفتاه بقوة غريبة.

اكتشفت أن خالي لم يبق له من الخيل ما كان لديه من قبل. وأخبرتني أمي أنه اضطر في العام الأسبق إلى بيع مزرعته الصغيرة. وعندما باغتّه بزيارة، عصر أحد الأيام، فتح لي الباب بنفسه وفي يده عوده الجديد، الذي صنعه له عوّاد مشهور في دمشق، وهتف: «علاء! جئت في الوقت المناسب! تعال اسمع.» وأخذني إلى غرفة الجلوس، وأجلسني قبالته، واحتضن العود، ودوزنه قليلاً، ثم جعل يعزف، وشعره الأبيض في هالة هوجاء حول رأسه المنحني على الأوتار. لست أدري هل أحس بوجودي أمامه، وهو فيما يشبه الغيبوبة يستخرج من تلك الآلة الرقيقة، التي كنت أتصور أنها لم تصنع إلا للطرب، فوضى رائعة من الأنغام، يتمازج فيها العنف والألم على نحو لم أكن أتوقعه من حسام الرعد. خُيّل إليّ أنها أنغام لا تخضع لقاعدة موسيقية، ولكنه يتحكم بها، كأنه يستنطق الأوتار لغةً تدهش لها هي نفسها. وأدركت ساعتئذ لماذا أصر على نشر قصائد أدهم على نفقته...

فجأة، توقف، ورفع رأسه، وقال مشيراً إلى مائدة جانبية عليها زجاجات وكؤوس: «صب لك كأساً... وكأساً لي.»

نهضت، وقلت: «ويسكي، أم عرق؟»

قال وهو يدوزن الأوتار من جديد: «عرق، عرق يا علاء. ولا تكثر الماء.»

ما علاقة هذا كله بنجوى؟ ما علاقة هذه الوقائع بها، وهي تعود إلى قبل معرفتي نجوى بسنين؟ كان من الممكن ألا تكون لها أية علاقة بها. ويا ليت الأمر وقف عند ذلك الحد! لكنت اتمنى لو أن صورة حسام الرعد تلك، تلك دون غيرها، هي التي بقيت مجمدة في ذاكرتي! حسام الرعد وقد احتضن عوده في غرفة ملأى بالكتب، وعلى جانب منه بضع زجاجات

وكؤوس تراكمت فيما بينها قصائد عذبة مرة لأبن أخيه أدهم، الذي يرعاه ويشجعه على المضيّ في توزيع همه بين الشعر وبين النشاط السياسي، ولمعة الشقراء تصهل في اسطبلها في انتظار فارسها...

كان من أقرب الناس إليه عبد الفتاح أبو العز، صاحب جريدة «الميزان» - فبينهما صداقة تعود إلى أواخر الثلاثينات، أيام الدراسة الجامعية. كثيراً ما رأيتهما يختلفان في الرأي حتى المشاجرة، لا سيما إذا أسرفا قليلاً في الشرب، غير أن حرارة الود بينهما لم تختف قط. هذه الصلة بين الرجلين كانت السبب في تعيين رفيق دراستي في مانشستر، صادق الرمحي، محرراً في جريدة «الميزان» حينما طلبت إلى خالي التوسط في الأمر لدى الأستاذ أبو العز. ولم تخل العملية من شيء من روح التآمر. فقد أردنا صوتاً يمثلنا في جريدة هي أوسع الصحف انتشاراً في عمورية، بل إن صادق حالما توطدت له مكانة في هيئة التحرير، أخذ يطالبني بكتابة المقالات لجريدته - إلى جانب عملي محاضراً في أكاديمية الفنون الجميلة. وكان عندئذ أني أثرت كثيراً من القضايا التي طالما تناقشنا فيها أنا وصادق في عهد الدراسة. وكانت المقالات تلقى ترحيباً من صاحب الجريدة (ولعله لم يكن يقرأها أصلاً)، ويتغاضى فيما يبدو عن اعتراضات بعض الساسة الذين، على حد قوله، من شأنهم أن يعترضوا على كل رأي، مهما يكن، «لمجرد أنه لم يخطر ببالهم من قبل».

كم مرةٍ جاءني حسام الرعد طالباً إليّ أن أخرج معه إلى الصيد، فأتعذر بمحاضراتي وكتاباتي. وكان جوابه مرة على ذلك، وشعره الأبيض يضفي مسحة من الحكمة على كلماته: «علاء، أراك تنازلت عن رحاب أرض الله، ورضيت بمغلقات المدينة.»

فقلت: «سأجعل مغلقات المدينة تستوعب رحاب أرض الله - في كتاباتي.»

- «هاها! حجج الكتّاب! وما الذي ستكتب ولم يكتبه غيرك من قبل؟ وربما بأسلوب لن يحلم به قلمك؟»

ـ «الكثير، الكثير يا خالي.»
ـ «والله إن لم تكتب ما يخشى الآخرون كتابته..»
ـ «سأحاول»
ـ «وفوق ذلك ترفض الخروج معي إلى الصيد... سأرفض الاعتراف بأنني خالك!»

ثم يخبط بكفه على كتفي بحب، ويضيف: «ولكنني لا أخشى عليك... أين أدهم؟» وأتأكد مرة أخرى من أنه إنما جاء ليستصحب أخي معه، ليقرأ قصائده، ليطاردا معاً على الخيل، ليطلقا النار في أجواء ذلك الوادي العريض الوعر الواقع بين غسرين والمطلة، والمشهور بالحجل. ولم تكن النار التي يطلقها أدهم بالضرورة دائماً ناراً من بندقية صيد. ويوم اكتشفت أمي رشاشاً خبأه أدهم في دولاب غرفة نومه، وأعلمت أبي بذلك، نزل أبي إلى الغرفة الصغيرة التي كنا أنا وأدهم نختلي فيها لسماع الموسيقى، وكان هو يسجل إحدى قصائده على مسجل اشتريناه قبل أيام، وصاح به أبي: «أدهم! إمّا أنا في هذا البيت، أو رشاشك! أتريد أن تبلينا؟ تخرّب بيتنا؟»

وظهرت وراءه أمي بادية الاضطراب، وتلتها العمة نصرت في فستانها الأسود الجنائزي الطويل وهي ترف بذراعيها كجناحي غراب رهيب وتقول: «على جدك الأول يا أدهم! على جدك الأول!» ثم انسحبت. وصرخ أبي، وأدهم ما زال أمام المسجل والميكرفون في يده: «أخرج من هذا البيت، أنت وسلاحك وجنونك، ولا أريد أن أراك مرة ثانية!»

وبكل برود قال أخي: «أرجوك، بابا، صياحك سجله الميكروفون مع قصيدتي.»

فاندفع أبي إليه، وخطف الميكروفون من يده وانتزعه بشراسة من المسجل، وقذف به في وجهه، وخرج محتدماً، وبعد لحظات سمعنا سيارته

تنطلق من الكراج. ولم يعد إلينا لأيام. وراحت أمي تفرك يديها بؤساً ويأساً، والدمع يملأ عينيها، وتقول: «ذهب إلى الرقاصة العجمية. يريد ذريعة يتحجج بها ليذهب إلى تلك القحبة... يا ليتني لم أخبره عن الرشاش.»

وكانت أيامئذ المفاجأة الكبرى: حسام الرعد تزوج! ذهب إلى دمشق لأسبوعين، وعاد ومعه امرأة ممتدة القوام، مستديرة الوجه، كبيرة الردفين، يصعب تحديد سنها، تدعى عصمت الحلواني. وتبين أنها من أقارب زوجة صديقه عبد الفتاح أبو العز، وأن «الطبخة» تمت على يد زوجة عبد الفتاح.

لم يرق الخبر لأمي، بل إنها أحست أن بلية أخرى قد نزلت بها شخصياً. «لم أترك فتاة مستورة من أقاربنا لم اقترحها عليه... ويأتينا أخيراً بعد أن شاب وعاب بامرأة غريبة، لا يعرف أحد ما أصلها ولا فصلها... والله لن أزورهما ما دمت على وجه الأرض وأتنفس.»

ولكن أمي، القديسة، تنازلت عن موقفها الرافض حين جاء حسام وهو يعرف ضعفها تجاهه، واسترضاها دون مشقة. فلم تزره وزوجته وحسب، بل أقامت للزوجين السعيدين حفلة عشاء في دارنا دعت إليها أقاربنا، وعبد الفتاح أبو العز وأقاربه ـ كما ينبغي. وتألّقت أمي ليلة أو ليلتين عندئذ، لأن أبي كان قد عاد من المرأة الأخرى قبل الحفلة بيومين أو ثلاثة ومكث بيننا ـ بعد أن أكد له أدهم أنه تخلص من الرشاش.

ربما لم يكن زواج خالي بداية انهياره بالضبط ـ ولكنه كان حتماً أحد أعراض ذلك الانهيار، كما كان في الوقت نفسه أحد الأسباب التي سارعت فيه. لم يدم الزواج أكثر من ستة أشهر. فبعد الأيام الأولى للزواج بدأ خالي يثور لأتفه الأسباب وأخذ يتعارك أو يبقى صامتاً، ثم غرق في السكر، وكثيراً ما كان يترك عصمت وحيدة ليلة أو ليلتين، فتلجأ إلينا لتشكو همها، وتقول: «حسام يفضل أن يقضي الليل في الأسطبل مع الخيل على قضائه معي في البيت. ما هذه المصيبة يا رب!»

واختفى في المرة الأخيرة عدة أيام، ولم ندر أين اختفى، غير أن أبي كان واثقاً من أنه في أحد الفنادق المشرفة على البحر، يصل الليل بالنهار في الشرب. ولما عاد إلى منزله، كان يحمل ألف دينار وضعها في حقيبة عصمت، مع بطاقة جوية باسمها إلى دمشق ذهاباً دون إياب، وأوصلها في الصباح التالي أخي أدهم إلى المطار بسيارة حسام، مع حقيبتين كبيرتين... وبقي حسام في بيتنا يتطلع إلى الطريق من النافذة في انتظار أوبة أدهم، ليتأكد أن عصمت قد ركبت الطائرة. وسمعته يتمتم: «صنت نفسي عما يدنّس نفسي...»

وكانت تلك خاتمة زواج حسام الرعد. وإذا كان من قبل قد اتهموه بأنه تزوج الخيل، فإنه الآن تزوج أيضاً زجاجة الشراب، وأخلص لها حتى الموت.

باع بيته، واستأجر منزلاً متواضعاً قرب الاسطبلات، في العمادية. وباع بعد فترة سيارته، وصرنا لا نراه عندنا إلا مرة في الأسبوع ـ ولو أنني كنت أحياناً التقي به في مكاتب الجريدة في بعض الأماسي، عندما اذهب لصادق الرمحي بإحدى مقالاتي. يبدو أن علاقته بعبد الفتاح، رغم الفضيحة التي لم تسقط من أفواه الناس أشهراً طويلة في مجتمع عمورية، بقيت على ما كانت، بشكل ما. وعندما تزعزعت حياته، وضاقت به سبل العيش نفسها، وهو كدأبه أبداً مرفوع الرأس، عالي الضحكة، مفتوح اليد، أسعفه صديقه بجعله محرراً «متفرغاً» في «الميزان»، يكتب ويترجم لها على هواه. ولم يخل عبد الفتاح أبو العز من مكر، أو كياسة ـ سمّها ما شئت ـ فوجهه نحو الترجمة: أنه يتقن الانكليزية، ونثره العربي ناصع العبارة، فليترجم ما يشاء. والترجمة، بالنسبة إلى جريدة سياسية، أسلم، ولا تحتاج إلى رقابة من أحد.

ومثل انتظام الفصول وتعاقب الليل والنهار، أضحت علاقة خالي معنا علاقة محددة، منظمة، ينظمها يوم الجمعة. فيوم الجمعة يجب أن يمر حسام، لفترة قصيرة، وقبل الحادية عشرة بدقائق يجب أن يغادر، لكي يكون في ساحة السباق دونما تأخر، فإذا دق الجرس يوم الجمعة صباحاً

نعرف أنه جاء، ومثل غيمة صيفية يحمل معه احتفالاً خاصاً. فضحكاته العالية، وصوته الرنان، وأخباره التي تمتزج بالسؤال عن الجميع تختلط وتخلق جواً جدَيداً له نكهة متميزة. وما تكاد كأس الشاي الثانية تفرغ، وكان يشربها بسرعة، حتى يهب راكضاً يريد أن يغادر. كنا نريده أن يبقى معنا فترة أطول، كنا نريد أن نستبقيه لكي يتغدى، ولكن مثل هذه المحاولات يقابلها بابتسامة هي مزيج من الرفض والاعتذار، وكأنه يريدنا أن ندرك ما ينتظره من مهمات تمنعه من تلبية مثل هذا الطلب! كنا نوافق مكرهين، وغير مقتنعين، لكن ما يريده لا يمكن لأحد أن يتجاوزه. نعرف أنه سيذهب إلى ساحة السباق، ونعرف أنه سيخسر، ونعرف ما يتولد عن ذلك من أحزان وأقاويل، ومع ذلك لا يستطيع أحد أن يمانع أو يعترض. بل ونحن نظهر نوعاً من القوة لمنعه أو اقناعه، نبدو شديدي الاقتناع بما يريد أن يفعل. الوحيدة التي كانت تتخذ موقفاً مختلفاً: عمتي نصرت. كانت لا تخفي استياءها من هذه الزيارات، بل وتنظر إليها بنوع من الكراهية، وإذا استطاعت ألا تظهر أثناء وجوده فلا تتردد، أما حين يغادر، وتسمع صخبه وضحكاته، فكانت تردد كلمات معينة، ولفرط ما رددت هذه الكلمات أصبحت لازمة. كانت تقول:

«هذا خال الخيل ولا يقربكم أبداً!»

وبطريقة قاسية تخاطب نفسها، لكنها تريدنا أن نسمع، وتختلط كلماتها وتتداخل، وهي تقع بين اللوم القاسي واليأس والمرارة، ومن خلالها تحاول أن تبعدنا عنه أو تبعده عنا، ولأن هذه الأمور تكررت مرات كثيرة ولم يعد مجدياً مناقشتها، فقد أصبحت تتردد هكذا نتيجة العادة، أو ربما تريد عمتي نصرت أن ترسّبها بأعماقنا لعلنا نكتشف الخطأ في يوم من الأيام. ولكن إذ راح الخال يطل كل يوم جمعة، بلا انقطاع، وتتكرر الأشياء ذاتها، فقد أخذت الأمور نمطاً احتفالياً محبباً!

ـ «حسام الرعد خلقه الله بهذه الطريقة. وبهذه الطريقة سيستعيد الله وديعته في يوم من الأيام.. ولأن الله هو الذي خلق الحياة والبشر، وأعطاهم عقولهم وأمزجتهم، فهو الوحيد المسؤول!»

كان خالي يقول مثل هذه الكلمات إذا عاتبه أحد على المراهنات والخيول والحياة التي يعيشها. فإذا كان العتاب من أشخاص يحبهم أو يقدّرهم كانت لهجته تخبو شيئاً فشيئاً، لكن دون أن يقدم تنازلاً من أي نوع، وغالباً ما يقول:

ـ «الله هو المسؤول، وكل انسان مسؤول عن نفسه.. فأتركوا الله والبشر يتصرفون!»

جرى مثل هذا العتاب مرتين أو ثلاث مرات مع أبي، وأبي الذي كان يحب حسام الرعد ويريد له أن يكون نمطاً آخر من البشر، اراده أن يتزوج مرة أخرى بابنة حلال تعتني به وتضع حداً لهذه الحياة القاسية الضائعة. غير أنه كان يصطدم برفض خالي أو صمته، وإذا كان الرفض يترك فرصة لمواصلة الحديث ويولد أملاً في اقناعه، فإن الصمت كان بئراً لا قرارة لها، وهذا الصمت بمقدار ما يقيم سداً مستحيلاً على أحد اجتيازه، ويخلق لدى خالي مناعة كبيرة، فقد كان يثير أبي إلى أقصى حد. في لحظة معينة وحسام الرعد صامت مبتسم، وكأنه غائب ولا يسمع ما يقال، ارتفعت صرخة من أبي.

ـ اتق الله يا رجل.. احك.. قل شيئاً قل حقاً أو باطلاً.. أما أن تبقى هكذا مثل الصخر فإنك تهزم أي انسان، وتطيّر أكبر عقل!»

وهزّ خالي يديه دلالة الأسف والحيرة. ما كان يريد أن يثير أبي، ولا يجد سبباً معقولاً لهذه الإثارة، لكنه لا يجد أيضاً شيئاً يقوله!

رأيت مثل هذا المشهد مرتين أو ثلاث مرات، ولما يئس أبي ترك الأمور على حالها. ظل يستقبل خالي بحفاوة، وظل ينتظر الجمعة لكي يراه. عمتي هي الوحيدة التي رفضت التسليم.

ما زلت أتذكر الأحاديث الكثيرة، المليئة بمكر النساء، والقصص التي كانت تروى عنه. كانت عمتي ترويها وكأنها شهدتها بنفسها. كانت تروي التفاصيل الصغيرة: الأماكن، الأسماء، الأشخاص، وكأنها حصلت بالأمس. مع أن أغلب هذه القصص حصلت ـ إذا كانت قد

حصلت في وقت بعيد لا يتذكره أحد!

كانت لا تتردد من ذكر المرات التي نام فيها حسام الرعد خارج بيته، في الشوارع، لأنه لم يستطيع أن يهتدي إلى بيته نتيجة السكر! وكيف أنه رجع في يوم شتائي بارد عارياً، إلا من سرواله، بسبب مراهناته وخساراته، واضطراره إلى أن يرهن ملابسه! أما المرات التي داست الخيل في بطنه وكاد يموت فكثيرة، حين كانت عنده شمس الزمان، وحين كان ذلك الحصان الأسود، والذي سماه عنتر، ثم الريح، والصفوان، وكذلك حتى لمعة، وأسماء لخيول أخرى، كلها سببت لخالي مشاكل كثيرة! أما كيف عرفت ومن نقل لها مثل هذه القصص فإنها لا تكلّف نفسها عناء ذكر أي شيء عنها!

لماذا كان خالي هكذا بنظر عمتي؟ ولماذا لا تجد طريقاً لمصالحة من نوع ما بينها وبينه، كما وجدت مثل هذا الطريق مع سعيد؟

كانت أمي، رعاية منها لأخيها، قد اقترحت أن يعمل سعيد عنده ـ وذلك قبل زواجه من كلثومة. ظلاّ سوية فترة غير قصيرة، إلى أن كان يوم قرر فيه سعيد أن يتزوج، فترك الخيل والسكر والمراهنات وتلك الحياة الطائشة وعاد إلينا دفعة واحدة وبصورة نهائية. ورغم أن عمتي ظلت فترة طويلة تنظر إليه بارتياب، وتعامله بخشونة، ولا تثق بما يقوله، وتصر على أن تغسل الأواني التي يمسكها، فقد بدأت تتنازل يوماً بعد آخر، بل وبالغت في الأمر إلى درجة أنهما أصبحا متفاهمين بعد شهور قليلة، وربما جرّته جرّاً لكي يحدثها عن خالي.. المهم أنهما تفاهما، أما التفاهم مع خالي فكان مستحيلا.

ولكن رغم المودة التي تبالغ عمتي في إظهارها لسعيد، ومحاولاتها استدراجه لكي يتكلم عن خالي، فقد كان يتحدث بالطريقة التي تروق له، والتي تنسجم مع قناعاته. وإذا كانت عمتي قد تعودت ان تسمع بأناة وانتباه، دون أن تقاطعه، فقد كانت تخرج عن طورها في بعض الحالات، خاصة حين تسمع المديح والثناء على حسام الرعد، وكرمه الذي يصل إلى درجة لا تطيقها، فتصرخ بسعيد:

ـ كفى.. كفى!»

تتوقف قليلاً وتتابع بسخرية:

ـ «من يشهد للعروس غير أمها وخالتها وخمس من جاراتها؟»

وعندما تجده يقسم أيماناً مغلظة أن حسام الرعد هكذا، تقول بحدة:

ـ «اترك الله. الله لا تدخله. والايمان حرام، لأن الآخرة فيها حساب وكتاب.»

ـ «والله ما حكيت كلمة غلط يا عمتي!»

ـ «الجمل ما يشوف حدبته، وأنت كنت مثله!»

وتصمت لحظة لتتابع نبرة جديدة:

ـ «أمّك عوّاشة احتارت فيك: طلّعتَ روحها. وفاطمة احتارت فيك، ولكن الله أخيراً هداك. وخلقك من جديد. أما حسام الرعد الذي يدور في الشموس ويتحدث مع الخيل ويسكر في الليل، فلا فائدة منه.»

فإذا حاول سعيد أن يوضح، أن يدافع، فأغلب الأحيان ترفع عمتي يديها الاثنتين وتهز رأسها طالبة منه أن يكف، وبهدوء وسخرية يستجيب، حتى إذا حاولت معه مرة أخرى أن تجره إلى الحديث، أن تذكره بقصة من القصص الكثيرة التي تعرفها، كان يضحك ويقول لها:

ـ «عمتي.. الأحسن أن أبقى ساكتاً، لا من شاف ولا من سمع.»

وعندما تلّح أكثر، وتبدي رغبة في أن يتحدث، وليس لها اعتراض على ما يقول، يضحك ويردد بعض الحكم:

ـ «من يدق الباب يسمع الجواب، والذي يلاعب القط يتحمل خرمشته!»

فترد عليه عمتي متظاهرة بالتسامح:

ـ «ما لنا عليه ثأر، وما بيننا شيء. لكن الواحد يريد أن يعرف! وأنا

طيلة عمري أخاف منه على أدهم. أدهم وبس.»

ـ «الحقيقة تزّعل بعض الناس.. يا عمتي!»

فتقول عمتي بطريقة حكيمة، لكن لا تقصدها:

ـ «الحقيقة ما تزعل أحداً.. يا سعيد.»

ويبدأ سعيد يتحدث بطريقة مليئة بالاثارة والبراعة، يتحدث عن خالي وكأنه يتحدث عن شخص لا يعرفه أحد، عن شخص في مكان بعيد أو في زمن انقضى. يتحدث عنه انساناً نام المرات الكثيرة جائعاً لكي يساعد الفقراء، وكيف أنه دخل السجن مرة من أجل أحد أصدقائه، ومرة دفاعاً عن رجل مظلوم، وكيف كان يرى الخيل وكيف يتعامل معها على أنها أكرم مخلوقات الله. «أما السكر فكان فشّة خلق، كان يريد أن ينسى، أن يخلص من الهموم». يتوقف لحظة، يتنفس بعمق، يتنهد، ثم يتابع وكأنه يتحدث مع نفسه أو إلى انسان مجهول: «الناس تتصور أن السكر يبسط، يفرح.. لا.. السكر ينسي، يجعل الانسان يهرب، يطير، يروح إلى عوالم أخرى، السكر بالنسبة لحسام الرعد طريقة نسيان. الدنيا لا تعجبه، يرى حوله أولاد الكلب أكثر من الذباب على فطيسة، ويرى النفاق والكذب والغش. يقول هذا غلط.. هذا صح. يتطلعون إليه ويضحكون أو يقولون: استمر، استمرّ... ويرى الذين يملكون الآلاف يسرقون من الذين لا يملكون شيئاً، وبعد ذلك يذهبون للصلاة ويتظاهرون بالتقوى. لا تحصيل، ولا تحميل. يقول لي، سعيد، هذه الدنيا الزانية، بنت الكلب، لا يصلحها إلا نبيّ أو ثورة، وأخوك حسام الرعد ما خلقه الله نبياً، ولا يستطيع أن يرفع من البنادق إلا بندقية الصيد. أحسن شيء نروح نسكر.. ونروح ونسكر.»

تتململ عمتي، وترفع صوتها الحاد المفاجىء: «السم الهاري!» فيتوقف سعيد لحظة لكي يستعيد علاقته بما حوله، ويرى عمتي وقد بلغ بها الغضب درجة لا تستطيع بعدها أن تحتمل أو تبقى هادئة، فيهز رأسه وكأنه يفيق من حلم، ويقول وهو يضحك بحزن:

ـ «ما قلت شيئاً، يا عمتي.»

فتخرج الكلمات من بين أسنانها المصطكة:

ـ «السم الهاري...»

وتنظر إليه بمرارة وحقد وتسأل:

ـ «ألا تخاف من الله؟ ألا تخاف الآخرة؟»

ويجيب بطرية مسكينة:

ـ «ما عملت شيئاً غلطاً.. يا عمتي!»

ـ «لازم تستغفر وتقضي عمرك كله بالصلاة والصوم، وتقول: رب اغفر لي، واعف عني.. وحسام الرعد سيُصلىٰ نار جهنم!»

ـ «غلطانة يا عمتي..»

وتتطلع إليه عمتي بدهشة غير مصدقة. فيتابع وكأنه لم ير شيئاً:

ـ «لا أعرف ولا أحد يعرف: يمكن حسام يروح للجنة قبلي وقبل غيري!»

ـ «للجنة؟»

تسأل باستغراب وتضيف:

ـ «يسكر ويعيش مع الخيل ويروح للجنة؟»

ويقول سعيد بصوت مكسور:

ـ «إن الله يغفر لمن يشاء ـ وبغير حساب.»

فترد بسرعة وكأنها كانت تتوقع ما سيقوله:

ـ «إن الله شديد العقاب!»

وينهي سعيد النقاش بكلمة لا تستطيع عمتي أن تردها:

ـ «يا عمتي... إن الله يعلم ما في القلوب. وإن الله يهدي من يشاء»

وتهز رأسها تفكيراً أو تساؤلاً فيتابع:

- «إرادة الله أقوى من إرادة البشر. أو كما قال عز وجل: لا تهد من أحببت، إن الله يهدي من يشاء!»

وتنتهي المناقشة، وتمر أيام. ورغم أن عمتي وسعيد يحاولان معاً نسيان المناقشة وما يتخللها من اختلاف وصخب، فإن حسام الرعد موجود دائماً في بيتنا، كالشبح، ويبقى كذلك، في كثير من المناقشات، دون أن يذكر أحد اسمه.

لماذا يكون بعض الناس تعساء بهذا المقدار؟ ألا يجوز أن يكون ذلك افتراضاً خاطئاً؟.

كلما رأيت نثار الثلج على رأس خالي حسام الرعد، أحسست بحالة لا أعرف كيف أفسرها أو كيف أتجاوزها، هل هي الشعور بالغيظ أو الحقد؟ هل هي الشعور بالمشاركة الضمنية والاتفاق الغامض؟

لكن قبل أن أتحدث عن خالي بهذه الطريقة يجب أن أمتلك مقداراً من الشجاعة وأسأل نفسي: ما هي التعاسة وما هي السعادة؟ هل ما يعتبر تعاسة بنظر بعض الناس هو تعاسة حقيقية لمن يعيش في ظلها؟ والسعادة، هل هي حالة الرضا والاتفاق مع الآخرين والاكتفاء من الحياة بهذا المقدار من الأكل والشراب والمال؟ أليس هذا ما كان أخي صفاء، وحتى أبي، يرددان قوله؟ ماذا كان حظ أبي من السعادة؟ وماذا حظ أخي؟ كانا يلعبان بالمال، وكانا يبدوان في لحظات معينة أشد الناس تعاسة وضياعاً. إذن لماذا يصران على هذه الفكرة، لماذا يرددانها بهذا المقدار وبهذا الصوت العالي؟ هل يريدان الدفاع عن نفسيهما؟ هل يحاربان الهواجس والشكوك ولحظات العذاب؟

كان خالي يختلف كثيراً عن أبي وعن صفاء، ويختلف عن عمتي التي هجرت العالم مبكراً والتجأت إلى التصوف ليكون نافذتها على السعادة والرضا والعالم الأبدي.. ويختلف خالي أيضاً عن معظم الناس. ليس هذا فقط، فإنه كان يختلف عني أيضاً. ما يعتبره مقدساً، ما يعتبره النهاية، لا

أجد فيه تلك القداسة أو النهاية. خيوله بمقدار ما تعني له شيئاً وارتباطاً بهذه الحياة لا تتعدى أن تكون قناعاً، تماماً مثل القناع الذي يضعه صفاء على وجهه. أما الشعر الذي يردده، ويتخذه غطاء للنزاهة وكبرياء الذات، اعتبره هروباً. أقول حتى الشعر، لأن الشعر الآخر الذي يردده، في لحظات سكره، في لحظات تعبه، يعني شيئاً مختلفاً تماماً عن الشعر الذي يردده أمام الآخرين!

ذات يوم، عند الغروب، وكنت أمتلىء ضيقاً وعذاباً، قررت أن أمر عليه. ما كدت أدق الباب ويخرج إليّ بعوده ووجنتيه المحمرّتين وشعره الأقرب إلى البياض الثلجي، حتى أدخلني بسرعة. وبعد أن سألني عن صحتي وأموري، ولا أظنه سمع إجاباتي، إذ كان مسكوناً باللحن الذي يعزفه قبل وصولي.. بعد لحظات، ومثلما تتسرب المياه في الرمال الناعمة، بدأ أثر الشرب يتلاشى، وقد ظهر ذلك من أصابعه العصبية... وهو يمسك بالريشة، ثم من اغماض عينيه بطريقة معينة وكأنه يحاول التذكر. وفجأة أخذ يعزف، ثم ارتفع صوته:

ـ مرمر زماني يا زماني مرمر. مرمرتني لا بد ما تمرمر.

أعاد البيت أكثر من مرة، وبأثر من لحن، وأضاف إلى هذا البيت بيتاً أو اثنين، ولما تأكد أنه أدّاه كما يشتهي وكما يرضى، انتقل إلى أغنيات أخرى، غنّى «مسكين وحالي عدم»، ثم غنى «خايف أقول إللي في قلبي»، حتى إذا انتهى وضع العود جانباً، وقد امتلأ بالرضا والراحة، وبدأ يسألني!

كانت عيناه هذه المرة تنظران إليّ باهتمام، وكان وجهه يتشرب الكلمات التي أقولها، أو هكذا بدا لي. ربما كان بحاجة إلى انسان يتحدث معه، ربما كان لديه شيء يريد أن يقوله للآخرين، أما التعاسة التي كنت أفترض أنه يمتلك مقداراً هائلاً منها فقد بدت لي في تلك اللحظات شيئاً آخر. إنه في حالة رضا كلية، وحتى الهموم الصغيرة التي تشغل أغلب الناس بدا لي وكأنه لا يعرفها في مثل تلك الساعة. قلت لكي أجره إلى الجو الذي يسيطر عليّ:

ـ خالي. . أنا الذي أريد أن أسألك بعض الاسئلة اليوم.

توقفت لحظة ثم أضفت: «لا تستغرب الاسئلة التي سوف أسألها.»

ضحك ضحكة عالية وقال بسرعة:

ـ اسأل. . . اسأل يا علاء. لم تعد هناك اسئلة تثير الاستغراب!

ـ ولا الإحراج؟

ـ الاحراج؟

ـ أخشى أن أسألك عن أمور تعتبرها محرجة.

ضحك بصخب مرة أخرى واضاف:

ـ اسأل ولا تخف.

ترددت، بل أقول إني ندمت، إذ ما الحاجة إلى كلمات وتبريرات لن تضيف شيئاً جديداً ولن تقنع أحداً؟ ولماذا أريد أن أخرج خالي من الملكوت الزاهي الذي يعيش فيه أو يتوهمه؟ وإذا اعترف لي بما يعاني، هل أكون بهذا الاعتراف قد رحمته أم زدت عذابه؟ لما رآني متردداً هكذا، قال وهو ينهض ويقطف عرقاً من الريحان من نبتة كانت على طرف الشباك ويشمها بتلذذ:

ـ كنت في مثل عمرك، يا علاء. كنت في مثل عمرك، وعشت العذاب الذي تعيشه الآن!

توقف، التفت إليّ وابتسم بحزن. كانت ملامحه تشي بالعذاب واللا جدوى. فلما رآني أنظر إليه، تابع كأنه يحدّث نفسه:

ـ في مرحلة معينة من العمر يريد الانسان أن يهدم العالم، يريد ألاّ يبقي حجراً على آخر، ويريد أيضاً أن يعيد بناءهذا العالم وفقاً لصورته المثالية. ولكن لأن الفرد ضعيف، ولا يعرف الصبر والمثابرة، لا يلبث أن يكتشف يوماً بعد آخر مدى عجزه، وهذا الاكتشاف يؤدي إلى إحدى نتيجتين: إما التسليم أو الجنون. . أغلب الناس يسلّمون، ومع مرور الأيام يقتنعون بأن تسليمهم كان الحكمة بعينها، ولكن يبقى حنين من نوع ما يملأ صدورهم، خاصة حين يتذكرون. وهكذا يصبحون حكماء بمعنى

ما، ويعيشون ثم يمضون. . . أما المجانين فإنهم لا يسلّمون ولا يتوقفون عن المحاولة، وعند ذاك، يحصل شيء ما. لا أعرف بالضبط ما هو هذا الشيء، ولا استطيع تسميته. لكنه من القوة والتأثير إلى درجة لا بد عندها أن يحدث تغييراً كبيراً، وهذا التغيير إما أن يصيب «المجنون» ذاته أو أن يصيب العالم. إذا أصاب الشخص، مضى في الشوارع هائماً حالماً، ينظر إلى كل شيء بترفعّ وسخرية كلية. أما إذا أصاب العالم، فعندئذ سيرتج العالم ويتشقق. . ثم ينهار لكي يقوم على أنقاضه عالم آخر. . . عالم أقل ما يقال فيه عندئذ أنه يرضي الكثيرين ويحل مشاكل الكثيرين.

توقف خالي تماماً. غاب عن الوعي للحظات، رأيت ذلك من أغماضة عينيه، ثم هزات رأسه. وحين فتح عينيه مرة أخرى لم يرني، أو هكذا بدا لي. كان في تلك اللحظات مسافراً بعيداً. لكن شيئاً فشيئاً أخذ يعـود. وبهدوء، وكأنه يمشي في ظلمة كثيفة، سار نحو المقعد الكبير وجلس. تركتُ الصمت جسراً قوياً يمتد بيننا. تركته هكذا.

في نصف الظلمة التي كانت تنتشر فوقنا وتلفّنا وتحوّلنا إلى أشباح، وفي جو الصمت الذي تولد عن الرغبة والتأمل والذكرى، ولا أدري نتيجة أي سبب آخر، بدت لي حياتي الماضية ضرباً من العبث، أحسست بما يشبه المرارة والملوحة معاً في حلقي. أحسست بالتعاسة. زفرت. قال خالي وهو يرفع وجهاً تبدو صفحة منه في الضوء الخافت المتسلّل من الدهليز بين الغرفتين:

ـ الدنيا لا تستأهل هذه الأنفاس الحارة!

وضحك بحزن، وصمت. بدا الجو ثقيلاً مكهرباً. جاءني بعد فترة صوته وكأنه يأتي من مكان بعيد:

ـ كنت تهدد بالأسئلة. . ما اسئلتك وماذا تريد أن تعرف؟

ارتبكت لأن السؤال فاجأني تماماً. قلت بسرعة:

ـ الأفكار في عقل الانسان مثل الرياح، مثل المياه الجارية، تأتي وتروح كل لحظة، والسعيد السعيد من لا يفكر، من لا يشغل نفسه بهموم

لا وجود لها.

قال وهو يعتدل في جلسته ويقترب قليلاً:

ـ لا أعرف ما يشغلك وما يثقل عليك، فانت مثل الجوزة المغلقة، لا أحد يدري أية هموم وأفكار يمتلىء بها قلبك وعقلك، خاصة الآن. كنت قبل سنوات تطارد في مجال السياسة، تصرخ، تعربد، وكنت أكثر وضوحاً. أما وقد هجرت السياسة، كما أكد لي الكثيرون، بمن فيهم الرمحي وأدهم وغيرهما، ولأنك لا تحب الطرب، ولا الصيد، وربما لأنك لا تعرف النساء، فإنك تشغل نفسك في القضايا الكبرى، القضايا التي لا حلّ لها، ولذلك فإنك تتعب نفسك وتريد أن تتعب الآخرين!

ربما بانت بسمة حزينة على وجهي، أو ربما بدرت مني حركة، فقال خالي بلهجة تسليم طاغية:

ـ سوف تكتشف في يوم من الأيام أن الأفكار الخطيرة والتي يجب أن يشغل الانسان نفسها بها هي الأفكار الصغيرة، الصغيرة جداً. لا بد أن هذه الأفكار وحدها هي التي تغير مصير الانسان وحياته. قد لا نتفق الآن. ربما لا تزال في رأسك بقية مواويل، وقد تكون حريصاً على أن تغني هذه المواويل واحداً بعد آخر، لكنك ستكتشف، كما اكتشفت أنا، أن أهم موّال يجب أن يغنيه كل واحد ولا يتعب من ترديده، هو الانسان، الانسان في حياته اليومية البسيطة.

قلت مازحاً:

ـ لكي يغني في النهاية: مرمر زماني يا زماني مرمر!

انتفض وكأنه طعن. شعر أنه ضعيف أكثر مما ينبغي، أو أكثر مما يريد للآخرين أن يروا، وقال بنوع من الحزم:

ـ اسمع يا علاء. الحياة ليست كلمات كبيرة، وليست استعراضاً دائماً...

وأفلتت منه ضحكة عصبية. لم ترق له هذه البداية، فصمت لحظة، ثم قال بعربدة:

ـ هذه الحياة القحبة، الزانية في كل وقت، والهاربة مع كل قويّ، لو فهمها الانسان في الوقت المناسب، لعرف كيف يتعامل معها.

وقفت، رفعت يدي الاثنتين في الهواءوقلت بضجيج:

ـ الحياة، هي الحياة. ليست قحبة ولا زانية. نحن نتوهم، نحن نسقط أفكارنا وقناعاتنا عليها، نعطيها الأوصاف التي ترضينا.

هز رأسه، أو هكذا بدا لي، وظل صامتاً بعض الوقت ثم أخذ يهذي:

ـ قد يكون فيما تقول شيء من الحقيقة، لأن الحياة كما تؤكد جماعتك محايدة، ولا تأبه لعواطف البشر، وقد يكون الانسان على هذه الأرض، في هذه الحياة، سبب المشكلة. لكن، مع ذلك، هناك خطأ في مكان ما. ما هو هذا الخطأ؟ لماذا؟ لا أعرف. قد يكون الخطأ فينا نحن البشر وليس في الحياة، وقد يكون في شكل الحياة القائمة في الوقت الحاضر. المهم أن هناك خطأ ما. وهذا الخطأ خلق هذا المقدار الهائل من الفوضى والقسوة والابتزاز وأكل الخراء.. كل واحد يريد أن يضطهد الآخرين. كل واحد يريد أن يبني عرشاً من جماجم الآخرين، كل واحد يريد أن يمتلك العالم وما فيه. ولأن الناس هكذا، ولأن الحياة القائمة في الوقت الحاضر تسمح بذلك، ترى القتل والسرقة والقسوة واللؤم والخوف والغش والحفر تحت الأرجل.

توقف لحظة يريدأن يرى وقع كلماته. فلما وجدني صامتاً سألني:

ـ ماذا تقول؟

رددت بمكر:

ـ أنت الآن تتحدث في السياسة. وأنت، قبل قليل، قلت إنني فشلت في السياسة وفي الحياة. فهل تعتبر أن ما سأقوله يتفق مع الحقيقة؟

أجاب بعصبية وقد أحس بالتعريض:

ـ شوف يا علاء: روحي واصلة لأنفي، ولا حاجة للفلسفة الزائدة. إما أن تحكي مثل الأوادم، أو تترك سالفة الشيطان!

قلت باعتذار:

ـ غلطان يا خالي إذا فهمت أني أمـزح، لكن الموضوع الذي طرحته أنت دوّخ الفلاسفة والبشر منذ بدء الخليقة. فهل تريدني بكلمتين أن أحل هذه المشكلة المعقدة؟

ـ أعرف أن هذه المشكلة لا حل لها، أو على الأقل أنا لا أعرف حلها، لكن أسألك: الحق على من، على الحياة أم على البشر؟

رددت بسرعة:

ـ الحق على الحياة!

رد بصلابة:

ـ لا.. الحق ليس على الحياة!

ـ أنت قبل قليل كنت تؤكد، كنت تقول: هذه الحياة القحبة، الزانية. ألم تقل هذا؟

ـ قلت. ولكن الحق ليس على الحياة.

ـ اذن الحق على البشر!

ـ أتمزح؟

ـ لا.. وإنما كنت أعيد ما قلته أنت.

ـ والله الحق...

وضحك بحزن ولم يتابع. قام وأشعل الضوء، ونظر إلّي بنوع من العتاب، وبعد أن تملّى وجهي في الضوء الذي سقط فجأة وملأ الغرفة، قال وكأنه يخاطب نفسه:

ـ أحسن شيء أن يبلع الانسان حصوة، ويسكت!

ثم غير لهجته، وأضاف:

ـ كنا قبل قليل مع عبد الوهاب والأغاني القديمة.. وجئت وخرّبت كل شيء!

قلت مازحاً:

ـ يمكن أن تعود إلى جو الطرب.

رد بسخرية:

ـ الطرب ما هو طلب. الطرب مزاج وكيف، المزاج الآن تغير، والكيف طار.

ولا أعرف لماذا اعتذرت بموعد لدّي وضرورة مغادرتي، رغم أنه الحّ عليّ بالبقاء لكي نشرب كأساً معاً، ونتحدث على رواق. لكنني اعتذرت، وحين كنت أغادر، استوقفني وقال بلهجة أقرب إلى التوسل:

ـ علاء... الله يخلّيك، إذا جئت مرة ثانية أترك هذه السوالف وراء الباب قبل أن تدخل.. أو...

قلت وأنا أضحك:

ـ إحدى مهمات علاء سلوم هي أن يخلق القلق، أن يبذر الشكوك، أن يلقي حجراً في المياه الراكدة لعل أحداً يسمع، لعل أحداً يجيب.

قال وهو يرد بضحكة:

ـ الله لا يعطيك العافية على هذه الشغلة، وإن شاء الله ما تتوفق أبداً.

ـ الله يكثّر خيرك يا خالي.

ـ الله لا يكثر خيرك يا ابن أختي.

وحين تقدمت خطوات في الظلمة سمعته يردد:

ـ السوالمة لا يرتاحون ولا يريحون!

وخرجت وأنا أفكر في كل ما جرى. وأسمع صوت خالي يردّد: «الحياة أم البشر.. الحياة قحبة والبشر جبناء.. القسوة، الفوضى.. أكل الخرا...»

[٢٤]

في ربيع عام ١٩٦٨ بدأت ألاحظ تغيراً كبيراً على أدهم، إذ إضافة إلى سفراته الطويلة أصبح أكثر غموضاً وصمتاً. وذات يوم، بعد غيبة طويلة في لبنان، أسرّ لي، دون توضيح كثير، أنه التحق بمنظمة مسلحة لتحرير فلسطين، وأن عليه مهمات لم يشأ يومئذ أن يطلعني عليها. وكان أول من سأل عنهم بالطبع، خالي حسام، فأخبرته أن زياراته لنا قد تضاءلت جداً، وما عادت تتواتر مع أيام الجمعة. فذهبنا بعد الغداء معاً في سيارتي إلى منزله في حي العمادية، وقد أحضر له أدهم من بيروت هدايا مختلفة ملأ بها إحدى حقائبه - بينها كاسيتات لألحان سيد درويش وأغاني عبد الوهاب القديمة، مجموعات شعرية، كتب عن الثورة الفلسطينية، روايتان باللغة الانكليزية، كنزة صوفية فاخرة، زجاجتا ويسكي، وأشياء أخرى لا أذكرها.

ما كدنا نهبط من السيارة، حتى رأيناه يركض إلينا من الأسطبل القريب من منزله، وهو ينشّف كفيه على صدر معطفه الرث وجانبيه - يبدو أنه كان يغسل فرسه المحببة - وكلبه القديم روكي يركض وراءه. وأخذ أدهم بين ذراعيه وجعل يقبله على هذا الخد وذلك بحرارة، ودموع كبيرة حقيقية تسيل على خدّيه. وعانقته أنا أيضاً وأحسست بوخز ذقنه على وجهي. فهو لم يحلق لأيام، حتى باتت ذقنه امتداداً لشعره الأبيض المشعث. كانت رائحة الخيل تنبعث منه وهو يردد «أهلاً، أهلاً، أهلاً. . . » وأدخلنا إلى منزله وروكي يتبعنا، ثم قال: « سامحوني، لحظة. . » واختفى في الحمام. فخرج أدهم إلى السيارة ليعود بحقيبة الهدايا، وراح يفرغها على منضدة الكتابة الوحيدة، التي كانت أيضاً مائدة الأكل، في غرفة صغيرة مضطربة بكل ما فيها من أثاث، وكتب، وثياب، وصحون متراكمة وزجاجات معظمها فارغ، والعود ملقى على كومة من الجرائد. واستلقى روكي على مقربة من الحمام.

بعد فترة خرج خالي من الحمام حافياً وحول وسطه منشفة، وصاح: «لحظة، لحظة، يا جماعة. .» واختفى في غرفة نومه، ليعود بعد قليل مرتدياً ثياباً نظيفة أنيقة، حليق الذقن، ممشّط الشعر، متوهجاً وكأنه قد سلخ عن نفسه عشر سنوات من الشيخوخة. . .

قال: «شاي، علاء؟ أدهم؟»

فقال أدهم: «ولا يهمك، خالي. أنا سأصنع الشاي.» وأتجه نحو المطبخ، ولحق به الخال، كما كنا نطلق عليه، وهو يعتذر: «ماذا ستقول عن خالك الآن، وبيته لا يفرق عن الأسطبل، ها؟ لا بأس، لا بأس، أنت رجل شعبي، وتقدّر الظروف. هنا الابريق. هنا الأكواب. وهذا السكر. . .»

عندما جاء أدهم بالشاي كان الخال كثير الأسئلة. أصغى باهتمام إلى حديث أدهم عن التدريب الذي يتلقاه في مكان ما على جبل الشيخ في لبنان، وما يكتبه في المجلات الفلسطينية، وبعض الأناس الذين يلتقي بهم والذين يعرفهم خالي. وفجأة قال: «هائل، هائل. . . أما أنا، فإما أن أضيع تماماً، وأسقط ـ أو أنقذ نفسي، بشكل من الأشكال. بعت كل شيء. عندي الآن مبلغ محترم أودعته في البنك. وعما قريب سأسافر. سأراسل جريدة «الميزان» من لندن. ولن أعود إلا إذا حققت ما أريد. ماذا أريد؟ لا داعي للأسئلة، رجاء. سأغيب مدة طويلة. لم يبق عندي شيء يغريني بالبقاء في عمورية ـ اللهم سواكما. وأنتما مشغولان عني بما يكفي. سنتكاتب. كتابة الرسائل فن أهمله المعاصرون. سنحييه، ها يا علاء؟ وحالما تصدر روايتك أرسلها إليّ بالبريد الجوي، مهما كلفك الأمر. وقصائدك أنت يا أدهم ـ قصّها من المجلات وأرسلها إليّ. سجلها بصوتك، وأرسل إليّ التسجيل. . . لم يبق عندي شيء هنا أملكه إلا. . .» واضطرب صوته. لم يكن ثملاً في تلك الساعة، ولو أنه يكاد يتكلم كالثمل، وعواطفه مهتاجة، كأنها عواطف طفل، لا بد لها من الدموع. لقد أغرورقت عيناه. «إلاّ. . . لمعة، ورروكي. . . ورروكي مريض، ومسنّ، لا يريده أحد. هل أتركه في الطرقات

كالشحاذ، كالكلاب السائبة؟ سأطلق عليه - (وأجهش بالبكاء...) رصاصة الرحمة... أما لمعة، لمعة.. أوف.. لقد شاخت هي أيضاً. ولا يهون عليّ يا أدهم أن...»

وأخذنا نتحدث عن أيام شبابها وعزها، وحسام يتلذذ بكل كلمة عنها. شبابه هو، عزه هو: هذا ما كنا في الواقع نتحدث عنه. وشعرنا أنا وأدهم بحرج كبير، واجتاحنا حزن أكبر، لرؤية حسام الرعد في تلك الحالة من اللوعة، ودموعه تملأ عينيه بين حين وآخر. لمح زجاجتي الويسكي اللتين وضعهما أدهم على المائدة، وهتف: «صب لنا كأساً يا أدهم، ولو أن الساعة ما زالت مبكرة... يلّا يا شيخ. هذه مناسبة خاصة، هل في كل يوم أرى حبيبيّ الاثنين في بيتي هذا؟»

في الصيف من تلك السنة ذهبت إلى لندن مرة أخرى. وأقمت في فندق قريب من المتحف البريطاني. كنت قد أرسلت مخطوطة روايتي الثانية «النوارس» إلى أدهم ليسلمها للناشر في بيروت، وأردت للتغيير أن أقوم ببعض البحوث في تاريخ الفن العموري في الألف الثاني قبل الميلاد، ووعدت صادق الرمحي بأن أرسل إليه أي شيء أكتبه، إذا وجدته يستحق النشر. كان حسام الرعد قد ذهب إلى لندن، كما قال. ولكنه لم يكتب سطراً واحداً لأي منا. حتى أدهم لم يتلق منه كلمة تنبيء عن عنوانه. ولم يخطر ببالي قط أنني قد ألتقي به مصادفة بين ثمانية ملايين من البشر. وإذا بي، في اسبوعي الأخير في المدينة الكبيرة، اصطدم به خارجاً من متجر في شارع اكسفورد... «علاء! علاء!» صاح وهو يعانقني بحرارة جنونية.

ثم التفت إلى سيدة بجانبه حمراء الشعر، قصيرته، موردة الخدين، وقال لها بالانكليزية: «دعيني أقدم لك ابن أختي الذي حدثتك عنه كثيراً. علاء الدين بلا مصباح. سيكون يوماً أكبر روائي في العالم العربي...» علاء، السيدة آيرين مكغريدي، خطيبتي الارلندية.» ودعوتهما إلى الغداء في مطعم أتردد عليه في أول شارع ريجنت، القريب.

صورة أخرى لحسام الرعد لكنت أتمنى لو أنها هي، دون غيرها، تجمد في ذاكرتي، وتمحو صوره الأخرى كلها: وقد جلسنا ثلاثتنا إلى البار،

القائم في ركن من المطعم، لتناول كأس من الشراب قبل الطعام، ريثما تهيأ لنا المائدة. حسام الرعد، ووجهه يتوهج من جديد بنضارة مذهلة رغم شعره الأبيض، وبيده كأس من.. عصير الطماطم! وأنا وآيرين نشرب دراي مارتيني.. «أقلعت عن الشرب، يا علاء، نهائياً. آيرين شفتني من الكحول»، قال حسام، وهو يدير كأس العصير الأحمر على الكاونتر وينظر إلى «خطيبته» متباهياً بها.

«أتصدق»، قالت آيرين مستضحكة ـ خيل إليّ أنها قد تقارب الخامسة والأربعين، ولكنها ملأى بالأنوثة ـ «التقاني في الشارع وأوقعني في حبه من أول كلمة نطق بها!» ولفّت ذراعها تحبباً حول كتفه.

سحب نفساً طويلاً من سيكارته، وهو ما زال بيمناه يدير كأس عصير الطماطم على الكاونتر، وبهدوء عجيب. «ما خطّطت يوماً لشيء، ونجح،» قال وهو ينفث الدخان من بين شفتيه. «وأروع الأشياء التي حدثت لي، حدثت بمحض الصدفة. كلقائي بآيرين. متمردة رافضة مثلي. أتدري أن الارلنديين والعرب يتشابهون، بل متطابقون؟ كلا الشعبين يحبّ الحرية لدرجة الفوضى، وكلاهما مبتلى بنفس المحنة ـ الانكليز. صَحتك، آيرين!» رفع كأس الطماطم لها، ثم أخذ منها جرعة، وأعادها إلى مكانها على الكاونتر. وأكمل: «سأخذ آيرين إلى عمورية، ونبدأ حياة جديدة معاً. زوجها مات قبل سنة. وأنا تحررت من زوجتي، وتم الطلاق نهائياً... سنبدأ حياة جديدة، جديدة في كل شيء..»

لم ينتبه خالي إلى التناقض في كلامه: فبعد مصادفة اللقاء، جعل يخطط لأيامه القادمة في عمورية، وهو ما خطط يوماً لشيء ونجح. وكان صادقاً. لقد أخفقت خطته مرة أخرى. فبعد شهرين أو ثلاثة كان حسام الرعد قد عاد إلى منزله في حي العمادية وحيداً شريداً، لا خطيبة، ولا فرس، ولا مال. أنفق الآلاف الثلاثة أو الأربعة من الدنانير في لندن في نزوة رائعة لم يحرم نفسه فيها من شيء. حتى الشرب، لا أحسب أنه امتنع عنه طويلاً كما أدعى. عاش أميراً، عاشقاً، لا مبالياً، ولم يعلم قط، ولا همه أن يعلم، هل كانت آيرين مكغريدي أرملة شريفة تريد الزواج، أم

عاهرة هاوية سهّلت عليه التخلص من نقوده.

أوف، حسام الرعد! أين قرارة البؤس؟ أين القاع الصخري الذي لا سقوط من بعده؟ لماذا يسكنني هذا الرجل هذه السنوات كلها، ولا أستطيع التخلص من صورته الرائعة، الفاجعة؟

بعد أن انتهيت من كتابة «النوارس» كنت عازماً على جعله أحد أبطال روايتي التالية. ولكنها جرّتني في متاهات لم أجد مكاناً له فيها، ولو أنني أجزم أن ثمة شيئاً منه في كل شخصية من شخصيات «شجرة النار». نجوى فيما بعد قالت ذلك، بل أكدته. فقد كان من نصيب نجوى، من حسن حظها أو من سوء حظها، أن تتعرف به قبيل موته. وأن تكتشف أن لها هي أيضاً صلة (بعيدة الجذور؟) بصعوده وسقوطه.

توفيت أمي، وبعدها توفي أبي، وحاولت اقناعه بأن يقيم معي ومع صبا في دارنا ـ فهو ما عاد يستطيع أن يدفع حتى ايجار بيته المتواضع في العمادية. وغرفة أدهم بقيت فارغة، لأنه كان مع المقاومة الفلسطينية في لبنان، ولا يعود إلينا إلا قليلاً. ولكنه رفض. وآثر أن يقيم في غرفة صغيرة ملحقة بمطبعة «الميزان»، يُعنى ببعض نواحي التحرير، فقد عينه عبد الفتاح أبو العز براتب ما، ولم يرهقه بأي واجب حقيقي. وإذا لم أره لفترة فلا بدّ أن أسمع من صادق، أو من آخرين في الجريدة، قصة جديدة عن «غرائبه».

في ظهيرة يوم بارد، كنت أحاضر في الصف المنتهي من الأكاديمية عن بدايات المدرسة التعبيرية في المانيا، وإذا بسكرتيرة العميد تدخل عليّ، وتهمس بأن العميد يريد أن يراني في غرفته. فاعتذرت للطلاب عن قطع المحاضرة، ورافقت السكرتيرة إلى غرفة العميد. وإذا حسام الرعد جالس يتحدث إليه. وهل في ذلك من ضير؟ ومن هو العميد، أصلاً، بالنسبة للرجل الجالس في غرفته؟ ولكن، ولكن... كان حسام يرتدي معطفاً طويلاً أسود، معفّراً ممزقاً عند الكتف والجيوب، تنسل منه الخيوط ـ لم أكن رأيته عليه من قبل. كانت ذقنه الشيباء طويلة، لم تُحلق لأكثر من أسبوع. وهو يضع ساقاً على ساق، فترى، عند نهايات المعطف الرثة، خروق في

البنطلون الرصاصي الملوث برقطات من الصبغ، وقد ارتفع عن كاحلين بدون جوارب، وفي قدميه نعلان عتيقان. . . قام لي باحترام شديد، ومدّ يده إليّ يصافحني. فجاءتني رائحة العرق بشكل لا ريب فيه. ثم عاد وجلس، ليكمل ما كان يتحدث به، وفي يده اليسرى سيجار طويل يبدو أنه قد أشعله للتو، وجعلت رائحة دخانه القوية تخالط فَوْح العَرَق في غرفة العميد. أما العميد فلم يبدُ عليه أي اندهاش. فقد كان عفيف النقاش ـ في يوم مضى ـ رساماً درس في باريس، ولعله في وقت من الأوقات عاشر البوهيميين في مونمارتر وراقب الكلوشار على ضفاف السين، ولذّ له أن يرى كلوشارا عموريا ذا تاريخ طويل! وتبين أن كليهما يعرف الآخر. غير أنني لم أتحمل المشهد. وأصررت على خالي بأن يقوم ويرافقني، اختصاراً للبهدلة.

«طيب، طيب، علاء. لا تستعجل. أريد أن أكتب مقالاً عن أكاديميتكم، ولا بد لي من معلومات صحيحة، وانطباعات. . أستاذ عفيف، أرجو ألّا مانع لديكم من أن يأخذني علاء إلى غرفة الأساتذة؟ أريد أن أتحدث إلى الفنانين ـ الكبار (وضخّم الكلمة ما استطاع، رافعاً يده حاملة السيحار إلى الأعلى)، قبل أن أتعرّف إلى الطلاب، فنّاني الغد ـ ها، وما أدراك ما الغد. . .»

ـ «لا مانع، لا مانع أبداً،» قال العميد.

ثم نهض مودعاً، ولما مد حسام يده ليصافحه عبر المنضدة الكبيرة أنفرج المعطف الكبير عن صدر عار شاحب، بادي الضلوع الهزيلة، مغطى بشعر أشيب. فأسرع حسام بوضع السيجار بين شفتيه، وعدّل من وضعه بسرعة بأن شد بكلتي يديه طرفي المعطف الواحد إلى الثاني، ثم زرّر الزر المتبقي الوحيد عند الصدر.

خرجت به، وأنا أكاد أدفعه دفعاً في الرواق الفسيح، وقلت: «معظم الأساتذة مشغولون الآن بالتدريس.»

ـ «اذن خذني إلى إحدى قاعات التدريس، أو الرسم.»

ـ «يا خالي، يا خالي. ليس هذا وقت الزيارات.» واقتدته إلى الباب المفضي إلى الساحة.

كان في الساحة عدد كبير من الطلاب والطالبات، تجمّعوا حول تمثال كان صانعه الشاب يقيمه على قاعدة بمساعدة زملائه. ولما رأوه يتقدم منهم، فسحوا له الطريق، إلى أن توسطهم، وهو يتأمل المنحوته الجديدة، وهي جبسية كبيرة، لرجل رافع ذراعاً فوق رأسه، بينما امتدت الأخرى أمامه بعنف، وقبضتها مفتوحة، متشنجة الأصابع ـ حركة بلهاء لا يتقن الكثير من الطلاب تصوير غيرها، ويتخيلون أنها تمثل مواقف درامية مليئة بالمعاني. والذي كنت أخشاه في تلك اللحظة هو الذي حدث. فقد أخذ الفتية يضحكون لمشهد هذا الرجل الرث، المترنح، وهو يتأمل فنهم. وقال أحدهم: «عمي، حجّي، ما رأيك في التمثال؟»

وقهقه الجميع.

أدار حسام ظهره إلى المنحوتة، وواجه الفتية. فبادره طالب بقوله: «عمي، أنت موديل نادر. أتأتي إلى الاستوديو، فنرسمك؟»

وأضاف آخر على الفور: «وتكسب لك دينارين أو ثلاثة.»

فالتوى فم حسام اشمئزازاً، ونظر إلى الطالب نظرة احتقار رهيبة. ثم أخرج من جيب معطفه حفنة من أوراق الدنانير وقذف بها في وجهه، وصاح والأوراق تتساقط وتتطاير على الأرض: «خذها، وضعها في... أمك!»

وفي أثناء ما لحق ذلك من ضحك وهرج، أدار بصره في الحلقة التي جعلت تتسع وتجتذب المزيد من الشباب. لقد عاد إليه صحوه. وألقى بالسيجار أرضاً وسحقه بنعله، وقال: «حسبت أنني سأرى هنا فناً، إبداعا، خَلْقاً. فماذا رأيت؟ ما رأيت إلا كل ما يدعو إلى الغثيان.»

انقطع الضجيج فجأة. وهتف أحدهم بصوت عال: «يسلم فمك، حجّي!»

واستمر حسام، وكأنه لم يسمع: «مسكينة امتكم، إن كنتم لا

تحسنون إلا مثل هذا النقيق، وهذا النهيق. . . أتدرون؟ في كل لوحاتكم وتماثيلكم التي رأيتها هذا الصباح، لم أر انساناً حقيقياً واحداً. لم أر من هو من لحم ودم، ومضروباً بمئة، بألف. لم أر ضحكاً ودموعاً. لم أر قلباً ينزف، أو قلباً يطير من فرحه بالحياة. لم أر إلا أوضاعاً مسرحية جوفاء. . . إما أنكم تضحكون على اساتذتكم، وتلك مصيبة، أو أن اساتذتكم يضحكون عليكم. . .»

فقاطعوه بأكثر من صوت: «وتلك مصيبة أعظم!»

تلفّت حوله تلفت الواثق مما يقول، وتمعن في وجوه الطلاب والطالبات، ثم أردف: «من هذا الذي وهّمكم بأن الفن هو رؤية الناس مجموعاتٍ من الدمى، وآلات تتحرك أطرافها، ولا وجه لها، ولا إرادة؟ أين تساؤلاتكم؟ أين عذاب الدواخل من انسانكم؟ أين أحلامكم؟ أين نشواتكم؟ أين بكاء الدم في شرايينكم؟ مسكينة أمتكم إن أنتم عجزتم عن التعبير عن هذا في صوركم وتماثيلكم!»

والتفت إليّ وقال: «أستاذ علاء، هيا ساعدني في الخروج من هذا المستنقع.»

وزمّ أطراف معطفه المتهرّىء على صدره، وتحرك دائساً على أوراق الدنانير التي بقيت ملقاة على الأرض.

فسح له الطلاب طريقاً، وسرت معه نحو الطريق. وسمعت طالباً يقول: «خذوا الحكمة من أفواه المجانين. .» وصاح أحدهم: «عد إلينا مرة أخرى، رحم الله أباك!»

وإذا بالبوابة سيارة فخمة في انتظاره، نزل منها السائق، وفتح له باب الحوض الخلفي، ودخلها حسام دخول الأمراء، واستقر على مقعده بأنفة الأمراء، وأنا لا أدري إن كان ما أرى حقيقة أو كابوساً أريده أن ينقشع. ورفع يده مودّعاً.

قلت: «مع السلامة!»

ولما انطلقت به السيارة، ضحكت، ضحكت لنفسي كالمجنون،

وأنقلب حرجي وفزعي سروراً وخيلاء. . رجل رهيب، هائل! لم يغب عني أنه بعثر راتبه ـ الذي لا شك أنه كان قد قبضه ذلك الصباح ـ على وقفته تلك، كالعادة. ورجعت إلى الساحة شديد الاعتزاز بالرجل ذي المعطف الممزّق.

لقد شاهد الطلاب مغادرته بالسيارة، واستمرت تعليقاتهم. وسألتني إحدى الفتيات: «من هذا الرجل، استاذ؟ أخبرنا.»

قلت وكأنني أغني: «ألا تعرفونه؟ إنه حسام الرعد». وأسرعت إلى الصف، غير أن الفتاة سارت هي أيضاً مسرعة إلى جانبي، وقالت: «هل هو الذي نقرأ له أحياناً في الجرائد؟»

فتوقفت لحظة، وتأملت في وجهها. «نعم، هو.»

ـ لماذا أنت دائماً مسرع، أستاذ؟

ـ الطلاب في انتظاري، لاستئناف المحاضرة.

ـ لا أقصد الآن ـ بل. . دائماً. أنت دائماً مسرع.

راق لي صوتها في الحال، وأحببت تسريحة شعرها القصير. قلت:

ـ أنا مسرع؟ أنا لا أكاد أجد وقتاً كافياً لأي شيء أريده. . . في أي سنة أنت؟

ـ في الثانية. سأكون من تلاميذك في أول السنة الدراسية القادمة.

ـ جيد. جيد. ما اسمك؟

ـ ميادة. ميادة محمد أمين.

ـ اسم جميل!

ـ ولكنك ستنساه حالما تعود إلى الصف.

ـ لا، لا أنا لا أنسى الأشياء الجميلة.

ـ حتى لو كانت أسماء فقط؟

ـ أسماء أو مسمّيات، ميّادة.

وأستأنفت السرعة إلى محاضرتي. وفكرت، حالما تبدأ العطلة الربيعية سأحاول أن اقنع خالي بقضاء عدة أيام معي في عين فجار. فقد

كنت تلك الأيام قد فرغت، أو كدت، من تهيئة داري فيها. وكنت مليئاً بالتوقعات للربيع وللصيف القادمين ـ توقعات لذيذة لم يسعفني حدسي بتحديدها.

[٢٥]

هل تتحول الحياة إلى مبارزة مرة قاسية كل عنف فيها مسموح، حتى القتل، أم تبقى صراعاً ذكياً يشبه، إلى حد بعيد، سباق التتابع؟ سؤال طرحته على نفسي، ولم أصل به إلى جواب.

في أواسط الستينات، ما كدت أرى أدهم ميتاً وهو حي، ينظر في الوجوه دون أن يسمع كلمة واحدة، ويتطلع دون أن يرى شيئاً، حتى انتابني الغضب لأيام. كان قد تخرج من الجامعة، ولكنه لم يحاول أن يجد لنفسه أي عمل، وبقي مغلقاً على نشاطه السياسي إزاءنا جميعاً. كنت أشرح له حقيقة المواقف كما أتصورها، وأتوقف، متعمداً، عند الخيبات الكبيرة، لعلها تكون له درساً. كان يستمع بأدب، مثل عادته، لا يتكلم إلا كلمات قليلة، وأغلب الأحيان للمجاملة.

بعد هذا النقاش الطويل غاب أدهم. غاب غياباً طويلاً، أكثر من كل المرات السابقة، حتى أن الشكوك راودتني في أن يكون قد أنهى علاقته بصورة كاملة ونهائية بعمورية وكل ما يمت إلى الماضي بصلة. لم أخفِ هذا الخوف، وتحدثت بشأنه مع خالي، وسألته بالحاح إن كان أدهم أبلغه بشيء أو إذا كان قد تلقى منه أي خبر... وإذا كنت قد افترضت فرضيات معينة في بداية الأمر فإن طريقة خالي في الاستماع ثم في الاجابة أكدت ظنوني السابقة، وزادت عليها الشيء الكثير. فالاثنان يتآمران، نعم يتآمران. لم يقل الخال كلمة واحدة تشير إلى ذلك، لكن الضحكات الصغيرة، وبعض الأحيان القهقهات، وأنا أبلّغه بمخاوفي، ونفيه القاطع أن يكون قد عرف شيئاً أو تلقى منه أي شيء، هذا النفي الحاد الباتر، وقبل أن يسمع كل ما أريد أن أقوله أو أسأله عنه أكد لي مجدداً نوع العلاقة السرية الغامضة بينهما. هل يعقل أن يكون حسام الرعد امتداداً عملياً لأدهم؟ هل يقوم الخال بنشاط من أي نوع يخدم القضية التي تعلق بها أدهم؟ لم أتوصل إلى معلومات من أي نوع. فحسام الرعد لم يغيّر حياته.

وهذه الحياة الشقية الضائعة لا يمكن أن تتحول بين يوم وآخر إلى صيغة عملية. وإذا كانت الشكوك قد راودتني لبعض الوقت حول احتمال من هذا النوع فإني ما لبثت أن طردتها عني، مقنعاً نفسي بأن العقل يقتضي ذلك.

تعمدت أن أمر على خالي بين فترة وأخرى، بعد أن قطع علاقاته نهائياً معنا، بسبب عمتي نصرت، والكلمات القاسية التي سمعها، والمتعلقة بأدهم بالذات. فلعلها سمعت من سعيد أو حدست بأن العلاقة بين الاثنين من القوة إلى درجة لم تكن تتصورها، والشبه الذي طالما مزقت آذاننا بالحديث عنه، والفراسة التي لا تخيب، والتي تعتبرها نافذتها على هذه الحياة، ضاعت كلها هباء. كانت تعتبر لوقت ما أن أدهم من نصيبها، وأن فيه من دماء الأجداد الشيء الكثير، ولذلك كانت خيبتها كبيرة حين وجدت أدهم ينسلّ بخفة القط، وحلت محل الابتسامة العريضة، التي كان يرشيها بها، تلك الحدة في الجواب إذا سألته عما يفعل وإلى أين يذهب!

إذن فالحياة أكثر تعقيداً وغموضاً مما قدرت، والمبارزة الخفية التي كانت توجه خطواتي وسلوكي في أحيان كثيرة في علاقاتي مع أدهم، ما لبثت أن تغيرت. صحيح أن التغير كان بطيئاً أول الأمر، لكن في إحدى المرات، ويبدو أني ألححت أكثر مما ينبغي أثناء سؤال خالي، صرخ في وجهي بطريقة عصبية:

ـ اسمع يا علاء.. أدهم صار رجلاً. وإذا كان حتى الآن يحترمك ويسمع منك لأنك أخوه الكبير، فيجب أن تتوقف عن السؤال عنه بعد اليوم.

وحين أبديت استغرابي من الكلام والحدة، لم يمهلني. قال كأنه يوجه الخطاب إلى غائب:

ـ أنتم السوالمة لا تعرفون معنى البشر وكرامة البشر.. إما أن يكون الانسان تابعاً لكم أو يكون خصماً!

هززت رأسي باستغراب ولم أتكلم. كنت أريده أن يقول كل شيء، لعله في سورة الغضب هذه يقول بعض الأشياء التي أريد أن أعرف.

عمّر لنفسه كأساً من العرق، بصمت. دون أن يسأل، دون أن يلتفت. وبعد أن رشف منه رشفة كبيرة قال وهو يواصل الحوار:

ـ السوالمة.. منذ الجد الأول، وأنا الذي أعرف كل شيء عنهم، ظُلّام، رؤوسهم مثل الصوان. والصوان يكسر أو ينكسر، ولا شيء بين الاثنين!

قلت بعصبية:

ـ الظاهر، يا خال، اليوم جاء دور السوالمة بالنسبة لك؟

ضحكت ضحكة صغيرة، لكن بصوت حاد واستفزازي، وأضفت:

ـ صحيح أن العمة نصرت من السوالمة، لكن أدهم من السوالمة أيضاً، ولذلك يجب أن يبقى الانسان منصفاً!

التفت إلّي بكليته، وبشكل مفاجيء:

ـ أتعني أنني انسان غير منصف؟ اسمع يا خالي...

توقف لحظة، بدا خلالها متردداً، ثم قرر أن يتابع:

ـ السوالمة، منذ جدك الأول حمدي سويلم حتى الآن، مجموعة مجانين، كل واحد مجنون على طريقته وكل واحد يركبه عفريت بشكل يختلف عن الآخر. وإذا كنت لم أعاصر أجدادك الأولين فإن الكبار حدّثونا، وجدك الأخير عرفته، وأبوك عشت معه، وعرفت كل شيء عنكم... وإذا كان أجدادك ملأوا الجبل والوديان معارك ومشاكل، وإذا كان فيهم مرجلة يعرفها القريب والبعيد، فإن الصغار، من أبيك وأنت جاي، مثل الغربان، لم يبقوا مثلما كان أجدادهم،ولم يعرفوا أن يكونوا مثل أهل المدن. وحتى هذه المجنونة، نصرت، كان من الممكن أن تكون آدمية

ـو تزوجت. أعرف عدداً من الرجال تقدموا للزواج منها وأنا صبيّ، لكن: هذا قصير، هذا طويل، هذا أصله معروف، هذا أصله غير معروف، هذا فقير، هذا أمه فلانة. المهم، ضيّعت كل العرسان. كانت تتصور أن واحداً من فرسان السوالمة أو فرسان آل رعد سوف يأتيها في يوم من الأيام. ولأن هذا الفارس لم يأت، جُنّت.. وطلّعت جنونها في العائلة كلها.

تعب خالي، ضاعت أفكاره، كان يريد أن يتكلم في غير هذا الموضوع، أو هكذا بدا لي، فقد هز رأسه مرات كثيرة وكأنه ندم أو شعر بالخطأ، وفي محاولة لأن يسترد سيطرته شرب ما في الكأس دفعة واحدة. ثم قام مضطرباً، كأنه تذكر شيئاً مهماً. وقال وهو يضع سترته الجلدية على كتفيه:

ـ سامحني يا خالي. ما كنت أريد أن أزعلك. لمعة مريضة. ولازم أشوفها وأشوف ما الذي يمكن أن أعمله!

ودون أن ينتظر، خرج.

في الليل المتأخر، وبعد أن هجرني النوم، عادت إليّ كلمات حسام الرعد قوية مشتعلة، وكأني لم أفكر بها من قبل، أو كأنها جديدة بالنسبة لي. وإذا كنت قد ذهبت إليه لكي أحصل على بعض الاجابات، فقد أثار فيّ أخيلة جديدة وقلقاً جديداً: هؤلاء السوالمة.. هل نحن امتداد لهم؟ ونحن.. من نحن؟ وهل يعتبر أي واحد منا امتداداً للسوالمة بالفعل؟ ولكن لم هذا الحديث كله عن هذه القبيلة الأسطورية؟ إن القبائل في عمورية من الكثرة والتداخل إلى درجة لا يمكن عندها أن يضع الانسان فاصلاً بين قبيلة وأخرى، كما أن هذه الفواصل إذا وضعت لا تعني شيئاً لأن معظمها وهميّ وسوف ينظر إليها الآخرون بكثير من الهزء والسخرية. فالحياة في حركتها الجديدة وقوانينها الجديدة لا تترك مجالاً لأحد لكي يتوقف، ولو للحظات، لكي يقول إن قبيلة كذا انحدرت من فلان، وكان أصلها كذا، ولذا فإن الحياة يجب أن تكون كذا. عمورية الآن تقوم على أسس جديدة: المال، وتداخل العلاقات الشخصية. عمورية الآن شيء

يختلف عن المطلة وغسرين وعين فجار والطيبة، وكل قرى ومدن الجبال والأودية والسهول. وهذه بدورها ستتجه نحو الشبه بالمدينة، لا التمايز عنها. قواعد جديدة أحدُّ من الشفرة وأقوى من الصوان تتحكم بالمدينة. خالي يحلم، نعم، لا يزال يحمل على كتفيه الماضي والقيم القديمة. تتهافت الأرض تحت قدميه، وحلمه المجهول يبقى مشعّاً بين عينيه. وليس هذا فقط. إنه يفترض أن القيم التي تملأ رأسه يمكن أن تجد لها صدى أو تجد أحداً يقتنع بها. إنه مخدوع. وهو قد يختلف كثيراً عن السوالمة الذين صاهروه وهوراغم ـ فقد كان صبياً لا رأي له أيام زواج أخته فاطمة الرعد من أبي ـ ولكن العدوى من تعنّتهم أدركته هو أيضاً.

ثم إن حسام نفسه ليس نمطيّاً بالنسبة لأسرته، مهما يقل هو عن آل رعد وآل سويلم. إنه متمرد على أسرته بحيث يكاد لا ينتمي إليها في شيء. لأنني كلما استعرضت أفراد هذه الأسرة ممن جرت الأحاديث عنهم أو عرفناهم، وجدت أن آل رعد لا يثيرون خيال انسان فيما فعلوه أو قالوه في السنين المئة الأخيرة: شيوخ ومخاتير سايروا السلطة عبر تاريخ طويل، وتسلحوا بقوتها، مما جعلهم في مراكز النفوذ دائماً. ولو أنني يجب أن استثني الشيخ جاسم الرعد ـ والد حسام، وجدّي لأمي ـ الذي استطاع في مطلع هذا القرن أن يحتل حامية غسرين مع حفنة من الرجال، وأرغم القائمقام التركي على الامتناع عن نهب غلال الفلاحين من القمح والشعير والعدس ـ بحجة تأخرهم في دفع ضرائب الغلّة ـ لثلاث سنوات متواليات. إذن باستثناء جاسم الرعد، لم يكن في حياة آل رعد شيء من ذلك البريق المثير الذي ميّز دوماً حياة أفراد السوالمة. وهم كثيرون ولن أحاول تعدادهم، لأن ذلك مستحيل أولاً، وعبث ثانياً. وحسبي التسلسل الواحد من أبي، صعداً، حتى حمدي سويلم. لعلّ صفاء هو الرعدي الحقيقي الوحيد. أما أدهم، أما صبا، أما أنا ـ فكلنا سويلميون بكل تحدّياتنا وتناقضاتنا.

ومع ذلك يبقى أدهم حالة مختلفة، وتبقى النظرة التي كنت انظرها إليه قاصرة أو ربما خاطئة. وإذا كان صفاء قد تعامل معي في وقت من الأوقات كأخ أصغر، وظل ينظر إليّ هكذا، هل تعاملت أنا مع أدهم،

دون قصد مني ودون وعي، بهذه الطريقة بالذات واعتبرت دائماً أنه أخي الأصغر؟

مهما حاولت أن أنفي أو أبرر فإن شيئاً من هذا قد وقع. وهذا يفسر لي أيضاً ذلك التكتم الذي كان يحرص عليه أدهم في الفترة الأخيرة. لو لم يشعر بهذه الفجوة، لو لم يحس المسافة بيننا، لما ذهب إلى حسام الرعد لكي يطلعه على أسراره وأشواقه وعذاباته، بدلاً من أن يجيء إليّ. كان أدهم بحاجة إلى مزيد من الفهم والثقة، ويبدو أنني لم استطع أن أوفر له أياً منهما.

هكذا مرت الأفكار والخواطر في رأسي. وكانت تترافق مع هواجس الكتابة التي أحلم بها. وأتذكر أن أنوار الفجر تسللت إليّ وكنت لا أزال أفكر وأدخن وأهيم في أماكن بعيدة. أما حين نمت فقد سُدَّ الأفق عليّ تماماً، لأن الهواجس تحولت إلى كوابيس، والكتابة تحولت إلى صراخ وفجيعة وبرك من الدماء. وتمنيت في تلك الليلة، أو في ذلك الفجر، لو أن النوم هجرني تماماً، لأن اليقظة، بأي شكل كانت، أرحم ألف مرة من هذا السيل المريع من الصراخ والعويل والبشر الهائمين على وجوههم.

هل كنت خبيثاً في محاولتي اكتشاف السر في هذه العلاقة بين خالي وأدهم؟ لقد أدركت أن بينهما لغة خاصة، لغة غامضة. أحسست بذلك من كلمة هنا، من ابتسامة هناك، رغم أن اللغة التي يتكلمان بها واضحة ـ وبعض الأحيان شديدة الوضوح.

الشعر؟ هل يمكن للشعر أن يقيم مثل هذه العلاقة؟ أعرف أن أدهم مسكون بالشعر من رأسه حتى أخمص قدميه. وأعرف أن حسام الرعد محب للشعر. لكن الاثنين يختلفان حول الشعر أكثر مما أختلف أنا مع أي منهما على انفراد. فأدهم الذي غرق في الموجة الجديدة، وأسرف في التطرف إلى حدود أخرجته في نظر البعض عن الشعر، ينظر بكثير من الارتياب إلى الشعر الحديث ـ القديم، كما ينعت الشعر الموزون المقفى، مهما تتفاوت الأبيات في الأطوال والقوافي. وهذا الارتياب ناشيء، بالدرجة الأولى، عن اقتناعه بأن الشعراء الذين يتّبعون الطريقة القديمة

مجرد مومياءات، لأنهم انفصلوا عن التجربة والصدق وأمسوا مجرد مقلدين. أما خالي فيعتبر الشعر الحديث نزوة، وأن العاجزين وحدهم هم الذين يقولون مثل هذا الشعر، وأن اصرارهم على النطق بأصواتهم هم، أبعد عنهم حرارة ووهج النطق القديم. أختلف خالي وأدهم حول هذا الموضوع كثيراً، وكل محاولاتي في أن أبرر أو أشرح، أو في أن أضع معادلة تُقيم صلةً حقيقية بين الحديث والقديم، رفضها الاثنان معاً، ولم نتمكن من الوصول إلى نتيجة مرضية.

وعليّ قبل أن استرسل، أن أقول كلمة: كان خالي يحب شعر أدهم رغم أن أدهم لا يجامل ولا يتخلى عن طريقته في قول الشعر. لكن خالي كان يعتبر أن شعر أدهم يختلف عن الشعر الحديث الذي يقرأه في المجلات والصحف. في لحظات الانفعال والتجلي، وبعد أن يسمع قصيدة من قصائد أدهم وهو يقرأها على طريقته، يقول بانفعال:

ـ هذا شعر رائع..

وبعد أن يزول الانفعال ويؤكد أدهم أن ما قاله شعر حديث، يهز خالي رأسه مستغرباً ويضيف باندهاش طفولي:

ـ قد تكون طريقتك في الالقاء هي التي توجد علاقة موحية بين الكلمات، وتولّد موسيقى من نوع ما، وهذه الموسيقى قد لا يستطيع الانسان تحديد مصدرها، ولكنه يحسها!

وعندما يبتسم أدهم ويدرك خالي أنه وقع في الفخ، وأنه ناقض الأفكار والكلمات التي كان يقولها عن الشعر الحديث، يعتكر وجهه فجأة ويضيف:

ـ أنت شيطان آخر، وقد تكون ساحراً أو حاوياً. أو أن في نفسي ضعفاً إزاء الكلمة لا أفهمه ـ أو إزاءك أنت.

ويتوقف، يهز رأسه بتساؤل وتعجب، ثم يقول وكأنه يخاطب نفسه:

ـ الشعر الحديث، أو ما تسمونه كذلك، ليس فيه أي شيء من الشعر، انه مجرد كلمات خاوية، وأقرب إلى الجنادب التي تقفز من مكان

إلى آخر.

إذن.. لم يكن الشعر ما يجمع بين خالي وأدهم، وحتى ما يراه خالي من جمال خاص في شعر أدهم لا يمكن أن يكون سبباً في هذه العاطفة الخاصة.

روح التحدي والمغامرة؟

لا يمكن أن أنصب نفسي حكماً أو قاضياً وأجزم بذلك. فروح التحدي والمغامرة التي تملأ أدهم هي روح الجيل كله، روح السوالمة كلهم، البذرة الملعونة، الموجودة في كل واحد منا، رغم أن كل واحد منا يختلف عن الآخر اختلاف الأرض عن السماء، وإني إذ أؤكد هذه الحقيقة التي ستغضب عمتي، أعرف كيف يفكر كل واحد من هذه العائلة المسكونة بالرفض والتمرد، وربما بالجنون واللعنة!

صفاء لا يشبهني، ولا يشبه أدهم. أبي لا يشبهه أي واحد منا، وصبا لا تشبه أي واحد في العائلة. نحن مختلفون إلى درجة أن المرء، في لحظات الصفاء والتأمل، يتساءل: كيف يخلّف الرجل أولاداً مختلفين بهذا المقدار؟ أما ما كانت عمتي تزعمه حول وجود الملامح نفسها والشبه نفسه، فإنه مجرد ارضاء لكبريائها، ومحاولة للدفاع عن الكيان العائلي الذي ترى فيه مبرر بقائها.

كانت هناك اذن صلة غامضة، غير التحدي والمغامرة، تربط خالي بأدهم. وأنا أحار في فهم أو تفسير مثل هذه الصلة. وإن أنا أسرفت في الاستطراد والتساؤل فإني أصل إلى نتيجة قد لا تبدو منطقية، ولكنها معقولة بالنسبة لي، وهذه النتيجة هي: التكامل بالتناقض. أو بكلمة أوضح، كان خالي يجد في أدهم ما ينقصه، ما يفتقده. أو ما كان يتمناه ولم يحققه.

بمقدار ما يمثّل خالي الموقف النظري، أو بكلمة أدق الموقف غير العملي، فإن أدهم يمثل العكس. ما يكاد أدهم يقتنع بقضية، بموقف، حتى يندفع بدرجة تصل الحماقة أو الهوس إلى تنفيذ ما يريد. أتذكر هذا

منذ وقت طويل. فاذا قلت له: «لا تستطيع أن تقفز من هذا السطح» فانه ينظر، يمتحن نفسه، يمتحن الموقف، وخلال لحظات يتصرف، وكثيراً ما يكون مثل هذا التصرف مثيراً للاستغراب. ولقد تكرر مرات لا حصر لها. تكرر في السباحة، في الركض، في حمل الأثقال، وفي القفز.

كنا نستغرب الاندفاع الخفّي الذي يقود خطوات أدهم.. هذا في أيام الصغر. أما في فترة لاحقة، حين تطورت اهتماماتنا وطموحاتنا، فقد أصبحت التحديات فيما بيننا من نوع جديد: الرسم، الكتابة، الشعر. وكان لا يتردد في أن يتحدى، وكثيراً ما كان ينجح. صحيح أنه كان يدفع ثمناً باهظاً، أغلب الأحيان، إذ يسهر ويحاول ويظل يحاول، إلى أن يبلغ نتيجة يعتبرها مرضيــة. كنت أنظر إلى محاولاته باستخفاف أول الأمر، ربما لأنه أيضاً أخي الأصغر، وأعتبرها أقرب إلى العناد، لكنني كنت أفاجأ بالنتائج: متى تعلم كل هذا؟ كيف استطاع أن يدرك هذا الحد من الدقة والاتقان؟

هل كان الجانب العملي، إذا صح أن أطلق على سلوك أدهم مثل هذه الصفة، هو الذي لفت نظر حسام الرعد واستثاره؟

لا أريد أن أجازف بتقديم مثل هذه الاجابة السهلة. فصفاء، بمقاييس عديدة وسائدة، أكثر تمثيلاً للصفة العملية، إذ لا يتكلم ولا يفعل إلا بما يؤدّي إلى نتيجة، ونتيجة عملية. كان يفاخر ويقول: عصفور في اليد خير من ألف، لا عشرة، على الشجرة. كان يقول مثل هذا القول كلما يواجه اقتراحات يعتبرها «غيرمدروسة»، «غير عملية».

إذن هناك شيء ما كان يجمع بين أدهم وخالي. وبالتأكيد هذا الشيء لم يكن الخيل، ولا الطرب. كما لا يمكن أن يكون تلك الأحلام والهلوسات التي تملأ رأس خالي كلما خرج يطارد على فرسه لمعة، أو كلما شرب كأسين والعود بين يديه.

فلأترك التفسيرات السهلة، لأن المخلوقات الانسانية من التعقيد بحيث لا تنطبق عليها أية قاعدة محددة. لماذا يحب انسان انساناً، أو يكرهه؟ لماذا تتولد مثل هذه العلاقات الخفية الغامضة؟ كل محاولة لتفسير

الحب أو الكراهية تجد عشرات الاعتراضات. من الأفضل أن نستمر في البحث والمحاولة دون أن نقطع برأي، ويبقى البحث والمحاولة طريقاً مفتوحاً ورحباً ـ لعلنا في وقت من الأوقات نصل إلى اكتشاف أقرب إلى الحقيقة.

لا زلت أتذكر أني لما عدت من انكلترا، وبدأت أعرض بضاعتي الجديدة، أفكاري وأحلامي واقتراحاتي، وجدت أني اختلف مع الآخرين بمقدار كبير. ورغم التنازلات التي قدمتها، سواء في هذا الاتجاه أو ذاك، فقد اكتشفت أنني أكثر بعداً وغربة من أي وقت مضى. كان أدهم ينظر إلّي وكأنني جئت من عالم آخر، من كوكب بعيد. كان ينظر باستغراب إلى الكثير من الأفكار التي تملأ رأسي. كان شديد الأدب، يسمع، ينظر، يسأل، لكن في النهاية يبدو غير مقتنع، بل أقول إنه كان يبتعد عني.

وخالي أيضاً، كان يجدني شخصاً غريباً، وبعض الأحيان، شخصاً خائباً (يا للسخرية ـ خالي يعتبرني هكذا!)، وكأنَ السنوات التي قضيتها في الدراسة زادتني جهلاً وضياعاً! كان يقول: «من يأكل العصيّ ليس مثل من يعدها.. والذي يغوص في الشقاء والجوع ليس كمن يراقبه.» وحين كنت استنكر واستغرب مثل هذا القول، كان يرد علّي ببرود:

ـ يجب أن تعيش من جديد في هذا المجتمع لكي تتعرف عليه.

وحين أؤكد له أني ما نسيت عمورية يوماً واحداً، وأني أعرف عمورية حجراً حجراً، أعرف بشرها وأزقتها، همومها ومشاكلها، وأني كنت أقرأ الصحف كما لو كنت أقرأ القرآن أو الانجيل، كان يرد عليّ وهو يقهقه:

ـ يا علاء، يا خالي، الدنيا تغيرت، عمورية التي عرفتها تغيرت. كل انسان يعرف أن عمورية التي تركتها قبل ست سنوات لم تعد موجودة. أما ما تقوله الصحف، أو ما قرأته، فلا علاقة لي به!

فإذا قلت له إنني لا أرى تغييراً يستحق الذكر في المدينة، بينما أنا الذي تغيرت، كان أدهم يتولى الاجابة، بطريقة لا تخلو من التضمين:

ـ السنوات التي مرت أكثر من مجرد سنوات.. وإذا لم تتغير

عمورية، اذن آن لها أن تتغير.

كان خالي يفهم ما يقوله أدهم دون مناقشة، دون تساؤل. وإذا أبديت احتجاجاً، وقلت: «إن الذي أراه هو أنكما، كالملايين مثلكما، إنما تعيشان في التمني»، نظر كلاهما إلى الآخر، لا يصدّقان ما يسمعان مني.

إذن فالبعد عن الوطن، بأي مقياس أخذه الانسان، بمقاييس الزمن العادية أو غير العادية، يخلق شيئاً جديداً، وقد يخلق اضطراباً في التفكير والرؤية. فاذا أضيف إلى الزمن، إلى الشهور والأيام، ذلك الزلزال الذي قلب حياة الناس في أوائل ذلك الصيف الحزين من عام ١٩٦٧، غدت الصورة أكثر وضوحاً.

كنت مخطئاً إلى أقصى درجة لأني كنت بعيداً عن عمورية في ذلك الصيف. إن الموت مع الجماعة رحمة كما يقولون، وربما استطاع الناس في عمورية أن يتماسكوا ويبدأوا من جديد، لأنهم عضّوا على جراحهم كما تعض الذئاب ـ لكن يجب أن يعرفوا أن الاهانات الصامتة التي كنا نتلقاها في الغربة من العيون الباردة الشامتة، كانت أقسى من النابالم، وأن الأسئلة التي تبدو شديدة البراءة حول تطورات الحرب، كانت مثل السكاكين الحادة التي تمزق الأحشاء.

لم نكن بعيدين إذن. كنا نرى وجوهنا في الابتسامات الساخرة، في الأسئلة الجارحة، في طريقة التحية، ولا أبالغ إذا قلت إننا تحولنا إلى مجموعة من المتسولين العاجزين بنظر الآخرين وهم يراقبوننا. لا زلت أتذكر كيف اضطررت إلى المرابطة في غرفتي ثلاثة أيام متوالية، لا أريد أن أرى أحداً ولا أدع أحداً يراني. كنت، كطريقة لتعذيب النفس، آكل الخبز اليابس، وأمّر على علب اللحم الفارغة. . . كان بامكاني أن أذهب إلى أي مطعم، أن أشتري أية حاجات أريدها، غير أني كنت أخاف من عيني بواب العمارة، من سؤاله، أو من ابتسامة بائع التبغ. إذن لم يكونوا وحدهم في عمورية الذين عانوا وتعذبوا، لم يكونوا وحدهم الذين عاشوا الجرح والنزيف. هل أزعم أن معاناتنا كانت أكبر وأشق؟

ولكن الذي يجب أن اؤكده هنا هو أن لغة جديدة، أقرب إلى لغة

السحر، ولدت في هذه الفترة، ونتيجة لهذه اللغة ونتيجة لعوامل أخرى غامضة، تكونت نفسية مختلفة جعلت الناس، ولو لمدة، أكثر قدرة على التعاطف، على فهم بعضهم البعض. وكان سؤالي: هذه المأساة، هل تطهّر أنفس الناس، أم تحطمها؟

هل تكون هذه اللغة الخاصة، وفي هذه الفترة بالذات، هي لغة النقاءالتي شدّت الرباط بين أدهم وحسام الرعد؟ ولكن هل كنت أنا غريباً أو عاجزاً عن فهم هذه اللغة؟

لا أنكر أن غربة طاغية كانت تطوّقني، وهذه الغربة، مع اختلاف في الأشكال والنسب، وجدتها لدى الآخرين، معظم الآخرين. قد أبدو بنظر الكثيرين مهذباً، متعلماً، كثير الآراء. لكني أحس أنهم لا يعرفون ما أعرف من التساؤل، من التشتت، من الغضب. إلى أن اكتشفت، أو بالأحرى إلى أن كشف لي أدهم، أنه وجد طريقاً جديدة: هذا الصدأ الذي يغلّف كل شيء، حتى الروح، لا يمكن أن يزول إلا بالبارود. أما التجارة التي استمرت بالقضية ثلاثين سنة أو يزيد فلا تنتهي إلا بحذف التجار والأوغاد واللصوص والمدّعين!

حسام الرعد، في هذه الفترة، خاصة بعد أن تعرضت حياته إلى الكثير من التردّي، كان يرى أن مشاكل عمورية وبشر عمورية لن تحل إلا إذا التهبت الدنيا، إذا اشتعلت. كان يريد أن يحرق كل شيء، أن يدمر كل شيء. وكان أمله الأقوى هو أدهم: لا في شعره فحسب، بل بانصرافه إلى الفعل. فليحلم حسام الرعد، ولينفّذ أدهم السلوم!

هل يخطىء أدهم في اختيار هذا الطريق؟ وهل يستطيع، فعلاً، أن يقضي على التجار والأوغاد واللصوص والمدّعين كما يقول؟

إن وجود البندقية بين يديه يعطيه مقداراً هائلاً من القوة والثقة بالنفس، ولكونه شاعراً، فهو لن يتورط بقتل الآخرين مجاناً. إن الشعر حب رهيب ـ ولن يجعله يطلق رصاصة واحدة قبل أن يسأل نفسه ألف سؤال. وهذا هو السبب، أغلب الظن، في أنه جعل يحس أنه يفتقر إلى شيء ما، وأنه سيواجه الجدار ذات يوم... لكن هذا الشيء، أليس هو

بالضبط ما أراد أن يكتشفه وهو يحمل البندقية، كلما سمع بكاء الأطفال وعويل الأمهات؟

وخالي، لماذا كان يجن هكذا وكأنه شاب في أول عمره؟ هل لأنه خسر كل شيء ولم يبق لديه شيء يخشى عليه الخسارة؟ وهل كان من القوة بحيث يستطيع أن يفعل شيئاً في أيامه الأخيرة؟

إذا كانت عمتي نصرت قد سئمت مهاجمته، وأبي توقف منذ وقت طويل عن أي حوار جدي معه، فإن أي كلام يقال له - إلا كلام أدهم - كان ينظر إليه باستخفاف وقد لا يسمعه أبداً، ويروح يدندن بتلك الأشعار التي لا أعرف أين ينبشها ويشغل نفسه بها، فإذا تعب من الأشعار وتشنّجت أصابعه من مسك الريشة، فلا بد أن يحمل كرة أو قطعة خشبة لكي يحرك الدماء في جسده وفي جسد ذلك المخلوق البائس، روكي، فيظلان يتريّضان ويتحدثان ساعات طويلة.

ولقد سألت نفسي أيامئذ: ما دام خالي قد جرّب كل شيء في هذه الحياة وخسر. فماذا سيخسر إن هو جرب الثورة أيضاً؟ لكن الثورة من أجل ماذا؟ أدهم، كان لديه الجواب على هذا السؤال، والجواب هو مستقبله، ومستقبل شعب برمته. أما حسام الرعد؟ هل كان نبيّاً يرى رؤى ملأى بالنار والطوفان، فلا يهمه أن يرى ما وراءهما؟

لعلني أعقّد القضية أكثر مما يجب. ربما يحسن بي أن أعيد بناءها بشكل جديد مختلف، لعلني أجد تفسيراً يريحني، ويكون في الوقت نفسه أقرب إلى الصحة، والواقع.

[٢٦]

أول مرة سمعتني نجوى أنطق اسم «عين فجار» ـ في حفلة العشاء التي أقامها صفاء في داره تلك الليلة ـ نزلت عن كبريائها، ووقفت أمامي لتسألني: «هل قلت عين فجار؟» أصاب الاسم منها وتراً عميقاً، وتراً جعل يرن رنيناً حاداً كدت أسمعه بأذني. وكلما ذكرتُ عين فجار بعد ذلك أمامها، انتهبتْ بشكل أثار تساؤلي. هل كانت حقاً تفكر في غزو صومعتي وأنا فيها، كما قالت لصديقتها عليّة تلك الليلة؟ خاطر لذيذ لمحب مثلي أيامئذ أن تحلم نجوى بخلوة معي في قرية جبلية! ولم لا أشاطرها الحلم عن غزوتها الفجائية للناسك في عزلته؟

عندما سمعت صوتها على التلفون لأول مرة، لم أعرف أنه صوتها. كانت الساعة تقارب منتصف الليل، وأنا في مكتبتي، أقرأ. دق جرس التلفون. من يخابر في ساعة كهذه؟ رفعت السماعة، وقلت:

ـ هلو؟

ـ دار الاستاذ علاء الدين نجيب؟

ـ نعم. يتكلم.

ـ استاذ علاء، أعذرني على مخابرتك في مثل هذه الساعة.

ـ من يتكلم، رجاءٍ؟

ـ ألم تعرفني؟

ـ لا، العفو.

ـ أنا نجوى، نجوى العامري.

ـ نجوى؟ معقول؟

ـ ولم لا؟

ـ الأشياء الرائعة غير معقولة.

ـ ولكنها تحدث. لا سيما عند منتصف الليل.

ـ ها! ساعة انطلاق الجن.

ـ لولا سلامك سبق كلامك . .
ـ لخليت طيور السما تسمع قرقعة عظامك .
ـ والآن ، بعد كلمة السر ، المؤامرة .
ـ هس ! للجدران آذان .
ـ عندي طلب .
ـ تفضلي . واجعلي الطلب صعباً .
ـ عين فجار . . .
ـ ما بها؟
ـ أريدك أن . . . تأخذني إليها .
ـ نعم ؟
ـ أنا جادة .
ـ في أي وقت تشائين . آ ، ولكن ـ
ـ أعرف ماذا تقصد . . . وحدي ، دون خلدون
ـ هل يعلم؟
ـ سافر لبضعة أيام . سأخبره فيما بعد .
ـ متى نذهب؟
ـ غداً ، مثلاً؟ غداً الجمعة . يوم عطلة .
ـ تفكرين بكل شيء .
ـ أنا تلميذتك .
ـ أنت؟ أنت ربتي !
ـ لا ، لا ! للجدران آذان ، وللتلفون أيضاً .
ـ غداً ، صباحاً ، انتظريني . في . . . الثامنة؟
ـ في السابعة ! اتظنني أنام حتى الضحى؟
ـ في السابعة اذن .
ـ لا . في السادسة ، اذا استطعت . أفضل
ـ قبل طلوع الشمس؟
ـ نعم .
ـ وإذا أمطرت؟

ـ حتى لو أثلجت! سأكون في انتظارك.

ـ صار.

ـ حالما تصل، ضربتين خفيفتين على الزمور. هه؟

ـ كما تشائين.

لا أظنني نمت تلك الليلة. تركت فراشي مبكراً، وحلقت، واستحممت وأرتديت ثياباً صوفية، وخرجت إلى السيارة في الخامسة والنصف من صباح آذاري، ما زالت أطراف الشتاء عالقة به، والربيع يدّعيه لنفسه. تأكدت من السيارة: الزيت، الماء، البنزين... كان هناك نثيث من مطر ناعم، والعتمة ما زالت مهيمنة. وعندما حركت، خرج إليّ سعيد راكضاً، يتساءل. فصحت له من مكاني في السيارة، قائلاً: «عندي شغل في عين فجار!» وأومأت إليه بذراعي مودعاً.

ما كدت أوقف السيارة عند البوابة من دار نجوى، حتى خرجت إليّ لابسة معطفاً كحلياً مزرراً حتى العنق، وأنسلّت بخفة إلى المقعد بجانبي، وأغلقت الباب. قالت «صباح الخير»، ثم سكتت. لم نتكلم لبضع دقائق، وأنا أتنعم حسّياً بحضورها الجسدي المحض، وعطرها الخفيف الذي يضاهي شذى المطر، وشعرها الأسود الطويل سابل على كتفيها وحول عنقها. هناك لحظات في الحياة تحفر نفسها في الذاكرة إلى الأبد. فإذا كان ركوبي بمحض الصدفة في سيارتها، في المرة الأولى، قد بقي شيئاً مزعزعاً في نفسي حتى اليوم، فإن وجودها صامتة إلى جانبي في ذلك الصباح، وقد انقطع المطر وأخذت الشمس تطل من بين غيوم بيضاء رقيقة على طرقات عمورية، غدا وجوداً سرمدياً في ذهني: وجوداً محيراً، غامضاً، استشعره في الصحة وفي المرض، استشعره مستوحداً، واستشعره بين الناس. ولطالما تكرر في السنوات اللاحقة، وبقي ذلك الحضور الصامت الأول، وهي في معطفها الأزرق الكحلي، هو الأروع، والألذّ، والأملأ بالسر. لقد كان البداية الحقيقية للحب، وللموت. بداية النشوة وبداية الجريمة.

سألتها، وأنا أخشى انقطاع الصمت: «هل رأيت عين فجار؟»

فأجابت، دون أن تلتفت إليّ، وعيناها على الطريق: «أبداً. ولكنني ولدت فيها.» صعقت. «ألم تولدي في عمورية اذن؟»

عندها التفتت بكامل وجهها إليّ، وأنا انظر إليها بنصف استدارة. «شهادة ولادتي تقول إنني ولدت في عمورية، عام ١٩٤٩. ولكنني اكتشفت مؤخراً، بعد زواجي بقليل، أنني في الواقع ولدت في عين فجار.»

- وهذا سبب اهتمامك بها الآن؟

- إلى حد ما.

- هل يغير هذا شيئاً في حياتك؟

- ربما...

- وماذا يهم أين يولد الانسان؟

لم تجب، وعادت إلى وضعها الأول. وبعد قليل قالت: «حدثني عنها. أنا لم أسأل أحداً آخر عنها، أتدري؟ وكل مرة أراك فيها، اسمعك تقول: عين فجار، عين فجار... هل هي جنة موعودة، أم ماذا؟»

فضحكت. «ربما تكون موعودة، ولكنها قطعاً ليست جنة في وضعها الحالي.»

- حدثني عنها.

- سنراها معاً، بعد ساعة، أو أقل. هذا إذا لم تجرف أمطار البارحة أجزاءاً كاملة من طريقها. عين فجار، يا سيدتي، لا تبعد عن أطراف عمورية أكثر من ثلاثين كيلومتراً. غير أنها قائمة على كتف من جبل، تبدو وكأنها انسلخت عنه ذات يوم بزلزال. فأصبح الوصول إليها صعباً، عبر طرق ضيقة، تتلوى كالأفعى صُعُداً إليها. غير أنها ببيوتها القليلة المتباعدة تتشبث بصخورها الكبيرة، مزهوّة بعينها التي ينطلق منها ماء صافٍ في برودة الثلج، ويدفق كالشلال في واد صغير شديد الخضرة، منطوٍ على نفسه بعيداً عن الناس. وهذا الماء هو سر كرومها التي قد لا تعطي أعناباً كثيرة، لكنها أعناب كبيرة لذيذة، فيها نكهة العطر. وتفاحها ليس مشهوراً، ولكن يكفي أن يراه المرء يلتمع حمرة وصفرة على الأغصان ليشتهي أن يسرع إليه ويقطفه بيده ويغرز أسنانه فيه. أصحاب الكروم،

هم الذين يستهلكون فواكهها، ويرفضون بيعها في الأسواق. بعضهم من أهل القرية المقيمين فيها، ولكن بعضهم نزح عنها، إلى عمورية.

فسألتني نجوى: «مثلكم انتم آل نجيب. أنتم في الأصل من عين فجار، أليس كذلك؟»

ـ لا. نحن في الأصل من المطلة. أتعرفينها؟

ـ المطلة؟ رأيتها أكثر من مرة.

ـ ولكننا نزحنا إلى عمورية. أقصد أن أبي نزح إليها، منذ حوالي خمسين سنة. أنا وأخوتي، كلنا، ولدنا في عمورية.

ـ اذن، ما الذي أخذك إلى عين فجار، بدلاً من المطلة؟ أولست تحاول أن تعود إلى جذورك؟ أم أنك لا تفعل إلا غير ما يتوقعه الناس منك؟

رفعت يدي عن المقود لألمس كم معطفها الضافي، وقلت: «يعجبني رأيك فيّ... ولكن الواقع غير ذلك... قصة طويلة. سأحكيها لك فيما بعد، عندما نبلغ القرية.»

ـ كل شيء في حياتك قصة؟

ـ وفي حياتك أنت؟

ـ حتى الآن، القصص قليلة. يبدو أنني أعيش قصص الناس. قصصك أنت، مثلاً.

ـ نجوى، أنت فتاة صعبة، أتدرين؟

ـ لأن لا قصص في حياتي؟

ـ لأن لك إرادة من النوع المعقد.

ـ هل استخلصت ذلك من رسائلي إليك؟

ـ أحذري! بدأت تقتربين مني.

رنّت ضحكتها في داخل السيارة المغلقة. «ولماذا أقترب منك، لمجرد أنني كتبت لك رسائل، رسائل فكرية، لم أشر إليها هذه المدة الطويلة كلها؟ وأنت أيضاً لم تتكرم ولو بتلميحة طفيفة إليها. نحن ما زلنا بعيدين جداً عن بعضنا.»

بلغنا الطريق الخارج من عمورية، والمتجه شمالاً، بمحاذاة البحر. لم أقل شيئاً. كان يكفيني أن اسمع صوتها، وأتحسس شيئاً أشبه بالحرارة المتصاعدة ببطء شديد في اهتمامها. كأنها تستيقظ شيئاً فشيئاً من سبات عميق. كان البحر رائعاً، والشمس تتلألأ على قمم أمواجه المستطيلة الكسلى، لمسافات بعيدة.

قلت: «ما زلت مستغرباً، نجوى... أترين ما أروع البحر عندما يكون مسترخياً هكذا، في الصباح؟»

- أفضّله هائجاً، وأمواجه ترتطم بصخور الشاطىء كالوحوش... ما الذي أنت مستغرب منه؟

- أن تطلبي إليّ فجأة الذهاب إلى عين فجار. الفجاءة في طلبك.

- الفجاءة هي التي تقرر تحركي، دائماً. أكاد لا أفكر.

- أنت لا تفكرين؟ أنت تفكرين باستمرار.

- لا، علاء.

- سميني علاء، دائماً.

- عندما أفكر، أبقى ساكنة. حالما أتحرك، انطلق تلقائياً... وبالطبع، قد انطلق في الاتجاه الخاطىء.

- أتصور أنك تفكرين في شيء، ثم تفعلين عكس ما تتوقعين؟

- قررت أن أبحث عن عين فجار بنفسي. وإذا بي أبحث عن رقم تلفونك في دليلنا في البيت.

- وهل كان هذا تحركاً في الاتجاه الخاطىء؟

- لا أعلم. ولا يهمني في أي اتجاه هو.

- ولكي ترضي، سأرجو أن يهيج البحر.

- سيهيج عند عودتنا، سترى. بيني وبينه تفاهم خفي قديم.

التفتُّ نحوها، وكانت هي تنظر عبر وجهي إلى البحر المشعشع على يساري. واستقرت نظرتي في عينيها البراقتين الواسعتين، دون أن أقول شيئاً. فقالت: «انتبه إلى الطريق! أي حادث لنا هنا سيكون فضيحة الموسم.»

فقلت، وقد عدت بعيني إلى الطريق: «تقولين إن بينك وبين البحر تفاهماً خفياً قديماً. أشعر شعوراً غامضاً بأن بيني وبينك مثل هذا التفاهم بالضبط.»

لم تجب. ولحظت أنها بقيت تطيل النظر إلى البحر. إلى أن ادركنا منعطفاً إلى اليمين كان عليّ أن أدخل فيه. إنه بداية الطريق الصاعد التواء إلى عدد من القرى الجبلية التي سنمر بها، قبل وصولنا إلى المضيق الصخري. وهو الذي سيعيّن لنا الاتجاه صوب عين فجار.

وعند أول قرية صادفناها، هتفت نجوى: «أنظر، هنا مطعم!» توقفت بالسيارة وهي تقرأ اللوحة المكتوبة بخط بدائي: «مطعم أبو جاد... أنفطر هنا؟»

نزلنا إلى دار مربعة الشكل من حجر خشن قامت بين الصخور، تظلّلها صنوبرتان باسقتان، وعلى الناحية الأخرى منها حقل مزروع بأشجار الفواكه، وقد بدأ بعضها يتسربل بالنوّار.

دخلنا إلى غرفة فيها ثلاث موائد أو أربع من الحديد، تتوسطها مدفأة نفطية على رأسها أبريق معدني قديم يتصاعد منه البخار، وجلسنا إلى مائدة قرب النافذة ـ وعلى حافة النافذة العريضة، خارج الدرفتين المغلقتين، أوعية فخارية صفراء صغيرة ملأى بالريحان، وقطرات المطر ما زالت تلتمع على أوراقه. فتحت نجوى إحدى الدرفتين قليلاً، فتسرّب إلينا هواء رقيق بارد يحمل عبير الريحان، أخذت نجوى منه نَفَساً عميقاً، وهي صامتة.

بعد قليل جاء إلينا أبو جاد ببيض مقلي ما زال يبقبق في مقلاتين من الفخار مع جبن أبيض وزيتون وشاي، وخبز مرقوق. لم يكن في المكان غيرنا، باستثناء العجوزين الدمثين، أبي جاد وزوجته. وقد علّقا على مسمار في الحائط راديو ترانزستور تنساب منه «أغاني الصباح». وأكلنا.

ونحن على وشك الخروج، قالت نجوى لصاحب المطعم: «أتسمح لي بعِرْق من هذا الريحان البديع؟»

فبدا شيء من الحرج على الشيخ، وقال: «تفضلي يا ستي، كله مقدّم.»

وفتح الشباك، وتناول أحد الأوعية، وقدمه لنجوى. وحشوت بيده ورقة نقدية، دهش لها وقال: «لا يا رجل، لا يا رجل. هذه هدية للست الحلوة. ولو!»

وشكرناه هو وزوجته، وقالت نجوى: «لم أتناول فطوراً شهياً كهذا في حياتي.»

وعدنا إلى السيارة، وأستأنفنا الصعود إلى عين فجار، والريحان في حضن نجوى.

انكشفت القرية فجأة، وبيوتها متناثرة على غير ما نسق، بارزة بين الأشجار الزاهية بنوارها. وقالت نجوى: «لا تقل لي أيها دارك. دعني أحزر.» وأجالت بصرها، ونحن ما زلنا في السيارة، بين أرجاء القرية المغمورة في الشمس الدافئة، والسماء الصاحية تلتمع فوق تلالها الأبعد، المتوّجة بغابة من أشجار الزيتون. «علاء، قف هنا، ولننزل.» ولما نزلنا، وعيناها ما زالتا تتفحصان المشهد الفسيح، أشارت بيدها، وكلها ثقة، وهي تقول: «تلك هي الدار، على تلك الرابية الصغيرة!»

فقلت فرحاً: «ما هذا الحدس الرائع؟»

قالت: «حدس؟ أبداً. منطق. إنها تشبهك تماماً. ولا سيما الأبجور الأزرق على النوافذ. ثم المنظر كله، وخاصة ذلك الماء المتساقط على الصخور التي قربها.»

فضحكت وقلت: «هيا إلى السيارة. فالطريق حتى الدار، لحسن الحظ، مرصوفة بالحجارة، كأنها بنيت خصيصاً لسيارتي!» وصعدنا إلى الدار.

عند الباب المصبوغ حديثاً بالأزرق ترجّلنا، ونجوى تحمل وعاء الريحان بين يديها الاثنتين. وفتحت الباب بمفتاح حديدي كبير من طراز المفاتيح القديمة. وما كدنا نخطو فوق العتبة إلى الغرفة المعتمة حتى قالت

نجوى، بلهجة احتفالية، وهي تقدم الوعاء الأصفر بكلتي يديها: «هذا الريحان هديتي لك على دارك الجميلة هذه. أين أضعه؟»

كان قرب المدخل نافذة مستطيلة ذات قوس، عميقة العتبة، فتحت أبجورها بدفعه إلى الخارج، فدفقت الشمس في شلال من النور. قلت: «هنا». وأخذت الوعاء الشذي من يديها ووضعته على عتبة النافذة الحجرية. «ولكي يبقى هذا الريحان حياً أبداً، عاطراً أبداً، سأسقيه كل يوم.»

ـ ولكن، لا بالماء.
ـ طبعاً لا بالماء.. بدموعي.
ـ مصحوبة بالتنهدات؟
ـ مصحوبة بالتنهدات...

وأخذت نجوى بين ذراعي، وقبلت فمها الضاحك، وشفتاها باردتان، نديتان. قبلتها مرة أخرى، وأخرى، إلى أن التهبت شفتاها، وتملصت من بين ذراعي، وهي تقول. «على مهلك... أتريد أن تحطمني وأنا لم أدخل دارك بعد؟ أولاً، لنفتح الأبجورات...» ونزعت معطفها، وألقت به على أحد الكراسي. كانت تلبس بنطلوناً من الجينز الأزرق وكنزة صوفية حمراء أرسلت عليها غدائر شعرها الفاحم في كل اتجاه.

فقلت: «افتحيها أنت ـ بركةً من يديك. ريثما أحضر القهوة. ولكن، وقبل كل شيء، شهادة لوجه الله: أنت أروع مخلوقة رأتها عين فجّار!»

واتجهت أنا نحو المطبخ الصغير المتصل بالغرفة، وهي تصيح: «اغل القهوة في ركوة كبيرة، أرجوك... أريد أن أشرب عشرة فناجين هذا الصباح!» وإذ وضعت الركوة على الموقد النفطي راحت نجوى تفتح ستائر النوافذ الخشبية، محدثة قرقعة عالية وهي تدفع الدرفات بعنف إلى الخارج، ثم رأيتها ـ من باب المطبخ المفتوح ـ تفتح باب غرفة النوم المتصلة هي أيضاً مباشرة بغرفة الجلوس التي باتت الآن تفيض بأشعة الشمس وضوء النهار. وإذا هي تصيح مرة أخرى: «أهذا كل ما هناك؟»

فأجبت صائحاً من مكاني: «وماذا تتوقعين في عين فجار؟ قصر يلدز؟ هل رأيت الحمّام؟»

ـ الله! جدرانه مكسوة بالبلاط الأزرق. . . أموت على الأزرق!

وكان في ركن من الغرفة درج حجري، وقفت نجوى في أسفله مرسلة بصرها إلى أعلاه، وسألت: «وهذا الدرج الرهيب، إلى أين يؤدي؟»

ـ إلى العليّة.

ـ غرفة واحدة؟

ـ واحدة، صغيرة.

وإذا هي كطفل مليء بالفضول تنطلق صاعدة على الدرج، الذي ينعطف أعلاه نحو باب الغرفة العليا. وسمعتها تفتح الباب العتيق، وهو يصر على مفصليه الصدئين، وترسل صوتها من فوق. «أأدخل قدس أقداسك؟ هل جمعت فيها كل أسرارك؟» فصحت: «ادخلي، ولا يهمك!»

وأرسلت صوتها بعد قليل مرة أخرى. «مجلات قديمة، أوراق قديمة، كتب قديمة. . . ما هذا؟ رتّبها على الأقل! انفض عنها الغبار على الأقل! أف، أف. . .»

صببت القهوة في قدحين خزفيين كبيرين من نوع الـ mug، وصعدت بهما إليها، وهي تحاول أن تفتح درفات النافذة الوحيدة في العلّية المعتمة. ولكنها عاصية.

قدمت لها قدحها، قائلاً: «لم أمسّ هذه الغرفة بعد. أتدرين ـ لا أظن أحداً غيري دخلها منذ عشرين سنة أو أكثر. وأنا لم أتفرغ لها بعد. . . مخلفات العائلة. . .»

تذكرت فجأة أن في الدولاب الذي في الجدار، وكان بابه مسدوداً، مسدساً كبيراً لا أعرف نوعه عثرت عليه يوم تسلمت الدار وهي في حالة خربة، بين ركام الأوراق التي حشرت في الدولاب، والتي ربما كان بعض الغرض منها إخفاءه. وقلت، وهي تأخذ أول رشفة من القهوة: «اتهمك

المخلّفات القديمة؟ مسدس، مثلاً، علاه الصدأ . . »

فقالت متظاهرة بالفزع: «لا، لا، أرجوك. ليست المسدسات من شأني.» ثم عادت إلى مرحها الطبيعي، ونحن نهمّ بنزول الدرج، وأضافت: «ترى من كان صاحبه؟ أعني، صاحب المسدس؟»

ـ أوه . . ابن عم لأبي . . . شهاب السلوم.

وسقط فكها بما يشبه الرعب الحقيقي هذه المرة. فقلت: «لا ترتعبي.»
قالت: «أعد الاسم مرة ثانية، أرجوك؟»
قلت: «شهاب السلوم. كان مناضلاً كبيراً. وعاش في هذه الدار في الفترة الأخيرة من حياته.»

استعادت شيئاً من رباطة جأشها، وأخذت رشفة كبرى من قهوتها، ونزلنا درجتين أو ثلاثا، ثم سألتني: «هل أنتم، ماذا أقول . . . اسرة سلوم؟»

فتضاحكت. «أما كنت تعرفين ذلك؟»
ـ لا . . أنت علاء نجيب، وأختك صبوة نجيب، وأخوك صفاء نجيب . . . من أين لي أن أعرف اسم جدكم إذا لم يذكره يوماً أحد منكم، ولو سهواً . . .
ـ آ، نجوى. هذا سر من أسرارنا. نحن السوالمة، لنا . . . لنا مغزانا الخاص بنا.

وقفت نجوى أمام النافذة المزدوجة، تنظر إلى التلال المرصّعة بنوّار الأشجار على مدى البصر، وقالت، وقدح القهوة يلامس شفتيها، بصوت خافت:

«وشهاب السلوم، هل كان اسمه شهاب خالد أدهم؟»
ـ بالضبط. سلّوم آخر لم ينجُ من اللعنة. كيف عرفت اسمه؟

لم تجب لبضع لحظات وعيناها تنظران إلى الأفق البعيد، ثم سألت مرة أخرى، بصوت يكاد يتهدج: «وهو الذي أعدم بتهمة التآمرعلى

الدولة عام ١٩٤٩؟»

أصابني فزعها هذه المرة، دون أن أعرف السبب بالضبط. وقلت: «ملعون آخر من آل سلوم، كما قلت لك.» ووضعت فنجان القهوة من يدي على عتبة النافذة. وفجأة وضعت هي أيضاً قدحها عنها، وأرتمت على أقرب كرسي وانفجرت في بكاء عنيف غريب يقطع أنفاسها. ذهلت، ووقفت إزاءها كالأبله، لا أدري ماذا أقول، أو ماذا أفعل. ناولتها منديلاً فراحت تعض عليه بأسنانها وهي تحاول وقف نشيجها.

ما أكثر المرات التي اختلط فيها عليّ الوهم والواقع، الكذب والصدق، الخيال والحقيقة. ما أكثر المرات التي لم أتأكد فيها إن كان ما أذكره شيئاً فعلته أنا، أو شيئاً قرأته، أو سمعته، أو ربما حلمت به. كثيراً ما ضطررت إلى مراجعة أخوتي أو أصدقائي للتوثق من أحداث ازدحمت في ذاكرتي، وفي ساعات من التركيز أجدني ضائعاً فيها بين ما ينتمي إلى تجربتي الحقيقية وتجاربي الوهمية. وفي تلك الساعة، إذ وجدتني ضائعاً مرة أخرى بين يدي نجوى، وهي تنشج وتشهق ولا تستطيع الكف عن البكاء، أدركت - وكأنني شخص آخر يرقبني من إحدى زوايا الغرفة الكبيرة، المعقودة السقف - أنني في موقف أشبه بالحلم: من هي هذه المرأة؟ ما الذي تريده مني؟ ما الذي نفعله كلانا في هذا البيت المعزول عن البشر؟ ما معنى هذا كله؟ وبغتة سمعت الماء يتساقط مثرثراً على الصخور التي في الجانب الآخر من الدار. لقد سكتت نجوى، وأخذت ترتجف. ثم قالت ببحة غريبة: «أنا بردانه... بردانه..»

أشعلت المدفأة النفطية، وأدنيتها ما استطعت من نجوى، ولكنها بقيت ترتجف، فاسرعت إلى غرفة النوم، وانتزعت من على الفراش بطانية برتقالية اللون، وعدت بها إليها، وانهضتها، واقتدتها إلى المقعد الطويل، وأجلستها عليه. ولفلفتها بالبطانية الكثيفة، بحيث لم يبق ظاهراً منها سوى وجهها محاطاً بشعرها المسترسل - وما أجمله رغم أنفها المحمّر، وعينيها الناضحتين، وقد بدت شفتاها أكبر وانضج وأشهى، وأنا أقول لنفسي: إن كان هذا حلماً، فَلْيَطُل! وإن كان واقعاً، فلعلني مجنون. أو لعلنا كلينا

مجنونان.

يبدو أنه كان واقعاً، ولم نكن مجنونين. أو هذا ما اتصوره الآن. جلست قربها، وقد بدأت الرجفة تزايلها. فرفعت عنها البطانية بيد واهنة، والتصقت بي، وعادت وغطتنا كلينا، وأسقطت رأسها على صدري وشعرها الأسود عند شفتي أشم عطره. وقالت أخيراً: «أغفر لي ضعفي، يا علاء...»

فهمست: «اخفتني... نامي الآن.»

فاشتدت التصاقاً بي تحت الدثار. «أتعرف من أنا؟»

ـ انت امرأة أخرجتها من أحد أحلامي القديمة.

ـ ولكنك لا تعرف من أنا.

ـ أنت امرأة بكت كالأطفال لغير ما سبب.

ـ يا ليت!

ـ أنت امرأة أرادت أن ترى عين فجار، فلما رأتها أنهارت لهول ما رأت.

ـ علاء، علاء. ألم تفهم بعد؟

ـ ماذاأفهم؟ هل تركت لي عقلاً أفهم به؟

ابتعدت عني قليلاً، وسقطت البطانية إلى الحضن من كلينا. ونظرتْ في عينيّ نظرة طويلة صامتة، أعادت إلَي الاحساس بأنني اخترع ما أرى، بأنني ما زلت ضحية حلم عنيد. وأحتويتها بين ذراعي، وأطبقت على شفتيها بشراهة، كأنني استغل حلمي قبل أن استيقظ. كانت مستسلمة، مرتخية على صدري. فأبعدتها عني قليلاً، وأمسكت بكتفيها وهززتها بعنف، ونظرتها ما زالت تخترقني، وصحت: «من أنت؟ قولي، من أنت!»

ـ ألم تعرفني بعد؟

ـ لم أعرفك.

فقالت بصوت متئد: «أنا ابنة شهاب خالد أدهم.»

فانطلقت مني ضحكة، وقلت: «هكذا! وبهذه السرعة!»

ـ أنا ممثلة جيدة. ألست كذلك؟

ـ ولكنك غير مقنعة.

ـ غير مقنعة؟ أتدري لماذا؟

ـ لماذا؟

ـ لأنني لست ممثلة. في هذه اللحظة بالذات، أنا عاجزة عن التمثيل.

ـ لأنك تحبينني.

ـ لأنني اكتشفت أنني قريبتك، من نفس العائلة. وهذه الحقيقة لم تكن ببالي..

ـ كفى مزاحاً، يا نجوى.

ـ أنا ملعونة أخرى من آل سلوم.

ـ بالتبنّي؟ رضيت!

وإذا بها تمسك وجهي بين يديها بقوة، وتكاد تغرز أظفارها في خدّي، وتصرخ: «بالتبنّي!! تبنّاني الآخرون، نعم. وها أنا أعود إلى حيث أهلي الحقيقيون.» وقذفت بالغطاء عنها، وانتصبت واقفة، تواجهني. «أغبي أنت؟ ألا تفهم؟... كنت منساقة إلى دارك هذه طوال هذا الأسبوع كما لو أن عاصفة هوجاء تدفعني... ألا تدري لماذا؟»

فقلت، وأنا لا أعني ما أقول، ولو أنني جعلت أشك في أنني ربما أعنيه: «لانك ابنة شهاب السلوم.»

ـ لأنني ولدت في هذه الدار.

ـ من جديد؟

ـ أف، علاء! ولدت فيها يوم ولدت... إنها دار أبي، البطل، الضحية...

ـ اغفري لي بلاهتي إذا سألتك: إذن أنت لست ابنة محسن العامري؟

ـ قطعا لا!

ـ أتريدين أن أجنّ؟

ـ ولم لا، ولم لا، إذا كانت الحقائق مدعاة إلى الجنون؟

وهذه هي الحقائق. أو أنها هي الحقائق كما رأتها نجوى، أو كما

خيِّلت إليّ أنا يومئذ. قضينا معظم ساعات ذلك النهار في محاولة لفرزها على نحو ينصاع للفهم.

محسن العامري، الذي يحسب كل من يعرفه انه أبو نجوى، والذي ربما تخطى الثمانين من عمره أيام زواجها، لم يكن أباها. كان عقيمًا، بينما كان أخوه فؤاد العامري يولد له الولد إثر الولد. فقد رزق بصبي وبنتين، على وجه الدقة. و«الصبي» هو اليوم النائب سليمان فؤاد العامري، الذي كثيراً ما سمعت أنه يملك حيّ العمادية، وجزءاً كبيراً من حي الخميلة ـ ربما مع شيء من المبالغة المعتادة في مثل هذه الأقاويل. وإحدى ابنتي فؤاد العامري الاثنتين، كانت تدعى عائشة، وهي أم نجوى.

عائشة، فيما يبدو، كانت من النوع المتمرد، في أسرة عرف عنها المحافظة الشديدة. فهي أسرة توارثت الكثير من الأراضي والعقارات في عمورية وغيرها منذ العهد العثماني. وهي، كما اكتشفت نجوى، تركية الأصل. جاء مؤسسها داود البيرقدار في أوائل القرن الماضي إلى عمورية في مهمة عسكرية للباب العالي، وبقي فيها. ويبدو أن أحد أبنائه، سليمان أفندي، أقام زمناً في بلدة العامرية، حيث بنى مدرسة سماها العامرية، وإذا بلقب «العامري» يلصق بأسرته، وينتقل إلى أولاده وأحفاده. غير أن بعض أهل عمورية يعتقدون خطأ أن التسمية جاءت لكون الأسرة من أفخاذ عشيرة بني عامر التي، في الواقع، تقيم خارج القطر، وليس لها من أفراد عشيرتها من هو معروف في عمورية.

في أواخر الثلاثينات، وطوال الأربعينات، برز من أسرتنا شاب يدعى شهاب ـ وهو ابن خالد أدهم السلوم، عم أبي. وقد برز عن طريق مقالاته النارية في جريدة «المستقبل» التي أسسها بالتعاون مع بعض أقرانه، وجعلها لسان حال حزب صغير استقطب يومئذ عدداً كبيراً من المثقفين الشباب. ويبدو أن الآنسة عائشة فؤاد العامري كانت من النساء القلائل اللواتي انخرطن في هذا الحزب، الذي كان يتهمه أعداؤه بالتطرف في كل شيء. وكان من ألدّ أعدائه محسن العامري بالذات، عم عائشة، الذي كانت له مواقف في المجلس النيابي اشتهرت بعدائها لحزب «المستقبل» وجريدته. وقد سمعت فيما مضى خالي حسام الرعد، يتحدث عن هذه

الأمور لعلاقته الوثيقة أيام شبابه بشهاب.

كيف ولماذا أنجذبت عائشة إلى شهاب خالد، لا أحد يعرف بالضبط. تجاذب الأضداد؟ ربما. والغريب ـ الذي كنت سمعته عن ابن عم أبي، وذلك عن أبي نفسه، وكذلك عن خالي حسام الرعد ـ أنه كان متزوجاً من ابنة عم له ـ أي امرأة من السوالمة، لا أعرف عنها شيئاً، تدعى حمدية. والذي حصل، أن خالد هجر ـ أو لعله طلّق ـ زوجته هذه. وفي أواسط عام ١٩٤٨ تزوج عائشة العامري.

ولكنه تزوجها سراً، ولم يعرف بالزواج إلا أبوها وعمها، ولسبب ما (هل هُدِّدت عائشة المسكينة بالقتل؟) لجأ الزوجان العاشقان إلى مكان يأمنان فيه على حياتهما. ففي ذلك العام أمرت الحكومة بحل الحزب، وصادرت جريدته، واعتقلت زعماءه ـ فيما عدا شهاب خالد، الذي استطاع أن يفلت من قبضتها بشكل ما.

ومنذ أوائل الحرب العالمية الثانية كان أبي، في إحدى مغامراته المالية، قد اشترى كرماً في عين فجار، فيه دار قديمة لم تكن تساوي تلك الأيام حتى كلفة تعميرها. وقد وكلّ أبي فيها بعد أحد القرويين في عين فجار بشأن محصول الكرم من التفاح والعنب. وأذكر أننا كنّا بين سنة وأخرى، وأنا حَدَثٌ صغير، نحظى بزيارة من فلاح يأتينا بسلتين من الفواكه، وتقول أمي: «أهذا كل ما حصلنا من كرمك، يا أبو صفاء؟» فيقول أبي ما معناه: «أشكري ربك أن علوان ما زال يذكرنا... ما لنا وللكروم يا فاطمة؟» لقد انصرف أبي إلى أعماله التجارية المجزية في المدينة، وما عادت تهمه قطعة أرض منسية في قرية مهملة، لن يجني منها في سنة كاملة ما يجنيه في عمورية في يوم واحد.

لم يكن كثيراً عليه، اذن، حين استنجد به شهاب، أن يأذن له بالسكنى في تلك الدار المهجورة في عين فجار، بعيداً عن العيون. أو هكذا ظن شهاب المسكين. لأن بقاءه في الدار لم يطل كثيراً ـ غير أنه بقي على نشاطه السياسي، وقد وجدتُ الكثير من كتاباته في أضابير عديدة محفوظة تحت الفراش أو في دولاب تلك «العلّية» الصغيرة.

ففي ربيع عام ١٩٤٩ اعتقل شهاب خالد، وبعد أقل من شهرين

حوكم بتهمة التآمر على الدولة، بصحبة ضابطين أو ثلاثة من الجيش، وأعدم. وهذا كله كان من الأمور التي كثيراً ما تحدثنا عنها في العائلة، سنة بعد سنة. ولكن الشيء الذي لم يعرفه أحد منا هو أن شهاب كان قد تزوج مرة أخرى. كلنا كنا نظن أنه عاش بمفرده مختبئاً في عين فجار، إلى أن خانه أحد معارفه، وسلمه للشرطة.

والذي حدث هو أن زوجته عائشة كانت حبلى في تلك الأشهر القاسية، وأنها عندما اعتقل شهاب، اضطربت أو ارتعبت، وجاءها المخاض قبل الأوان. ولا بد أن أحداً من أهل القرية ـ ربما علوان أو زوجته ـ حاول أن يسعفها. غير أنها ماتت في الولادة، أو بعدها بقليل. وقد استطاعت، على نحو ما، أن تفهم الذين حولها أنها ابنة فؤاد العامري في عمورية، لأن أباها أسرع إلى القرية ليرى ابنته ميتة، وقربها طفلة صغيرة هي بين الحياة والموت.

ويبدو أنه قام بواجب الأب تجاه ابنته المتوفاة، ولكنه أبقى قصة زواجها سراً، وأخذ الطفلة إلى كنف عائلته المترفة. وسماها نجوى. (قالت نجوى: «لم أكن أعرف لماذا كانوا أحياناً ينادونني، فيصيحون: ناجية، ناجية! هل كان جدّي يتصور أن نجوى تعني ناجية؟ أم أنه حرّف الاسم قليلاً، لكي لا يلفت النظر إلى سرّ ولادتي ونجاتي؟»)

وهنا جاء دور أخيه محسن، المحروم من الذرية. كان محسن يكره شهاب كرهاً شديداً، وزادت كراهية الأسرة له، ولا ريب، لتسببه بوفاة عائشة وهي في السابعة والعشرين من عمرها. ولذلك أراد كلا الأخوين أن يربيا نجوى بحيث لا تعرف حقيقة أصلها. وفي الوقت نفسه حقق محسن شهوته في الولد بأنه تبنى نجوى ـ دون ما يستتبع ذلك من معاملات قانونية. وذلك بأن سجل ولادة نجوى في دائرة النفوس على أنها تمت في داره في عمورية، بشهادة قابلة مأذونة، وأن أباها هو محسن سليمان العامري، وأمها هي زوجته زهرة محمد شوقي. ولم يكن عسيراً على رجل له مكانته في الدولة أن يسجل أكذوبة كهذه على أنها هي الحقيقة وهي الواقع.

قصة رائعة، تمنيت لو أصدقها بحذافيرها! فكلما اكتشفت فيها تفصيلاً جديداً شعرت أن الفخ يشتد اطباقاً عليّ. نجوى ممثلة جيدة، قلت لنفسي. ممثلة هائلة. انظر إليها وهي تروح وتجيء في الغرفة، بكنزتها الصوفية الحمراء التي ينفر من ورائها نهداها كأنهما يريدان الانقذاف إلى يدي، وهي تتكلم مرة نصف هائجة ومرة نصف نائمة، وترسل أصابعها في خصلات شعرها لترفعه عن جبينها وتعيده إلى كتفيها، ثم تهز رأسها لينتشر في شبكة سوداء مجنونة حول وجهها ـ انظر إليها وهي تسألني، وأسألها، وتجيبني، وأجيبها، ثم تتكور كالقطة في الكرسيّ الكبير الذي يواجهني، ويحدد بنطلون الجينز الضيق خطوط فخذيها الصاعدين إلى بطنها، وفجأة تنتصب لتؤكد على روعة قوامها، وتدنو مني وتنحني فوقي، لتسمرني في مكاني بعينيها السوداوين الضاريتين ـ فيتملكني الاحساس بأنها تلعب بي، بأنها تتقصد العبث، بأنها تلفّق تاريخاً كاملاً لا أدري من أين اطلعت على جزء حقيقي منه جعلته طُعماً يوقعني في عملية التوهيم التي تتمتع بها.

ولكن لماذا لا تكون قصتها صادقة؟ مَن غير امرأة من السوالمة لها هذا الذكاء، هذه الكبرياء، هذا الاندفاع؟ من غير السوالمة يتصفون بهذه القدرة المفرطة على الاستفزاز، والاغاظة، والتصرف اللاعقلاني؟ اشهر قليلة مرت على زواجها ـ وتفعل ما فعلت ! من غير امرأة من سلالة حمدي سويلم تستطيع اقتحام الحياة بمثل هذا المزيج المتناقض من البرود والمنطق، من ناحية، والجموح الذي يرفض الاعتراف بأي وازع أو رادع، من ناحية أخرى؟

ولكن، ولكن... لماذا تثير فيّ الكراهية مع الحب، الحقد مع الشهوة؟ إنها مني، وليست مني. إنها من السوالمة، ولكنها أيضاً كاذبة، وليست من السوالمة. إنها من عرق شرير يفتنني، لأنني استشعر قواه الآسرة الماحقة. إنها شيء محرّم أتوق إلى جره إليّ ووضعه في دمي.

أمسكت بها بشراسة، ونزعت عنها كنزتها الحمراء وهي تقاوم ولا تقاوم. تمرغت بوجهي في صدرها النافر، في جسدها، وهي تصرخ: لا،

لا، لا. وأدركت أن في امتلاكها خطيئة أكبر من خطايا البشر. وعندما اتحدتُ بجسدها، اشتهيت قتلها. شبق لذيذ أسود شرير استبدّ بي. وتمنت لو أنها تقتلني، وانتهي.

حالما ثُبت إلى بعض رشدي، صرخت بها: «ولكن كيف عرفت، أصلاً، أنك لست ابنة ذلك العجوز المأفون محسن العامري؟»

وكان جوابها حاضراً: «في القاهرة. وأنا مع مديحة ـ»

ـ ومن مديحة هذه؟

ـ كنت اعتقد أنها ابنة عمي! مديحة خالتي، اخت أمي الصغرى. وهي زوجة عبدالله محيي، سفيرنا في القاهرة. أيام شهر العسل، فاجأتني ذات يوم، وخلدون غائب، وقالت دون سابق إنذار: «نجوى، ألا تعرفين حتى الآن من أنت؟ ألـم يخبرك عمي محسن؟ ألم يخبرك أنك ابنة اختي عائشة؟» وضمتني إلى صدرها بحنوّ غير متوقع، وعيناها مغرورقتان بالدموع، وأضافت: «كانت عائشة أقرب الناس إلي، ولا تتحدث إلى أحد سواي عن أسرارها وجنونياتها... أما زال عمي يتشبث بسره القديم؟» وفي لحظات شعرت أنني فتاة أخرى، انني... لست أنا، انني أكذوبة... زعزعت مديحة حياتي منذ ذلك اليوم. ولكن من أين لي أن أعرف فوق هذا كله أن علاء الدين نجيب، الروائي الذي غازلته باندفاع غامض قبل زواجي، ستكون له هذه العلاقة المعقدة بي؟ وعندما عدت إلى عمورية، فاجأت أبي ـ أقصد عم أمّي ـ بالسؤال عن ولادتي...

فقلت: «وأدلى إليك بما يعرف؟ بهذه السهولة؟»

ـ سهولة؟ لقد انكر، ولف، ودار، وأنا لا أتراجع عن موقفي. كل يوم أباغته بالسؤال، والالحاح. إلى أن استخرجت منه الحقيقة قطرة قطرة...

ـ سمعت أنه مريض هذه الأيام. مريض جداً.

ـ نعم. ولولا مرضه، لربما أصر على النكران. ولم أرد أن اتخطى المحور المحدود بينه وبيني، فاسأل أفراد الأسرة الآخرين... لا أريد لهم أن يعرفوا أنني اطلعت على سرهم... ولكنهم يموتون الواحد بعد الآخر،

وربما لم يبق منهم أحد يتذكر السر. فإذا سمعت غداً بوفاة محسن العامري ـ

فقاطعتها: «الذي سترثينه، ولا شك؟»

فأجابت ساخرة: «وماذا يعني ذلك؟ أعطني غرفة النوم تلك، اتنازل لك عن ميراثي.»

ـ لأنك ولدت فيها؟

ـ لأنني ولدت فيها، بالضبط. قل لي، ذلك الفراش الذي فيها، هل هو ـ

ـ آسف، نجوى. كان في الغرفة سرير حديدي صدىء، القيت به خارج الدار... وقد يكون مع بعض قطع الأثاث المحطم خلف الدار ـ إذا لم تمتد إليه أيدي بعض أهل القرية.

نهضتْ بسرعة، وعدلت من وضع ثيابها، واتجهت نحو الباب لتخرج إلى خلف الدار، لترى حطام السرير الذي ولدت فيه. فقلت وأنا مضطجع في مكاني: «نجوى، أنك أروع ممثلة!»

فاستدارت إلّي وقالت: وعيناها تقدحان الشرر: «أنا ممثلة؟»

ـ فقلت: «وأشهى امرأة خلق الله في عمورية ـ أو عين فجار.»

فعادت إلّي، وانهالت عليّ بكل ثقلها، وأمسكت بعنقي كأنها تريد أن تخنقني، وهي تزعق: «يا ظالم، يا ظالم! سأقتلك، يا ظالم!»

ولكنني قلبتها على ظهرها، وحصرتها بين ذراعيّ وهي تنتفض كاللبوة الشرسة، ونزعت عنها ثيابها مرة أخرى. وتمرغت من جديد في لحم امرأة هي أشهى من خلق الله في الكون كله...

امسكتْ بيدي وسحبتني إلى الباب. «هيا، ارني بقايا السرير.» ولكنها عند الباب توقفت وتأملت الريحان الذي على عتبة الشباك، وصاحت: «أترى! نما الريحان في هذه الساعات القلائل حتى أصبح ضعف ما كان! أترى!»

فرفعتُ يدها إلى شفتيّ وقلت: «لأنك سقيته بدموعك أنت. إذا بكيت مرة أخرى، تحول إلى شجرة تملأ النافذة بأغصانها!»

دنت بشفتيها من فمي وهمست: «يا ويلي منك. يا ويلي.»

[٢٧]

عندما عدنا أخيراً، مضطرًين، إلى عمورية، وعندما افترقنا مضطرًين عند باب دارها في الخميلة، شعرت أن ليس في الحياة بعد ذلك لذة يمكن أن أطلبها أعظم من لذة ذلك النهار. كنت مليئاً بنجوى، مترع الحواس بها، غير متعطش إلا لها، مجدَّداً، أبداً. . وإذا بلذة رهيبة أخرى تنتظرني في مكتبتي.

فما كدت أشعل النور، حتى وقعت عيني على ثلاث اضبارات ضخمة، الواحدة فوق الأخرى، على المنضدة، وتذكرت: انها «شجرة النار»، وقد طبعت بشكلها النهائي على الآلة الكاتبة في ثلاث نسخ. ويبدو أن سعيد استلمها في أثناء غيابي من السيدة التي طبعتها لي، وتركها على المنضدة لكي افاجأ بها. وفي الحال أخذت اتصفح اضبارة النسخة الأولى، لأتأكد من صحتها وخلوها من الأخطاء. وراح جسمي يرتعش لذة لقراءتها: في كل كلمة منها اسمع صوت نجوى، وأحس شفتيها، شعرها، نهديها، واشم عطرها. إلى أن غابت نجوى عني كنغم يتلاشى، وتوغلت بمفردي في ثنايا الرواية، لا أريد أحداً أن يقطع عليّ متعتي. عندما قاطعني سعيد، وسألني:

ـ هل رأيت المخطوطة؟

قلت بأقصى ما استطعت تجميعه من هدوء:

ـ نعم، شكراً.
ـ ألا تريد أن تتعشى؟
ـ أتعشى؟
ـ نعم. الساعة تقارب منتصف الليل. ألا تدري؟
ـ صحيح؟ لا بأس. . حضّر لي. . أي شيء. غير مهم.

انصرف، ثم عاد إليّ ببعض الطعام على صينية وضعها على

المنضدة... فقلت له:

ـ سعيد، هذه الاضبارة، تأخذها في الصباح الباكر للسيدة نجوى. وهذه، تأخذها لخالي حسام. فاهم؟

فضحك، مدركاً بخبث ما أنا فيه من انفعال، وقال:

ـ أمرك. ولكن يجب أن تأكل شيئاً هذه الليلة.

قلت بعصبية:

ـ طيب، طيب.

تناول الاضبارتين، واتجه نحو الباب، ثم استدار نحوي:

ـ والله إذا جئتُ غداً صباحاً ووجدتُ أن الصينية ما تزال على حالها...

ـ لا، لا. سآكل. يلّا، تصبح على خير.

ولكنه تلكأ بالباب، وبدا عليه كأنه يخجل من الإفصاح عما يريد أن يقول.

فسألته:

ـ هه؟ هلٍ من جديد؟
ـ لا، أبداً. ولكن... متى ستسمح لي أنا بقراءة هذه المخطوطة، قبل نشرها؟
ـ أوه! حقك، حقك، سعيد! أتذكر الأدوية التي قذفتها ذلك اليوم البغيض من النافذة؟
ـ وكيف أنساها!

ـ أما هذه فلن يقذفها أحد من النافذة... ولكن ليس لدّي نسخة رابعة... اسمع، حالما أفرغ من نسختي، سأعطيك إياها لتقرأها.
ـ بديع، استاذ علاء! تصبح على خير!

وانصرف، وعدت إلى قراءتي...

كانت الساعة بعد الثانية صباحاً عندما بلغت الصفحتين

الأخيرتين، قبل أن أغلق الغلاف على «شجرة النار»، وقرأت الكلمات الختامية:

«الآن وقد صرفتم عنكم الأشخاص والممثلين، الفاعلين منهم واللافاعلين، الذين ملأتم بهم عيونكم وآذانكم، وربما انعشتم بهم ولو لساعات خيالاتكم واذهانكم، تبقى الحقائق المعلقة التي، مهما تكثفت الأقاويل فوقها، تتخيل ظلالاً من ورائها. ولعلكم في لحظة من الغضب أو الخيبة، أو في لحظة صحو لا تشوبه شائبة من عاطفة - من حب أو مرارة - تتساءلون: ما هذا الذي رأيناه وسمعناه؟ أي ظل كان يتلاعب على أية شاشة؟ هل كان من واجبنا أن نثبت أعيننا بالوهم، ونتلقى رؤى قد لا تمت لحياتنا إلا بصلة التوق والحلم، ونتظاهر بقبولها؟ ولعلكم أيضاً تقولون: قضينا الليالي في منازل شققت جدرانها زعقاتُ العشق وولولاتُ الموت. لقد صعدنا جبالاً وقطعنا بحاراً نحن نعلم أننا لن نراها. ولم نعرف في النهاية شيئاً.

«نعم، لم تعرفوا شيئاً. اكتشفتم، ولم تحتفظوا بما اكتشفتم. رأيتم مفعول الزمن، ولم تروا وجه الزمن. سمعتم عن الحب، ولم يستقرّ منه شيء على شفاهكم. ولكم الحق في أن تتساءلوا، وتطرحوا على البساط قضايا حيرتكم. فأنا من قبلكم عرفت هذه الحيرة، وعذبتني هذه التساؤلات. أنا من قبلكم وقعت فريسة الرؤى، ولما تمردت لم يبق بين يديّ شيء أتمرد عليه، أو شيء يستحق أن أتمرد عليه. لأنني قد أقول إن بين يديّ كل شيء، ولا شيء. قد أقول إن طرق الدنيا كلها أمامي، ولكنني كلما تحركت ضربت رأسي بجدار. وآثرت البقاء مع الممثلين أكتب لهم أدواراً لا يتقنون حفظها، ويصرون على اقحام أقوالهم في ثناياها. لعل هذا كان ثمناً يستحق أن أدفعه، ما دامت خشبة المسرح ترتفع عنها الستارة، فاندفع إليها مع الذين رسمتُ لهم الأدوار، فنلقي حواراتنا كيفما تشاء الصدف.

«قد لا تصفّقون دائماً. وهذا من حقكم. قد تصفرون، وتحتجون، وتسخرون. وهذا من حقكم أيضاً. قد تطالبون بأثمان تذاكركم لأنكم -

هكذا تقولون - قد خُدعتم. وهذا كله من حقكم تماماً. لقد اكتشفتم أن المسرحية التي مُثِّلت ليست هي المسرحية التي أُعلن عنها في الصحف ولوحات الاعلانات. ولكن يجب أن نعلن لكم أيضاً أننا لم نغير مجرى المسرحية، أو حبكتها، أو أشخاصها، عن قصد أو نية مبيّتة. إنما هكذا تجري مسرحياتنا. ولئن كنا راضين بإعادة نقودكم، يؤسفنا أن نقول إننا وجدنا أننا نحن أيضاً قد خُدعنا. أمين الصندوق في شباك التذاكر دسّ النقود في عبّه وهرب، ولم يترك اسمه الحقيقي، ولا عنوانه. وقُيِّدت الدعوى ضدّ مجهول. ونقترح، أنا والممثلون، ان نعوضكم بمسرحية أخرى. غداً، أو بعد غد، أو في الأسبوع القادم. مع التحذير - كتحذير السلطات الصحية المدون على علب السكاير التي تلتهمون دخانها كل دقيقة - بأن في مشاهدتكم لنا مرة أخرى تعرّضون عقولكم للأذى. وقد أعذر من أنذر.»

رياض البرهان

ضحكت كالمعتوه وصحت: «لعنك الله يا رياض البرهان!»

وشعرت بغتة بجوع شديد. فالتهمت ما على الصينية من طعام بارد، وعدت وأرتميت في الكرسي الجلديّ الكبير، والمخطوطة في حضني. ولّج بي رياض مصرّاً، مماحكاً، أكثر مما فعل في أية ليلة مضت طوال الفترة العاتية التي كتبت فيها الرواية...

رياض البرهان: تجعلني واحداً من عشرة في روايتك، ثم تريد أن تحاسبني محاسبتك لبطل مأساوي. ألا ترى أنك تغالط في ذلك؟ أي بطل أنا؟

علاء : لا، لا، رياض. أنت لسب بطلاً بالمعنى التقليدي. أنت كما قلت واحد من عشرة ـ أو لنقل، واحد من ستة. غير أنني أكدت عليك لأنك أقرب الناس إلى التميز، إلى...

رياض : إلى ارتكاب الأخطاء. قلها بصراحة.

علاء : إلى المغامرة. إلى قول ما يخشى الآخرون أن يقولوه.

رياض : ولكنك لم تعطني مداي الكامل.

علاء : مشكلتك أنك تتوق إلى البطولة التقليدية ـ تتوق إلى الفخامة كأكثر من انسان.

رياض : أتوق إلى الاكتمال كانسان على الأقل. كنت أتمنى لو تضعني في ساحة قتال حقيقي، فترى قدرتي على الضرب والصمود، مثلاً.

علاء : أغلب الظن أنك كنت ستُقتل بعد ساعتين، وتنتهي. شجاعتك من النوع الذي يجعلك تتصور أن الرصاص لا يعرف طريقه إليك. وأنا أريد لك أن تفعل الكثير وتقول الكثير قبل أن تدركك الرصاصة.

رياض : حيّرتني يا علاء. هلوساتك وتناقضاتك الذاتية تصبها عليّ، ثم تقول: رياض شخصية متناقضة، غير منطقية. والواقع، لو كنت أنت راضياً عن انعدام المنطق، لريّحتني. لأن الذي أراه أنا، أن تميّزي ـ وهذه كلمتك ـ هو في قدرتي على الحركة الفاعلة في جو من انعدام المنطق. في عالم يعوزه المنطق، يتساقط المنطقيون على الطريق. كلهم رائعون، أذكياء، جميلون، مثاليون. ولكن الموت، أو القتل، أو النفي أو الصمت، سمِّه ما شئت، يدركهم قبل غيرهم. ويبقى هؤلاء الذين لا يقرّهم منطق، أو معادلة، أو رياضيات. يبقون أحياء، وأصواتهم تلعلع. ويبدو لي، أحياناً على الأقل، أنك

تتصور أن العالم يحكمه المنطق، والمعادلة، والقانون الرياضي.
أليس هذا السبب الحقيقي في الخلاف بيني وبينك؟

علاء : ربما... عندما أردتك فيلسوفاً، جئتني قرصاناً وبين أسنانك خنجر يلتمع. وعندما أردتك مغامراً، جئتني فيلسوفاً، توقف الفعل بيمناك، ريثما تقلّب أوجه الفكر.

رياض : وضعتني أمام رهام، وأردت لي أن أواجهها كحكيم فيلسوف؟ أنت تذكّرني بأحد أقوالك: «إنهم يأتون إلي بأعبائهم.» إنك تأتيني بعبئك - وأي عبء! تضعني أمام فتاة في الخامسة والعشرين من عمرها، غير متزوجة، وخيالها كبرميل من البارود، وفوق ذلك كله، جميلة. ماذا تتصورني أمام الغواية؟

علاء : مقاوماً - من نوع ما.

رياض : إنك تحمّلني عبأك. تجعل رهام تكتب صفحة من كلام خليط، تضعها على المنضدة أمامي لأقرأها، وشعرها الأسود مرخي على كتفيها، قائلة: «هذه صفحة من قصّة أكتبها. ما رأيك فيها؟» وتقف إلى جانبي، وأكاد اسمع تكتكة الساعة في القنبلة الموقوتة...

علاء : تضحكني، كعادتك كلما اشتدت جدية الموقف. وتنسى أنك أنت نفسك أحد أعبائي.

رياض : لا، لا تقلب الآية بهذه السرعة. هموم رجل مثلك ليست بالضرورة هموماً لرجل مثلي، إن كنت تريدني فاعلاً، وناجحاً فيما أفعل. سألت رهام: «من الرجل الذي تقصدين في كلامك هذا؟» قالت، وعيناها تقدحان كحد المقصلة: «رجل... يشبهك تماماً...» أغبّي أنا؟ أي عبء هذا الذي تريدني أن أحمل؟

علاء : أملت أنك ستعرف كيف تبطل مفعول جهاز التوقيت.

رياض : وماذا أكون قد أثبت بذلك؟

علاء : لا بأس، لا بأس. فعلتها كما أردت أنت، وأفسدت عليّ فصلاً كاملاً. أعدت إليّ عبئي لأحمله مسافة طويلة أخرى.

رياض : ها ها! آسف. تضحكني في اللحظة الخطأ. . . ولكنك عدت وسيّرتني على مشيئتك فيما بعد. وجعلتني أقول إن المثقف في المجتمع العربي، في أواخر القرن الماضي وطوال النصف الأول من هذا القرن، كان هو المحرّض، والدّاعي إلى الثورة والتغيير، وأن الكثير مما تحقق من تطور للمجتمع العربي في السنين الأخيرة، إن حصل أي تطوير (واسمح لي أن أطرح هذا التساؤل الساخر)، إنما كان حصيلة جهده، وتطبيقاً لبعض رؤيته. . .

علاء : ألست مقتنعاً بما قوّلتك؟

رياض : إلى حد ما فقط. لو كان لي أن أقول ما أود فعلاً قوله، لاستطردت إلى منطقة أخرى من الرأي لا أحسب أنك غافل عنها.

علاء : تعني؟

رياض : أعني، لكنت استطردت لأقول إن أنظمة الحكم ما تكاد تتبدل بثورة أو انقلاب حتى يبدو أن المثقف بين عشية وضحاها، أصبح لاغياً.

علاء : لا تبالغ.

رياض : أنا ما زلت ضمن العملية المنطقية التي تؤمن بها. فالنظام الجديد يزعم أن ما كان يحلم به المثقف، ويطالب به، قد تحقق. فالضرورة لوجود المثقف، إذن، تنعدم. وإذا تعامى المثقف عن ذلك، وبقي على طريقته في التحريض أو المطالبة، أو حتى في الحلم، فإنه يعرّض نفسه للأذى. . وربما للحذف.

علاء : ومتى كان المثقف لا يعرّض نفسه للأذى أو الحذف؟ أنت لم تقل جديداً يا رياض.

رياض : أريد الاستمرار بمقولتك على نحو لا تتوقعه أنت. ولكنك تتقصد قطع التسلسل في أفكاري.

علاء : آسف. قل ما عندك. سأسكت.

رياض : أرجوك، ريثما أكمل. ألا يكفيك أنك جعلتني أتكلم،

وحركتني كما تشاء طوال ٣٠٠ صفحة؟ فاسمح لي بصفحتين أو ثلاث على كيفي.

علاء : تفضل، تفضل.

رياض : قلتُ إن المثقف، في النظام الجديد، يصبح لاغياً. لا أنكر أن هذا كلام تبسيطي. لا تبتسم، أرجوك، كأنك أنت رب الحكمة، وانتظر حتى النهاية، ثم ابتسم كما تشاء... في الظروف الجديدة تصعد إلى القمة فئة لا شأن لها بالمثقف ورؤيته - فالمثقف أصلاً زاهد في السلطة، ولا يفهم أساليبها ولا سيما أساليب ديمومتها. أما الفئة الجديدة، فإن لها رؤيتها ولغتها الكافية لأغراضها.

علاء : ولكن كيف لك أن تتصور «رؤية» أو «لغة»، مهما تكن، دون مثقف؟ فالرؤية واللغة هما عدّة هذا الشخص الذي تتصور أنه يصبح لاغياً.

رياض : هذا الشخص، هذا المثقف الذي تتصور أنه صاحب الرؤية وصاحب اللغة يا سيدي المؤلف، ستحاول الفئة الجديدة أن تحتويه، أن تدّجنه، وفق حاجتها. ستجعل منه صورة مؤطّرة. صفراً.

علاء : سيتمرد، اذن.

رياض : إذا تمرد، وصم بأشنع الصفات عن طريق جوقة هي من صنع تلك الفئة العليا: إنها «البوقات والطبول»، التي تحدث عنها المتنبي في أحد أيام بؤسه. وهي جوقة لا تتقن، عادة، أي صنعة أو فن، أو لغة، أي أنها عاجزة عن أي إبداع حقيقي. ولكنها بارعة في نوع من الكلام لا يقل في قدرته على التجريح والتشنيع عن شتائم مومسات المباغي القديمة، وهذا الكلام يسمونه نقداً. لا بد أنك في أيام الصغر سمعت نساء يتشاتمن بأعلى أصواتهن ويقُلْن أشياء -

علاء : كفى، كفى، رياض. هذا كلام لا يليق برجل جعلت منه شخصاً متميزاً في رواية طموحة.

رياض : لم تسمع شيئاً بعد. هذا الجوق يحمي بين أفراده أدعياء للثقافة والعلم، يستخدمون لغة المثقفين والمتعلمين، لتسفيه أهل الثقافة والعلم، لأنهم عاجزون عن إدراك الحقيقة في كليهما. ولحسن الحظ، فإن النظام سرعان ما يشعر بالدور المثبّط الذي يلعبه هؤلاء الأفراد، وهو قد غدا في غنى عنهم، هم أيضاً. . .

علاء : فيلجأ إلى أصحاب الثقافة الأصليين ـ

رياض : لا، أبداً. إنه يعود في الرؤية الثقافية إلى الوراء، إلى ما كان أصلاً قد جُرِّب واستنفد من زمان. وحجته في ذلك هي العودة إلى التراث.

علاء : وما أروع ذلك يا رياض! العودة إلى ما هو حيّ في كل ما هو قديم. . .

رياض : لا تستغفلني يا علاء. إن العودة لا تكون إلى ذلك التراث الحيّ بنواحيه الدينامية، بنواحيه المتطلعة أبداً إلى كل ما هو قادم في حلم البشرية ـ تلك النواحي التي هي في الأساس من فكر المثقفين المستقبليين (الذين أرجو ألّا أكون مخطئاً إذا اعتبرتك في عدادهم). إن العودة تكون إلى النواحي السكونية والغيبية التي في التراث، لاعتقاد أصحاب الأنظمة أن الجماهير ما زالت فكرياً على قصورها الذاتي، وأنها تتغذى بمثل هذه العناصر السلفية الراكدة، التي لن تقلق أحداً، سوى «الآخرين» ـ المثقفين المارقين، المؤمنين بأن حياة الأمة تكمن في عقلها القادر على حمل الحاضر إلى ذرى المستقبل. . .

علاء : تصفيق. أحسنت!

رياض : لست أدري كيف تكتب مقالاتك وتسوّد صفحاتك، يوماً بعد يوم إن كنت تضحك من كلامي هذا.

علاء : كلامك مهم يا رياض. وارد جداً. ولكنه تبسيطي، كما قلت. وضبابي. وفي رغبتك في بلوغ نهايتك المنطقية، تسير على خط مستقيم سهل، وتنسى المنعطفات والتعرجات، والحفر العميقة، والصخور العنيدة المنتشرة في الطريق. ثم انك

خرجت على شخصيتك في محاولتك المنطقية ـ وقد اتفقنا أنك جدلي ومتناقض أصلاً ـ وفي الوقت نفسه...

رياض : أف! سئمت لفك ودورانك. تريدني أن أقول جديداً أرفع به صوتي من على أسطح المدينة، وتريدني في الوقت نفسه حجة في المنطق أقنع به كل روائي يحرك رجاله ونساءه في عوالم ضائعة؟ ولأذكرّك، يا عزيزي، بما تقوله أنت أحياناً: المتمردون أنما يشيرون، أنهم لا يصلون. إحسبْني واحداً منهم.

علاء : كنت أتمنى لو أنك واحد ممن يصلون.

رياض : كيف أصل، وأنت لم تضع بوصلة في يدي أو خريطة؟

علاء : أعطيتك نَفَساً طويلاً، وقدرة عضلية.

رياض : قدر عضلية؟ لماذا لم تخلق حدّاداً، أو سمكرياً ـ أو حمّالاً؟ لعله كان سيصل... أشكرك على ما تحسب أنك أعطيتنيه!

علاء : العفو، رياض. القدرة الذهنية التي فيك جعلتها من قبيل تحصيل حاصل. أنا لا احتمل الشخصيات العاجزة فكراً.

رياض : ولكنك لم تعطني دليلاً واحداً أهتدي به. من ذاك الذي قال: «أعطني خريطة، ثم دعني أرى ما الذي يتبقى لي لأفتح العالم». وأنت ـ لا تنكر ـ أطلقتني من جوف الظلام وأملت أنني سأفتح العالم. ولكن دون خريطة.

علاء : من جوف الظلام إلى جوف الظلام، يا رياض. مثلي.

رياض : أرفض أن أكون مثلك، أرجوك. قلت لك أن همومك ليست همومي. ولأصارحك: بين الشخصيات العديدة الأخرى في روايتك، والعزيزة لديك، لم أجد إلا اثنتين أو ثلاثاً تستحق أن أعاشرها. كان بودي لو أستطيع الانفلات من الذين حشرتني بينهم.

علاء : لماذا لم تنفلت؟

رياض : في الظلام؟ في الأقبية المنتشرة انتشار مدينة النمل؟ من تحت المطر إلى تحت المزراب؟ من ضفائر رهام الأفعوانية إلى فخذي سنيّة الماحقين؟

علاء : أنت لم تحسن استغلال الفرص التي تهيأت لك. كالقائد الذي يتهيأ له انتصار سهل، ولكنه يصر على تعقيد خططه العسكرية، ويبالغ في الضرب، إلى أن يجد أنه، بعد ليال من العذاب، والخوف، والكوابيس، يحقق انتصاراً على ركام من الخرائب، والجثث. لقد انتهيت إلى حيث لم أكن أريد لك أن تنتهي.

رياض : علاء، أنك تأتيني بعبثك مرة أخرى. آسف. لن أحمله عنك. أنا في خير حيث أنا، ما دمتَ قد فرضتَ عليّ هؤلاء الآخرين كلَّهم. ثم إنك هيأت انتصاراً ـ هل قلت «انتصاراً؟»؟ـ لواحد أو اثنين من أشخاصك. لا تتصور أنني غافل عن دهائك وهو ـ واسمح لي أن أقول ـ لا يخلو من شيء من الجنون. قل لي، هل يعاني المؤلفون كلهم من مثل جنونك؟

علاء : جنوني؟ ما الذي تهذي عنه؟

رياض : هذا الخلط بين البلاهة والشطارة، بين القسوة والرخاوة. هذا الخلط بين الواقع والوهم، مع شطط غريب لا يعقل في التصرف.. كنت أخشى عليك أحياناً وأنت تكتب، لأنك لم تكن فقط تخبط خبط عشواء في أقبية الظلام التي تصورها مدينةً لعالم اليوم، بل كنت تتخبط في أقبية أشد ظلاماً، انتشرت في داخل دماغك. لا تزعل إذا قلت، إنني كنت أحياناً أرثي لحالك.

علاء : أشكر لك عواطفك.

رياض : ولكنك لم تكفَّ يدك ـ الجنونية أحياناً، كما قلت ـ عني، وعن واحد أو اثنين من مخلوقاتك الأخرى. ولا سيما تلك الساحرة الرهيبة، رهام.

علاء : ناكر للجميل أنت، يا رياض. تشير إلى تلك المرأة الرائعة بهذا الشكل المزري. وهي التي أعادت وَقْد الحياة إلى خلاياك العفنة... انك لا تقل سوءاً وجهلاً عن بعض النقاد الذين يتناولون أروع شخصية خلقتها بكلام غبيّ بذيء، كمن يقدم

لهم طبقاً من حساء شهي، فيبصقون فيه.

رياض : ثم يأكلونه، ويلحسون الطبق؟

علاء : ولا ينسون طعمه مدى حياتهم التافهة!

رياض : غفر الله لك هذا الكلام. لست أدري إن كنتَ واعياً أي امرأة جعلت من رهام؟

علاء : اخبرني، سيادتك.

رياض : أنت تعلم أن العصفورية ملأى بأناس يتصورون أنهم ملوك؟ في روايتك أسقطت جنونك على رهام: فجعلتها لا ملكة فقط، بل إلهة.

علاء : ما زلت حاقداً عليها...

رياض : اسمح لي أن أكمل. ألم تتحدث أنت في مكان ما عن الأساطير الهندوكية؟ يبدو أنك استخرجت منها في رهام امرأة تسيطر سيطرة الآلهة في تلك الأساطير. كيف؟ أنت أدرى. إنها تأخذ عشيقها وتثيره، ثم تقطع رأسه، وترقص على جثته، ثم تلقي نفسها على عضوه الذي ما زال حياً ينبض... هذه الإلهة الهندوكية الخطرة -

علاء : وتتحدث عن الجنون!

رياض : جنوني من جنونك، أيها المؤلف. ولكن لا تتصور أنني غير منتبه إلى بعض خوافي اللعبة عندك.

علاء : بعضها فقط؟ الحمدلله!

رياض : ما يهمني منها.

علاء : ما يؤيد حجتك؟

رياض : ما يخدم غرضي، على الأقل. أريد أن أنعتق من الثلاثمئة صفحة التي كتبتها - على هواي... هل أعجبتك حكاية الإلهة الهندوكية؟

علاء : لم تخطر ببالي قط - في السياق الذي جعلتها أنت.

رياض : هاها! يبدو أنك نسيت أن أساطير الهندوس - وسآتي إلى أساطيرنا العربية فيما بعد - نجد فيها أن الرجل في مقدوره أن

يتحول إلى امرأة.

علاء : ولكن الرجل الذي يصبح امرأة لا يستطيع أن يعاشر امرأة.

رياض : هناك ما هو أهمّ. إنه يكتسب قوة من نوع آخر.

علاء : وما علاقة هذا كله بك، وبي، و . . .

رياض : لا تقطع تسلسل أفكاري، أطال الله عمرك. هذه التحولات يقصد بها عادة مجابهة الأخطار الخارقة: مجابهة المردة، والشياطين، وأرواح الشر التي تتمثل ذكوراً وإناثاً ـ

علاء : ذكرتني بتحولات شيفا وحبيبته كالي!

رياض : هذان من الآلهة، ويعرفان كيف يناغمان تحولاتهما. ولذا فإن شيفا حين يرّيد أن يعرف ما نوع اللذة التي تجتاح كالي إذ يضاجعها، يتحول إلى المرأة راذا، وتتحول كالي إلى الرجل كريشنا ـ ويستأنفان الغزل. . . وحتى في تحولهما هذا، فإنهما إنما يمران بمرحلة أخرى، من مراحل عديدة، تمكّنهما أخيراً من قتل الشيطان الأكبر، بوتانا.

علاء : أراك تعرف التفاصيل كلها. ولكن ما الذي يجعلك تقحم هذه الأمور الغريبة في الحديث عنك وعني؟ هل وجدتني أحوّل رجلاً إلى امرأة، أو بالعكس؟

رياض : يا ليتك فعلت ذلك! لاستطعت اذن أن تجد طريقاً إلى قتل الشيطان الأكبر الذي يبدو أنه يملأ الجو من صفحاتك بدخانه الشرير.

علاء : تفكيرك يذهلني! تريد مني رجالاً يتحولون إلى نساء، ونساء يتحولن إلى رجال، تحقيقاً لوهم خرافي، لقدرة اسطورية. . . تفكيرك خرافي من أساسه!

رياض : بل رمزي، يا استاذ. أردت الاستفادة من بعض اسقاطاتك الجنونية. لو كتبت أنا رواية عنك، لعرفت كيف أراكم التنويع، والتركيب، والتعقيد، والتحولات المدهشة. حكاية واحدة من ألف ليلة وليلة ـ دع عنك أساطير الهند ـ لكانت نموذجاً كافياً لي، في تناول الشخصيات. هل تذكر قصة بدور

ومعشوقها قمر الزمان؟

علاء : نعم. القصة جميلة. ولكن التحولات فيها، تذكّر، مكانية، وليست جنسية. ثم إنها تتخلخل في نهاياتها، كعمل فني، أكثر مما ينبغي.

رياض : لك أن تشدها كيفما شئت. وتحقق أحلامك.

علاء : أتسخر مني؟

رياض : العياذ بالله! من لا يحلم؟ من لا يشتهي تحقيق حلم أو اثنين من أحلامه ولو عن طريق قصة؟

علاء : ما كنت أتصورك قادراً على كل هذا المكر! يخيل إليّ أنك تعني عكس ما تقول ـ على طول الخط.

رياض : ولم لا؟ ألم تعلمّني أنت ذلك؟

علاء : أنا؟!

رياض : في بعض ما تكتب. وليتك تكثر هذا البعض. لأن كلامك الجاد، المنطلق دائماً في خط مستقيم، وعلى وجه واحد، جعلت أمل منه. لماذا لا تعمل بنصيحة صديقك القديم أبي حيّان التوحيدي، إذ قال: «لا تفصح عما تكون الكناية عنه استر للعيب، وأنفى للريب: فإن الكلام صلف تيّاه لا يستجيب لكل انسان، ولا يصحب كل لسان. . . ومادته من العقل، والعقل سريع التحول خفّي الخداع. وطريقه على الوهم، والوهم شديد السيلان، ومجراه على اللسان، واللسان كثير الطغيان. . .»

علاء : كلسانك!

رياض : بل كوهمك!

علاء : يبدو أننا لن نفترق صديقين.

رياض : سأبقى صديقك، مهما تفعل. «شخصية رياض البرهان في رواية علاء الدين نجيب الأخيرة شخصية محاصرة»؛ هكذا سيكتبون. «إحدى قدميها على شفا الفاجعة، والأخرى ثابتة في جنة البلهاء». وسيضيفون: «ذلك لأن علاء الدين نجيب نفسه

ضائع في «شجرة النار» بين جنّة واقعِهِ وجحيم وهمه...»

علاء : تقصد «جحيم واقعِهِ وجنة وهمه»؟

رياض : أترى كيف تفسد كل شيء بسذاجتك؟

علاء : والله لسوف أعيد كتابة «شجرة النار» وأجعل منك أمثولة يا رياض! سأجعل منك أكبر شرير، وفاسق، وكذاب.

رياض : احلم، احلم!

علاء : وجبان، ومكروه من النساء.

رياض : احلم!

علاء : لولا أنك تضحكني.

رياض : أنت تضحك؟ بشرفك، هل ضحكت يوماً ضحكة حقيقية في السنين العشرين الأخيرة؟ ألا تعلم أنك تعيش في أبشع عصر عرفه التاريخ؟ ولأن العصر بحد ذاته أكبر مهزلة عرفها التاريخ، فإن أبناءه يخشون الضحك، لئلا ينفضح أمره أمام أعينهم، لئلا تتراجع موجة الحقد والقتل، لئلا ينبجس في الصدور المظلمة بصيص من الحب. الحب الانساني ـ لا حبك المسعور بالشبق وشهوة الموت.

علاء : استمر، استمر.

رياض : أيرضيك هذا الكلام؟ فلأسرع، وأغير المقام.

علاء : ألا يروق لك إلاّ أن تعاكسني؟

رياض : أرجو المعذرة. في حياتك ما يكفيك من ذلك.

علاء : أي والله. لو كنت فقط تعلم ـ

رياض : ألم أنطلق أنا من رحم بليتك؟

علاء : اذن، تعلم؟

رياض : كل شيء... أغفر لي دموعي...

علاء : هاك ورقة كلينكس، وأرجو أن تعميك!

رياض : هاها! ألم أقل لك ان همومك ليست هموماً لي؟

علاء : عد إلى رهام، وأرجو ألا تقصرّ معك في دور إلهتك الهندوكية قطاعة الرؤوس...

رياض : آه، يا مؤلفي العزيز! ماذا أقول، ماذا أقول؟ «روحوا، روحوا»، قال العصفور. «لا يستطيع البشر أن يتحملوا كثيراً من الواقع، كثيراً من الحقيقة...» وأنت بشر شأنك شأننا جميعاً، نحن الذين حصرتنا بين دفات كتبك.

علاء : ...

رياض : مالي أراك قد سكتَّ؟

علاء : أثرت شجوني، وأنت الطليق الهارب من بين صفحات مكتوبة...

رياض : وأنت المأسور وراء قضبان واقعك... رحم الله أبا فراس الحمداني.

علاء : «وما لست تعرفُ هو الشيء الوحيد الذي تعرف،
«وما تملك هو ما لست تملك
«وحيث أنت هو حيث لست أنت...»

رياض : أخيراً، أخيراً، اعترفت!.. رواياتك، كتاباتك، أليست كلها محاولة للتدليل على ذلك؟

علاء : لست أدري، يا رياض. لا بد من الكتابة، لا بد من قول المزيد. بشر لا يستطيعون «أن يتحملوا كثيراً من الواقع، كثيراً من الحقيقة»؟ اسمع هذه الافتتاحية: «انني أشرع الآن في تدوين تاريخ فترة غنية بنكباتها، جهمة بحروبها، ممزقة باضطراباتها، ووحشية حتى في ساعات أمنها. المدينة تجتاحها النيران، والمقدسات تستباح كل يوم، والفجور يملأ حياة الصفوة من الناس. البحار تكتظ بالمنفيين، وصخور الجزر نفسها ملطخة بالدماء. حمى هوجاء سادت المدينة، وكل شيء جريمة: النبل، والشرف، والجاه، والمال، وقبول المناصب أو رفضها ـ كلها جريمة. أما الفضيلة فهي الطريق المؤكدة إلى الدمار...»

رياض : كفى... أنا أيضاً لا أتحمل كثيراً من الواقع... هل هذه افتتاحية كتابك الجديد؟

علاء : يا ليت! إنها افتتاحية كتاب تاسيتوس، إذ شرع في تدوين تاريخ روما قبل حوالي ألفي سنة...

رياض : مستحيل! ظننتك تقصد عمورية... أرجو ألا أرى فقرات مكربة مثلها في كتابك القادم. ولكنني لن أهتم كثيراً. فأنا لن أكون فيه.

علاء : أهذا ما تظن؟

رياض : أما يكفيك رياض واحد في رواية واحدة؟ هل تريد تكرار شخصياتك؟ ماذا يقول عنك النقاد حينئذ؟

علاء : قد أجعل منك «ضيف الشرف»، بين شخصياتي الجديدة.

رياض : أرجوك، اعفني من هذا الواجب. لا أريد أن أكون حتى عابر سبيل في مدينة تجتاحها النيران، فيها المقدسات تستباح كل يوم و... ماذا قلت؟ والفجور يملأ حياة الصفوة من الناس.

علاء : تكذب. تكذب يا رياض... ستطير فرحاً في جو كذاك.

رياض : إن كان هذا هو جو عمورية كما تراها أنت، إن كان لا مناص مما لا مناص منه ـ

علاء : أترى؟

رياض : سأقف على عتبة باب المدينة... و...

علاء : وتنزل عليها اللعنات؟ ما أكبر وهمك يا بطلي المسكين. سيصلبونك على باب المدينة قبل أن تنطلق الكلمات من حنجرتك.

رياض : اذن ستجعل مني أخيراً بطلاً تراجيدياً؟

علاء : أفٍ منك، ومن تحرقك للمأساة. ماسوكي أنت حتى النخاع.

رياض : ما أكثر أعباءك يا علاء الدين نجيب، وما أثقلها! لماذا لا تفصل نفسك عني؟ لماذا لا تقطع حبل السرة بينك وبيني؟ لقد حبلت بك لا تسعة أشهر، بل تسعة أعوام طويلة. أما كفاني ما عانيت من آلام المخاض؟ حتى ميلادك مني كان بعملية قيصرية... انظر الآن إليك وأتحسر: أي مستقبل ينتظر هذا الوليد الضائع في مدينة كل شيء فيها جريمة، كروما؟

علاء : تقصد عمورية؟

رياض : أية مدينة تشاء. أنت ضائع في المدن كلها. تتشبث بي، وتلقي نفسك على صدري، طلباً لحماية نفسك. ماذا تفعل إن أنت وجدت نفسك يوماً في زنزانة مظلمة، طولها متر وعرضها متر، ولا قلم ولا ورقة بين يديك، والزمن يمر عليك دونما قياس إلا من نبضك الواجف؟

علاء : استحضرك بقوة خيالي -

رياض : بالضبط! وتنتهي محنتك، أليس كذلك؟ تجعلني أمك وأباك... إكبر يا علاء، كبّر عقلك.

علاء : آه... أعلّمه الرماية كل يوم، فلما اشتد ساعده رماني.

رياض : من علّم من؟ من رمى من؟

علاء : حكايتك أيها المخلوق البائس، الذي لا يتنفس إلا بين دفتي أحد كتبي، حكايتك كحكاية الخليفة العباسي والسلطان السلجوقي.

رياض : نوّرنا بعلمك يا سيدي.

علاء : الخليفة العباسي المقتفي لأمر الله رضي بأن يكون سلطاناً لبغداد قائد سلجوقي يدعى مسعود بن محمد.

رياض : مكره أخاك لا بطل، ولا ريب.

علاء : اسمع، ولا تقاطع. مات لهذا السلطان السلجوقي ولد، فكتب إليه الخليفة يعزّيه: «من عبدالله أبي عبدالله محمد المقتفي لأمر الله، إلى الشاهنشاه المعظم، مولى الأمم، مالك رقاب العرب والعجم، جلال دين الله، ظهير عباد الله، حافظ بلاد الله، معين خليفة الله، غياث الدنيا والدين، ناصر الاسلام والمسلمين، محيي الدولة القاهرة، معز الملّة الباهرة، أبي الفتح مسعود بن محمد بن ملكشاه، قسيم أمير المؤمنين...»

رياض : لا، لا، لا. غير معقول! أهذا ما يقوله التاريخ؟

علاء : وفلتة الزمان أبو الفتح هذا كان مسؤولاً عن عهد من الخراب والتدمير، والفوضى السياسية والاجتماعية، قلما عرفت بغداد

مثله . . .

رياض : اعتبر به اذن يا قسيم أمير المؤمنين. . .

علاء : اشتد بك الغرور حتى ما عدت ترى الأمور إلا معكوسة. سأكسر رقبتك، لتعرف من هو القسيم، ومن هو الأمير.

رياض : وتغرق المدن في بحار من الـ. . . حبر؟

علاء : إذا اقتضى الأمر.

رياض : لا بأس، لا بأس. أنت صاحب القلم وستكون الكلمة الأخيرة لك. . . ولو أن العبرة بالنتيجة.

علاء : أية نتيجة؟

رياض : النتيجة المنطقية إياها: بما أن شخصية اسمها رياض البرهان تحيا في أحد كتبك، اذن فأنت ستعرف بها. سيقولون إنك الرجل الذي حلم بي.

علاء : جعلتني كمحمد بن عبد السميع، لا أكثر ولا أقل.

رياض : ومن يكون محمد بن عبد السميع؟

علاء : لا أحد. ذكره أحد مؤرخي بغداد لمجرد أن اسمه محمد واسم أبيه عبد السميع، وكان هو في معرض الذين يحملون هذا الاسم.

رياض : وماذا فعل ابن عبد السميع هذا؟

علاء : بالضبط، لا شيء. كل ما يقوله عنه المؤرخ الفاضل هو: «كان أحد الخطباء. سمعنا منه مناماً رآه.»

رياض : ودخل التاريخ؟

علاء : من بابه العريض.

رياض : لا بد أن المؤرخ تمتع بالمنام الذي سمعه منه. أترى كيف لا خوف عليك؟

علاء : يا خبيث! لست أدري لماذا أخلق شخصيات مثلك.

رياض : لانك مجبر، إبقاءً على. . . سلامة عقلك، ولا ريب.

علاء : ها؟ لعلك محق هذه المرة. كنت دائماً أتصور أن الكتابة فعل من أفعال الصحة العقلية، أو العافية الروحية ـ

رياض : لك، أم للآخرين؟
علاء : لي وللآخرين معاً. لو لم يكن فيها شيء من هذا القبيل للآخرين، لما كتبت.
رياض : وهم جميل...
علاء : أعدنا إلى الشغب؟
رياض : لأنني أرى أن كتابتك التي تتصور فيها عافية روحية للآخرين، تكاد تكون لديهم أحياناً نوعاً من التخريب.
علاء : التخريب؟
رياض : نعم. أي أنك تهدم، وأنت تتصور أنك تبني. ولسوف تجد يوماً من يقول لك ذلك بالقلم العريض.
علاء : إما انك تخرف، أو أنني لا أفهمك.
رياض : ستفهمني - مع مرور الزمن.
علاء : أبداً. لن أفهمك.
رياض : اذن لن تفهم الآخرين أيضاً.
علاء : جعلت تقلقني.
رياض : العياذ بالله! ولكن استمر، يا سيدي المؤلف، مهما أقلقتك. أهدم، ابنِ، ارفع، حط -
علاء : تعني: أنه قَدَرٌ لا بد منه؟
رياض : ولا محيد عنه. ولا مهرب منه.
علاء : سأضعك في روايتي القادمة، شئت أم أبيت.
رياض : لأفسّر لك بعض ما غاب عنك حتى الآن؟
علاء : ربما. ربما. ولعلك تفسر للآخرين أيضاً بعض ما -
رياض : ما أجمل أوهامك!.. أقول - أراك تنهض. إلى أين؟
علاء : إلى فراشي. أريد أن أنام.
رياض : ولكن الليل ما زال فيه بقية.
علاء : أريد أن أنساك.
رياض : تنساني؟ عجيب. ستجدني معك، في فراشك.
علاء : سأطردك، دون هوادة.

رياض : وأنا الحقيقة الوحيدة في حياتك؟

علاء : إياك أن تتحرك من مكانك! لا أريد أن أرى وجهك، أو أسمع صوتك. فاهم؟

رياض : كما تشاء... وأرجو أن تستطيع إغلاق أحلامك دوني... تصبح على خير.

[٢٨]

بعد ذلك بعدّة أيام، جاءني سعيد عصراً بمخطوطة «شجر النار»، وسلمها لي، وهو يكاد يعجز عن النطق. كانت عيناه حمراوين من بكاء سابق. وعندما سألته ما به، انفجر ببكاء جديد، وهو يقول:

ـ خالك... خالك...

صعقت. «ما به؟»

ـ انه...

ـ لعله شديد المرض، فقط؟

ـ لا، لا... كانت المخطوطة قد سقطت على الأرض من بين يديه، وهو في الفراش... يظهر أنه كان يقرأها، رغم مرضه، عندما أحس بشيء ما... قلت له إنك تريد المخطوطة، فهز رأسه، وأشار إلى الأرض... ولم ينطق... ثم تمتم: سأموت... ارجع إليّ حالما تستطيع.

قلت، وفي حلقي جفاف: «عد إليه، بسرعة... وبعد قليل، سألحق بك أنا أيضاً.»

عندما خرج سعيد، تلفنت لنجوى، لأخبرها أنني لن استطيع رؤيتها ذلك المساء، كما كنا قد اتفقنا.

ـ لماذا؟ لماذا؟

ـ قد أجيء متأخراً.

ـ ولكن، لماذا، علاء؟ ماذا حدث؟

ـ خالي، حسام الرعد ـ

ـ ما به... ما بك؟

ـ انه مريض، مريض جداً.

ـ لا!

ـ يجب أن اسرع إليه.
ـ علاء!
ـ نعم؟
ـ خذني معك.
ـ آخذك معي؟ إليه؟
ـ أريد أن أراه.
ـ وهو يموت؟
ـ لماذا هذا التشاؤم؟ سأنتظرك. أتدري؟ قبل دقائق فقط انتهيت من قراءة «شجرة النار». قضيت النهار كلـه فيها معك... سأنتظرك. اخرج الآن.

بعد أقل من ساعة كنا أنا ونجوى ندخل بوابة جانبية من بناية مطبعة «الميزان»، وقد أخذ الظلام يهبط، وعبرنا باحة مضاءة بأنبوب نيون، يلقي نوره البنفسجي الأشبه بشحوب الموتى عـلى نفايـا الآلات والعُدَد، والأخشاب، والأوراق، المنتشرة في كل مكان. وفي ركن منها غرفة تهافت الصبغ القديم عن جدارها الأمامي، وهبط سقفها المصنوع من صفائح الزنك فوق الباب الحديدي، الذي اختلط على صفحته الصبغ بالصدأ في تهاويل أشبه بصورة تجريـدية كبيرة. قرعت الباب بقضبة يدي. ففتحه لنا سعيد، وهو يهتف:

ـ «انه احسن! انه احسن!»

وجاء صوت حسام الرعد من السرير في الركن البعيد واهناً، ولكن مسموعاً: «أهلاً، علاء! أهلاً.. أهلاً..»

كان يتدلى من عوارض السقف الحديدية ضوء كهربائي ساطع، ينير رأسه الثلجي البياض وسط مشهد من البؤس لن أنساه. انطلقت إليه وعانقته، وقد جلس في فراشه، وجعلت أقبله بحرارة، وإذا هو يقول: «ما هذا يا علاء. دموع، وأنا ما زلت حياً... وقوياً... كالحصان. اجلس. اجلس قربي، هنا، على فراشي... آ، العفو يا سيدتي... لم انتبه. كان يجب أن أنهض...» وبدا وكأنه يهم بالنهوض فاندفعت نحوه

نجوى، ومنعته برفق، وقلتُ: «خالي، هذه السيدة نجوى العامري. أصرّت على زيارتك، لكثرة ما سمعت عنك.»

- تفضلي اجلسي. أرجوك... سعيد! قم بالواجب، يا ابني.
- سيبقى سعيد إلى جانبك إلى أن تشفى.
- اشفى؟ من يريد أن يشفى؟
- خالي، أريد همتك الآن.. وأريد رأيك أيضاً.

زفر زفرة بائسة، وأزاح عن صدره البطانية قليلاً، وخبطها بيديه. «رأيـي؟ بماذا؟ ولمن؟ سعيد! ناولني كوباً من الشاي.»

صب له سعيد كوباً من الشاي الخفيف، وقلت له: «ولكن، أولاً، أريد أن أطمئن عليك. أريد أن أدعو طبيباً جيداً لعيادتك. سننقلك إلى المستشفى، إذا أردت.» ولمحت أن على الطاولة الصغيرة التي قرب سريره أنواعاً من الأدوية.

فجعل يهز يديه ورأسه رافضاً اقتراحي: «لا، لا، لا... طبيب؟ سعيد أتاني بطبيب أمس، وبطبيب آخر اليوم. الدكتور سعدي القبّان، والدكتور ثامر فرح، ومن أيضاً؟ لا أذكر... الأدوية كثيرة والحمدلله... ولكن مالي وللأدوية؟ لا، علاء. أنا لم أيأس بعد. ولكن، حقاً، ما لي للمستشفى وللأدوية؟ ومتى كنت اؤمن بها؟ ما أكرهه هو البقاء في الفراش. أشعر أن العالم في الخارج يركض، في حين أني نائم على سبع خرزات ظهري. هل العالم يرفضني - أم أنني أنا الذي أرفضِ العالم؟ لهفي على الزمن القصير/ بين الخورنق والسديرِ... الزمن دائماً قصير. مهما يطل. وهو في أيامَ الأنس قصير، ولكنه حتى في أيام البؤس قصير... هل تتصور أنني أستطيع أن أصدق أنني عشت ستينَ عاماً؟ ستين عاماً ضحكت فيها على ذقن عزرائيل؟ لكأنها ستون يوماً... أو... لست أدري... لكأنها ستون قرناً.. أتأمل أحياناً في الماضي، فأشعر أنني من بقايا العصور القديمة، عصور ما قبل التاريخ... آه، في زمن ما، في فترة ما من مسيرة السنين، كانت هناك النساء، والخيل، والسيارات، وأجمل القصائد في الدنيا... ومخصّراتٍ زرننا / بعد الهدوء من الخدورِ / ريّا

روادفهنّ / يلبسن الخواتم في الخصورِ. . . أنا خالك يا علاء. لم أفوّت فرصة أو تجربة، وحياتك. . . ولكن الزمن كان دائماً قصيراً. . . ولم يستطع أحد أن يبقيني حيث أنا. لا أمرأة، ولا رجل. ولا شيء. . مسكينة عصمت. تُرى ما الذي صار من أمرها؟ أرادت أن ترّوضني! أرادت أن تضعني في قفص، أنا الأهوج، أنا حسام جاسم الرعد، أنا الذي كانت الأفواج تأكل الفُتَاتَ من يدي. . . أنا الذي أكل البشر أموالي، مزارعي، خيولي، كما يأكل الجراد الأخضر واليابس. قلتُ من انتِ فقالت / أنا من شفه الوجد وأبلاه الكمدْ / كلما قُلت متى ميعادنا / ضحكتْ هندٌ وقالت: بعد غدْ. . . / بعد غد. . . بعد غد. . . وعندما يأتي الغد، أعطيه كل شيء في انتظار ما بعد الغد. ولو أنني كنت دائماً أكره الانتظار. ألا تظن أنني كنت دائماً مستعجلاً أكثر مما يجب؟ اللحظة الراهنة هي حبيبتي، وهي مصيبتي.»

توقف عن الكلام، وغيّر وضعه في الفراش، وانتصب في جلسته أكثر من ذي قبل. كان يوجه كلامه إليّ، ناظراً في عيني، ولكنني أجزم أنه لم يكن يراني. وعندما حول عينيه إلى نجوى، اندهش، كأنه يراها لأول مرة. وخطر لي في تلك اللحظة أن أعينّ له من هي نجوى، أو بالأحرى من هو أبوها، لعله يتحدث عنه. غير أنني تريثت، إذ شعرت أنه في حالة استرسال ذكرتني باسترسالاته الكثيرة الماضية كلما شرب كأسين أو ثلاثاً في لحظات التجلّي التي كنت أحبها فيه. كنت أخشى عليه التعب، ولكن النشاط في قسمات وجهه وفي صوته، كان في ازدياد. وسعيد يحوم حولنا، وقد قدم لنا القهوة، وأعطاه مع الشاي دواءه المقرر. ثم جلس على الأرض عند الفراش.

ومع أنني كنت في معظم الأحيان أتصور خالي متشبثاً بالماضي أكثر منه بالحاضر، قلت: «كنت دائمًا على حق، يا خالي اللحظة الراهنة هي الحبيبة، وهي المصيبة. ولكن روح الانسان شيء يتخطى اللحظة الراهنة، باستمرار. روح الانسان تصرّ على الجموح إلى البعيد ـ البعيد في الماضي، أو في المستقبل.».

مرّر كفه في شعره الأبيض الغزير، ثم ضرب بأصابعه جبينه مستذكراً. «أيام كنت طالباً، كنت أحفظ عن ظهر قلب كل شيء جميل أقرأه. وما حفظته تلك الأيام من شعر أو نثر هو والحمدلله الشيء الوحيد الذي بقي عالقاً بذاكرتي. اذكر قولاً اعتقد أنه لهرقليطس: «روح الانسان بلد قصيّ، لا يستطيع أحد أن يقترب منه أو يجول فيه.» هذا البلد القصي هو بالضبط ما أردت دائماً الاقتراب منه، واختراق حدوده، والتجوال فيه. سيضحك الشاعر الاغريقي القديم. سيقول إنني توهمت، وأن ما اقتربت منه، وتجولت فيه، كان بلداً غير بلد الروح. ربما كان محقاً. ربما نحن لم نُعْطَ بعد جواز المرور إلى مملكتنا الحقيقية. أو أن لدينا جواز المرور، ولكن شرطة الحدود لا يعترفون بجوازنا. أو أننا، ما نكاد ندخل، حتى نعثر ونسقط. أو أننا ندخل، ونندهش، ثم نتيه. الطرق لا إشارات فيها، ولا أضواء. وهي كثيرة الحفر، وبعض الحفر كالهاويات. من يدري؟ وفي أماكن تتخللها الغابات الكثيفة ـ التي تنطلق من بين أغصانها وحوش لا تعرفها كتب الحيوان... في دواخل الروح منا تلتهمنا الوحوش! ذلك البلد القصي ـ علاء ـ هو الذي قضيت العمر في محاولة التجوال فيه. هل غضبت الوحوش لرؤية من يعكرّ راحتها، فخرجت إلي والتهمتني؟ آخ...»

طابت لي الصورة، وأحسست أنه عبّر بها عن الكثير من تجربته، غير أنني أردت له ـ إذ وجدته يتنشط، وصوته يستعيد رنينه ـ أن يستمر. فعلّقت: «لنقل إنها خرجت إليك، وصارعتك.»

ـ «طيب، صارعتني، تريد التهامي.»

ـ «وصمدتَ، وتمتعت، و...»

فضحك ضحكة الرضا، ونظر إلى نجوى، يتباهى أمامها بما يسمع. «أترين يا سيدتي ما أنا فيه؟ ولكنني صارعت الوحوش، طويلاً. نحن آل رعد قد نشبهكم، يا علاء، أنتم السوالمة، إلى حد ما. ولكننا نختلف عنكم أيضاً، إلى حد ما. نحن طويلو النَّفَس. جداً. ونكسب كثيراً، ونخسر كثيراً. آل رعد، كما تعلم، سبقوكم إلى عمورية بجيلين أو

ثلاثة: نحن تحكمنا في جزء طيب من مناطق المطلة، وغسرين، وملكنا الكثير من الأراضي المحيطة بعمورية. ولكن ما الذي بقي لنا منها الآن؟ فاطمة الرعد، رحمها الله، كيف استطاعت أن تتحمل أباك ثلاثين أو أربعين عاماً، لست أدري، لولا طول نَفَسها، لولا قدرتها على أن تصمد وقدماها غائرتان في الطين والأسن؟ أما السوالمة، فكانوا متمردين: يضربون ضربتهم، ثم يهربون. يضربون ضربتهم بشدّة، ولكنهم لا يتابعون. كانوا متمردين على السلطة العثمانية منذ جدّهم الأول، واتخذ تمردهم أشكالاً عديدة. أنت تدري أننا، آل رعد، قبل حوالي ثمانين سنة دخلنا في نزاع طويل عريض معهم، وخرجنا نملك الأرض، وخرجوا وهم لا يملكون إلا كبرياءهم وعنادهم. حمدي سويلم، جدكم الأشهر ـ لا تغضب يا علاء إذا قلت لك، إنه لم يكن أكثر من قاطع طريق. وقاطع الطريق أيامئذ كان، بشيء من براعة التسديد في الضرب، يستأثر بإعجاب الناس، وهم في الوقت نفسه يخافونه ويتجنبون شره. وجدك هذا كان له رجال كثيرون، يعلّمهم الفروسية، ويوزعهم على طول الجبل وعرضه، لمقاومة السلطة المحلية وفرض نفوذه بالعنف. وأولاده وأحفاده أظهروا نفس تلك النزعة المتأصلة في دم الأسرة نحو العصيان، والشغب ـ أو نحو التأكيد على استقلاليتهم، سواء في حياتهم الخاصة كأفراد، أو في حياة القرى التي يقيمون فيها.»

أثار كلامه في نفسي شجونها كلها دفعة واحدة. وقلت: «وأنا، كما تعرفني يا خالي، أنا المزيج من آل سلوم وآل رعد ـ»

قاطعني وهو يهز رأسه الأشيب: «نعم. أنت ـ أنت وأخوك أدهم، تنتميان إلى هذا السياق بالذات... والدك حوّل عبقريته التمردية إلى التحايل على الدولة والمجتمع. وهذا أدى إلى إثرائه. أما أنت ـ»

وهنا تدخلت نجوى، وقد بان عليها اهتمام شديد بما يقوله حسام الرعد. «العفو أستاذ. اسمح لي أن أقول، حسبما أرى الأمور من البعد الذي أنا عليه، أن علاء يتجاوز أباه، وذلك بالعودة إلى جرأة وصراحة أسلافه، واستقلاليتهم المدهشة التي تكاد تجعل منهم غرباء حتى في

موطنهم.»

فسألها منذهلاً: «وكيف عرفت ذلك؟»

قالت: «أوه... من كتاباته الصحفية. من رواياته. هل قرأت مخطوطته الأخيرة؟»

هزّ رأسه: «تقصدين «شجرة النار»؟ لسوء الحظ، اشتد المرض عليَّ فجأة فمنعني من اتمامها. ولكنني أعرف ماذا تقصدين. شخصية رياض البرهان، أليس كذلك؟ كدت أحلم به، أي والله! كنا أيام التلمذة، ونحن في أوج غلياننا السياسي، نقرأ كتباً وروايات باحثين فيها عن مثل عليا للمجتمع الذي نريد أن نوجده حالما ندخل غمار الحياة العملية. كنا نردد مقولة فحواها أن بعض الخيالات الروائية حقيقي وصادق، وبعض الوقائع الحياتية غير حقيقي، وكاذب. ورياض البرهان مثل على ذلك... ولكنه سويلمي، أكثر منه رعدياً. آ... أتذكرين قول الشاعر الارلندي ـ ما اسمه، لعن الله الذاكرة! آ، ييتس: «بالخيالات غذينا القلب حتى / غدا القلب وحشياً بهاـ / في العداوات باتت مادة / أكثر مما في الحب فينا... أو شيء من هذا القبيل... في العداوات باتت مادة تحركنا أكثر مما يحركنا الحب. هنا الخطر في خيالاتنا التي لا بد لكثرتها، لأن ليس لدينا غيرها، ان تحول القلب إلى شيء ليس في الحسبان... رياض البرهان ذكرني بذلك كله: إنه يمثل السويلمي في ابن اختي. أما الرعدي، فلست أدري إن كان علاء قد استفاد منه في كتاباته كما ينبغي حتى اليوم. الرعدي هو أدهم... المصارع الطويل النَفَس، محب الدنيا كلها، والمقاتل في سبيل الدنيا كلها...»

التفتت نجوى إليّ، وبصوت منخفض قالت، وكأنها تضع قولها بين قوسين فلا يضطرب سياق كلام محدثنا: «متى سألتقي بأدهم؟ أم أنه أسطورة؟»

غير أن حسام الرعد انتبه لسؤالها. ونظر إليّ نظرة تساؤل ـ أو هكذا حسبتها. ثم طلب إلى سعيد أن يناوله كأساً من الماء. وقلت، إذ نهض سعيد ليحضر له ما طلب: «ولكن، خالي، أظنك تعترف أن السوالمة،

منذ الجد الأول، فيهم صفة واحدة متميزة: كانوا يموتـون وعيونهم مفتوحة. أي يعرفون لماذا يموتون.»

جرع كأس الماء جرعة واحدة، وتلمّظت شفتاه بالرطوبة حتى التمعتا. وقال: «ربما، ربما. الحق يجب أن يقال. لا أظنهم شغلوا أنفسهم بالعظمة أو بما يقوله الناس. لعلهم كانوا فقط يبحثون عن راحة الضمير. راحة ضميرهم هم، بالطبع، كما يفهمونها على طريقتهم، والتي قد لا يقرهم الناس عليها...»

وهنا شعرت أنني وجدت الفرصة لطرح السؤال الذي بقي يشتعل في ذهني منذ صباح اليوم السابق: «ذكرت لي أكثر من مرة واحداً منهم كان صديقاً عزيزاً عليك ـ »

فقاطعني: «من؟ شهاب خالد؟»

ـ «نعم، شهاب خالد. ماذا كانت العلاقة بينكما؟»

تحفزت نجوى في جلستها بصورة ظاهرة لسماع ما سيقوله، وبانت كأنها أرادت أن تنطق بشيء ولكنها أحجمت.

ـ «كان رجلاً رائعاً. ولا أقول إنه لم يكن أيضاً رجلاً غريباً، مليئاً بنوع من السر، وبنوع من... ماذا أسميه... نوع من اللوثة. تلك اللوثة التي هي من صفات المتميزين دائماً. ربما كانت تلك أيضاً مزيّة سويلمية، من يدري؟ كان شهاب، رحمة الله عليه، واضحاً وغامضاً في نفس الوقت. كنت معجباً به. جداً. بل كنت مأخوذاً به. كان يكبرني ببضع سنوات ـ خمس أو ست سنوات، وادركه الأعداء وهو في عز شبابه. حالما عدت من دراستي الجامعية، التحقت بجماعته السياسية التي كان يسميها «المستقبل». وهو أول من دربني على العمل السياسي والصحفي، في جريدته. وجاءت أيام كنت ألازمه فيها ليل نهار. نأكل ونشرب وننام في مطبعة الجريدة... إلى أن اختفى ذات يوم. أقاموا الدنيا وأقعدوها عليه. أوقفتني الشرطة ثلاث مرات، لتحقق معي بشأنه... كان قد تزوج من ابنة محسن العامري. سراً بالطبع. نسيت اسمها ـ اعتقد أن اسمها كان

عائشة. . . نعم، عائشة. . . وكانت قد انضمّت إلى جماعتنا هي أيضاً. وعندما عرّفني بها، لم استطع أن أفهم ما الذي جاء بها إلى ذلك الجو المحموم الذي كنا نعيش فيه، والذي لم تتحمله زوجة شهاب الأولى، وتركته بسببه. . . لا أذكر الآن بالضبط ـ ربما تركته حمدية لأنها اكتشفت العلاقة التي قامت بينه وبين ابنة محسن العامري، والعامري كان أصلاً من ألد أعداء جماعة المستقبل. . . أيامٌ وانقضت يا علاء. كنت أقول: حالما انتصف القرن العشرين، غارت عمورية القديمة كلها في البحر ـ وبرزت مكانها مدينة أخرى تحمل اسمها. . . كبيرة، ثقيلة، وقاسية. . . واعدام شهاب، كان بداية القسوة التي أخذت تتمركز في قلوب الناس. في العداوات باتت مادة / أكثر مما في الحب فينا. . .»

فجأة استقرت عيناه على نجوى، ثم اردف: «العفو يا سيدتي. أخذني الحديث. . ولعلك سئمت هذا السيل من الذكريات التي لا شأن لك بها.»

من أين له أن يعلم أن نجوى كانت تتقد لما تسمع، وتتقد شوقاً للمزيد. ولم تُخْفِ ذلك عليه، وقالت بحرارة ظاهرة: «أرجوك، استاذ، أن تستمر. . لم اسمع في حياتي كلاماً ألذّ من كلامك!»

فقهقه عالياً قهقهة أدت به إلى سعال شديد، حتى اضطربنا جميعاً، وأسعفه سعيد بشيء من الماء. ولما عاد إليه هدوؤه، استوى في جلسته مرة أخرى، وقال: «أين كنا؟» وأجابته نجوى على الفور: «مع شهاب خالد ـ في أيامه الأخيرة.»

ـ «آ، نعم. . . قضى أيامه الأخيرة مختبئاً في قرية عين فجار. هذا ما عرفناه فيما بعد.»

سألته نجوى: «وزوجته، ماذا حدث لها؟»

ـ «الغريب أنها ماتت في تلك الفترة بالذات. هذا كل ما عرفناه. ماتت بعد إلقاء القبض عليه. وأظن أنها دفنت في القرية. وهذا يذكّرني، ولست أدري لماذا، بما قاله لي شهاب ذات مرة. قاله وهو يتكتّم ولا يتكتم

ـ كعادته، فهو دائماً واضح غامض. وهذا أمر لا أحسب أنك تعرفه يا علاء.

توقف عن الكلام، وصدرت عن حلقه ضحكة غريبة، كأنه يسخر بها من نفسه. «قال شهاب أن أمه كانت غجرية. أي نعم. غجرية، وقع أبوه في غرامها...»

فقاطعته، مستوضحاً: «تقصد غجرية بطبعها، وسلوكها ـ أم...»

ـ «غجرية من جماعة من النَّوَر الذين كانوا أيامئذ يجوبون القرى ويعيشون على الرقص والغناء، ولا يَعرف أحد لهم مستقراً معيناً. أذكر شهاب وهو يقول: كان جدّي أدهم سلّوم معروفاً في الجبل كله بجنونياته، وجاء ابنه خالد أقل منه جنوناً لسوء الحظ، ولكنه لم يتردد في الزواج من غجرية. وعندما تزوجها، أقام عرساً كبيراً دعا إليه أهل المطلة والقرى الأخرى كلها، نكاية بالجميع!»

وعادت إلى حسام الرعد ضحكته، وهو يهز رأسه، غير عالم بالقنبلة التي ألقاها في حضن زائرته المشغوفة بكلامه. غير أنني لحظت أن وجه نجوى كان مضيئاً بالبهجة، وباتت عيناها أشد بريقاً من ذي قبل، والابتسام يملأ تقاطيعها. واستأنف خالي كلامه: «لست أدري حتى اليوم هل كانت هذه حقيقة ذكرها شهاب عن أبيه، أم قصة أخرى يرويها ـ فقد كان راوية من الطراز الأول. ربما أراد أن يقول إن ولادته لم تكن كولادة غيره من الناس! وبقية القصة لا تقل غرابة عن بدايتها.»

صمت لحظة، وأخذ نفساً عميقاً، وأنا ما زلت أخشى عليه الإعياء إذا استمر، ولكنه عدّل قليلاً من وضعه، وقال: «زعم شهاب أن أمه الغجرية لم تلد لأبيه طفلاً غيره. وراح يتحدث كيف أنها أصيبت بهوس غريب، وجعلت تزور الكنائس المسيحية، فتذهب من قرية إلى قرية، حيثما توجد كنيسة، وتخاطب العذراء... بماذا كانت الراقصة الغجرية تخاطب العذراء؟ الله أعلم. المهم أنها، وشهاب ما زال ابن ست سنوات أو سبع، اختفت. تلاشت، قال، تلاشت عبر الروابي والتلال، تلاشت في الأفق البعيد، كأية غجرية... أين، مع من؟... رحمك الله يا

شهاب. . .»

فسألته نجوى: «وشهاب نفسه، ألم يخلّف أولاداً من زوجته الأولى، أو الثانية؟»

لم يجب للحظتين، محاولاً أن يتذكر. «والله، حسبما أعلم، لم يخلف طفلاً من زوجته الأولى، بل إني متأكد أن حمدية لم تنجب منه. يبدو أنها كانت عاقراً. لأنها لم تنجب أطفالاً من زوجها الثاني أيضاً ـ إلى أن ماتت، قبل بضعة أعوام.»

ـ «ومن زوجته الثانية؟» ألقت نجوى السؤال، وفي صوتها بحة من القلق هذه المرة.

ـ «من زوجته الثانية؟ لا، لا أظن. زواجهما لم يطل كثيراً ـ وبعد اختفائه، هو وعائشة لم يرهما أحد. . . لا. . . يبدو أن هذا الرجل الذكي الشجاع، المناضل، المتفاني، لم يخلّف أحداً.»

فانتفضت نجوى واقفة، واقتربت من حافة سرير حسام الرعد، وشمخت إزاءه بقوامها الفارع، وشعرها الأسود مسترسل على كتفيها: وقالت: «استاذ حسام! أنا ابنة شهاب خالد!»

رفع عينيه إليها، وقد أخذته المباغتة، وقال: «نعم؟ أنت من؟»

ـ «ابنة شهاب خالد.»

فصاح: «لا! صحيح؟ صحيح؟ يجب أن أحضنك! يجب أن أقبلك!»

ورفع عنه دثاره، ونزل من سريره وهو بمنامته، ونهض على قدميه الحافيتين، وعانقها وهو يشهق، وقبل خدّها الأيمن وخدّها الأيسر ـ ثم كاد يتهاوى على السرير، لولا أن سعيد تداركه قبل أن يقع، وساعده في الاستلقاء على سريره.

خشيت عليه من تلك العاطفة الفجائية، حتى كدت أندم لما جرى. غير أنه بعد قليل استعاد هدوءه، وقد رجعت نجوى إلى كرسيها، وعيناها

مليئتان بالدمع. ولاحظت أن سعيد يرقب المشهد بادي الدهشة والحيرة، فأومأت له، واصبعي على شفتي، بأن يبقى صامتاً. وجلس خالي مرة أخرى في السرير، وتمعّن في الشابة الجالسة أمامه. وقال: «لم انتبه إلى اسمك يا عزيزتي عندما دخلت.»

قالت: «اسمي نجوى.»

- «رأيت حمدية عدة مرات قبل موتها، ولم تذكر لي أن لها -»
- «لا، عمو حسام... أنا ابنة عائشة العامري.»
- «يه يه يه... رحمك الله يا شهاب! اغفري لهذا العجوز هذيانه يا حبيبتي. بقي أبوك سراً غامضاً حتى فيما خلّف. أو انني أنا الجاهل الذي بقي على جهله. بعد رحيل ابيك الحبيب، آثرت عشرة الخيل على عشرة البشر. أي والله... أسألي علاء، يحدّثك. هل عوقبت على كبريائي أو عقوقي؟ النتيجة الحاصلة هي ما ترين. ولست نادماً على شيء. ولو أتيح لي أن أعيش مرة أخرى، لفعلت نفس ما فعلت. وأحمد الله أن لم يبق لدي ما يرثه أحد عني. سوى، اللهم، بندقية أبي، جاسم الرعد، وهي التي قاتل بها العثمانيين مع عشيرته، أيام كانت الحرب ما تزال فيها بقايا من النبل، بقايا من الفروسية.» التفت إلى سعيد القابع أرضاً قرب فراشه، وقال: «أخرجها يا سعيد من تحت السرير. اخرجها. هل نخفيها عن علاء وإبنة شهاب خالد؟»

تلكأ سعيد قليلاً. ثم أندس تحت السرير، وأخرج بندقية قديمة قام ونفخ الغبار عنها. «ناولني إياها»، قال حسام، وأخذها بين يديه، ممسكاً بها بخبرة الصياد. كانت «مرتينة» ثقيلة قد يربو عمرها على الثمانين سنة. ولكنه، بعبث طفولي، سحب الترباس، ورجعه بطرقعة، وركز الكعب على كتفه، وصوب بها نحو الجدار، وطقطق بالزناد. ثم وضعها عنه على الفراش عند قدميه. «هذه البندقية، يا علاء، أريدك أن تعطيها لأدهم، هديةً من خاله الذي لم يقدّر له الله أن يحمل الكلاشنكوف، وسيفهم أدهم، سيفهم...»

حلّ الصمت فجأة علينا جميعاً. وإذا بدمدمة آلية تبدأ، ثم

تتصاعد، في الناحية الأخرى من جدار الغرفة، لم ينتبه إليها خالي. فسألت سعيد: «ما هذا الصوت المزعج؟»

قال: «المطبعة... يبدأون الآن بطبع الجريدة.»

فقلت ممازحاً: «كيف تستطيع يا خالي العزف على العود مع هذه الطربقة المستمرة؟»

وعادت إليه ضحكته مع هزة رأسه الساخرة: «وهل بقي عندي عود أعزف عليه؟ شربنا به الكفاية. والعوض بالمسجّل. أليس كذلك يا سعيد؟ هاها! تخطر ببالي قصيدة لا أذكر من نظمها من الشعراء القدامى. اذكر منها بيتين كنا نتندر بهما ونحن طلاب:

أيا ربِّ زوّجني عجوزاً كبيرةً   فلا جَدَّ لي يا ربِّ في الفتياتِ
تحدّثني عما مضى من شبابها   وتُطعمني من عِكْمِها تَمَراتِ

تمرات! تصوّر البؤس! أما نحن فكنا نقول:

تحدثني عما مضى من شبأبها   وتنفحُني الدنانيرَ بالحفنات!

وها أنذا حدّثتكم عما مضى من شبابي، ولا تمرات أطعمتكم، ولا بحفنات الدنانير نفحتكم... ها ها ها...»

وتوالت قهقهته الخافتة في حلقه، كأنه لا يستطيع أن يوقفها.

ومع أن نجوى ضحكت مثلي أول الأمر، إلا أنني رأيت عينيها تتلألآن بالدمع مرة أخرى. تمتمتْ بشيء لم أسمعه بوضوح، ثم مسحت زاويتي عينيها بأصابعها، ورفعت صوتها: «عمو حسام، عندك الكثير لم تقله بعد... وإذا قلت لنا بعضه، لن نطالبك بالتمرات، ولا بالدنانير.»

ـ «مادا أقول يا سيدتي بعد كل الذي قلناه؟.. هل أنت جميلة بالقدر الذي اتبينه من هذه المسافة؟ أرجو المعذرة لأن نظارتي تزعجني عندما أكون في الفراش فلا ألبسها. لا، أكيد، أنت جميلة، جميلة جداً. كنت أنا دائماً أهوى الشعر الطويل السابل. آه، خصوصاً عندما يطير في الريح العاصفة كأجنحة الملائكة، كالأفراس السابحة في الفضاء. تعرفين أن

عمورية إلى ما قبل عشرين أو ثلاثين سنة كانت مثلك تماماً: شابة تطير خصلات شعرها في مهب العواصف، فأريد أن أتشبث بها وأحلّق معها في الفضاء. كانت عمورية تحزن وتفرح، وتنتظر، ويشارك الجميع في حزنها وفرحها وانتظارها. جاءتها أفواج الناس من القرى والأرياف، جيلاً بعد جيل. وجئنا نحن، وجاءت أسرة علاء، وجاء غيرنا، يطاردون ذلك الوهم الجميل الذي ملأ الكون أمام أعينهم. ولكن شيئاً ما حدث... شيء كالدخان أخذ يتصاعد، ويشتت الحلم. شيء لا أستطيع أن أعرف ما هو أخذ يشتد قتاماً، ويغرق بلونه الأسود اللزج كل شيء. بدأ النزف. وتلاه التخلخل. وتقطعّت العلاقات. وارتعشت الدنيا: برداً، خوفاً، قهراً ـ لست أدري. وبدت قوة خفية لم استطع أن أعرف ما هي وراحت ترسم أقدار البشر، أقدار المدن...»

وما كدت اعترض: «ولكن، خالي ـ» حتى رفع يديه الاثنتين، قائلاً: «اعرف، أعرف ما الذي تريد أن تقوله. لا بد لنا من التغير، من التقدم. أنا معك يا خالي، حتى لو لم أتفق معك على كل رأي لك في الشعر، أو الفن. أنا معك. ما كرهت شيئاً بقدر ما كرهت اللاصقين أنوفهم بمؤخرة الماضي، متصورين أن النتن والعفن كانا هما الجنة. أنا لست أتحدث عن ذلك الدور من حياة عمورية. أنا اتحدث عن الحلم الذي عرفناه فيها، عن النشوات التي كانت تجعلنا نبحّ أصواتنا في الخُطَب، وتلاوة القصائد، وانزال اللعنات على كل من يعيق حريتنا، والضحك يملأ الحناجر. أنا أتحدث عن حلم جميل كنا نتصور أنه سيولّد حقائق أجمل، ونصرخ ونهتف ونعيط من أجل ألا يضيع... ولكنه ضاع. فهل تستعيدونه أنتم؟ أنت، ونجوى، وأدهم، وصبا ـ وجريدة «الميزان»؟ ورواية «شجرة النار»؟ هل تستعيدونه، وتملأون عينيّ به ولو مرة واحدة أخرى قبل أن يملأهما الدود؟.. سعيد!»

أجفل سعيد، وأجاب: «نعم عمي؟»

ـ «أين تلك الصورة؟» وأرسل حسام بصره الحاسر على الجدران، بحثاً عنها.

فنهض سعيد وهو يقول: «هل نسيت يوم وقعت الصورة عن الحائط بفعل ارتجاج آلات المطبعة، وانكسر زجاج إطارها؟ ولكنني احتفظت بها، هنا.»

وتوجه نحو منضدة ركنت إلى الحائط على مقربة من الفراش، وفتح أحد مجرّاتها، وأخرج صورة فوتوغرافية، كبيرة، قدّمها لخالي. فجعل يتأملها بعينين لا تحسنان البصر، ولكن بتمعن وتلذذ من يرى صورة تبهره لأول مرة. قمنا أنا ونجوى معاً لنراها، وقد أثارت فضولنا. فناولها نجوى قائلاً: «هل رأيت يوماً في حياتك شيئاً بديعاً كهذا؟».

كانت صورة بادية القدم، تثنّت زواياها وحال سوادها وبياضها، لفرس محجّلة، رفيعة الكواحل، عالية الرأس، ذات غرّة بيضاء، يرتفع ذيلها كالقوس عن ردفها ـ وخمنت في الحال أنها محبوبته لمعة.

ركّز بصره فينا ونحن ننظر إلى الصورة، ثم قال لنجوى: «أتعرفين الانكليزية؟ اقرأي الكلمات المكتوبة في أسفل الصورة.»

فقرأت نجوى بصوت جهوري:

«A thing of beauty is a joy for ever».

وللحال تراجع حسام الرعد واستلقى على ظهره، ولما مد ساقيه تحت الدثار على طولها، انزاحت المرتينة وسقطت بخبطة قوية على الأرض. واستقر مؤخر رأسه على الوسادة، وارتفع من بين شفتيه صوت قوي غريب وكأنه ليس صوته يكمل أبيات جون كيتْس:

«Its loveliness increases, it will never

Pass into nothingness...»

وبقيت عيناه تحدّقان في السقف الحديدي وعوارضه الصدئة، ثم أردف: «ولكنه تلاشى... تلاشى... تلاشى...» وأحسست أن الحزن والمرارة يخنقان صوته ويقطعانه، وعيناه الواسعتان مفتوحتان، شاخصتان إلى الأعلى، وسيلان من الدمع يجريان منهما على خديه. سكتنا جميعاً، فيما عدا آلات المطبعة التي راحت، عبر الجدار، تملأ الغرفة بايقاعها

الرتيب العنيد. وبعد قليل أغمض عينيه، وبان عليه أنه غرق في النوم.

عند خروجنا إلى الباحة المضاءة بالنيون الكئيب، رافقنا سعيد، فأعطيته ما معي من نقود لينفقها على خالي، وأوصيته بألا يغادره أبداً، ويستمر في العناية به وقضاء حاجاته مهما اقتضى ذلك من تعب. وسألته أخيراً السؤال الذي غاب عني أن اسأله طيلة السنوات القليلة الماضية: «ما الذي بالضبط حدث للمعة؟»

فهز سعيد رأسه، ودفع بنا بعيداً عن الباب الذي أغلقه وراءه، لكي لا يسمعه حسام الرعد. وقال بصوت منخفض: «بعتها بطلب منه عندما أراد أن يرحل إلى الخارج، ولكن بعتها بالمزاد العلني. وهو لم يعرف كيف بيعت عندما سلمته ثمنها، ولم يعلم أن الذي اشتراها كان مركز شرطة الخيالة في غسرين... بعد سنة، أو أكثر، اتفق أن مررت بمركز الشرطة هناك، وسألت عنها. فجاءني شرطي قال إنها كانت من حصته لبضعة أشهر، ثم قال: شاخت المسكينة بسرعة، فبعناها لأبو رمّانة. ولما سألته من هو أبو رمانة؟ قال: إنه صاحب العربة الوحيدة في غسرين. كان الله في عونها وهي تجرّ تلك العربة المقرقعة! وعدت لعمي حسام وقلت له: لمعة ما زالت عند الشيخ فهد. وما زالت على حالها، معززة مكرمة! ففرح جداً، ولم يسألني من هو الشيخ فهد هذا. ولو سألني، لكذبت عندئذ عليه أكبر كذبة في حياتي... أوه، نسينا المرتينة! لحظة... سأحضرها، وأضعها في صندوق سيارتك.»

جاء بها ملفوفة بكومة من الجرائد القديمة، وأنزلها بحذر في صندوق السيارة الخلفي. وودعناه بصمت، وقلوبنا مثقلة بالأسى.

وحالما حرّكتُ السيارة، خارجاً من الزقاق الجانبي إلى الشارع العريض، انعطفت عليّ نجوى، ونشرت كفها على خدّي الأيمن، وقالت:

ـ «إذا كانت جدتي غجرية، فماذا أكون أنا؟»

قلت وأنا أروّح عن ألمي الصامت بملمس أصابعها الباردة على وجهي: «ربّة الكون!»

فقهقهت عالياً: «أكون غجرية أخرى! أنا غجرية! وخالك حسام أروع غجري في عمورية! ولو كان شاباً لحملته معي إلى خيمة الغجر وجعلته يغني ويرقص حتى تطلع الشمس... الآن عرفت لماذا أريد أن أكتسح الدنيا.. علاء! حبيبي، حبيبي! أنا أكبر غجرية في الدنيا، وسترى أن حبي لم يعرف مثله إلا اجنّ المجانين من الغجر!» وقربتْ وجهي بقوة إلى وجهها، وقبلتني بعنف على فمي - ولم يهمها أن الشارع مضاء، وأننا في وسط المدينة، وأن زجاج السيارة لا يحجب قبلات العاشقين!

غير أنني قلت: «لست أدري أيهما يحزنني أكثر، حسام الرعد أم لمعة حسام. أهكذا تنتهي الخيول الأصيلة؟»

فقالت وشفتاها على خدي: «والأناس الأصيلون...»

أخذت نجوى إلى دارها، وأنا أقنعها بضرورة إرجاء ذهابنا معاً ثانية إلى عين فجار إلى ما بعد اليوم التالي. «ضحكت هندُ وقالت بعد غد.» رددت نجوى وهي تنزل من السيارة عند مدخل الكراج المظلم... ثم قفلتُ عائداً إلى مطبعة «الميزان».

لم استطع أن أكف عن التفكير بخالي، وبضرورة السهر عليه، رغم أن رغبتي الوحيدة في الحياة في تلك الساعات كانت أن اختلي بنجوى، ما دامت الخلوة ممكنة. الحب أقوى من الموت... ولكن موت الآخرين، الذين نحبهم... أوه... وتمنيت لو أن أدهم يعود من بيروت، ويرى خاله للمرة الأخيرة. وكان خوفي على أخي على أشدّه. طال صمته أشهراً، والقتال الجنوني مستمر في لبنان. وكان يرعبني أن أفكر بأن برقية ستصلني فجأة، حالما أدخل البيت، تنعيه بكلمتين قصيرتين.

أما حسام الرعد، فقد خدعتني صحوته الرائعة، وظننت أنه استطاع مرة أخرى أن يضحك على ذقن عزرائيل، وأفلح في تأجيل التنفيذ لبضعة أيام على الأقل. ولكن، عندما فتح لي سعيد باب الغرفة، وجدت أنني أخطأت الظن. كان حسام نائماً نوماً عميقاً ووجهه أبيض، بياض شعره. استيقظ بعد قليل، وطلب ماء. وما كاد يشرب الماء، دالقاً معظمه

على جوانب فمه، وهو لا يعرف من نحن اللذان بجانبه، حتى اضطرب تنفسه. . . وبغتة، شهق شهقة عالية، رهيبة، ورفع ذراعيه وهما تتلويان في الفضاء، ثم سقطتا كحجرين إلى جانبيه، هامدتين.

في الصباح قمنا أنا وسعيد بما لا بد منه من واجبات. وتوافد إلينا جمع من الرجال لم أعرف منهم إلا صادق الرمحي، وعبد الفتاح ابو العزّ، واثنين آخرين. لقد كانوا جميعاً من عمال مطبعة الجريدة التي مات حسام الرعد وايقاعها الآلي يدق وتيراً على جداره، وهو لا يسمعه. وأدهشني أن معظمهم كانوا يبكون ـ بالفعل يبكون ـ وبعضهم يكفكف الدمع. ولكن سعيد كان أكثرهم بكاء. أما أنا، فقد جفت عيناي جفافاً غريباً. تمنيت لو اذرف الدمع كالآخرين. ولكنه تأبّى عليّ ـ كما يتأبى دائماً كلما زعزعتني الفاجعة. وذلك منذ أن مات أبي: الرجل الوحيد، والأخير، الذي انتحبت عليه انتحاب النساء.

[٢٩]

الأيام العشرة التي تلت موت حسام الرعد، تبدو الآن وكأنها فجوة في الزمن، ولا يمكن أن تنتمي إلى سياق الحياة اليومية التي كنت أعيشها ويعيشها ثلاثة ملايين آخرون مثلي في عمورية. أو لعلها جزء من زمن يرفض أن يمضي، جزء من زمن يعايش ذهناً ما عاد يفرّق بين الوهم والواقع، بين الأمس واليوم. كانت أيام حزن ربما فاض بحجمه عن كل تبرير، ولكنها كانت أيضاً أيام نشوة خرجت بي عن كل عقل، عن كلِّ وازع وقيد. ونجوى ـ من غيرها؟ ـ كانت هي السبب. حبها، اذ دفق عليّ من عينيها وشفتيها ويديها وكل جزء من جسدها دفق الطوفان، صغّر كل شيء حتى التلاشي، وضخّم الحزن والعشق معاً حتى ما عدنا نرى أي شيء آخر، كأنما الحياة يجب ألا تعرف إلا هذين القطبين المتناقضين، المتلازمين.

كيف استطاعت أن تكون ماكرة بهذا المقدار وتأتيني متخفية، متحدية، إلى عين فجار كل يوم تقريباً، لس أدري. ومساء اليوم بالذات الذي دفّنا فيه حسام الرعد في مقبرة كئيبة مكتظة بأضدادها تعلن آلافُ قبورها المتراصة، وشواهدها البدائية الرديئة الكتابة، إن الموت ما زال سيد الدنيا الأوحد، ومستبدّها الأرهب، لم أدرِ كيف استطاعت نجوى أن تقنعني تلفونياً، بأن أترك المدينة، بموتاها وأحيائها معاً، لنصعد مرة أخرى، والشمس قد غابت، في الطريق الجبلي إلى عين فجار. وداري هناك، كبقية دور القرية، لا كهرباء فيها. وفي ضوء مصباح النفط طغت لذة العشق على قساوة الموت. ولكن كلما سمعنا صوتاً خارج الدار، غير خرير المياه، ارتعبنا: هل رآنا أحد؟ هل يترصدنا عدو؟ هل سيداهمنا زوج غاضب، أو فضولي من القرية وقعت عينه على بصيص من نور بين الشقوق من درفات النوافذ؟ وكيف كان لنجوى، وهي عارية بين ذراعي، أن تشهق فجأة وتتساقط دموعها على صدري، حزناً على حسام الرعد؟

قلت لها إنني طلبت من سعيد أن ينقل أوراق خالي وكتبه إلى بيتي، فقالت: «لنقرأها معاً!» وفي فجر اليوم التالي خرجنا كاللصوص، مثقلَيْن بلذة الحب، وتمشينا في الحواكير القريبة، بين أشجار اللوز والمشمش والتفاح المحمّلة بنوارها، وجلسنا على صخرة كبيرة ناتئة بجانب مياه النبع وهي تتهاوى على رسلها إلى بطن الوادي المتألق بأشجاره، ورقبنا الشمس وهي تنبثق من بين غيوم شفيفة بلون أصداف البحر تناثرت في الأفق، فوق القمم البعيدة. ثم عدنا إلى السيارة، وانحدرنا إلى مطعم أبي جاد، الذي استقبلنا بحفاوة خاصة، وفطور خاص، وقال ونحن على وشك مغادرته: «حالما رأيتكما تدخلان قلت لأم جاد: جاء العروسان! احضري لهما أحسن فطور في الجبل!» وخرجنا والبهجة ما زالت تملأ أغاني الصباح المنطلقة من الراديو الصغير المعلق على الجدار، كأن العالم كله لا يعرف إلا البهجة، ولا يعرف ـ مثلنا ـ ذلك الحزن الملازم الذي يؤطّر بزرقته الغامقة العريضة كل فرحة صغيرة، نادرة.

فبعد رحيل حسام الرعد، كنت أحاول استعادة ملامحه، وكلماته، اللحظات الكبيرة الرائعة التي كوّنت حياته. أنجح في لحظة لكن أفشل في أغلب اللحظات. حتى اسمه بعد الرحيل لم اكن استطيع استعادته دون أن أشعر بالغصّة تملأ صدري، بل وتراودني رغبة البكاء أيضاً! لماذا تركته يذهب بهذه السرعة وبهذا الشكل؟

قلّبت أوراقه. كانت أوراق رجل وهب نفسه للآخرين. لم أجد في ذلك الدفتر، الذي تراكمت صفحاته الشتيته مع الزمن، كلمة واحدة تتعلق برغبة منه في أن يمتلك شيئاً، في أن يكون له شيء خاص به. كان يفكر بعمورية، بالناس، بالأشياء التي تجعل الحياة، حياة الآخرين، أكثر صدقاً وبساطة وجمالاً. حتى الذين كنت أتصور أنه يكرههم كان يتكلم عنهم بطريقة مليئة بالفهم والرأفة: «نصرت قد تكون قاسية، غير مفهومة، لكنها في أعماقها امرأة طيبة. . اتذكرها في مناسبات ماضية، في الفترة الأولى لانتقال نجيب سلوم إلى بيته الجديد، وكنت عائداً لتوي من بيروت مفلساً غير راغب في أي عمل، وكانت الخلافات حول ميراث أبي

لا تزال قائمة. في ذلك الوقت، ودون أن يحس أحد، كانت تضع النقود في جيبي، كانت تفعل ذلك بطريقة لا يجيدها إلا اللصوص والعشاق! وفي الفترة التي بدأت فيها العمل في الميزان، إذا ما أصرّ سعيد على أخذ ملابسي لكي يغسلها، كانت الملابس، أغلب الأحيان، تعود وفيها أوراق نقدية. كانت تعرف بغريزتها، مدى حاجتي. ولولا أنها هكذا، لولا أنها تعبر عن عاطفة صادقة وتريدني أن أتيح لها تمتعها بالتعبير عن هذه العاطفة، لمزقت النقود، لأعدتها على رؤوس الأشهاد، ولأشعلت الدنيا ناراً. ولكني أفهمها، أفهم الدوافع والأسباب وراء ذلك...»

قضيت أياماً أقلّب أوراقه وبعض الكتب التي بقيت لديه. أوراقه خليط من الأفكار والشعر والصور القديمة وقصاصات الجرائد - وبدا لي من خلالها انساناً آخر، وكأنني لم أعرفه. لماذا يبدو الراحلون كباراً هكذا؟ وهل كان حقاً شخصاً مختلفاً أثناء حياته، ولم أر هذه المزايا كلها فيه؟

لو كنت مبدعاً بمقدار كاف لجعلت منه شخصية روائية كبيرة. لكن ما دام لم يرد هو أن يكتب أحد عنه في حياته - كما قال لي أكثر من مرة - فلن أفعل ذلك بعد رحيله. يجب أن أتركه مستقراً هادئاً في قبره، لأن تلك الابتسامة التي ظهرت على شفتيه وأنا أتركه، تبدو لي الآن مليئة بالراحة والسخرية معاً. وما كنت لأنسى قوله لي ذات مرة:

«في عالم من الضجيج، الكل يتكلم، ولا يسمع أحدٌ أحداً. أرجوك ألا تدخل صوتي عنصراً آخر في خليط العقم الكبير. بعد رحيلي، دعوني مع صمتي.»

ولكن أدهم، كيف أخبره؟ ماذا أقول له إذا طلب، كعادته، وقبل أن ينفض عن ثيابه غبار السفر، أن نذهب سوية عند الخال؟ «علاء، يجب أن نزورالشيخ.»،«هكذا كان يسميه في الآونة الأخيرة، وحين أنظر اليه بتساؤل فيما إذا كان يجب أن نزوره الآن أو في وقت آخر، كان يجيب بحدة: «الآن وقبل أي شخص آخر، وقبل كل شيء!» ماذا أقول له وكيف أتصرف؟ قلت لنفسي لعل الرد المناسب أن أعطيه البندقية، أن أقول له بشكل مباشر، بشكل قاس: «ترك لك هذه ورحل». فاذا نظر إليّ

مستغرباً أو متسائلاً رددت عليه بطريقة أقسى: «نعم، رحل الشيخ، لم يعد موجوداً. تركك ومات.. مات.» ربما تصدمه هذه الطريقة، هذه الكلمات، ولكنها قد تكون أفضل الكلمات لأنها أبسطها.

الله، كم شعرت، كلما تركت نجوى في تلك الأيام الأولى، بالتعاسة، والخواء، برغبة التوقف واستعادة الماضي، وأنا مليء بالحاضر. لقد رأيت الأيام التي سبقتها تمر، تهرب، تركض بسرعة جنونية، وتركتها تفعل ذلك دون أن أحاول منعها. لماذا كنت أترك الأيام، يوماً بعد آخر، تمر دون أن أرى الخال، دون أن اسمعه، أكثر مما رأيته وسمعت؟

أدهم أذكى مني، قلت لنفسي. إنه يعرف البشر أكثر مما أعرف. يعرف أين يذهب ومتى. أما أنا، فكنت دائماً في المكان غير المناسب ومع الشخص غير المناسب. كان أدهم كلما عاد إلى عمورية يقضي الساعات مع الخال، يتبادلان أحاديث لا نهاية لها. وأصداؤها، نتائجها البعيدة، لا تصلني إلا بعد أن تمرّ في الدهاليز الطويلة المعتمة.

كل ذلك أفلت مني، ابتعد وتلاشى، فأحس بالعصبية، وأحس أكثر من ذلك بالخطأ، وأتساءل: هل يعوّض حب هذه الساحرة عن كل شيء مضى؟

في أحيان كثيرة، يصبح الروائي فناناً رديئاً، والسبب في الرداءة هو أنه يحاول أن يجعل الأشياء والبشر والحياة صورة لما يدور في ذهنه بدلاً من أن يحاول قلب المعادلة، وتكون الأشياء والحياة والبشر هي الأساس للصورة التي يجب أن تكون في الذهن. ولكن من ذا الذي يستطيع أن يحكم بثقة ويقرر أي الفئتين هي الحقيقية، وأيها هي الوهمية؟

لم يبق شيء من حسام الرعد سوى تلك الأوراق والصور والبندقية، ويظهر أن حسام الرعد أراد لأدهم، دون غيره، أن يتسلّم هذه التركة. قد تبدو تركته فقيرة بنظر الكثيرين. لكنها بالنسبة لأدهم، وبالنسبة لي أنا أيضاً، كانت كبيرة، ثمينة. ولا أنكر أنني، فيما بعد، أدخلت فقرات من أوراقه في سياق روايتي الجديدة التي لم أنهها بعد.

وفي تلك الأيام بالضبط، حين اطلعت نجوى معي على مخلّفات حسام الرعد، وقرأنا ما استطعنا أن نقرأه من أوراقه معاً، جابهتني بأمر لم يكن قد خطر ببالي، مع أنه كان طبيعياً جداً، وكان لزاماً عليّ أن أفكر به قبلها. لقد طلبت مني أوراق أبيها، خالد شهاب، قائلة: «أليس هذا من حقي؟» وبعد أن قضينا ساعات في تقليبها وتوضيبها في «العليّة» من داري في عين فجار، نظرت نجوى إلى المجاميع التي تكدست على أرض الغرفة، وإذا بها تتربع قربها، وقد اظلمت تقاطيعها البديعة بما يشبه الحزن واليأس معاً، وقالت: «من يستطيع أن يقرأ هذه الصفحات كلها؟ وأين أحفظها في بيتنا دون أن ألفت إليها النظر؟ حبيبي علاء،» ورفعت إليّ عينين واسعتين مستنجدتين، «احفظها عندك هنا، إلى أن نقدمها يوماً إلى مكتبة الوثائق الوطنية. اتعتقد أنهم سيقبلونها؟ أم أنهم سيأخذونها، وفي غفلة منا يحرقونها؟»

[٣٠]

آه ما أقساه من يوم، يوم عاد أدهم من لبنان، في أواخر تلك السنة. كان كالعائد من الجحيم: عيناه لا تستقران على شيء، ووجهه الضامر الجهم، رغم لحيته، جامد، قاس، كقناع لا يستطيع أن يزحزحه. وصل الدار في المساء، دون سابق انذار، وكدت لا أعرفه، لأنني لم أره ملتحياً من قبل، ولأنه فقد الكثير من وزنه. أما وأنا أراه في تلك اللحظة فقد فوجئت أولاً، ثم بدا لي شخصاً مختلفاً، خاصة وأن أخباراً عديدة، من أصدقاء ومن مجهولين، قد ذكرت أن الكثيرين في الفترة الأخيرة قد فقدوا، أو لم يسمع عنهم أحد، واشار البعض بشكل ما إلى أن أدهم واحد من الذين لم يُسمع عنهم شيء... ولم يضيفوا كلمة واحدة، تاركين للسامع أن يقدر... كان أدهم بادي التعب، قليل الكلام فلم أرهقه بالاسئلة، ولم يسألني هو عن شيء ـ كأنه ما عاد يهمه أمر من أمور حياتنا في عمورية. العبارة الوحيدة التي قالها بيأس وفي محاولة لأن يقطع الطريق على أي حديث: «أريد أن أنام»، قال ذلك، وهو ينزع معطفه في غرفته، ثم أضاف بسخرية مرة: «أريد أن أنام قرناً كاملاً.»

في الصباح التالي لم أزعجه، وذهبت كعادتي إلى الأكاديمية، لكن ظللت مشغولاً وقلقاً وتداعت في ذهني ذكريات لا أعرف كيف انفجرت. وعندما عدت بعد الواحدة إلى البيت، كان ما يزال نائماً، غير أنه أفاق عندما أطللت عليه من باب غرفته، فسألته:

ـ أشبعت نوماً؟

فقال وهو يمشط شعره الطويل الأشعث بأصابعه، وبدا ذاهلاً:

ـ شبعت نوماً رديئاً... ازعجني السكون المطلق في الدار... لم أعرف مثل هذا السكون منذ زمان!

نهض، واستحم، واخرج لنفسه ملابس من دولابه غير التي كان

يرتديها في اليوم السابق. ورأيته يصعد إلى الطابق الأعلى ليفاجيء العمة نصرت. سمعتها من مكتبتي وهي تصيح فرحاً برؤيته، وتشرع في مونولوغ طويل معه، بصوت عال حاد، بينما راح سعيد يعد مائدة الغداء، وهو لا يقل فرحاً عني بعودة أدهم. وحالما نزل إلينا، عانقه سعيد مرة أخرى بحرارة، والدموع تملأ عينيه: وقال له: «كيف لا تبلغنا بمجيئك يا ابن الحلال؟» وأضاف كأنه يخاطب نفسه: «لو عرفت أنك قادم لذبحت خروفاً.»

فاجابه أدهم بكل جدية: «إياك يا سعيد! لقد شبعنا من الذبح!» والتفت إليّ: «بعد الغداء، أترافقني إلى الشيخ؟»

ووجدت أن الكلمات التي درّبت نفسي على مجابهته بها لعدة أشهر، لا تنطلق من فمي. من الكرسي الذي جلست عليه رفعت إليه عينين صامتتين. وفي الحال انفجر صارخاً: «لا!...» وهجم علي بعينين مرعوبتين وكأنه غير مستعد لأن يصدق. وحين ظللت صامتاً، وهززت رأسي دلالة أن ذلك الذي كان يخشاه قد وقع، ارتمى بطول قامته على الكنبة، دافناً وجهه فيها.

بعد صمت طويل، قام واتجه نحو النافذة، وفتح ستائرها بعصبية. وقال: «الموت اذن في كل مكان، وليس فقط في الشياح، وصبرا، وتل الزعتر، والفاكهاني... انه في كل مكان، وسيصل إلى كل مكان.» واستدار إليّ، وقد بدأ شيء أشبه باليأس والقرف يدب في قسمات وجهه. «علاء، لن استطيع أن أصف لك ما رأيت.» وسكت مرة أخرى، وشفتاه مطبقتان بشدة تحت شاربه الكث. واتجه نحو النافذة من جديد، وهو ينظر إلى أشجار الحديقة، وقد أخذ المطر يتساقط ويسيل ملتمعاً على زجاج النافذة. وفحت كلمة من بين فكيه: «بشاعة... بشاعة... الموت في كل مكان!»

فقلت: «رأيتَ الكثير، يا أدهم».

ـ الرعب، يا علاء... لا أستطيع أن أصفه.

والتفت إليّ مرة أخرى، وقد ملأت الظلال عينيه:

ـ لا لأن الواحد منا مهدد بالموت في كل لحظة. ولا لأن الواحد منا يهدد الآخرين بالموت في كل لحظة. قد يكون في ذلك كله شيء من منطق، شيء من ارادة، أو ربما شيء من ضرورة، ضرورة الدفاع عن النفس. ولكن القتل الأحمق، الأعمى، الشرس، المجنون... قتل النساء، الأطفال، المرضى، الجرحى، الممرضات، الأطباء ـ ان تطلق عليهم الرشاشات من أيدي أناس حقيقيين، بشر مثلنا... أن يُقتلوا باصرار، ببرود، بعمى.. أوه، منظر الجثث. رائحة الجثث.. كيف أصف أيام الجنون؟ أيام العطش، والصراخ، والقتل بالمّجان؟ كيف يمكن أن أكون إلا مع الضحايا، وفي كل منعطف يدفعونهم فيه دير ياسين جديدة؟ وفي تل الزعتر لم تكن هناك آبار تُقذف القتيلات والحوامل إلى أعماقها في ظلمة الليل. كان القتل هناك في عز النهار، في عزّ الشمس. قتل مجاني، روح سادية شريرة جاهلة... في ١٩٤٨ و١٩٦٧، كان الصهاينة يقتلونهم بأيديهم. أما الآن فيقتلونهم بالواسطة، بأيدي الأقرباء والأخوة، بالسيطرة البعيدة ـ بأيدي بشر كان يفترض أنهم سيحمونهم، سيدافعون عنهم. والعالم، طزّ على هذا العالم، كله يتفرج، وهو ساكن صامت، وكأن لا شيء يعنيه. مؤامرة صمت مجرمة، قذرة، تستمر ولا تنتهي، وضجيج الآخرين، حول قضايا أبسط بآلاف المرات، يملأ الدنيا... كيف يمكن أن أكون إلا مع القتلى، مع الضحايا، إلى أن يكفّ الرعب، إلى أن تنتهي الوحشية، إلى أن يُسمع صوت الحق المخنوق؟ إلى أن تعود إلى البشر انسانيتهم، إن كانت ستعود. علاء، هل فقد الناس العقل، هل فقدوا القلب، هل فقدوا كل شيء، ولم تبق لهم إلا المخالب والأنياب؟

كان يهز رأسه حقداً وهو صامت، وربما مرت في ذاكرته في تلك اللحظة عشرات الصور والمشاهد الفاجعة. في إحدى اللحظات انتبه، نظر إلّي، شد قبضته وضرب طرف الشباك. كانت الضربة قوية، آلمته، لكنه استمر يهز رأسه، وابتسم بقسوة، ثم اضاف:

ـ وهؤلاء الذين يتصورون أنهم بعيدون، وأن النار لن تصل إلى

حقولهم وبيادرهم، مخطئون جداً... اليوم في لبنان، ولكن قبل أن يحترق نهائياً سوف يحترق كل شيء وفي كل مكان. إلّا أنهم حمقى كالنعام، يدفنون رؤوسهم، يصمّون آذانهم وكأن الأمر لا يعنيهم. لكن غداً، حين تمتد النار سوف يتحولون إلى أرانب مذعورة تهرب من النار إلى النار.

سكت، واستدار إلى النافذة ووقفت إلى جانبه ورحنا نتأمل المطر. ثم قال: «واليوم ماذا نفعلُ أنزرع أم نقتلُ؟.. رحمك الله يا السيّاب!»

وفجأة تغيرت نبرة صوته: «علاء! أين صبا الوردة؟ وأين نبيل؟ إنني مشتاق لهما، وأريد أن أراهما.»

فقلت:

- اخذتني بمفاجأتك، ولم تعطني مجالاً لذكر الحدث المهم في حياة صبا... جاءها ولد، أمس، عند الفجر.

- ولد، صبي؟ رائع! أهي في المستشفى اذن؟

- نعم، ونبيل هناك الآن، لا شك.

وغمرتني لحظتئذ موجة غامضة من العاطفة، جعلتني آخذ أخي بين ذراعي، وأضمه إلى صدري. قبلت خده المكسو بلحيته الناعمة، وقلت:

- حدثان مهمان أمس: مجيئك أنت، ومجيء أدهم الصغير.

فبرقت عيناه من خلال ظلمة وجهه:

- هل سموه أدهم؟

وبنوع من العصبية المليئة بالحزن قلت:

- ظننا، يا أدهم، انك انتهيت، وأن التعويض الوحيد الذي نستطيع أن نقدمه الآن هو أن نسمي الطفل باسمك.

ضحك بحزن وقال كأنه يخاطب نفسه:

- يا ليت!

وامتلأ حقداً، وهو يتابع وقد أمسك بكتفي:

- أن يموت الانسان هو أسهل الأشياء. حينما ينتهي تذهب معه

الأفكار والأحلام والأحقاد. أما أن يموت ويُبعث ليموت في كل لحظة، أن يموت وهو حيّ، فهذا هو العذاب الحقيقي.

توقف لحظة ثم اضاف، وخرجت الكلمات من بين أسنانه غامضة:

ـ سوف نرى!

وبدا كأن طاقة تفجّرت بغتة فيه:

ـ يلاّ، لنأكل لقمة، ونسرع إلى أدهم الصغير. لعل هناك في الدنيا أملاً بعد!

وتغيّر الجو فجأة، ولا أعرف لماذا خطر له أن يسألني: «علاء، لماذا لا تتزوج أنت أيضاً، وتملأ دارك هذه بعياط الأطفال؟»

ـ سأجعل عرسي مع عرسك!

ـ أنا؟ وهل تراني مستقراً لكي استطيع أن انكب امرأة أو أكسر رقبتي؟

فضحكت، وقلت:

ـ أنت تحب نساء الدنيا كلهن.

فلكمني مازحاً على ذراعي: «وأنت يا خبيث، هل قر قرارك على واحدة من نساء الدنيا كلهن؟ ألا تظن أنك كبرت، وتستحق الآن استراحة المحارب؟»

وقبل أن أجيب، أضاف، وقد عادت إلى وجهه جهامته: «خالي، خالي، يا حسام الرعد، لماذا لم تنتظر عودتي على الأقل؟»

الله، كم بدا عليه الكبر في سنة واحدة فقط!

[٣١]

لست أدري لماذا كنت أخشى، إذا ما عاد أدهم من بيروت، أن يلتقي بنجوى. ألأنني أحب كليهما، وهما على طرفي نقيض؟ أم لأنهما متشابهان، متشابهان جداً، على نحو لا يدركه أحد سواي، مما قد يؤدي بهما إلى التنافر والعداء؟ كان الأحرى بي أن أزعم أنهما من دم واحد، ومزاج واحد، وشبح حمدي سويلم، بقدر ما يلاحقني، يلاحقهما هما أيضاً بكل هَوَجه ولعنته. أما البقية فيجب ألا تكون مهمّة، لأنها لن تكون إلا عرضاً زائلاً. في كليهما كبرياء، وجموح، وقدرة ماحقة على الرفض والاحتقار. ومع ذلك بقيت أخشى لقاء أدهم بها ـ لأنه سيكتشف عندئذ أنني أحبها حباً لا يعقل، وأنا أعرف أنه لن يرضى عن ذلك. ولعله سيجابه ارادتها العنيدة برفضه العنيد، ويخلق بيننا لسبب أو آخر توتراً مشحوناً لا قبل لي به. أم أنه سيرى فيها ما يبرر موقفي وتعلقي، ويقول في لحظة من السخط والأنفة: «كل من يقف في طريقك حطمه ولا تهتم، أو أنا الذي سأحطمه!»

أما نجوى، فكنت أعلم مبلغ تحمسها له وشوقها لتلك اللحظة التي تتعرف فيها عليه، وأنا أكتم عنها خشيتي من تلك اللحظة بالذات. كانت تقول، كلما رأتني قلقاً على مصيره طوال تلك الأشهر: «أخوك حي، حي جداً. تأكد أنه حي أكثر منك ومني... لا يمكن أن يقتل أدهم في لبنان ولا تمتلىء عمورية بالدوّي...» ثم تضيف: «هل هو أقرب إليك في الشبه، أم إلى صفاء؟»

فأقول: «انه يختلف عنا جميعاً.»

تتضاحك وتقول: «أنا التي سأقرر، عندما أراه. قل لي، هل فيه شبه من قصائده الغضبى؟»

ولم يخطر لي أن اللقاء سيكون بدون تدبير مسبق، وفي مكان محايد لا

يمكن أن ترتفع فيه الأصوات. في غرفة صبا في مستشفى الرازي.

ما كدنا أنا وأدهم ندخل غرفة صبا ـ حتى فكرت أنه كان يجب أن نخطرها هاتفياً بالذي سيعودها بعد ظهر ذلك اليوم. فالمسكينة كادت أن يغمى عليها عندما رأت أدهم أمامها، بلحيته الكثة وعينيه الغائرتين المعذبتين، ونبيل يستقبله بالاحضان. ولما انحنى عليها معانقاً ومقبلاً، انفجرت ببكاء أشبه بالنشيج وهي تضمه إلى صدرها، وترسل أصابعها في شعره الأشعث، وسيطرت على الجو حالة من التأثر سرت إلينا أيضاً، ونحن واقفان عند قدمي سريرها لا نعرف ماذا نفعل. وفي اللحظات الحارة تلك نسمع نقراً على الباب! ويفتحه نبيل ـ وإذا نجوى، وكأنها إلٰهة من عالم آخر ضلت طريقها، وهي في معطفها الأسود الطويل، إلى غرفة بيضاء في مستشفى، وفي يدها باقة كبيرة من الورود الحمراء، كانت قد نزعت عنها غلاف السلوفان. وكانت وحدها.

سلمت الورود لنبيل، وانتظرت ثانيتين ريثما انسحب أدهم من بين ذراعي أخته، وعانقت بدورها صبا، وقبلت خديها، مهنئة بالمولود الجديد. وحالما استقامت، نظرت إلى الرجل الغريب، وعيناه ما زالتا حمراوين من أثر الدمع، وقالت: «دعني أحزر! أنت أدهم!»

ولحظت أنا دهشته وارتباكه عندما أقبلت عليه بحرارة، وهو بادي التساؤل والحيرة.

وقالت بمكر نسوي: «ما أكثر ما سمعت عنك ـ من صبا!»

وقبل أن يجيب بشيء سألها نبيل، وباقة الورود ما زالت هذه المدة كلها بين يديه: «نجوى ـ أين خلدون؟»

استردت الورود منه، واتجهت نحو المزهرية التي على الطاولة الجانبية، وأخرجت منها أزهار أمس، وجعلت ترتب فيها ورودها النضرة، وهي تقول: «خلدون؟ أتظن أنني استطيع أن انتظر، لكي أزور صبا وطفلها الأول، ريثما يفرغ خلدون من أشغاله وهي لا تنتهي؟» والتفتت إلى صبا: «أين الطفل؟»

بكاء صبا كان قد اضاف احمراراً لعينيها لم يمنعها عن التوهج فرحاً، وقد أحاط شعرها الكستنائي المضطرب وجهها بهالة من البهجة. وقالت: «اعادته الممرضة قبل قليل إلى الحضانة. نبيل، أطلب من الممرضة احضاره مرة أخرى.»

لا أذكر ما الذي قلنا، أو كيف قلناه، في تلك الدقائق. فقد سيطر أدهم الصغير حال احضاره علينا جميعاً: نقول إنه يشبه أمه، لا بل يشبه أباه، لا، لا... يشبه خاله. أي واحد منهم؟ أدهم بالطبع! ولا تريد نجوى أن تبقى خارج اللعبة العائلية، فتقول: «لعله يشبه جدنا ـ جدكم الأول، أدهم؟» مما أطلق من حنجرة أخي قهقهة صغيرة، وهو يقول: «أتعرفين حتى جدي الأول؟!» فترفع نجوى سبابتها وتجيب بمكرها الفاتن مرة أخرى: «أعرفه؟ كيف لا أعرفه؟ ألم اسمع حكاياته من... حسام الرعد، دون غيره؟» وتلقي الي بنظرة تآمرية خاطفة، وأتلقى في الحال بعدها نظرة استفهام من أدهم، وأنا أضحك، تغطية على إحساسي بأن نجوى «فضحت الطابق» كله في جملتين. وقلت لأخي: «أنت لا تعرف نجوى...»

رأفت بنا نجوى بتظاهرها بالعجلة، ولعلها تقصدت الاسراع في الانسحاب من مركز الاهتمام الذي احتلته، حين انشغلت قليلاً مع صبا، ثم بعد قليل عانقتها في فراشها مرة أخرى، واتجهت نحو الباب وهي تعتذر بأن عليها أن تعود إلى البيت قبل عودة خلدون. ومع أن نبيل رافقها إلى الخارج، إلا أنها عادت فاطلت من الباب وقالت: «أستاذ علاء، كلمة، رجاء...»

فخرجت إليها، وهي تودع نبيل، وسرت معها مسافة في الدهليز، وحين أطمأنت إلى أن أحداً لن يسمعنا توقفت، وواجهتني، وهمست: «أخوك رائع! لماذا لا تربي لحيتك أنت أيضاً؟»

فضحكت. «ألا يروق لك وجهي كما هو؟»

فأعادت الهمس: «وجهك؟ أعبده! تلفن لي هذا المساء ـ بعد التاسعة، أرجوك! سأكون في الانتظار...»

ودفعت يدها في يدي، كأنها تسلمني كنزاً صغيراً عليّ الاحترازبه، وقلت وأنا أصل معها منعطف الدهليز: «سأتلفن. مع السلامة.»

وحالما عدت، قالت صبا، وقد أرسلت إليّ نظرة برّاقة عبر أدهم الصغير الذي ألصقته بصدرها، لئلا يختطفه أحدٌ منها: «علاء، أسرار؟»

قلت: «نعم! اعجابها بأدهم... الكبير بالطبع!»

فقال أدهم، وكان هو ونبيل قد جلسا في هذه الأثناء: «سيبك يا شيخ!» وبدا عليه السرور.

وفجأة قال له نبيل: «لم تترك لنا نجوى مجالاً للسؤال عنك... طالت غيبتك جداً هذه المرة. قتلتنا قلقاً عليك، يا رجل، ولا سيما أختك هذه... كيف الأمور في لبنان؟»

عادت إلى ادهم جهامته، وأجاب باقتضاب: «الحكاية طويلة... سنحكي فيما بعد... أين صفاء؟»

- تكلم مع صبا تلفونياً قبل قليل. وسيمر هو ورفيعة هذا المساء. أو هكذا وعد.

واسترسلنا في حديث عائلي، جعلت أريد الانتهاء منه، للخروج بأدهم، والعودة به إلى البيت، لأعرف هل لديه ما يعلق به على ما رأى من الهتي، مضطهدتي، وضحيتي.

* * *

كل ما بدر من أدهم فيما بعد هو استفساره عن نجوى وخلدون، وعلاقات الأعمال بينهما وبين صفاء. كنت أجيب على اسئلته بأقصى ما استطيع من الحياد. وقد وجدت أنه يعرف الكثير عن أسرتي العامري والثغراني، وقال إنه حتى في بيروت يتابع، بقدر ما يستطيع، صحف عمورية، وسألني إن كنت أعرف شخصياً سليمان فؤاد العامري، العضو في المجلس النيابي. لم أكن قد التقيت به، ولم أعرف عنه أكثر مما أقرأ في الصحف - وقلت إنه، كما أرى، يمثل خلاصة تقاليد أسرته، بمطامحها وأطماعها معاً، وبتحرقها مهما كلفها الأمر إلى السلطة والنفوذ، الخ..

الخ.

اتصل أدهم بعد ذلك تلفونياً بصفاء في مقر أعماله، وتواعدا على اللقاء في الصباح التالي، ثم خابر بعض اصدقائه، وأعرته سيارتي للخروج بها. وبعد التاسعة بقليل، تلفنت لنجوى في منزلها ـ وكانت تعرف أنها ستكون وحدها، لانشغال خلدون في إحدى مهام أعماله العاجلة، ومع صفاء بالذات. كانت متعبة، مثيرة، محبة، كارهة. تتعاقب حالاتها النفسية، حتى على التلفون، في لحظات.

قلت لها إنني أريد أن أراها، أن ألمسها، أن أحطمها بين ذراعي، فقالت: «أنا بين يديك... أفعل بي ما تشاء.» فاقترحت أن أسرع إليها في سيارة أجرة ـ أو أن تأتي هي إليّ، وأضفت: «لا أستطيع الصبر أكثر. لو لم أرك عصر هذا اليوم، لكان الأمر أسهل...» غير أنها قالت: «لا، هذا المساء مستحيل...، لا تأت، أرجوك. ولا أستطيع أنا الخروج... أنا بائسة، بائسة، يا علاء... كيف حال أدهم؟ هل قال شيئاً عني؟ هل يعرف شيئاً عنا؟ هل يعرف من هو أبي ـ الحقيقي، أقصد...» قلت لها: «انه لا يعرف، ولكنه عبر عن اعجابه... نعم، قال إنك مدهشة، غير حقيقية، وهل أنت حقاً من عمورية؟»

زغردة الضحكة في حنجرتها كانت لذيذة على التلفون: «أنا التي يجب أن تسأل، هل هو حقيقي؟» وانقطعت الضحكة، وتحولت اللهجة: «أتدري ما الذي رأيت في وجهه في تلك الدقائق القليلة؟ المأساة. مأساتنا كلنا... كيف لو طال بنا الحديث؟»

ـ لربما اراد أن يقبلك. أو لربما تعاركتما، حتى الموت!
ـ ذكّرني بخالك حسام الرعد... مع فارق الشباب.
ـ لا، مع فارق أهمّ.
ـ أهمّ؟
ـ فارق الفعل... حسام الرعد كان يتكلم، وبندقيته نائمة تحت فراشه، يتراكم عليها الصدأ والغبار. أما أدهم...
ـ أعرف، أعرف... علاء، لماذا أوقعني ربي معكم؟ أنت وصفاء،

وصبا، والآن أدهم...

ـ السر عند شهاب خالد.

ـ ولكن... أنت، أنت أرهبهم جميعاً، أتدري؟

ـ أنا؟ أنا الذي ليس لي إلا القلم؟ لا الليل والخيل ولا البيداء تعرفني...

ـ صوتك، عيناك، شفتاك.

ـ نجوى! كفى، كفى...

ـ أنت أكبر محرض. تشعل النيران، وأنت قابع في مكتبتك...

ـ وأنا قابع في مكتبتي احترق... طيب، طيب. متى أراك؟

ـ حال عودة صبا الى البيت، سنأتي لزيارتها ـ وستكون أنت هناك، وكذلك أدهم، تمام؟ ثم، ثم... أوه لست أدري..

ـ أنت لا تعرفين روعة عين فجار في الشتاء...

ـ هل علي أن أعرفها في الفصول كلها؟

ـ طبعاً. لأن الله خلقك، كعين فجار، للفصول كلها ـ منذ أن خلقك فيها.

ـ قريباً، قريباً، علاء.

ـ اياك أن تنامي هذه الليلة!

ـ ولو اغماضة واحدة؟

ـ ولو إغماضة واحدة!

ـ كافية لحلم صغير؟

ـ حجة غير مقبولة! من قال إنك ستحلمين؟

ـ اذن لا نوم هذه الليلة.

ـ تصبحين على خير.

ـ ماذا، أتتركني؟

ـ اتركك؟ هل جننت؟ انما أنا اعيد السماعة الى مكانها.

ـ ويبقى الحديث مستمراً؟

ـ حتى الفجر، على الأقل!

ـ طيب... رضيت.

ـ أعيدي السماعة الى مكانها.

ـ لا ، انت أعدها أولاً . . .

ـ نجوى، نجوى. . .

[٣٢]

كالعاصفة المفاجئة جاء أدهم. شعرت وأنا أراه بيننا بالثقة، بالعنفوان، كأن أخاً جديداً يولد لي . . . بوجوده مرة أخرى في البيت، إلى جانب وجود نجوى، ولو على الطرف الآخر من التلفون، بدت لي الحياة في لحظات من الوهج مليئة بالخير والقوة. والمنغصّات والعثرات التي كانت تشيع في دأبنا اليومي، بدت أصغر حجماً، وأقل شأناً، مما كنا نتصور. كنت الآن، مع أدهم مستعداً ـ لكي أنفض عن نفسي الغبار والصدأ ـ للنظر إلى الأشياء والبشر حولي بشكل مختلف. والخلافات الكثيرة التي كانت تثور بيني وبين أدهم في أوقات سابقة حول أمور عديدة بدت الآن مبالغاً بها، وغير جديرة بذلك التوتر كله. وقد قلت له ذلك بصراحة. «خلافات؟ بيني وبينك؟» قال، وقهقه. «كانت تلك محفزات، يا علاء . . . منبهات فكرية . . . هل كنت تريد أن أكون صدى لك، أو أن تكون أنت صدى لي؟ إذا كنت تريد أن تعرف ماذا تعني كلمة «خلافات»، فتعال إلى بيروت، وشوف العجب.»

كان شهراً كثير الأمطار ذاك الذي قضاه أدهم في عمورية. ورغم كل شيء، فقد قضاه قلقاً لا يستقر ذهنه على شيء. لم نترك موضوعاً لم نخض فيه، وكلما تشعب بنا الحديث، رأيت بوضوح أن المرحلة القاسية التي مرت عليه في لبنان تركت في قلبه جروحاً، ترى هل تندمل بمرور الأيام، ككل الجروح؟ وشعرت أنه يفتقد حسام الرعد بلوعة عميقة الصمت، عميقة الحزن. قرأ «شجرة النار»، وقال: «لا فائدة من مناقشتك فيها. كنت أتمنى لو أناقش الشيخ فيها.» ولكنه عاد وناقشني، بحرارة وحدّة. وفجأة قال: «هيا. لنذهب إلى بيت الشيخ في العمادية . . .»

قلت له إن البيت في العمادية سلمه خالي لأصحابه منذ فترة طويلة، وانه في الشهور الأخيرة من حياته ـ ولمدة طويلة ـ عاش في غرفة ملحقة

بالمطبعة، وأنه مات في تلك الغرفة ـ وتقصّدت ألا أصفها لأدهم، لكي لا أزيد في بؤسه. فأصر قائلاً: «ما لي وللمطبعة! أنا أريد زيارة العمادية.»

ذهبنا إلى العمادية. تعمدت أولاً أن نتجول بالسيارة في شوارع بعيدة عن بيت خالي. مررنا بالسوق الرئيسية، وتوقفنا في محطة البنزين، واشترينا بعض الفواكه، وأدهم يقول: «إذا وجدنا أحداً ساكناً في بيت حسام الرعد، قدّمنا له هذه الفواكه هدية.»

ما كدنا نصل البيت، حتى طلب إليّ أدهم الوقوف ـ كأنه يخشى أنني سأمر بالبيت دون توقف. وقفت. ونزل أدهم وحده بهدوء، واتجه الى مدخل الدار، وإذا بوابته مكسورة ومهملة، وعلى جانبيها، أمام السياج الحديدي الصدىء، بضع شجيرات من الدفلى أصابها اهمال طويل ظاهر، وقد رقد كلب قميء سائب عند أصولها، وشجرتان سامقتان من اليوكالبتوس، تراكمت أوراقها المتساقطة على الطريق والمدخل. أما باب البيت، فكان مغلقاً، والشباك مسدوداً بأبجور تهافت طلاؤه. بقيت أنا في السيارة، محاولاً احتواء عواطفي، بينما اتجه أدهم إلى الأسطبل، ووقف عند حافة السور المتآكل، واتكأ عليه. ثم سار ببطء نحو الحظائر التي كانت فيها الخيول ذات يوم، واختفى. كنت أريده أن ينتهي بسرعة. وصرختُ أناديه. لم يجب. زمّرت مرتين. لم يجب. نزلت من السيارة، فنهض الكلب الراقد، وانطلق هارباً. ذهبت إلى أدهم. لم يلتفت ولم يتحرك. ناديته مرة أخرى، فالتفت إليّ بنصف رأسه، ورأيت ملامحه تمتلىء بالأسى، وهو لا ريب يتذكر حسام الرعد يغسل لمعة، ويمسّد عرفها، ويصفق كفلها، ويتكلم معها كلام العاشق.. وكان كل شيء صامتاً.

تركته. عدت أدراجي إلى السيارة. وانتظرت إلى أن عاد. وصعد إلى السيارة، ولم يقل شيئاً.

قلت: «والفاكهة؟»

قال ساهماً: «الفاكهة؟ ما بها؟»

ـ ليس في البيت أحد نقدمها له. ولكن، ولا يهمك، ادهم. انظر.

أخذت الكيسين المليئين بالبرتقال والتفاح، ونزلت من السيارة،

وسرت إلى الباب المغلق، ووضعتها أرضاً على العتبة. وعدت.

وحالما جلست وراء السكان، نظر إليّ أدهم مليّاً، وقال: «علاء! إنك حقاً أخي!»

* * *

أقمنا في البيت عدة سهرات دعونا إليها الكثير من أصدقائي وأصدقائه، والتقى بنجوى عندنا مع صبا، ثم في دار صفاء ورفيعة، وخيّل إليّ أنه كلما أبدت اهتماماً به، اشتد حذراً منها. وأخيراً دعته هي وخلدون إلى حفلة عشاء في دارهما في الخميلة. وقد أوعزت أنا إليها أن تدعو هذه المرة «ابن عمها» سليمان العامري في جملة من تدعو، لكي يراه أدهم، فوافقت ـ واستجاب سليمان وزوجته للدعوة (تصورته حين شاهدته في أوائل الخمسينات من عمره). ورغم كثرة المدعوين في تلك الأمسية، فقد جعلت نجوى من أدهم ضيف الشرف، ذاكرة عودته من القتال مع المنظمات الفدائية الفلسطينية، وتقصدت أن تعرّفه على ضيوفها واحداً واحداً، مبدية اعتزازاً كبيراً بوجوده تحت سقفها. وباغتته بأن طلبت إليه أن يتلو عدداً من قصائده. فلما اعتذر أول الأمر بأنه لا يحفظ الكثير من شعره، أتت له في الحال بمجموعة من قصائده المخطوطة (التي كنت أعرتها إياها قبل أيام). تناولها، وتصفحها بسرعة، وقال فيما يشبه التمتمة: «ما دام سليمان العامري هنا، فلأسمِعْهُ شيئاً منها.»

وطلبت نجوى من ضيوفها أن يتجمعوا في الصالون، ليسمعوا شعراً من أدهم نجيب السلوم لن يجدوه في كتبهم ومجلاتهم! وأحضرت له، حسب طلبه، كرسياً ذا ظهر مستقيم، ليجلس عليه. وعندما هدأ الجو، ثم انقطع اللغط، جلست هي على حشيّة على الأرض عند قدميه. وإذا خلدون يأتي مسرعاً بمسجّلة صغيرة ويستأذن أدهم بتسجيل تلاوته، ويضعها على طاولة جانبية قربه.

وراح أدهم يلقي قصائده ـ ناظراً إلى الأوراق بين الحين والآخر، ومعتمداً في الأغلب على ذاكرته. ألقي شعره على طريقته ـ السريعة، المتلازّة، اذ تنهمر كلماته كالمطر، بادئاً بالسخرية، متصاعداً بالعنف،

جارحاً بالشتيمة، مؤكداً على التحدي ـ ومخاطباً لا عمورية وحدها، بل عواصم الدنيا كلها.

استغرقت تلاوته قرابة نصف الساعة، وعندما توقف، وطوى الأوراق، ونهض، أعلن خلدون بصوت عال: «لم اسمع شعراً كهذا في حياتي! سنهرّب شعرك على الكاسيتات، كالحشيشة!» فقال أدهم: «أأنتم تهرّبون شعري؟ هل تحتاجون إليه، أنتم؟» كانت لهجته تقطر هزءاً، غير أن خلدون قال، غامزاً له بعينه: «نحتاج إليه أكثر مما تتصور!»

وأدهشني عندها سليمان العامري إذ وقف على قدميه ووجه كلامه لأدهم بصوت أرادنا جميعاً أن نسمعه، صوتٍ يصلح لقاعة فيها جمهور من ألف شخص: «سيد أدهم، أحييت قلوبنا كلنا هذه الليلة! ماذا كانت عمورية تفعل بدون آل سلّوم؟ إنكم، أنت، ووالدك المرحوم، وأخوك صفاء، وأخوك علاء، اسمحوا لي أن أقول، انكم جميعكم اغنيتم هذا البلد بمواهبكم وقدراتكم... أرجو منك شخصياً أن تبلّغ أخوتنا الأبطال المقاتلين من أجل فلسطين اعجابنا وحبنا. وقل لهم إننا سنكون دوماً معهم في ساحات القتال!» ولم ينقص الموقف الخطابيّ في تلك اللحظة إلا التصفيق. أما أدهم، فرفع كأسه من على الطاولة التي بقربه، وقال: «سيدي، سأسكر هذه الليلةِ على كلماتك!»

والتفت خلدون إلى صادق الذي كان جالساً بجانبي، وقال: «ما رأيك في نشر هذه القصائد في جريدتكم؟»

فانفجر صادق ضاحكاً وقال: «بكل سرور، إذا كنت تريد لجريدتي أن تغلق في اليوم التالي! بالله أعد عزف الكلمات... الرقيقة... الأولى على الكاسيتة.»

كان خلدون في حالة مرح لا يخلو من سكر. قال: «أمرك، صادق! هاك، اسمع.»

وجاء صوت أدهم من المسجلة:

«لا، لا . . . أنتم
ما كذبتم ولا بغيتم
وفي محرّم الحرام ما قتلتم
ولا سجنتم ولا شنقتم
وما استبحتم أعناقنا
كأنها مُلْك يديكم
وما بعتمونا وما اشتريتم . . .»

وانحنى صادق إلى الأمام، مادّاً أصبعه إلى المسجلة، وأوقف الصوت، قائلاً: «كفى، كفى . . . أردت فقط أن أتأكد من المطلع . . .»

* * *

في سيارتي، عند عودتنا معاً إلى البيت تلك الليلة، كان أدهم مليئاً بالمرارة، وقد شرب كثيراً، ولكنه لم يسكر تماماً. «يبيعوننا كلاماً، هؤلاء القوّادون . . . سيكونون دوماً معنا في ساحات القتال، نعم، وهم راكبون على صدور نسائهم . . . يجب أن أعود . . . لا أستطيع المكوث هنا يوماً آخر . . . اسمع، علاء. هذه الغامضة الماكرة، نجوى العامري، أتحبها؟ اتحبّك؟ ما هذه العلاقة الغريبة، الشاذة، بينكما؟»

ولم يكن لي إلا أن أرد عليه بقوة: «مهلاً، ادهم، مهلاً. لا تدس على صدري. أنا أخوك!»

ـ ولكنك تحبّها. بشكل مفضوح. من أين جاءتك هذه المرأة العجيبة؟
ـ من أين؟ من نهر دمائنا القديم.
ـ يعني؟
ـ دماء حمدي سويلم، إذا كنت تؤمن بمثل هذه الأمور.
ـ ستبقى مليئاً برموزك الهوائية يا علاء . . . أنا لا أفهمك. لا أستطيع أن أفهمك. ماذا كان الشيخ ليقول لو عرف أنك تحب امرأة من أسرة العامري، ابنة عم سليمان بالذات؟
ـ خالي عانقها وباركها قبل موته بساعات.
ـ مرمر زماني يا زماني مرمر . . .

ـ سأحكي لك قصتها.
ـ احك لي قصتها. احك لي ألف قصة. سأسمعها كلها، من حمدي سويلم وأنت نازل. ولكن العلاقة بينكما... لا أفهمها.

عند بلوغنا البيت حوالي الواحدة صباحاً، اشتد هطول المطر بحيث تبللنا تماماً في الثواني القليلة التي قطعنا فيها المسافة بين الكراج والباب. وإذ رحنا ننفض البلل عن معطفينا، ونجفف شعرنا، دخلنا في نقاش طويل ـ حول حياتي، حول حياته، حول حياة المدينة. وبقي الليل في الخارج يلتمع بالبرق ويتفجر برعد متواصل كالبراكين. والمطر الغزير لا ينقطع.

وحدثني لأول مرة عن شابة فلسطينية تدعى لبنى، رافقته خلال جحيم تل الزعتر، ثم في القتال في الجبل، وظلت رفيقة له منذ ذلك اليوم.

وفجأة ركّز نظراته في عيني وقال:

ـ قصة نجوى وأبيها شهاب خالد، أتصدقها؟

قلت وكأنني أجيب عن هذا السؤال للمرة الألف:

ـ طبعاً أصدقها. وأنت؟
ـ أنا؟ أنا أعتقد أنها اختراع من خيالها الأنثوي الخصب.
ـ عجيب! وما الذي تستفيده في وضعها الاجتماعي من اختراع قصة كهذه؟
ـ تستفيد؟ لا... مجرد لعبة شيطانية منها. متعة شاذة من امرأة جميلة تيسر لها كل شيء، ولم يبقَ لها إلا أن تلعب بالنار. ولو كنت محللاً نفسياً، لقلت إنها ربما تجد فيها تبريراً، تعويضاً، من نوع ما. أو ربما اسكاتاً لضمير مزعج. من يدري كيف يعمل عقل هذه الطبقة من البشر، أو ضميرها؟

قمت، وقلت بلهجة حاسمة، فاصلة:

ـ لا، أدهم. فتاة كنجوى ليست بحاجة إلى تبرير وتعويض. ولكن «في السماء والأرض أمور أكثر بكثير مما تحلم به فلسفتك، يا هوراشيو.»

زفر زفرة متأففة، وقام وضربني متودداً على كتفي: «كما تريد، يا علاء، كما تريد! ما عدت أهتم، وحياتك. إنما المهم هو أن تكتب. وفداؤك كل امرأة في عمورية ما دمت تكتب!»

حين آوينا إلى الفراش، كنّا كلانا مرهقين. غير أننا لم ننم أكثر من ثلاث ساعات أو أربع، أفقنا بعدها معاً، وسعيد يهيّء لنا الفطور في غرفة الطعام. ولما ذهبنا إليها، ازاح سعيد الستائر وهتف: «وأخيراً، قليل من الصحو! كان مجيئك يا أدهم فأل خير على عمورية. كدت تغرقها بالمطر!»

فقال أدهم:

- ها! أشكرك على حسن ظنك. أترى تلك الرقع الفسيحة من الزرقة الوهاجة في السماء هناك؟ أتدري لماذا بدأت الغيوم تنقشع؟ أتدري لماذا يا سعيد؟ لأنني على وشك أن أغادركم!

- خسارة، والله خسارة، أن تتركنا - وبهذه السرعة. أتدري أن عمتي نصرت لم تكف عن الدعاء لك هذه الأيام كلها؟ دعني أحكي لك ماذا جرى بيننا قبل مدة... غلطت يوماً، وأخبرتها عن المرتينة التي تركها لك المرحوم خالي حسام. فانتفضت، وقامت على رجليها، وصاحت: سعيد! احضرها لي، احضرها حالاً! قلت: عمتي، أنت ما لك وللسلاح؟ فنفرت بي وقال: احضرها، بلا زعبرة! فنزلت، وأخرجتها من مخبأها في دولابك، وأخذتها لها، مسلّماً أمري لله. كانت ما زالت واقفة بانتظاري. خطفتها من يدي خطفاً، ورغم ثقلها رفعتها عالياً بين يديها، وعيناها باتجاه السقف مغمضتان - وظننتُ أنها سترقص بها... افزعتني والله، لأنها بقيت ثابتة على ذلك الوضع، لا يتحرك منها إلا شفتاها... ومرت الدقائق، وأنا لا أفهم من تمتمتها شيئاً. ثم فتحت عينيها، وأعادت البندقية إليّ، وهي تقول: لن تصيب أدهم بعد اليوم رصاصة! وليمت الأعداء في حقدهم!

* * *

بعد بضعة أيام أوصلت أدهم إلى المطار وأنا مثقل بالهم، رغم فرحه هو بمغادرتنا. ولما عدت إلى البيت، شعرت أنه ترك فيه فراغاً كبيراً لم أكن

أتوقعه. عاصفة منعشة هبت على الدار حبلى بالوعد - ثم عبرت وجنينها ما زال في ضمير الغيب.

وبعد سفره بأسبوع أو أقلّ، اذ كنت في الصباح عند الباب على وشك الخروج إلى عملي، رن التلفون، فعدت مسرعاً إليه. وإذا خلدون على الخط يقول بلهجة رسمية، كمذيع يقرأ من ورقة: «علاء، خبر مؤسف: عمي محسن العامري توفاه الله فجر هذا اليوم في فراشه عن ثلاثة وثمانين عاماً. سيكون التشييع من دارنا في الساعة الثالثة بعد الظهر.»

قلت: «البقاء في حياتك. وحياة العزيزة نجوى.»

قال: «هذه حال الدنيا. إنا لله وإنا إليه راجعون.» وأغلق الخط.

كانت الجنازة حقاً كبيرة، ولا سيما أن السماء كانت صاحية. لقد شعرت أنه لم يبق رجل في عمورية لم يشارك في التشييع. وكنت أحسب أن الدنيا نسيته وأهملته! وتذكرت جنازة حسام الرعد المتواضعة، ومشيعيها السبعة أو الثمانية من عمال المطبعة.

أقيمت الفاتحة في جامع القلعة، وحضرها في العشيات الثلاث جمهور غفير من المعزّين. وفي العشية الأخيرة، بعد نهاية الفاتحة، حضر العشاء الذي قُدِّم على روح الفقيد قرابة خمسمئة رجل. ترى ما الذي تذكّروه من منجزاته ومآثره وهم يترحمون عليه، ويأكلون؟

[٣٣]

بعد سفر أدهم شعرت من جديد أن عالمي يتزعزع وأن أحلامي تنهار. بدأت الكوابيس الثقيلة تعاودني وعادت معها حالات الضيق والسوداوية. وأخذت أشعر أني على وشك المرض. ماذا حل بي، ولماذا أصبحت هكذا مرة أخرى؟

صحيح أن المشكلة الأساسية التي أعاني منها، وتعذبني إلى درجة القهر، هي انني لا أقوى على التسليم، أو أن أكون كالآخرين. ليس هذا نتيجة العناد، ولا هو نتيجة الترفع. ففي أغلب الأوقات أتطلع بتواضع نملة إلى كل ما حولي، أحاول أن أفهم وأتعلم، أتكلم مع البسطاء واستمع إليهم أكثر مما أتحدث. أنظر إلى الأشياء بلهفة، فقط لكي اكتشف وأتعلم. ولكن رغم التواضع الذي لا أحسن التعبير عنه فإنني في حالات معينة، خاصة في مواجهة «الكبار»، أقف موقف المعارض والمتحدّي. ولا أعلم أبداً أي شكل سيتخذ هذا الموقف ـ ولا يهمني أن أعلم. هل كنت في قرارة نفسي مقتنعاً بأن الذين لا أتفق معهم هم الذين فقدوا القدرة، لكثرة ما مارسوا النفاق الفكري، بل والعاطفي، على تفحص دوافعهم الداخلية الحقيقية؟ وأن وقفة التحدّي مني قد تعيدهم إلى النظر في دواخلهم؟ هل كان غروراً مني أن أجعل كتاباتي وسيلة لاختراق الدجل، لنسف الواجهات البارعة القائمة على رمال المصالح الذاتية، صغيرة كانت أم كبيرة؟ غير أنني كنت أدرى الناس بالفجوة التي انفتحت مع الزمن بيني وبين الآخرين. ومع ذلك بقيت كما كنت: لا أقوى على التسليم.

صبا، في البداية، كانت تفهمني، كانت تصغي إليّ بانتباه شديد. لم تكن تتابع الكلمات التي أقولها فقط، كانت تنظر إلى حركات يدي وإلى طريقتي في قول ما أريد. غير أنني لا حظت أنها مع مرور الأيام أصبحت تتابع كلماتي، لكن عينيها لا ترفّان، وأحس أكثر من ذلك أنها لا تسمعني.

حين جاءت نجوى احسست أن الدنيا تغيرت، أحسست أن الخيبة القديمة ذابت كما تذوب قطعة من السكر في كوب من الشاي الساخن. كانت تتشرب الكلمات، تحفظها، تردد بعدي بعض العبارات التي قلتها، وفي حالات معينة يكون التبلّد فيها قد أصابني كالزكام، ولكي تفجر في أعماقي بركاناً نائماً، كانت تذكرني بأشياء قلتها من قبل، مليئة بالحماس واللعنة في آن واحد، فكنت انفجر. وأصرخ أسألها بالحاح كيف لا تزال تذكر كل هذا.

الآن، وأنا استعيد هذه الأمور مرة ثانية، أحس بخيبة مضاعفة. فالمناقشات العقيمة التي كان يفتعلها صفاء أحياناً، وكأن في نفسه غرضاً مبيّتاً، ويفتعل مثلها صادق أو خلدون، كانت تنتهي بي على الأغلب إلى الصمت، أو إلى مغادرة الغرفة لكي أعود إلى أوراقي وكتبي. وفي ساعة من تلك الساعات التي أشعر أنها أثقل الساعات وأصعبها قد تأتي صبا لكي تتحدث إلي، لكي تسمعني... وفي وقت لاحق بدأت نجوى تحل مكانها. وحتى هذه الساعة لا أزال أتذكر تلك اللحظات، ولا أدري كيف أصفها، هل كانت لحظات عمياء، مثل حياتي كلها؟ كنت في مثل تلك اللحظات، ولكي أخرج من الحصار والاختناق، أعود معها إلى بعض الأسطر من كتب أحبها، أو اقرأ لها أبياتاً من الشعر أشرت عليها. وإذا أبدت صبا موافقتها، إذا أبدت حماستها على ما أقرأ، فقد نقضي المساء في قراءات من ذلك النوع. ولا أزال أذكر الكثير من المقاطع الطويلة التي قرأناها معاً.

وصبا هي التي اقترحت، في إحدى ليالي شباط الباردة، أن أقرأ على نجوى بعض تلك المقاطع التي «تلخص الحياة»، كما كانت تحبّ أن تسميها. وقد أبديت بعض التردد، واكتفيت، أول الأمر، بأن أردد بعض العبارات التي أحفظها، غير أن صبا أصرت على أن تحضر أحد الكتب التي كنت أحبها وتبدأ القراءة. كانت قراءتها جميلة، لكن ليست كما أريد! وبخفة يد الحاوي، ولكي لا أترك ثغرة في ذهن نجوى عما أريد أن أقوله أو أقرأه، قرأت لهما مقطعاً قصيراً، ولشد ما استغربت فيما بعد أن نجوى

تحفظ كلمات كثيرة من ذلك المقطع... بل وتترنم بها أكثر مما أفعل!

في تلك الليالي، الباردة، الطويلة كان يروق لي أن أعود إلى التاريخ، أن أنبش أحشاءه، أن أعرف كيف كانت الحياة تتراءى للبشر في أعصر انقرضت. وإذا كانت بعض الأمور قد تكشفت لي من خلال القراءة، فإن مقطعاً من المقاطع التي قرأتها في تلك الفترة شغلني كثيراً، ولا يزال يرنّ في أذني.

هل كان ذلك الكاتب الساخر، والصادق أيضاً، يتكلم نيابةً عني؟ هل كان يتكلم عنا كلنا؟ أكاد لا أصدق! وإذا كنت أنقل هنا جزءاً من كلام لم أقرأه يومئذ لنجوى وإنما قرأته لنفسي واحتفظت به سراً لأسابيع طويلة، فأكاد أحس الآن أن الخيبة، حتى مع أشد الناس قرابة، كانت ما تزال مستمرة. وإلا، فلماذا لم أقرأه لنجوى أو صبا؟

كان الكلام حوارية توقفت طويلاً عندها. وبعد موت محسن العامري عدت إليها ثلاث ليال متعاقبات. إنها جزء من فصل طويل عنوانه: «حوارات الموتى». والمشهد فيه هو «العالم السفلي»، الذي تذهب إليه أرواح الموتى في زورق عبر مياه عريضة. وصاحب الزورق هو الرّبان العتيق خارون، وله مساعد شاب يدعى هرمس.

خارون : أرأيتم إلى ما صرنا إليه؟ لم يبق بين أيدينا سوى قارب صغير، هاجمه الدود فأنفذ إليه الماء من كل جانب، وإما جنح قليلاً فسيهوي ليغور في الأعماق. أما أنتم فقد أتيتم جميعاً دفعة واحدة، يحمل كل منكم متاعه. ولئن رغبتم في الابحار بهذه الأمتعة كلها، فاني أخشى عليكم أن تحل بكم الندامة على فعلتكم ولا سيما أن من بينكم من لا يحسن السباحة.

هرمس : ماذا نصنع اذن لكي نعبر المياه بسلام؟

خارون : سأدلكّم على ما تصنعون. عليكم أن تركبوا متن القارب، بعد أن تتعرّوا من ثيابكم وتخففوا من كل شيء، وتستبقوا على الشاطىء كل هذه الأمتعة الفائضة. وعلى هذا النحو يغدو في ميسور القارب حملكم. أما أنت يا هرمس فحذار أن

تقبل منذ هذه الساعة أي انسان، إلا إذ أتاك عارياً ـ كما قلت ـ وقد تخفف من متاعه. قف إلى جوار السلم وافحصهم. وإياك أن تقبل أحداً لركوب القارب إلا بعد أن يتخفف من كل شيء.

هرمس : أحسنت، وهذا ما سنقوم به. ترى من هذا الذي برز في المقدمة؟

مينيب : أنا. أنا مينيب. ولكن انظر يا هرمس، فلقد ألقيت الآن في البحيرة جعبتي وعصاي، ولم أحمل معي حتى ردائي. وخيراً فعلت.

هرمس : أصعد يا مينيب، يا أحسن الناس. خذ أي مكان عالٍ قرب ربان الزورق، كيما ترى كل شيء. ولكن من هذا الغلام الذي يتلألأ حسناً والماثل هنا؟

خارموليوس أنا خارموليوس الميغاري، المحبوب الذي كانت قبلاته تُشترى كلٍ منها بدرهمين!

هرمس : عرٍّ إذن جمالك وثغرك من قبلاتهما، وكذلك شعرك الغزير ووجنتيك الورديتين. تعرَّ من إهابك. حسن! ها أنت ذا مستعد، فاصعد الآن. أما أنت يا من ترتدي الرداء الأرجواني، وتلبس تاجك، وتبدو في طلعة مهيبة، من أنت؟

لمبيخوس : أنا لمبيخوس، طاغية «جيلا».

هرمس : علام جئت يا لمبيخوس، وأنت تحمل متاعاً كثيراً؟

لمبيخوس : يا لغرابة سؤالك! أفي مقدور الطاغية المجيء عارياً؟

هرمس : ليس على الطاغية أن يفعل ذلك، بل على الميت. لذا دع لي هذا جانباً!

لمبيخوس : خذه، وبذلك أكون قد تخليت عن ثروتي كلها.

هرمس : تخلَّ كذلك عن كبريائك يا لمبيخوس، وعن مظهرك المزدري، لئلا يغور القارب بكما فتهويان.

لمبيخوس : دعني احتفظ ـ على الأقل ـ بتاجي وجلبابي الأرجواني.

هرمس : أترك كل شيء، كل شيء!

لمبيخوس : كما تريد. . . وماذا أيضاً؟ لقد تخليت كما ترى عن كل شيء.
هرمس : تخلّ عن قسوتك وجنونك، عن قحتك وغضبك، تخل عن كل ذلك أيضاً.
لمبيخوس : ليكن ذلك، وها أنا عار!
هرمس : فلتصعد الآن. . . وأنت أيها الرجل الضخم الجثة، يا من تنوء بكتلة لحمك، من أنت؟
دمسياس : أنا دمسياس المصارع.
هرمس : نعم، كثيراً ما رأيتك في حلبات الرياضة.
دمسياس : بلى يا هرمس. اذن فاقبلني ما دمت عارياً.
هرمس : لا، لست عارياً يا دمسياس، وأنت تحمل كل هذا اللحم الذي عليك. فانزعه اذن، لأنك ستغرق القارب حالما تطأه بقدميك، وعليك أن تلقي عنك كذلك بهذه الأكاليل، وتلك الأوسمة.
دمسياس : كما تريد. ها أنذا كما تراني قد تعريت، ولن أزن أكثر مما يزن بقية الموتى!
هرمس : خير لك ألا تزن شيئاً، فاصعد إلى القارب. . . أما أنت يا قراطون، فتخلّ عن ثروتك، ودع عنك ترفك، وتخنثك. لا مكان هنا لفخفخات الجنائز، أو أمجاد أجدادك. دع عنك منزلتك وجاهك، وتلك المكافآت التي منحتك إياها الدولة تكريماً لك. وحذار أن تتحدث عما سوف تخلّف من ضريح عظيم، لأن كلاماً كهذا عبؤه ثقيل.
قراطون : انك ترغمني على اطراحها. وها أنا أبادر إلى طرحها. وبعد، هل ثمة شيء آخر؟
هرمس : أوه، أوه! أنت أيها الرجل المدجج بالسلاح! ماذا تبتغي؟ وما هذه الشارة التي تحملها؟
الجندي : كنت منتصراً يا هرمس، ولقد أمسيت مرموقاً، وكافأتني الدولة.
هرمس : الق بهذه الشارة أرضاً. فالسلام يسود الجحيم، وليس ثمة

حاجة إلى العناد. . . ولكن من تراه يكون هذا الرجل الوقور الذي يبزّ الآخرين بوقاره، المنتفخ الشدقين، المقطّب الحاجبين، والغارق في تأملاته، ممشطاً بيده لحيته المسترسلة؟

مينيب : يبدو أنه فيلسوف، يا هرمس. وهو أيضاً دجال عظيم السلطان. عرِّه اذن، عرّه هو أيضاً، فستعثر لديه على أشياء عديدة تثير الضحك يخفيها طيّ عباءته.

هرمس : أبدأ أولاً بتخليك عن جهامتك، ومن ثم مما لديك. . أي صلف تنوء به، وأية جهالة، وأي عقل نزّاع للخصومة! أي غرور تحمل، وأية اسئلة اشكالية، ونقاشات جارحة، وأفكار مضللة، مع هذر لا ينتهي وجدل حول سفاسف الأمور! ثم ما هذا الذهب كله، وحب الملذات، والقحة، والشبق، والتخنث، وسوء الخلق؟ اني أراها كلها كلها، مهما حاولت اخفاءها. فتخل اذن عن أكاذيبك، وتنطعك، وعقلك الذي تخال أنه أفضل من عقول سواك، لأنك إن أنت أبحرت مع هذه الأشياء جميعاً، فلن تكفي سفينة ذات خمسين مجدافاً لحمل متاعك.

الفيلسوف : اني اتخلى عنها ما دمت تأمر بذلك.

مينيب : بل دعه، يا هرمس، يقص لحيته كذلك، لأنها كما ترى أشبه بالجراب، وتزن خمس وزنات على الأقل.

هرمس : أحسنت القول. تخلّص من لحيتك قبل أن تركب.

الفيلسوف : ولكن من يحلقها لي؟

هرمس : مينيب سيحلقها لك بقدّوم النجار.

مينيب : لا، يا هرمس، أرى أن تعطيني منشاراً، فذلك أدعى كثيراً للدعابة.

هرمس : عليك بالقدّوم!. . غريب! راحت اللحية، فصرتَ أشبه بالبشر منك بالتيوس!

مينيب : أأنزع عنه شيئاً من حاجبيه؟

هرمس : نعم، لأنه يبثها على ارتفاع جبهته، لغرض في نفسه.

وبعد.. ما هذا؟ ما الذي أبكاك أيها الوغد؟ اتضطرب حيال الموت؟ هيا اصعد إلى القارب.

مينيب : ثمة شيء يتأبطه، وهو أثقل من كل ما كان يحمل.

هرمس : ما هو؟

مينيب : الرياء، الرياء الذي طالما خدمه في الحياة!

الفيلسوف: طيب، طيب، يا مينيب. ولكن عليك أنت أيضاً أن تتخلى عن حريتك وصراحتك في القول، وعن لا مبالاتك ومرحك وضحكك، لأنك الوحيد الذي أراه ينكّت هنا!

هرمس : لا، احتفظ بها يا مينيب! لأنها أشياء مفيدة ويسهل حملها، وهي خفيفة على العبور... أما أنت الذي هناك، يا معلم البلاغة، فاترك عنك إطنابك ولغوك، وتخلَّ عن جناسك وطباقك، واستطالات عباراتك، وكل ما تمتلىء به فصاحاتك.

معلم البلاغة : هاك، انظر! اني اتخلى عنها.

هرمس : أحسنت. انشروا القلاع، وارفعوا السلالم، واسحبوا المرساة. أيها الملاح، عليك بالدفة. وليحالفنا الحظ في الابحار! وَيْحَكم.. علامَ تنتحبون أيها الحمقى؟ بخاصة أنت أيها الفيلسوف الذي حلقت لك لحيتك منذ هنيهة؟

الفيلسوف: أبكي لأني كنت أعتقد أن الروح خالدة.

مينيب : يكذب! فثمة بواعث أخرى تثير شجنه.

هرمس : ما بواعثه؟

مينيب : أدرك أنه لم يعد باستطاعته حضور مأدبة فاخرة، ولن يتسلل في جنح الظلام وقد كسا رأسه بمئزر في طريقه إلى المواخير، ولن يحظى بدراهم ثمناً للدروس الخادعة في «الحكمة» التي كان يلقيها على الشبيبة كلما أصبح الصباح... ذلك ما يقلقه.

الفيلسوف: ألا يثير حزنك أنت يا مينيب أن تمسي ميتاً؟

مينيب : كيف لي أن أحزن وأنا الذي تقدمت طائعاً للموت، وما دعاه

إليّ أي انسان؟ والآن ونحن نتحدث، ألم تسمع صخباً، وكأن ثمة اناساً فوق الأرض يصرخون؟

هرمس : بلى يا مينيب، وليس من مكان واحد فقط. إن الناس يسرعون إلى الندوة، وهم يشمتون ضاحكين بموت لميخوس. أما زوجته فقد أمسك بها النسوة، وأما أطفاله فقد أهينوا بدورهم كذلك، وراح الصبية يرمونهم بالحجار. وهاهم يهتفون لديوفانتوس الخطيب، بعد أن ألقى خطبة عصماء يرثي بها صاحبنا قراطون الماثل هنا معنا. وكذلك ثمة والدة دمسياس، وقد علا نحيبها، بصحبة نسائها النائحات على ابنها... أما أنت يا مينيب فليس ثمة من يبكي عليك! إنك تستلقي على قفاك مطمئن البال، وما من أحد مثلك!

مينيب : انتظر قليلاً. لسوف تسمع الكلاب تعول حزناً عليّ، والغربان تصفق بأجنحتها حين تجتمع على جنازتي.

هرمس : أنت شجاع يا مينيب... ولكن ها قد وصلنا إلى الميناء. اسمعوا يا رجال، عليكم أن تمضوا إلى المحكمة. توجهوا صفاً صفاً، بانتظام. أما أنا وخارون، فعلينا أن نعود ونأتي بحمولة أخرى من البشر.

مينيب : ليحالفكم الفلاح في رحلتكم يا هرمس. أما نحن فعلينا أن نمضي... ما لكم تتقاعسون؟ أياً كان الأمر، فلا مفرّ من المحاكمة. يقال إن الأحكام هنا ليست هيّنة - وسيتخللها دواليب وصخور وعقبان، ولسوف تظهر تفاصيل حياة كل واحد منكم، سافرةً على حقيقتها!

هذه الحوارية الرائعة، التي أعادتني إلى الماضي، أو أعادت الماضي إليّ، ذكّرتني بأشياء كثيرة، بأشخاص كثيرين، ولفرط الشبه الذي لمسته بين تجارب عشتها وبين هذه الحوارية، لجأت إلى طريقة ماكرة: استبعدت الأسماء اليونانية، استبعدتها كلها واستبدلتها بأخرى عربية. أو بالأحرى، جعلت مكان الأسماء العربية الأحرف الأولى منها. ومثل ثعلب جائع يريد أن يضع يده على الفريسة بحذق، ودونما خطأ، حملت هذه الحوارية إلى رئيس تحرير «الميزان»... حملتها إلى صادق الرمحي، مطمئناً إلى أنه كأكثر رؤساء التحرير، لن يقرأها ـ دع عنك الثقة القائمة بيننا منذ أيام الدراسة. وصادق يعتز بأن جريدته ما زالت بين الحين والآخر تتكشف عن تلك النزعة الليبرالية التي تعود إلى السنوات الأولى من تأسيس الجريدة. وهو على كل منشغل بأمور أكثر أهمية من صفحة ثقافية يمدّها بنتاج قريحته «موهوب خائب» أو «رجل تيس في السياسة، عبقري في الأدب»، كما كان يصفني في بعض الليالي التي نتصافى ونتصارح فيها حول همومنا منفردين. وهكذا دفع الحوارية دون أن يقرأها إلى المطبعة ـ دفعها في الدهاليز نصف المضاءة، بين رائحة الحبر والورق والتبغ، لتصافح في الصباح التالي عيون الكثيرين، بعضها يلتمع باللهفة والحب، وبعضها زجاجي لا يعرف اللهفة ولا الحب ـ ولا أية عاطفة انسانية أخرى. قرأتْ هذه العيون ما «كتبت»... فوقفت طويلاً! تبدو لي الآن آلاف العيون، في غرف نصف مظلمة، في أماكن ليس لها اسماء، ولا يعرف الانسان ماذا يمكن أن تكون هذه الأماكن: دوائر، بيوتاً، سجوناً، مباغي. مستشفيات. ولكن في هذه الأمكنة رجالاً لا أسماء لهم، ولا ملامح: إنهم في لحظات معينة، لفرط تخفيهم، يشبهون الغمام أو الرياح الصغيرة، ولأننا لا نراهم، لا نستطيع تقدير ما اذا كانوا ينامون ويأكلون ويضاجعون النساء، أم أنهم مجرد دمى؛ ما اذا كانت حياتهم تماثل تماماً حياة الآخرين، أم انهم مثل الهواء حولنا، شديدو الوجود، لكن لا أحد يراهم أو يعرف عنهم شيئاً!

تلك الحوارية وقعت تحت عيون هؤلاء، وهذه العيون تعرف كيف تعيد الأشياء الى أصولها، إلى موادها الأولية. فقد حطمت البناء كله،

وأعادت تشييده من جديد، وبدل الأحرف الأولى من الأسماء التي استعملتُها، استعملتْ أسماء حقيقية، اسماء لأناس يدورون حولنا، يملأون الكون بصراخهم ودويّهم. وإذا المفاجأة تصدمني وتذهلني.

لا أستطيع أن استعيد كل ما حصل، ولو أنني أتذكر وجه صادق الرحمي، خاصة بعد الرد الذي كتبه أحدهم باسم مستعار وأفسح له صديقي عدة أعمدة في الجريدة! لن استعيد الأسئلة المثيرة التي واجهتني من أشخاص كثيرين. حتى أقرب الناس إليّ. وإذا كانت نجوى قد تعودت أن تتعاطف مع مواقفي وكتاباتي، فقد قالت هذه المرة إن هذه الطريقة في الكتابة أقرب إلى الاستفزاز الذي يؤدي إلى المشنقة، أو في أحسن الحالات إلى غياهب السجن. وصفاء الذي أطلعه صادق على الحوارية المنشورة، أنبرى قائلاً: «هذه النزوات إن كان لها مبرر في الشباب، فليس لها اليوم، بعد هذا العمر كله، أي مبرر.» وكذلك بدت صبا، فقد وقفت حائرة وأقـرب إلى موافقة الآخرين. ولم يبق أحد من الأصدقاء إلا وعاتبني وأشار إلى الخطأ لذي أواصل ارتكابه دون حساب للنتائج والأخطار!

كنت أقابل هذه الاعتراضات، أول الأمر، بنوع من الصبر ورباطة الجأش، وأحاول التمويه، ولا أنكر أنني جعلت اتمتع بالضجة التي لم أتوقعها. قلت إن ما نشرته جزء من التاريخ القديم دون أن يعني ذلك أنه يمثل بالضرورة وجهة نظري. كنت أدافع عن مضمون الحوارية، وكأني صاحبها، أو كأني أنا الذي كتبتها، مع أن الرد الذي نشرته الجريدة، كان مليئاً باستعداء السلطة عليّ. ثم ان نظرات الكثيرين المشفقة أو الساخرة، وبعض الأحيان الغاضبة أو المستنكرة، هذه الأمور دفعتني إلى أن أقول كلماتي بوضوح، أن أقول كل شيء. ولكن إذا كنت قد أكدت بصوت عال أن ما كتبته جزء من تاريخ الفكر الانساني، وانه يمثل بعضاً من التراث، ولم أفعل أكثر من أن أنقل من التاريخ والتراث بعض الأجـزاء الصادقة والمضيئة، فقد دخلت من حيث لا أريد في دهليز لا ينتهي.

في إحدى المناقشات الصاخبة مع صادق حول الحوارية، أكدت له

مجدداً أنني لم أفعل شيئاً سوى أنني استخرجتها من أحد كتب الماضي، وتصرفت بعض الشيء بتغيير أسماء المتحاورين. وهذا التغيير لم يكن سوء نية مني وإنما محاولة لتقريب الحوارية إلى ذهن القارىء المعاصر. رفض صادق أول الأمر أن يصدق، وأكد أن حوارية مثل هذه «مصنوعة» من قبلي، ومصنوعة بمهارة فنية، وبسوء نية أيضاً، وبخاصة في الجانب السياسي منها، وقد تترتب عليها نتائج سلبية بالنسبة للجريدة! تحولت المناقشة إلى الحديث عن التاريخ وعن التراث، وكيف أفهم التاريخ والتراث، فقلت إن أغلب الناس يقرأون التاريخ كما يشاؤون، تماماً كما يحفظ الانسان بيتاً من الشعر بشكل خاطىء ويصر دائماً على أن يردده بنفس الخطأ. ورغم جو الغيظ والتحسب، فقد قررت أن أواصل اللعبة حتى نهايتها، إلى أن تصل إلى اللحظة المناسبة، إلى لحظة التحدّي الحاسمة، كما يفعل لاعبو البوكر في لحظات اليأس الكبرى، فيكشفون أوراقهم. كنت أريد تأجيل كشف أوراقي حتى اللحظة الأخيرة، فاذا كشفتها حينذاك يكون لها دوي يشبه الرعد.

بعد تلك المناقشات والخصومات المضطربة المضحكة، والتي أصبحت مثل شبكة تطوقني من كل ناحية، وبدا لي أن الجميع يشتركون فيها ويمسكون بجوانبها، طلبت بتواضع جم أن أرد، وهذا من حقي، وأكدت أن ردي لن يتناول المشكلة الأساسية المطروحة في الحوارية، لكي لا يزيد اللغط، وإنما سيكون ردي منصبّاً على موضوع آخر: التاريخ، كيف أفهم التاريخ وكيف أتعامل معه. وافق صادق، ولو بصعوبة، مع رجاءات لم تقلها الكلمات، وإنما قالتها العيون، بأن أصحّح موقفي، وأن أستعيد ثقة الآخرين. قال: «قد لا تعلم يا علاء أننا نمر في مرحلة عصيبة. إننا في غنى عن مشكلات من هذا النوع في الوقت الحاضر.»

دون عناء كتبت بضع صفحات، كانت من أسهل الصفحات التي كتبتها في حياتي، إذ لم تكلفني سوى أن أكتب بخط واضح، وأن أقول، من جديد:

«ما إن أمسى فيليب على مقربة من الكورنثيين حتى اضطربوا،

ومضى كل منهم إلى عمله. فمنهم من بدأ يعدّ الأسلحة، ومنهم من مضى يجلب الحجارة، ومن يصلح السور، ومن يدعم الشرفات والجدران، ومن يقوم إلى جانبه بعمل مفيد آخر. وعلى مرأى من هذا الاستعداد للقتال، لم يرَ ديوجين بداً، وهو الذي لم يكلّفه أحدٌ بشيء، من أن يلملم جبته، ويدحرج بنشاط البرميل الذي كان هو نفسه يسكنه! إنه ليدحرجه من أعلى الكرايتون حتى أسفله، ومن أسفله حتى أعلاه. وإذ رآه أحد أصدقائه وهو في هذه الحال، بادره بالسؤال: ماذا أنت صانع هنا يا ديوجين؟ أجاب: إني أدحرج البرميل، لئلا يبدو عليّ اني بقيت وحدي، ولا عمل لي بين العديد ممن يعملون!»

«أما أنا بدوري، فلكي لا أظل صامتاً بين هذه الأصوات الصاخبة، فقد فكرت في أن أحسن صنعاً لو دحرجت برميلي كما يحلو لي. ولا يعني هذا أنني سأكتب تاريخاً، إذ لم آلف جرأة كهذه، ولكني سأقدم لمن يكتبون التاريخ بعض النصائح والقواعد البسيطة، وبذا أكون قد اسهمت معهم في البناء.

«بيد أن الكثرة من جماعاتنا قد أمست مقتنعة بأن حاجتها للنصح فيما تشرع به، لا تزيد عن حاجتها إلى قواعد المشي والأكل... إنهم ليفكرون أن كتابة التاريخ سهلة جداً وبسيطة، وأنها في متناول يد كل من استطاع التعبير عما يجول في خاطره. بيد أني أخال أنك يا عزيزي تدرك عسر كتابة التاريخ بين الأعمال التي في مقدورنا كتابتها دون عناء. بل على العكس، فليس ثمة عمل أدبي يتطلب عمقاً في التفكير أكثر مما يتطلبه تأليف كتاب خالد، ان هم أرادوا ذلك. وأني لمقتنع كل الاقتناع بأني لن اجنّب إلا عدداً ضئيلاً منهم عن كتابة التاريخ، وسأجني من جراء ذلك كراهية البعض، وبخاصة أولئك الذين انهوا كتابتهم في التاريخ، وقدموها للجمهور، حتى إذا ما نالوا تصفيق الجمهور، أمسى من الجنون أن يأمل أحد في تغييرهم أو تصحيح شيء من مؤلفاتهم بعد أن قُبلت ووضعت في بلاطات الملوك.

«قد لا نكون خارجين عن الموضوع إن نحن أحصينا على سبيل

المثال بعض المؤلفات الرديئة، التي ظهرت حتى الآن. ولنفحص جيداً، قبل كل شيء، أي مدى بلغه خطأ المؤرخين حول النقطة التالية: إن الكثرة إذ تهمل ذكر الحوادث، تركزّ بحثها على مدح الرؤساء والقواد، رافعة حتى الغيوم ما يخصّها، ممعنة في ارخاء الستار على أعدائها، جاهلة أن ما يحد التاريخ ويفصله عن خطاب تقريظي ليس برزخاً ضيقاً، بل ثمة بينهما سور ضخم، بل سلّمان كاملان، على حد تعبير الموسيقيين.

«فالمادح لا يُعنى إلا بشيء واحد هو مدح من يمدحه، وإدخال السرور إلى قلبه، ولو أدى الأمر به في سبيل بلوغ هدفه، إلى افتراء الكذب. أما التاريخ فلا يحتمل البتة السماح بالكذب، مهما كان طفيفاً، أكثر مما يحتمل شريان الطفل عدم وصول الشراب إليه، على حد تعبير الأطباء.

«إنه لعيب كبير أن يجهل المرء الفصل بين ما يتصل بالتاريخ، وما يتصل بالشعر، وأن يدخل زخرف الشعر على تاريخ مقام على الخيال والمديح، والمبالغات الخاصة بكل منهما. عمل كهذا أشبه ما يكون بمن يُلبس الأبطال الأقوياء ذوي الصلابة كصلابة السنديان، ثياباً تزهو بالمرجان وحلي الغانيات، ويغطي وجوههم بالمساحيق! ولكم نجعل هرقل مضحكاً إن نحن أذللناه بمثل هذا التبرج!..

«لذلك، ومن أجل أن يغدو المرء مؤرخاً ممتازاً، عليه أن يستمد من أصالته نفسها صفتين أساسيتين: الذكاء السياسي والوضوح في التعبير.. وعلى كاتب التاريخ في الدرجة الأولى أن يكون ذا فكر مستقل، وألا يخشى أحداً أو يأمل مغنمًا، حتى لا يكون كالقضاة السيئين الذين يصدرون، في سبيل أجرٍ معين، أحكاماً تمليها عليهم رغبة لا صلة لها بالعدل أو المنطق.

«أما خلاف ذلك، فاذا ما عُني المؤرخ بالحاضر فحسب، فاننا نصنّفه بحق بين عداد المداهنين الذين مقتهم التاريخ منذ البداية، بقدر ما تمقت الرياضة التبرّج. وهاكم كذلك كلمة رويت عن الاسكندر: «لشدّ ما أتمنى لو أبعث حياً لزمن ما في العصور القادمة، لأعرف ما الذي يفكر

فيه أناس تلك الأيام وهم يقرأون صفحات التاريخ عن أعمالي. ولئن مدحها أناس اليوم وفاخروا بها، فلا يأخذنك العجب من ذلك، لأن كلاً منهم، كما يخيل إليّ، إنما يسعى، عن طريق هذا الطعُم الذي ليس ضئيلاً، إلى كسب صداقتي وودّي».

«وأخيراً.. يمكن تلخيص هدف كتابة التاريخ إلى شيء أساسي: إذا ما وقعت أحداث مشابهة، ففي الوسع العودة إلى ما سُجِّل سابقاً للافادة منه بما يتصل بالأحداث الحاضرة.

«هكذا يجب أن نكتب التاريخ، ملزمين أنفسنا بأن نتعلق بالحقيقة، ونركزّ آمالنا في المستقبل، بدلاً من أن نكرس نفوسنا للتملق، ابتغاء إرضاء المعاصرين. تلك هي القاعدة وهذا هو القانون الحقيقي. فإن أذعن الناس له، أكون قد أديت عملاً نافعاً مفيداً، وإلا كنت مثل ديوجين، أدحرج برميلي في الكرايتون!»

قرأ رئيس التحرير ما كتبته بعناية هذه المرة. كان يقرأ وينظر إليّ بين فترة وأخرى، حتى إذا انتهى، وضع الأوراق على الطاولة ونظر إليّ بامعان ثم هز رأسه، وقال وهو يبتسم: «أردت أن تكحلها، يا علاء، فأعميتها!»

توقف قليلاً، ثم أضاف بلهجة أبوية قاسية لم أكن أعرفها فيه:

ـ قد يكون ما كتبته صحيحاً من حيث المنطق، لكنه ليس واقعياً. وإذا كنت لا اعترض على الكثير من الأفكار التي جئت بها، واعترف أنك عانيت الكثير في الكتابة وصرفت وقتاً وجهداً في معالجة الموضوع، لكن الواقع غير المنطق في السياسة. الواقع أقوى، ثم أنه القانون الوحيد الذي يحكم كل شيء.

ابتسمت ابتسامة الاشفاق على صديقي القديم. ولكن الابتسامة استفزته، وقال وهو ينقر على الطاولة والأوراق:

ـ أعرف ماذا يدور في ذهنك، ولكنني بعد هذه السنوات الطوال ما عدت مستعداً للدخول في معارك مجانية.

قلت وكأني أخاطب انساناً من عصور سحيقة:

ـ صادق، أنا لم أكتب شيئاً.

رد بحدة:

ـ وهذه الأفكار والقواعد والقوانين التي وضعتها لكتابة التاريخ.. من كتبها؟ هل أنا الذي كتبتها؟

ـ لم يكتبها أي منا!

ـ هبطت من السماء اذن؟

ـ لا.. استخرجتها من بطون الكتب. أو بالأحرى، وجدتها مصادفة في كتاب صدر قبل مدة.

ـ استخرجتها من كتاب؟ كل ما فعلته هو أنك جعلتها على ألسنة جماعة من الاغريق.

وضحك بطريقة كأنه يقول لي بها أن هذه الحيلة لا تنطلي عليه.

قلتُ وأنا أيضاً أضحك:

ـ تأكد أني لم أفعل شيئاً سوى نقل بعض الفقرات من فصل رائع طويل. وهذه الفقرات أقل من كثير غيرها إثارةً للالتباس وسوء الظن، وبالتالي لا ترتب نتائج من أي نوع، سوى أن تضع بعض الضوابط لمن يريد التعامل مع الحقيقة.

قال وهو ينهض من وراء مكْتبه، وكأنه محقق يغير أسلوبه من أجل انتزاع اعتراف المتهم:

ـ اتفق معك يا علاء أن حملة الاسكندر المكدوني منقولة، وقد تكون العمود الفقري الذي نسجت حوله كل الأفكار الأخرى التي تريد أن تورطنا فيها.

نهضت بدوري، قلت وأنا أعطيه ظهري وانظر من النافذة التي كانت تطل على الجبَل البعيد، ولكي لا أترك له فرصة الاكتشاف السهل:

ـ ليس لي فضل في كل هذه الأوراق. لم آت بشيء من عندي. كل كلمة منقولة، وأنا مسؤول عن إثبات هذا!

أتاني صوته بعيداً غامضاً:

ـ لقد حصلت أشياء مثل هذه من قبل، إذ كثيراً ما أدعى بعض الكتاب أن ما يقولونه منقول عن كتب تاريخية، ويصمتون، لا يضيفون كلمة واحدة. أية كتب هذه، ومن هم الذين كتبوها، ومتى؟

ضحكت بصوت عالٍ وأنا استدير على مهل، وأردد كأنني أخاطب نفسي:

ـ مشكلة هذه الأيام أن لا شيء يوحي بالصدق والاستقامة، ولا أحد يحب الحقيقة أو يريد الاعتراف بها.

كان ينظر إلي باستغراب، فتابعت وكأني لا أراه:

ـ الذين يسرقون التاريخ، الذين يسرقون أفكار الآخرين، وينتحلون كل شيء وينسبونه لأنفسهم، يتربعون فوق رؤوس الآخرين، والذين يقولون إننا لم نفعل شيئاً سوى إعادة نقل ما كتبه الآخرون، لا يصدقهم أحد!

قال ببطء، واصرار:

ـ لا أريد أن أدخل في مماحكات ومناقشات عابثة الآن، كما لا أريد أن أصلح الكون...

توقف قليلاً، تقدم نحوي، وسألني وهو ينظر في عيني:

ـ علاء... هل تخولني أن أحذف وأضيف بعض الفقرات لكي ندفع المقال للنشر؟

رددت بصلابة:

ـ بالتأكيد... لا.

ـ لماذا؟

ـ كما قلت، هذه الأفكار والكلمات ليست ملكي، لم أخترعها. إنها ملك التاريخ، ملك الآخريـن. ثم أنها منشورة ويعرفها الناس: يعرفها الذين يقرأون، على قلتهم.

قال وهو يستدير:

ـ يبدو أننا لن نتفاهم ولن نتفق.

قلت لكي انتهي من هذا العبث:

ـ قبل حوالي ألف وثمانمائة سنة، كان هناك انسان، ولد في قرية سورية، في مكان قريب من عمورية. هذا الانسان سافر في الأصقاع، رأى الدنيا واختبر الحياة وعرف البشر وقرأ تراث الأوليـن، ثم رجع إلى قريته الصغيرة، ليكتب. ليكتب الحقيقة التي وجد الناس يتحايلون عليها، ليكتب مع كثير من السخرية من جهل الآخرين وادعاءاتهم الفارغة. هذا الانسان، يا صادق، اسمه لوقيان. وهو الذي كتب كل كلمة من الكلمات التي قرأتها الآن. هو الذي كتب الحوارية التي ولّدت المشاكل بيننا وسوء التفاهم مع الآخرين.. وإذا لم تصدق ما أقوله فسوف آتيك بالكتاب لكي تدقق كل كلمة، ولكي تتأكد ويطمئن قلبك!

لم نتوصل إلى نتيجة. ورغم أنني أطلعته على الكتاب وتأكد من أمانتي في نقل النصوص كلمة كلمة، فقد قلب شفتيه استغراباً ودهشة، والعبارة الوحيدة التي ظل يرددها لفترة طويلة: «ما أشبه الليلة بالبارحة!»

لا. لم نتوصل إلى نتيجة. فالعقل الليبرالي المفتوح، الذي كان يتظاهر به أو يرفعه سيفاً في بعض الأوقات، انغلق مرة واحدة. قلت له وأنا أودعه:

ـ يجب أن ينشر المقال بنصه الكامل... أو لا ينشر. وأن لا ينشر معناه أنني لن أكتب مرة أخرى في «الميزان».

وهكذا كان. طويت مرحلة أخرى من حياتي، وقلت لنفسي بنوع من العزاء: لقد استهلكتني الصحافة، واستنفدت الكثير من الأفكار التي كنت أتغنى بها. والآن.. يجب أن أتوجه إلى عالمي الحقيقي، إلى الرواية،

لكي أتابع فيها كل ما يسكنني من الأحلام والطموحات، واليقينات والشكوك، وشهوات الحاضر والمستقبل كلها.»

[٣٤]

قال لي المحقق، وقد تعب من الحوار:

ـ يمكنك الآن أن تتشاطر، أن تنكر، أو حتى أن تصمت، ويمكن أن نحتمل منك بعض الأحلام التي تملأ رأسك حول براءة الانسان إلى أن تثبت إدانته، وحقه في وجود محام يدافع عنه.. لكن حين تتعب من التوقيف، وبعد أن نهري عظامك، سوف تبحث عنا وتتوسل لكي نستمع إليك وندون أفادتك.

توقف لحظة، امتلأ وجهه بابتسامة ساخرة وأضاف:

ـ ماذا تقول؟

هززت كتفي بعدم اهتمام ولم أتكلم. شعر بالاهانة أو ما يشبه التحدي الذي لا ضرورة له. تقدم نحوي، نظر إلي بامعان وقال بلهجة جديدة:

ـ كثيرون كانت تملأ رؤوسهم الأحلام والأوهام، وكان عجيجهم وضجيجهم يطغى على كل شيء، ولكن أنت جربت، فلماذا تريد أن تعاني أكثر مما ينبغي؟ لماذا تريد أن تعذب نفسك، وتتراجع عن اعترافك، وتسبب المتاعب لك، ولنا أيضاً؟

قلت بحدة:

ـ لا علاقة لي بما حدث واعترافي أمس كان تخلّصاً من الضرب.
ـ كلهم يقولون هكذا في البداية.
ـ ربما كان وهماًسيطر عليّ طيلة البارحة.

تغيرت لهجته وهو يتراجع إلى المنضدة، فيجلس على الحافة:

ـ لم أرَ في حياتي مجرماً يعترف بجريمته. كل واحد منهم، في البداية بريءكالحمل. «لا أعرف، لم أرَ.. لم اسمع»، ولكن بعد فترة.. بعد كم

يوم وكم خيزرانة يهرّ. يتداعى تدريجياً، ثم ينهار. يقبلّ القدم، يبكي كالطفل، يتوسل. وبعضهم يبول في لباسه. . .

أفلتت مني ضحكة ساخرة. لم أكن أريد استفزازه، لكن فجأة وجدت نفسي في موقف التحدي الكامل. قال وهو يهز رأسه موحياً بالفهم والانتظار:

ـ اطلعت على ملفك كله، منذ توقيفك عام ١٩٥٦، وحتى الآن. . . أنا اعرف كل شيء عنك. ليس هذا فقط. . . وأعرف مدى العناد الذي يملأ رأسك.

قال ذلك وهو يشير إلى ملف ضخم على المنضدة، تمزق منه الغلاف عند الحواشي. فقلت:

ـ هل هذه الأوراق كلها عني أنا؟

لم يجب على سؤالي بل قال:

ـ كنت أتصور أن المثاليات التي تملأ رؤوس بعض الشباب والسياسيين والكتّاب تمنعهم عن اقتراف الجرائم.. والآن اكتشف العكس.

ـ لك أن تكتشف أي شيء، هذا أمر خاص بك. أما أنا فيهمني أن أوضح شيئاً واحداً: لا علاقة لي بما حصل!

قفز مثل هرّ عن حافة المنضدة، واقترب مني. وانشدّت أعصابي وصمّمت على القتال. دارت في رأسي أفكار عديدة بسرعة البرق: كيف يجب أن أقاوم، أن أصمد، وكيف يجب أن أدافع عن نفسي مهما كانت النتائج. يبدو أن هاجساً شيطانياً سيطر عليه في تلك اللحظة: قدّرت ذلك من التغير السريع في ملامح الوجه وحركة العينين. اقترب كثيراً مني وهو يتطلع في عيني مباشرة. مرت لحظات بدت لي طويلة وعيوننا تتلاقى في نظرة هي مزيج من الاكتشاف والامتحان والتساؤل. ارتخى وجهه فجأة، وقال بطريقة جديدة تماماً:

ـ اسمع. . استاذ علاء. . .

بدا بعد ذلك متردداً أو غير متأكد، وتابع يريد مواصلة اللعبة:

ـ ستنكشف الحقيقة ذات يوم. هذا شيء مؤكد. كل ما أريده منك هو أن تثق بي، أن تحدثني بصراحة. فالموضوع خطير. وكما ترى، نحن لسنا مجرّد باحثين عن قاتل امرأة. إنما نريد أن نضع هذه المرأة في سياق له معنى، ونستدل بهذا المعنى على السياقات الأخرى.

ابتسم بعد ما تبين له أن هذه البداية لن تغير الموقف، لكنه تابع:

ـ الثقة بيننا معدومة، اعرف ذلك، فأنا محقق وأنت متهم، ولا يمكن، برأيك، أن تتغير هذه الصفات. هذا ما أريد أن أزيله من رأسك. أريد أن نتحدث معاً كأصدقاء. وإذا لم ترد كأصدقاء، فلنتحدث كرجال يريدون أن يصلوا إلى الحقيقة بشكل مباشر ودون أن يتعبوا أنفسهم، أو يتعبوا غيرهم أكثر من اللازم. ماذا تقول؟

بدا لي، في تلك اللحظة، انه يعرف أنه يلعب لعبة خطرة. في عضلات وجهه حركة عصبية غريبة، وفي عينيه بريق متواصل يوحي بأن فكرة من نوع ما تسيطر عليه. كنت متأكداً أنه يعرف أنني لم أقتل نجوى، ويدرك بأعماقه أنه لا يمكن أن أقدم على مثل هذه الجريمة، وأن ما قلته في اليوم السابق كان رعباً وهلوسة. لكن بحكم عمله، مهنته، يجب أن يكتشف المجرم ما دامت هناك جريمة قد وقعت. وكل انسان بنظره مجرم، أو على الأقل مجرم محتمل. وما دمتُ أنا بين يديه فليجرب كل الوسائل، ويتبع كل الأساليب من أجل اكتشاف المجرم.

قلت وقد مرت في ذهني هذه الصور:

ـ إذا كنت تبحث عن الحقيقة وتريد الوصول إليها مباشرة، فالحقيقة هي أن لا علاقة لي بما حدث.

سأل بانفعال:

ـ ما هي علاقتك بالقتيلة؟

ـ صداقة.

ـ صداقة؟ ما معنى صداقة رجل مع امرأة؟

أعرف معنى هذه البدايات الخطرة. الخطوة الأولى - ثم كل الخطوات وراءها. تذكرت المرات السابقة حين كنت أسأل عن علاقاتي السياسية، اتذكر كيف أن الأخطاء الصغيرة، عدم الدقة في الاجابة، وبعض الأحيان الاجابات السريعة، كانت توصل إلى الأخطاء الكبيرة، ثم إلى الحصار الذي لا يمكن أن يفكّه الانسان أو يتخلص منه.

- أنت تريد الحقيقة والصراحة؟ لقد قلت لك الحقيقة، وبصراحة.

- ولكنك لم تقل أي شيء بعد.

- ماذا تريدني أن أقول؟

- ما هي علاقتك بنجوى العامري؟

- اسمع.. انت تعرف تماماً العلاقة التي تربطني بخلدون الثغراني. ونجوى هي زوجته. إنها من أصدقائي. نحن أصدقاء منذ فترة طويلة.

نظر إليّ وابتسم بطريقة لا تخفى دلالتها. قلت بتحد:

- لا أسمح، نعم، لا أسمح بأية اتهامات أو افتراءات.

وكان جوابه أن رفع حاجبيه بدهشة مفتعلة، قائلاً: «ما شاء الله! ما شاء الله!»

ثم استدرك مواصلاً اللعبة السمجة:

- لا تسيء فهمي. أنا لا أتهمك، ولا أفتري عليك. هاك سيكارة.

وقدّم لي سيكارة أجنبية، وأخذتها، وأخذ هو أخرى، وأشعلها لي، ولنفسه.

وقال مستطرداً:

- كل يوم أقول لنفسي يجب أن أترك التدخين. كل يوم انهض صباحاً، وأسعل كالشيخ العجوز. وبعد ساعتين، أرى السيكارة بين أصابعي. هل تدخن أنت كثيراً؟

- عندما أكتب، أكثر من التدخين.

- التدخين مضرّ.. والحاصل.. استاذ علاء، السيدة نجوى العامري، كما قلت، هي زوجة صديقك خلدون الثغراني.

ـ نعم.
ـ أين هو؟
ـ سافر منذ مدة ـ إلى باريس، فيما أعلم. ألم يعد؟
ـ السيدة نجوى هذه . . .
ـ نعم؟
ـ ابنة من هي؟ أعني ما اسم أبيها؟
ـ فدهشت لسؤاله، وقلت:
ـ أليس اسمها الكامل في الأوراق هذه التي على طاولتك؟
وببراءة الطفل قال:
ـ نجوى العامري . . . هذا اسم غير كامل. ما اسمها الكامل؟
وهنا حدّق في عيني، كأنه ينفذ منهما إلى سرّ في دخيلتي. فقلت:
ـ نجوى محسن سليمان العامري. أظن أن هذا اسمها الكامل.
ـ لا. لا، استاذ علاء . . .

وهز رأسه كأنه واثق من أنني أكذب، أو أنني سخيف جاهل، أهرف بما لا أعرف.

ـ ماذا تقصد؟ كان والدها المرحوم شخصية بارزة في عمورية. كان عضواً في المجلس النيابي، ومحامياً كبيراً ـ

فقاطعني: «لا، لا. أنت واهم يا أستاذ.»

فقلت ساخراً، وأنا أنفث موجة كبيرة من الدخان في الجو:

ـ اذن أنت أعلم بها مني. خبّرني أنت، يا سيدي.

لم أكن لأفضح سرها العائلي، حتى لو عُذّبت كل يوم. على الأقل، سأقاوم ما استطعت. هذا ما قلته لنفسي، بينما نزل المحقق عن حافة المنضدة، واستدار حولها، وجلس في كرسيه، وتناول ملفاً تبدو عليه الجدة، وأخرج منه عدة أوراق أجال فيها عينيه بسرعة، والسيكارة عالقة بزاوية فمه، يتصاعد منها الدخان. ثم أخذها بين أصبعيه وأطفأها بحدة

في المنفضة، وقال:

ـ لست أدري لم هذا الاصرار على التغابي؟ لم هذا التضليل؟

لم أكن يوماً من الغباء بحيث أصدق أن ملفات الشرطة هي منارة الصدق وينبوع الحقيقة، وقلت لنفسي: مثل آخر على الترهات التي يقيمونها لأنفسهم ويستنتجون منها ما يشاؤون. وأجبته (كم تمنيت لو أعرف اسمه!):

ـ أي تغاب، أي تضليل؟

وقمت وأطفأت سيكارتي في منفضته. أخذ نفساً طويلاً، وزفر بعده زفرة طالب الصبر، وقال كمن هيأ نفسه لصيد سمين:

ـ هل تعرف في أية سنة ولدت القتيلة؟

فتجاهلت: «في أواخر الأربعينات، فيما أظن.»

ـ جيد. وكم كان عمر محسن العامري، أيامئذ؟

ـ لا أدري.

ـ في أواسط خمسيناته. ألا تعتقد؟

خيل إليّ في الحال أن ملف التحقيق يحوي التفاصيل التي كنت أتكتم بشأنها. غير أنني أصررت على تجاهلي. وليكشف المحقق من الخفايا ما يريد. فقلت:

ـ وما علاقة عمره، بعمر ابنته؟

فاستدرك، وما زالت لهجته لهجة من هو مسترسل في لعبة قد تستغرق شيئاً من الوقت:

ـ حقك! قد يولد له ولد وهو في أواسط الخمسينات من عمره. ولكن زوجته؟ ألم تكن أيضاً في خمسيناتها؟

ـ ومن أين لي أن أعرف ذلك كله؟ ربما كانت أصغر من زوجها بكثير؟

ـ صحيح! المهم: محسن العامري، هل كانت له أخت غير شقيقة؟

وشعرت أنه أدخل عنصراً غريباً في القضية لا أعرف عنه شيئاً.
قلت:

ـ أخت؟ والله لا أدري.

ـ نعم. كانت له أخت تصغره بحوالي عشرين سنة، ألم تسمع بها؟ زينب سليمان العامري.

وفتح الملف مرة أخرى، ودقق في إحدى الأوراق. ثم أردف:

ـ نعم، زينب. لم تحظ المسكينة بزوج، وبقيت تقيم مع أخيها الأكبر.

أخرج سيكارة أخرى من العلبة، وأشعلها، دون أن يقدم واحدة إليّ. وسألني:

ـ هل كنت تعرفها؟ أو هل سمعت بها؟

ـ أبداً. أنا أصلاً لا صلة لي بهذه العائلة، من قريب أو بعيد، فيما عدا صداقتي لخلدون وزوجته نجوى.

ـ لا بأس. ولنختصر القصة. كان لمحسن في تلك الأيام سائق يدعى علي... لسوء الحظ لا يذكر أحد اسمه الكامل. يقال إنه كان شاباً وسيماً. قيل إنه كان سورياً، وقيل فلسطينياً، نزح من إحدى قرى حيفا في أواسط عام ١٩٤٨. ولكن تحقيقاتنا أكدت أنه كان عمورياً، من إحدى قرى الجبل.

توقف المحقق، وحدّق في عيني مرة أخرى والسيكارة في فمه، وأطلق دفعة كبيرة من الدخان في اتجاهي. وبعد صمت قصير قال:

ـ فهمت الباقي؟

طبعاً فهمت ما الذي يرمي إليه، وقد أغضبني جداً، وحسبت أنه طعم آخر يدليه أمام أنفي ليوقعني في فخ لم أعرف بعد ما هو. غير أنني أصررت على تجاهلي.

ـ لا، لم أفهم.

ـ المسألة واضحة، يا أستاذ. هذا السائق الشاب، وقع في حب

الست زينب. أو بالأحرى، وقعت هي في حبه. وما الذي تتوقع من امرأة دون الأربعين، غنية، بطرانة، ومحرومة؟ أغرت السائق. . . والنتيجة أنها حبلت منه. . . فهرب المسكين رعباً. أما هي، فلم تستطع الهرب. . .

ـ والنتيجة؟

ـ النتيجة، أن زينب سافرت إلى لبنان ستراً للفضيحة، وأن المسكينة المدعوة نجوى ولدت في أحد مستشفيات بيروت. ولم تعد الأم إلى عمورية. والتي عادت هي الطفلة نجوى، مع أبيها المزعوم ـ أي خالها ـ محسن العامري. . .

ـ وزينب؟

ـ لا أحد يعلم ماذا تم من أمرها. أغلب الظن أنها ماتت بعد ذلك بسنوات في الغربة.

استسخفت القصة كلها، من أساسها. ولو أنني بيني وبين نفسي، دهشت للتشويه والتخرصات التي قد تسجل على أي انسان باعتبارها حقائق، ووثائق. وتخيلت نجوى بكبريائها السويلمية، بعنقها الممشوق، بشعرها الالهي، وهي تسمع هذه التلفيقات الحقيرة، وتدفعها عنها بضحكة ازدراء. ولكنني انتبهت إلى أن المحقق ما زال يطيل إلَيّ النظر، كأنه ينتظر مني ردة فعل معينة. فقلت:

ـ غريب. غريب جداً. واسمح لي أن أقول إني أجد هذا الكلام صعب التصديق.

ـ ألم تكن تعرف هذا؟ ألم يحدثك أحد عنه؟

فكذبت عامداً: «لا. ثم، ما دخل كل هذا بي أنا؟»

ومرة أخرى، راح المحقق، دون أن يسرع بالجواب، يقلب الأوراق في إضبارته. أطفأ سيكارته على مهل. ثم سألني:

ـ ماذا يكون منك خالد سلوم؟

فوجئت بسؤاله، وتهيأت لجولة أخرى من لعبته. وقلت مماطلاً:

ـ خالد سلوم؟ أي خالد سلوم؟

ـ خالد أدهم سلوم. ماذا، ألا تعرف عشيرتك؟
ـ آ، العفو! طبعاً، خالد كان... عم والدي. ما دخله؟ لا أذكر أن كان قد توفي قبل أن أولد ـ أو ربما بعد ذلك بقليل.
ـ وشهاب خالد سلوم؟
ـ ابن عم أبي بالطبع.
ـ عال. الآن بدأنا نتفاهم.
ـ آسف. ما زلت لا أفهم شيئاً.
ـ كيف مات شهاب سلوم، ابـن عم أبيك؟
ـ أعدم نتيجة اتهامه بعمل سياسي مناوىء للسلطة.
ـ تقصد لأنه قبض عليه متآمراً عام ١٩٤٩ ـ هـو وآخرون.. صح؟
ـ آ.. هذه هي الرواية الرسمية.
ـ وعائشة العامري ـ عائشة فؤاد سليمان؟

وضيّق عينيه، مركزاً شعاعاً منهما في عيني، ومنتظراً مني شيئاً أقوله. ولكنني لم أرَ الصلة بينها وبين القصة التي انتهى من روايتها. وقلت:

ـ ما بها؟ وضحّ لي، أرجوك.
ـ ألا تعلم يا أستاذ علاء، أن عائشة العامري كانت زوجة شهاب خالد؟

فرددت بعصبية:

ـ أبداً. أخشى أنك تتقصد أمراً تظن أنه سيساعدك في اتهامي. ماذا تريد أن تقول لي بالضبط؟
ـ يدهشني أن أديباً كبيراً مثلك، درس في أكبر الجامعات الغربية، يؤلف الكتب، ويعمل استاذاً في أكاديمية جامعية، يقبل بهذه المواربة، وينكر مثل هذه الحقائق الأولية. عندما ألقي القبض على شهاب سلوم عام ١٩٤٩ تبين أنه كان قد تزوج من فتاة اسمها عائشة. ابنة فؤاد العامري ـ يعني، ابنة أخي النائب في المجلس النيابي محسن سليمان.

وكان لا بد أن استمر في مخاتلتي. فقلت:

ـ الذي أعرفه هو أن زوجة شهاب كانت حمدية سلوم، وقد طلقها

قبل اعدامه بمدة.

ـ يبدو أن شهاب تزوج ثانية. وقد تزوج عائشة رغماً عن ارادة أهلها.

ـ وبعد ذلك؟

ـ إذا كنت أنت لا تعلم بذلك، فلربما كان أبوك يعلم، ولم يخبرك؟

ـ محتمل.

ـ ولا استبعد أن شهاب سلوم، لو نجح في مؤمراته ـ لربما أعدم محسن العامري وأخاه كليهما ـ أو لربما استطاعت زوجته اقناعه بتغيير رأيه؟

ـ من يدري، من يدري؟

وراح يسترسل، متلذذاً بقصته الجديدة، كأنه يروي قصة فيلم شاهده البارحة:

ـ يظهر أن ابن عم أبيك هذا، شهاب، كان شخصية غريبة. نصفه تحت الأرض، ولا شك. كان كتوماً بشأن نفسه، كأنه يهيء لنفسه دوراً كبيراً يلعبه في المستقبل، يحتم عليه في البداية التخفي، والتحرك سراً، وعدم اعطاء عنوانه لأحد، ولا سيما بعد اعتقاله بعد الحرب العالمية مباشرة بتهمة تنظيم حزب سياسي يرمي إلى الاطاحة بالحكم. غير أنه أطلق سراحه لعدم ثبوت التهمة عليه. أما كيف استطاع أن يقنع عائشة بالانضمام اليه، وهي ابنة أحد كبار المتنفذين في عمورية في تلك الفترة ـ

ـ اتقصد أنها كانت تعمل معه، سياسياً؟

ـ على الأرجح. وإلا، كيف ترضى بأن تترك أهلها، ودارها المترفة لتعيش مشرّدة، تنتقل من بيت لآخر، من قرية لأخرى، حيث لا يعرفهما أحد؟ أنا لا أفهم النساء. عائشة تعاشر عدواً لأسرتها، وزينب تغوي سائق أبيها... ترى هل من صلة بين القضيتين؟ أليس غريباً أن أباك لم يسمع بكل هذا؟

ـ ما سمعه أبي هو ما كانت تعرفه الأسرة كلها. وهو أن ابن عمه شهاب خالد ألقي القبض عليه، ولم يره أحد من أهله بعد ذلك، حتى بعد اعدامه.

عاد المحقق إلى أوراقه، ورفع واحدة ووضع أخرى، وبقدر عدم اقتناعي بقصته، لم يقتنع هو بما قلته عن جهل أبي، أو جهلي أنا، بالقصة كلها. واستأنف الكلام بشيء من السرعة هذه المرة:

ـ عائشة توفيت في عين فجار. ووفاتها هي التي فضحت أمر زواجها لدى الجيران لأنها أخبرتهم باسم زوجها، وكذلك باسم أبيها، وهي في حالة النزع. فذهب اليها أبوها فؤاد العامري، بعد فوات الأوان. لم ينقل جثمان ابنته إلى بيته. . . دفن ابنته في القرية. اتزعم أنك لم تكن على علم بهذا كله؟ أو بعضه؟

أردت قطع الطريق عليه عند تلك النقطة. فقلت:

ـ أرجوك، ما هي لعبتك معي؟

وإذا هو ينهض حانقاً، وقد أحمرت عيناه الكبيرتان، ويضرب بقبضته عل المنضدة بعنف، كأنه يعوّض بذلك عن ضربي أنا، ويقول:

ـ لا فائدة من اللطف معك! الدار التي سكنها المجرم شهاب خالد في عين فجار كانت ملك أبيك، وهي اليوم ملكك، وقد جعلت منها دارك الريفية. وتدّعي أنك لا تعرف الجواب على أسئلتي! أليس من الممكن أن نجوى قتلت، بشكل ما، تسديداً لحسابات عائلية لا علم لي بها؟ ماذا أعرف أنا عن علاقاتكم المتداخلة الشريرة؟الاغتيالات التسعة التي تمت في الأسابيع الأخيرة، ألا يمكن أن تكون جزءاً من شبكة محاكة من قبل أطراف عديدة تستهدف أمراً معيناً؟ أليس من الممكن أنك أردت أن تحطم شرف أبنة محسن العامري انتقاماً لمصرع ابن عمك؟ أليس من الممكن أن يكون السائق، أبو نجوى الحقيقي، قد علم بأن ابنته التي لم يكن يعرف عنها شيئاً قد أصبحت من أغنى نساء عمورية، وجاءها بعد ثلاثين عاماً من اختفائه يطالب، ويتهدد، مما أدى إلى مصرعها؟ قبل مقتلها بيومين عثرنا على جثة رجل قتل طعناً بسكين، في زقاق في الخميلة، ولم نعرف حتى الآن من هو. يبدو أنه في الخمسينات من عمره، وثيابه ريفية. أليس من الممكن أن يكون هذا الرجل أباها، ازاحه اناس معينون عن الطريق إبعاداً للشبهات حول أصل المغدورة نجوى؟ وهذا بدوره أدى إلى قتلها، انتقاماً

له. أليس من الممكن أنك استُخدمت عن وعي أو غير وعي لأغراض لا تخطر ببالك؟ ثم، قل لي: أليس أدهم نجيب أخاك؟

قلت: «نعم. وما به؟»

ـ يقاتل مع الفلسطينين، ويكتب قصائد سياسية؟

ـ نعم.

سكت، وفتح المجر الأيمن من منضدته، وأخرج مسدساً كبيراً، وجعل يروزه في كفه أمامي، وهو صامت، مركزاً نظره في عيني.

ـ هذا السلاح، أتعرفه؟

ـ آ، نعم. اعرف هذا المسدس. وجدتموه في داري، بعين فجار. أليس كذلك؟

ـ وجدناه مخبأ عندك.

ـ في العليّة، بين أكداس الأوراق.

ـ بالضبط.

ـ انه مسدس شهاب خالد. وإذا تأملت فيه جيداً، وجدت أن الصدأ يعلوه.

ـ غير مهم. أما المهم، فهو أنك كنت تخبىء سلاحاً في دارك. وهو غير مجاز. أم أنه مجاز؟

ـ لا. غير مجاز. كنت احتفظ به مع بقايا أوراق ابن عم أبي. كقطعة أثرية.

ـ إلى يوم تأتون أنتم وأمثالكم إلى الحكم؟

فقلت بحدة هذه المرة:

ـ أنك تقفز من فرضياتك الوهمية إلى نتائجك الوهمية، يا سيدي.

ـ صحيح؟ وكتاباتك عن العواصف التي ستجتاح عمورية قريباً، هل هي فرضيات وهمية أيضاً؟

ودق بسبابته على مجموعة من الأوراق كان قد فتح الاضبارة عليها. ثم أضاف: «لنرَ من هو صاحب الأوهام، أستاذ.»

ضغط على زر الجرس الذي على منضدته، وسأل:

ـ ألديك شيء تقوله؟ تكلم! ألديك شيء تقوله؟

شعرت أن أعصابي تتقطع وأن رأسي يـدورويدور، وأن ضحكة عالية تنطلق من حلقي، ضحكة عالية بلهاء، حفاظاً مني على توازني. فكرر سؤاله بلهجة غاضبة:

ـ ألديك شيء تقوله؟

قلت:

ـ ألديّ شيء أقوله؟ لديّ الكثير. أكثر مما تتصور.
ـ انطق اذن، وخلّصني!
ـ الآن؟
ـ الآن، طبعاً.
ـ آسف.
ـ آسف؟ طيب...

دخل علينا شاب اسمر، طويل القامة، كثيف الحاجبين، له واحد من تلك الوجوه التي يكرر الخالق نسخها كل يوم مليون مرة، فتجيء خالية من كلٍ سمة يمكن تذكرها. كان كالمحقق، يرتدي بدلة مدنية وكأنه مشجبُ ركّبت عليه. حيا سيده رافعاً كفه إلى جبينه، وضارباً قدمه بالأرض. فقال له المحقق:

ـ أبو محمود، عندي موعد. خذه معك. انفرادي.

وأعاد أبو محمود التحية نفسها. ثم جاء إليّ وأمسك بي من ذراعي، فلم استطع النهوض إلا بمشقة. دفعني أمامه بغلظة، وخرج بي من غرفة التحقيق. وفي الرواق ركلني بغتة من الخلف بين اليتيّ بمقدّم حذائه ركلة ارسلتني زاحفاً على وجهي على أرض الرواق مسافة طويلة.

[٣٥]

لم أكن أرى شيئا . ظلام مطبق . أنائما كنت أم مستيقظا ؟ كنت جالسا على صندوق ، أو ما أحسست أنه صندوق تحت مؤخرتي . والجدران الأربعة ـ عددتها بحذر ـ لاصقة بي . ربما كان أحدها بابا . كان ملمسه كالخشب ، أو كالحديد الصدىء . والجدران التي جعلت اتلمّسها في الظلام كانت خشنة ومجرّحة ، اتتبع المداميك فيها ، واعدّها ، فأقوم عن الصندوق لكي استمر في عدّها صُعُدا ، ولكن ذراعي ترفض أن ترفع يدي إلى أكثر من مستوى كتفي ، وتنثني ركبتاي تحت ثقلي ، وأهبط على مؤخرتي . شيء ما كان يقطر عليّ من فوق : يقطر عليّ وحواليّ . ومرّة أو مرتين احسست أن رائحته كريهة ـ مزيج من البول ، والبراز ، والعفن . وهو على مهل يقطر ، يقطر ، دونما ايقاع معين . شيء آخر كان يتحرّك ـ على جسمي . كان يتحرّك ـ على جسمي . في صدري ، بين فخذيّ . يرعاني ، يحكني . على قذالي ، على ساقي . وتساءلت : صراصر ؟ عقارب ؟ عناكب ؟ ثم قلت : لا ! قمل . قمل . طيب ، أحسن من العقارب . هل أنا أحلم ؟ هل أنا نائم ؟ لا ، لست نائما ، لست نائما ، رحت أردد . ولكن . . من أنا ؟ من أنا ؟ وأين أنا ؟ اسمع اصواتا من بعيد . من وراء الجدار الذي أمامي ، والذي اعتقدت أنه الباب . اسمع اصواتا مبهمة . أصخت السمع . قمت عن الصندوق قليلا ، والصقت اذني بالباب . موسيقى ؟ صراخ ؟ بكاء ؟ شجار ؟ كلها تتداخل ، وتستمر . خُيّل إليّ أن أحداً زعق زعقة مكتومة ، ثم تناهت إليّ انغام اسمعها بصعوبة ـ انغام جاز . أم أنها موسيقى كلاسيكية ؟ عدت إلى مقعدي ، وحدّقت بالباب ـ أو باتجاه ما بقيت أظن أنه الباب . . الدلف مستمر ، ولكنه الآن أقل . وقعت قطرة على أنفي ، باردة لزجة . وحدّقت بالباب ، ورأيت فجأة ثقبا صغيرا يكاد يكون على مستوى النظر مني وأنا في وضعي الجالس . لعله ثقب مسمار خُلع من مكانه . شيء كالنور تخايل

إليّ من خلال الثقب . الصقت عيني به ، فلم أرَ شيئا ، ولكن عندما تراجعت وصرت على بعد ثلاثة أو أربعة أشبار منه ، رأيته مرة أخرى . ركّزت نظري فيه . غريب ! إنه يتسع شيئا فشيئا . وتتسع معه رقعة النور ـ ولو أنه نور خاب . فاندفعت ، وألصقت عيني بالثقب . ومرة أخرى ، انغلق ! عدت إلى وضعي السابق فلم أره ، وشعرت أنني ضيّعته . وجعلت ابحث بنظري في السواد الحالك . وفجأة وقعت عيني عليه . . . ها هو ! . . لن اتحرك . فهو أمامي ما دمت أنا على هذا البعد منه . وعادت رقعة النور . . . الله ! إنها تتسع ! إنها تكشف عن اشياء تتحرك وراءها . . . وجوه . . أناس . . . خيـول . . . سيارات . . . أراها . ولكنني لا اعرفها . لا اتبيّن شيئا واضحا فيها . وبخاصـة الوجوه . نساء ؟ رجال ؟ تَتَبّعْتُها باهتمام وأنا احك صدري . أحك عانتي ، رأسي ، بعنف ولكنني اتتبع الحركة الدائبة وراء الباب . اتسع الثقب حتى صار اشبه بقرص الشمس الملفعّة بالضباب . واحسست أنني لو وضعت رأسي فيه ، لربما استطعت النفاذ منه . ولكنني تسمّرت مكاني ، عالما بأنني إذا اقتربت منه ، انسدّ دوني مرة أخرى . . . الله ! هذا البحر ! البحر الأزرق الرائع ! هل أنا في مكان على البحر ؟ هل هذا هدير الأمواج اسمعه ؟ لا ، إنه موسيقى غير واضحة ، ولغط أناس يتحدثون . لو أنني فقط أفهم ما الذي يقولونه ! ولماذا أريد أن أفهم ما الذي يقولونه ؟ من أنا ؟ ماذا يهمونني ؟ هذه المرأة النازلة من سيارتها . . . أعرفها ! أعرفها ! أعرف هذا الشعر الطويل المرسل ! هذا القوام المرتدي بنطلون الجينز والكنزة الحمراء ـ اعرفه . . . إنها تترك السيارة ، وتركض في طريق صخري ، منحدرة إلى البحر . . . إلى دار حجرية ذات قوسـين ، شباكين . الدار جاثمة على صخرة عملاقة ، أو صخور كثيرة متلاصقة . الباب . صاحبة الشعر الطويل تدق الباب بقبضة يدها . وينفتح . إنني افتحه بنفسي . تدخل زائرتي مستعجلة ، خـائفة ، وتصفق البـاب وراءها . واقفله بالمفتاح . اعانقها ، أقبّلها . شفتاها جافتان . تنسحب من بين ذراعي ، وتقول شيئا لا أفهمه . لا أميّز الكلمات في صوتها . آخذها من يدها باتجاه النافذة العريضة التي تطل على بحر هائج ، أمواجه

تتقاذف وتتراشق ويبلغ رذاذها زجاج النافذة . أنظر إليها ولا أفهم ماذا تقول . وأحس أنها جميلة ، جميلة لحدّ الألم . ماذا استطيع أن أفعل إزاء هذا الجمال كله ؟ أأقبّله ؟ أألتهمه ؟ أأموت فيه بشكل ما ؟ ولكنها تستمر في الكلام، مرتعبة . تفتح بالمفتاح بابا جانبيا يؤدي إلى درج ضيق، وتجرنيّ من يدي إليه . تقفل الباب وراءنا بنفسها ، وننزل الدرج إلى غرفة المخزن ، وفيها كراسي تكوّم بعضها على بعض . نتعاون على تعديل وضع كرسيّ كبير ، أعرف أنه مخلّع . اجلس فيه ، وتجلس هي على ركبتي ، ثم احتضنها . الرعب لا يفارقها . اشعر بضربات قلبها تحت يدي وأنا أحاول ألاّ أُعدىٰ بخوفها . اهدهدها في حضني ، كطفلة . فتبكي . وتبكي . وافهم منها كلمة ترددها : سيقتلوننا . أو لعلها كانت تقول : سيقتلونني ، سيقتلونني . تقصف الأمواج وتخبط على الصخور القريبة ، وشيء منها يضرب زجاج النافذة الصغيرة . في وسط الهدير والرعب ، اشعر بأمان غريب ، وأريد للمضطجعة في حضني أن تشعر بمثل ذلك الأمان . ولكني أعرف أنه امان الهارب إلى مكان مؤقت . المخزن مغلق من كل نواحيه . أي يد يمكن أن تصل إلينا فيه؟ هذا ما أقوله لها . من هم هؤلاء القتلة ؟ ومن يعرف طريقه إلى « المجنونة »؟ « المجنونة »! الأسم مألوف . اعرفه . ينقطع بكاؤها . وإذا هي نائمة في حضني . ولبرهة خشيت أنها قد ماتت . . . ولكن تنفسها بات ظاهرا . نهداها يعلوان وينخفضان بانتظام . وبنعومة زلقتها عن حضني ، واضجعتها على الأرض . وبقيت نائمة . نظرت من النافذة الصغيرة فلم أرَ إلاّ البحر يمتدّ إلى ما لا نهاية ، مُرْبدًا ، في لون الطين ، والأمواج تتصارع . تركتها ، وعدت إلى الدرج . صعدت الدرج بحذر ، وعند الباب الحديدي في اعلاه ، توقفت وانصتّ . سكونٌ تام في وسط دوي الموج . أدرت المفتاح الذي في قفل الباب ، ودخلت إلى الغرفة . وزيادة في الحيطة ، أخرجت المفتاح من ناحية الدرج، وأغلقت الباب ، وقفلته من جديد ، ووضعت المفتاح في جيبي . توجهت إلى غرفة النوم وتفقدتها ، ودخلت الحمّام الصغير ، وخرجت منه . ثم سمعت قرعا شديداً على باب المدخل . وقفت مكاني ، انتظر. عاد القرع بأشد من

قبل . سرت نحوه ، وفتحت الباب . دخل رجلان لا اعرفهما . يسألان عن شيء . لا اعرف عما أو عمّن يسألان . ربما عن المرأة الراقدة في المخزن ؟ تفقّدا غرفة النوم . ثم الحمّام . ثم جرب احدهما باب الدرج فلم ينفتح . أين المفتاح ؟ سمعت العيطة بوضوح . لا اعرف ، قلت . هجم كلاهما عليّ معا ، ودس احدهما يده في جيوبي واحدا واحدا ، وأخرج منها كل شيء . وأخرج المفتاح الوحيد الذي لم يكن في حلقة كغيره من المفاتيح . جربّه في القفل فانفتح . دفع الباب ، ولما امسكت به لأمنعه عن النزول ، رأيت ذات الشعر الطويل واقفة على الدرج . زعقتْ زعقة رهيبة . وسقطتْ على وجهها . رأيت مسدسا يقذف نحوها على الدرج . تعاركتُ مع واحد منهما ، واوقعته على الأرض ، وأنا فوقه احسست بضربة فظيعة في ظهري . تملّص الأثنان ، وانطلقا من المدخل المفتوح . عندما أدركت الباب وركضت إلى الخارج ، لم أرَ إلا الظلام . عدت إلى الدرج . لم أرَ شيئا . سواد مطلق . هل انغلق الثقب ؟ لا ، لا! صحت : أين أنت أيها الثقب اللعين ؟ وبحثت في السواد الحالك . قمت عن مقعدي وخبطت على الباب . . اصغيت . . أصواتٌ مبهمة . اصوات بشرية ، تخالطها موسيقى . . . بقبضتيّ الأثنتين خبطت على الباب ، على الجدران الأربعة . اخرجوني يا أولاد الكلب ! اقتلوني ! بس اخرجوني . . . يا مجرمين ، يا قتلة ! اخرجوني !. . اصغيت : ارتفعت الأصوات في ضوضاء ، كضوضاء الشوارع المزدحمة ، ثم عاد هدير البحر ، وقصف الموج . انثنت ركبتاي . تهاويت وتكومت بين الباب والصندوق على أرض مبلّلة ، زلقة . وجسمي يحك في كل بقعة منه . وانفتح الثقب مرة أخرى . وضعت اصبعي عليه ، لكي لا أفقد مكانه بالتحديد . وعدت إلى جلستي على الصندوق . ورفعت اصبعي ، فانكشف عن نور ساطع ، كأن شعاعا من الشمس قد سقط في بئر عميقة . ورأيت دلوا ينزل ، ويختفي . ثم نزل دلو آخر . وسمعته يضرب الماء . ثم نزلت ذات الشعر الأسود ، ورأسها إلى الأسفل واقتربت من الثقب ونظرت إليّ ، وكأنها معلقة من قدميها . تتدلىّ ، ناظرة إليّ ، وتبتسم . وقلت : حبيبتي ، حبيبتي ! تعالي ، أدخلي . نسيت اسمك .

فقالت : اسمي . . . ولم أسمع الأسم بوضوح . دخلت وكأنها تسبح إليّ ، رأسها أولاً ، ثم صدرها . ثدياها عاريان . ما اجملهما ! جلست في حضني . وضعت يدي على صدرها ، فانشق، وتدفق عليّ الدم . تدفق كالماء من حنفية قوية ، واغرقني . صرخت . صرخت . صرخت حتى ما عادت حنجرتي تطلق صوتا . ولم أر شيئا سوى الظلام . رفعت يديّ فلم أرهما . فركت وجهي بهما لأتأكد أنهما يداي ، وأنني ما زلت احرّك يديّ أنا . تساقطت عليهما قطرات لزجة . وقررت : لا يهمّ من أنا ، أو أين أنا . سأبقى مكاني . ولن اصرخ . وإذا انفتح الثقب ، سأحاول ألاّ أنظر إليه . ساغمض عينيّ . وعندما انفتح فعلا ، سددته باصبعي . فانفتح ثقب آخر فوقه . سددته بيدي . فأنفتح ثقب ثالث قربه . استسلمت ، ونظرت . وعاد النور . وعادت الخيول تركض . الخيول ! آه ! كان هناك رجل اعرفه يعشق الخيل ، ولكن هذا ليس هو . ولا هذا . . . الخيالة يملاؤ ن الجبل الأخضر . . . وقع حوافر افراسهم ، وهي تطارد ، يملاء رأسي . وأنا على صهوة حصاني ، انتظر تحت شجرة كبيرة . اخرج قدميّ من الركاب ، وأرفعهما إلى ظهر الحصان على السرج ، ثم أنتصب بطول قامتي ، وأرفع يدي واتعلق بفرع من فروع الشجرة ، وأطفر إليها ، والأغصان تلتفّ حولي . وأرى بينها قدما عارية ، فوق رأسي . فأمدّ اصابعي ، وأمسك بها وأجرها إليّ . وينزل لصق وجهي وفمي فخذان ناعمان املسان ، وتستقر على غصن امامي ذات الشعر الطويل . ونقفز معا إلى الأرض ، ونركض إلى صخرة قريبة . والماء يثرثر رقراقا قربها . وننحني كلانا على رُكَبنا وأيدينا ، ونشرب . وهي تنظر إليّ جانبيا ـ ماذا أفعل بهذا الجمال الرهيب؟ أمد يدي إليها ، واسحبها إليّ ، وتنصاع كالعصفور . ادفعها إلى الماء الجاري ، وأقع في الماء معها . ويحملنا الماء إلى الوادي . واسمع ركض الخيول وهي تتناءى ، وشعر المرأة المستلقية منتشر على الماء ، كأنها غريقة . ووجهها كالقناع . هل ماتت ؟ هل ماتت ؟ وانقلبت على ظهري . واحسست بثقلها وهي تلقي بنفسها على صدري ، وتغمر رأسي بشعرها الفاحم ، وينتشر السواد . ولا أرى شيئا . سواد في سواد في سواد .

[٣٦]

كيف بدأت المسألة ؟

أرض شرقي عمورية تبعد أكثر من ثلاثين كيلومترا كانت قبل سنين قليلة مهملة ، لم يكن أحد يعرف أين تقع وماذا تعني ، تحولت فجأة إلى ملحمة لا تقع احداثها وتفاصيلها من فم نجوى . فجأة اصبحت نجوى خبيرة في قوانين الأراضي والملكية والميراث وتعرف اضعاف ما يعرفه مثقف بائس مثلي ، لأن هذه الأرض سوف تصبح المطار الجديد لعمورية ، ولأن الورثة والمدعين بملكية الأرض اختلفوا وبدأت المنازعات بينهم، ويبدو أن محسن العامري كان المالك الوحيد ، أو ربما المالك الأكبر ، لكن الآخرين لا يريدون أن يسلّموا بسهولة ، وقد ينقضي وقت قبل أن تحل هذه المشكلة .

« المشكلة حياة أو موت » : هكذا تؤكد نجوى وهي تغمز بعينها لصفاء بطريقة ماكرة . وهكذا طرحت القضية قبل بضعة أيام ، وكنا نسهر عند صفاء . ولا أعرف كيف تشعب الحديث أول الأمر ثم أخذ مجرى حدده له صفاء . ومن خلال المجرى الجديد تم الاتفاق على تعيين مكتب صبري حسّان للمحاماة ، المعتبر الأول والأهم في عمورية ، لكي يتابع هذا الموضوع . وتم الاتفاق أيضاً على أن تباع الأرض المجاورة والعائدة لمحسن العامري إلى شركة كان صفاء قد ساهم بانشائها مع مجموعة من النافذين والمقربّين من السلطة ، وتم الأتفاق أيضاً وفي تلك الليلة ، أن ينشىء خلدون شركة مقاولات تتولى فرز وتقسيم مجموعة أخرى من الأراضي القريبة والبعيدة ، لكي تقام عليها ابنية سكنية متنوعة : مجموعة من الفيلات ، إضافة إلى عمارات سكنية وسوق ومرافق أخرى .

اكاد اكون الوحيد في هذه العائلة المبجّلة الذي ينظر إلى المال باستخفاف . إني اعتبر المال وسيلة ، اداة للتعامل ، وهو بمقدار الحاجة إليه ، الحاجة الفعلية ، تتحدد اهميته . لم انظر إلى المال ، في يوم من

الأيام ، على أنه شيء مستقل ، أو قوة فوق الأفراد . لم اكتشف فيه جمالا من أي نوع . وإذا قلت العكس لا أجد نفسي مخطئا ، إذ كثيرا ما اعتبره وسيلة للافساد . وفوق ذلك كنت اعجب ، ولا أزال ، من هذا البريق الخفي الذي يراه فيه الآخرون ولا أراه .

قد تبدو هذه النظرة بدائية ، إذ بمقدار الاستخفاف الذي كان يملؤني تجاه المال ، كان الآخرون يستغربون أفكاري ، بل أجازف وأقول إنهم لم يكونوا يأخذون ما أقوله مأخذ الجد . كانوا يقولون : « كلام المفلسين . . . أما إذا صار عندك مال فسوف تكتشف كم هو عزيز وماذا يعني . » ولم اكتشف ذلك ، حتى هذه اللحظة ، ولم يعن لي شيئا . أما وأن عمورية قد دخلت عصرا جديدا فقد بدأت اكتشف أن الهوة بيني وبين الآخرين تعمق وتتسع . حتى نجوى التي امتلأت بها إلى درجة الوله ، اصبحت بالنسبة لي مخلوقا جديدا .

كنت اسمع واتابع بصمت . لم اعرف ولم اكتشف من قبل أن نجوى ، نجوى التي اعرفها ، تمتلك مثل هذه الأفكار ، وينطوي جسدها الرائع ورأسها الذي كنت أحب كثيراً أن ينام على صدري وفي احضاني ، على مثل هذه الأفكار ! أين كنت خلال هذه الفترة كلها ؟ لماذا لم اكتشف ولم اتبين ما يدور في هذا الرأس الجميل الغامض ؟ أين هربت تلك الكلمات الزاخرة بالشعر واللذة والأحلام ؟ وكيف تستطيع بكل هذه السهولة أن تمد رأسها ورقبتها إلى الورقة التي نشرها صفاء على الطاولة الزجاجية الواطئة ، وتتابع دون تعب أو ملل تلك التفاصيل الصغيرة حول الشوارع الثلاثة التي ستلتقي قريباً في المطار ، وأين يجب أن تقام الفيلات ، وأين يجب أن تقام العمارات السكنية ؟

ظللت بعيداً أسرح في عوالم لا صلة لها بكل الاحاديث والاحلام التي كانت تملأ جو السهرة . حين لاحظت نجوى ، في التفاتة عابرة ، وقد أجفلت عندما سمعتْ شباكاً ينغلق بقوة نتيجة ريح مفاجئة ، أنني بعيد هكذا ، ولعلها رأت مني ابتسامة ساخرة أو حزينة ، قالت بصياح :

ـ علاء سيكون مديرا للمشروع السكني !

استعدت نفسي بصعوبة. التفت إلى الجميع وكأنهم ينتظرون استجابة أو تعليقا . وقفت حاملا كأسي بيدي ، نظرت إليهم ، هززت رأسي ثم تحركت ببطء نحو النافذة . ابعدت الستارة قليلاً وبدأت أرقب الطبيعة . بدت لي الحياة ، حياتي وحياة الآخرين حولي ، شديدة الخواء والتفاهة ، وبدت لي المسافة التي تفصلني عنهم كبيرة إلى درجة لا يمكن ردمها أو تجاوزها . قلت لنفسي ، وأنا أرى الأشجار في الحديقة تتمايل بقوة : « لم تعد علاقات من هذا النوع تعني شيئا بالنسبة لي . والأفضل أن اغادر في هذه اللحظة . » جاءني صوت نجوى مليئا بالاغراء والتحدي :

ـ سنقيم مجموعة من الفيلات ونسكن متقاربين . . .

وضحكت . تلألأ صوتها ، ملأ الجو . احسست برعشة وبحالة من الضعف ، وجاء صوتها مرة أخرى :

ـماذا يقول الروائي الذي يقيم عالما من العدم ؟

التفتُّ بهدوء . نظرت إليهم . كانوا لا يزالون متراكمين حول الطاولة الزجاجية الواطئة ، وقد انتشرت عليها مجموعة من الأوراق بفوضى . ربما تعبوا من المناقشات والأحلام . وربما يريدون ضحية يتسلون بها ، وقد يريدون أن ينصبوا لي فخا . تقدمت حتى أصبحت فوقهم ، ونظرت بعدم اهتمام إلى الأوراق . فقالت نجوى وهي تتراجع لتجلس براحة كلية على مقعدها ، وبدت مشبعة بالحيوية والأنوثة ، وقد برز جزء من الصدر الحافل :

ـ هذه المستعمرة الجديدة التي سيقيمها علاء ستكون جنة على الأرض .

قلت بحدة :

ـ لا أعرف إلّا شيئا واحدا !

تطلعت إليّ العيون ، ربما بسبب الطريقة التي نطقت بها الكلمات ، وتابعت :

ـ أعرف أن أقيم جحيما .

قال خلدون وهو يضحك :

ـ الجحيم نتركه لك . . . أما نحن فنريد أن نقيم الجنة !

قال صفاء بطريقة ماكرة :

ـ الجحيم موجود ، موجود في كل مكان في داخلنا وحولنا ، والمطلوب الآن الانتقال من الجحيم إلى الجنة . وأنت ستقود الفئة التائبة التي تريد أن تعيش !

كان يجب أن اترك بيت صفاء في تلك اللحظة ، فقد شعرت أني غريب وأني فقدت روابطي معهم ، والأفضل ألا تسوء العلاقات بيننا أكثر مما ساءت. لكن نجوى الفاتنة ، الماكرة ، قالت وهي تنهض :

ـ لقد تعبنا هذه الليلة ، ويجب أن نغيّر الموضوع لكي نعطي قلوبنا ما تستحق .

نظرت إليّ بطريقة معينة . كانت النظرة بين الرجاء والرغبة والنداء ، ونجوى حين تنظر هكذا تعرف الأثر الذي تخلفه في القلب ، ولكي لا تترك مجالا للتردد ، لقرار آخر ، قالت بعتاب :

ـ لم أرَ مضيّفا يترك ضيوفه يموتون جوعا مثل صفاء !

أخذ الجو منحى جديدا ونحن على المائدة . . . روى صفاء أكثر من قصة عن رجال عصاميين ، في عمورية وغيرها ، بدأوا من الصفر ، من لا شيء ، وخلال فترة قصيرة ، بالمثابرة ومعرفة الاختيارات الصائبة والطرق العملية ، أصبحوا في قمة الهرم ، وأصبحوا حديث الناس في عمورية وخارجها . وإذ ظللت على موقفي وصمتي ، فلم أشارك إلاّ في اضيق الحدود ، وذلك حين جرى الحديث عن الطقس ثم عن معرض بدر الدين عباس ، فقد احس الجميع أنني شخص زائد وأني أثقل عليهم وعلى الجو .

الشيء الوحيد الذي انفجر في مخيلتي كشبح ، وكان أشبه بالبرق بحدته وسرعته ووضوحه ، أنّ ثمة علاقة ما بين صفاء ونجوى .

لم أرَ شيئا ماديا يمكن أن اعتبره قرينة أو دليلا ، ولم تبدر من أي منهما أشارة أو كلمة تكفي لاثبات مثل هذه القناعة . حتى نظرات العيون التي تفصح في احيان كثيرة ، دون كلمات ، لم تقل شيئا يمكن أن يفهم منه علاقة ، لكن احساسا داخليا غامضا أكد لي بشكل قاطع أن صفاء ونجوى يركبان عربة واحدة أو يسيران في طريق واحدة، وأن علاقة من نوع ما ، إذا لم تنشأ بعد ، فلا بد أن تنشأ في وقت قريب .

هل هي الغيرة ؟ تسوية حسابات بيني وبين صفاء ؟ بيني وبين خلدون ؟ وهل يمكن أن تنسى نجوى كل الكلمات واللحظات الدافئة والبكاء وذلك التعلق الذي يصل حدود الفضيحة أو الجنون ؟ وأنا، هل استطيع أن أهدم عالما حافلا باللذة والروعة نتيجة اختلافات وهمية وشكوك ؟ وقبل هذا وذاك ، ما الذي يربطني بنجوى وماذا أريد منها ؟ وهل ما اطبقه على نفسي يجب أن يطبقه الآخرون على أنفسهم بنفس الطريقة وبنفس المقدار ؟

لم انقطع ولم استمر ، لكني تغيرت . بدأت زياراتي تتباعد ومواقفي العلنية الواضحة تتحدى . وما كنت أرفض أن اسمعه مباشرة من هذه المجموعة ، كنت اتلهف لسماعه بطريقة أخرى . كنت أطل على عالمهم الداخلي ، الحقيقي ، من خلال صبا . أسألها ، اعلق على تصرفات قديمة لصفاء أو نجوى ، لكي أجر الحديث نحوهم وعنهم . أنتقد بخشونة . حتى إذا انهت إليّ صبا بآخر المعلومات والأخبار ولم يعد لديها ما تضيفه ، كنت انسحب لكي انتظر جرس الهاتف .

كان يملؤ ني احساس قوي بأن نجوى تريدني أن أكون موجودا ، قريباً ، كالسابق . وحين وجدت مني ما يشبه البرود أو التردد ، وقد وقعت أكثر من حادثة اشعرتْها واشعرتُ الجميع أني لن أكون أداة لهم ولن انضم إلى السيرك الذي أنشأوه ، وبعد أن تأكدت نجوى أن سحبي إلى الحلبة أمر مستحيل ، أخذت تلجأ إلى خلدون لكي يحاول ، على طريقته!

وفجأة بدأ خلدون يكثر من الاتصال . كان يتصل بي أكثر من مرة

في اليوم . وبدأ يفتح معي احاديث لا نهاية لها حول أمور لم تكن تخطر بالبال، وهي اغلب الاحيان أمور عادية وأقرب إلى التفاصيل اليومية التافهة ، فلما وجد أن استجاباتي محدودة ، اصبحت أحدى هواياته أن يحدثني عن رواياتي! ووصلت به الحماسة درجة جعلته يقرأ بعناية كل ما يكتب عني ، وله في ذلك دوما رأي ووجهة نظر ! لكن ما نكاد نصل ، على التلفون ، إلى نقاط حرجة أو محطات باردة ، إذ لا نجد ما نقوله أكثر مما قلناه ، حتى يلّح على مجيئي ، وإذا تعذر مجيىء، فيمكن أن يأتي إليّ هو ونجوى !

كان جرس التلفون يثير في نفسي مشاعر متباينة ، إذ بمقدار ما كنت انتظر ، وبلهفة اغلب الاحيان ، لا أجد الكثير لاقوله ، ولا أجد ما يستحق أن يسمع ، لكن شيئا ما بدأ يتكون ويضغط على اعصابي ويربكني . كنت أحس أن نجوى وراء ذلك كله ، وأنها هي التي توحي وترتب ، وإذا كانت تصر ، حتى هذه اللحظة ، على أن تبدو صامدة متمنّعة ، فإن لها القدرة على أن تحرك الآخرين لكي يكونوا جزءا من لعبتها ، وهذه اللعبة التي كانت تستهويني وتثيرني كنت أخاف منها وأهرب . . . وأيضاً أنتظر .

لم أكن قادراً على التخلي وقطع كل علاقة ، لأن هذا الحريق الذي بدأ في بيت عين فجار ذلك اليوم الذي لا يشبهه أي يوم آخر ببرودته اللذيذة المنعشة ، بحرارته الكاوية ، المشبع بذلك الخصب الذي لا يتكرّر أبداً ، المليء بالحزن والحنان والرعشة والخوف أيضاً ، إن ذلك اليوم في عين فجار يشبه الجرح النازف ، لا يتوقف ولا يندمل ، تماما كنبع عين فجار ذاته لا يتوقف ولا يثور ، قد تخفت حدته وقد يتراجع ، ولكنه لا ينتهي .

كنت في لحظات معينة ، وشريط الأحداث يمر في ذاكرتي ، أقول لنفسي بحدة : « ليس بينك وبين هؤلاء البشر علاقة ، ودم السوالمة الذي تتوهم أنه يسري في عروقك لا يتعدى أن يكون شبيها بالهواء الذي يغلّف الكون . لكن ضمن هذا الغلاف لا شيء يشبه الآخر ». وأقرر بيني وبين

نفسي أن انتهي من هذه العلاقات المتعبة والتفرغ بصورة كاملة للكتابة والتدريس . لكن ما أكاد اسمع جرس الهاتف، ما أكاد افتح كتابا ، حتى ينفجر طيف نجوى . إنه أقوى من الكلمات واصوات الموسيقى وسماكة الجدران ، إنها تملأ الهواء والأمكنة واللوحات ، فأنسى القرارات ويذوب التصميم ، وأنتظر .

لا . . . لم أعد كذلك. أصبحت نجوى بالنسبة لي هما ثقيلا . بدأت اضيق بالضحكات العالية ، بطريقتها في رمي رأسها إلى الخلف بحركة مصطنعة لكي ترتب شعرها. وأصبحت اضيق أكثر من ذلك بطريقتها في مقاطعة النقاش . أخذت تبدو لي في احيان كثيرة ممثلة من الدرجة الثانية ، ولاخفاء مستواها العادي فإنها تبالغ بكل شيء ، وتتدخل بكل شيء ! هل كانت نجوى هكذا ؟ هل تغيرت ؟

مذاق الشفاه ، خصوبة الصدر ، اتساع العيون ، وتلك الساق التي تطوقني في لحظات معينة فأحس نعومتها ودفأها . . . كل ذلك يجعلني عاجزاً عن أن اتخلى ، أن أهرب . ولكنها حين تتطلع بعيون محمقلة إلى أوراق المشاريع، وإلى الخرائط ، حين تسرح لحظات طويلة لكي تحسب ما سيعود إليها من خلال بيع قسم ما من مكان معين ، وكيف سيضاف المبلغ إلى شركات المقاولات أو إلى مجموعة الشركات التي بدأت تفرخ في الأيام الأخيرة ، ويفرّخها صفاء كساحر ، ويبدو على وجه نجوى ذلك الرضا الذي لا يتولد إلاّ من نشوة الفراش ، حين تسرح نجوى في ذلك العالم الذي اغلقت نفسي دونه ، أحس تجاهها بكراهية غير محدودة ، أراها امرأة أخرى ، امرأة لم اعرفها من قبل ، واتمنى لو أنني لم اعرفها ، لم التق بها ، لم أمسك بها قط بين ذراعيّ . لقد ادركت أن انفصالي عنها لن يتمّ إلاّ بالعنف ـ بنوع من العنف القاتل .

[٣٧]

علاء الدين نجيب ، أنت مراوغ ، مخادع، تحاول تبرير سقطاتك وجموحاتك . أم أنك تعتقد أنك فعلاً تقول الحق ، ولا تخشى لومة لائم ؟ قد لا تخشى لومة اللائم : فذلك سهل هذه الأيام . ولتفقأ عين كل لائم . . . أما السؤال فهو : ألا تخشى استنتاج المحقق ، الذي يمسك القلم بيد والسوط بالأخرى ، ويفهم كلامك كما يروق له ؟ قل الحق إذن ، والوجوه الشرسة تحيط بك ، والزنزانة على بعد مترين منك ! وما يلي الزنزانة !

نعم . أنا مراوغ ، ومخادع ، واتحايل على نفسي قبل غيري في سرد ما فعلت ، في تعليل ما فعلت . وإذا رضيت بالتحايل على نفسي ، فلم لا اتحايل على الآخرين ؟ إن أنا اقنعت نفسي ـ منطقيا ، أو تبريريا ، لا يهم ـ فلماذا لا أقنع الآخرين ؟ ولكنني لست من الغباء بحيث اظن أن قناعتي هي للآخرين أيضاً قناعة . بل إنها على الأرجح تبدو لهم قناعا سيحاولون تمزيقه عن وجهي . حسنا ، إذن فليحاولوا ـ إن كان ثمة قناع يمكن أن يمزق .

هل بدأت أرى الوجه الآخر لنجوى ، فغضبت وثرت ، وسمحت لنفسي بالتعلق بوجه آخر ـ أم كان الأمر بالعكس ؟ وهل كان بإمكاني التعلق بأي وجه غير وجهها ؟ ولكن ماذا يهم ذلك الآن ؟ إنما الذي يهم هو أنني في لحظة من السأم ، واليأس ، والخيبة ، فتحت الباب لتدخل عليّ ميّادة محمد امين . فتحت الباب ، لا الشباك . وفتحته عريضا . وفي لحظة كان ينبغي أن أكون فيها ممانعا ، لا مرحبّا . وفي داري إياها ، على حافة النبع ، في عزلتي البعيدة (أو التي حسبتها بعيدة) في عين فجار . هل كان لذلك علاقة بالفاجعة فيما بعد ؟ لست أدري ، ولن أدري . من كان الذي يتربّص بي وبنجوى بهذه القسوة الظالمة ، بهذا الإصرار الجائر ؟

لم تكن ميادة من السوالمة فأزعم ان في عروقها دماء تصرخ بجنونها

لتتحد في جنون سويلمي آخر . ولم تكن صديقة لصبا ، فازعم ان أختي دفعتها إليّ طُعما تتصيدني به لغرض في نفسها . ولم تكن زوجة أو أبنة لرجل ثري ، فأزعم انني أردت أن أصدم البورجوازية في عقر دارها . ولم تكن ميادة أجمل من نجوى ، على الأقل عند الوهلة الأولى ، ولو أنها بشعرها الكستنائي القصيرِ وقامتها الناعمة ، كانت الضدّ الشهي لكل ما اشتهيته في نجوى . كانت تلميذتي في السنة النهائية في الأكاديمية ، وربما أبرز الطلاب في ذلك الصف . ومع أنني كنت استاذا لها طيلة سنتين كاملتين ، وكنت اعطيها درجة أعلى من اقرانها ، وعن جدارة ، غير أنني لم يخطر لي قط أنني سأمسك يدها يوما بحرارة خاصة أو أنني سأضع شفتيّ الحارتين يوما على شفتيها . وأنا أصلاً في السنوات الأخيرة ، كنت ابتعد عن تلاميذي عن قصد . أخرج من الصف ، واتركهم كلهم ، ذهنيا ، ورائي . ففي حياتي ما يشغلني عنهم جميعا .

التقيت ميادة بمحض الصدفة في الردهة الملأى بلوحات وتماثيل الطلاب ، فسألتني :

ـ هل رأيت لوحتي ، استاذ ؟
ـ أية لوحة ؟
ـ هذه ، هنا .

تأملت في اللوحة ، وقبل أن أبدي أي رأي، قالت :

ـ لا تقل شيئا ، أرجوك !
ـ لماذا ؟
ـ أخشى رأيك .
ـ ولكنني قد أقول ما يعجبك ؟
ـ لا أصدق . . .
ـ غريب !
ـ لانك لا تعجب بشيء بسهولة .
ـ أهذا ما يقوله الطلاب عني ؟
ـ أنت شديد العصبية هذه الأيام .

ـ ذهني مشغول . هذا كل ما في الأمر .
ـ بالكتابة ؟
ـ وبأشياء أخرى .
ـ افرض أنني . . .

سكتت ، مترددة . وحدست في الحال بما تريد أن تفاتحني به ، وقررت في الحال أن أوافق . فشجعتها :

ـ ميادة ، أنا مهيأ لما تريدين أن تطلبي .

احمرّ وجهها بشكل فاضح . وبعد مزيد من التردد ، وعيناها الواسعتان مصعّدتان نحو عيني ، قالت بصوت أبح ، مرتجّ :

ـ افرض أنني زرتك . . مع إحدى صديقاتي . . .
ـ أهلا وسهلا .
ـ يوم الجمعة ؟
ـ الجمعة ؟ سأكون في القرية ، ابتداء من مساء الخميس .
ـ إذن في القرية ! سأستعير السيارة من أبي .
ـ هل قلت ، مع إحدى صديقاتك ؟
ـ نعم .
ـ لماذا لا تأتين . . . وحدك ؟
ـ وحدي ! ! استاذ !
ـ العفو ! كما تشائين .
ـ كيف نجد دارك في القرية ؟
ـ هل عرفت أية قرية أعني ؟
ـ بعد هذه الأشهر كلها ، أتظن أن بين الطلاب من لا يعرف ؟
ـ إذن ستعرفين داري أيضاً . نوافذها مستطيلة ، زرقاء . اسمحي لي . . . عندي محاضرة . .

وأسرعت بمغادرتها لئلا تلحظ فيّ اهتماما قد تتصوره زائداً عن حدّه . وبعد دقيقتين فكرت في أن الفتاة كانت تمزح . تتحداني ، ربما . وصرفت الموضوع عن ذهني لأنني أكدت لنفسي دون جدل كثير ، بأن

طالبة لن تقطع تلك المسافة الطويلة من عمورية إلى عين فجار ، لترى استاذا لها ، بوسعها أن تراه كل يوم في الأكاديمية ، ومعها صديقة . إلاّ إذا كان بعقلها مسّ . وميادة قد تكون جريئة ، غير أنني أعلم أنها عاقلة ، عاقلة جداً . ولكن عُرف عن العاقلين انهم هم أيضاً يغلطون . وغلطة العاقل ، كما يقولون ، بألف غلطة . . .

رأيت ميادة فيما تبقى من الأسبوع أكثر من مرة ، ولم تشر إلى الموضوع . وبعد ظهر الخميس خطر لي أن أتصل بخلدون ونجوى ، فأذهب إليهما أو يأتيان إليّ ذلك المساء ، فلا أذهب إلى عين فجار . أو ربما أبقى في البيت دون أن أرى أحداً . ولكنني عدت وعزمت على الصعود إلى القرية . لا بد أنني ، في القرارة من ذهني ، كنت اتمنى أن تقع غلطة العاقل . أخذت كالعادة أوراقي وعددا من الكاسيتات الموسيقية ، وكتابين جديدين ، وركبت سيارتي . كان البحر رائعاً طوال سياقتي بمحاذاته ، وأنساني كل شيء لنصف ساعة .

وفي ضحى اليوم التالي ، حوالي الحادية عشرة ، سمعت سيارة تصعد طريق الحجارة وهي تقترب من منزلي العتيق .

ولما سألتُ ميادة عندما استقبلتها خارج الباب ، هل لقيت صعوبة في العثور على الدار ، قالت بكل بساطة :

ـ رأيت سيارتك البيضاء من بعيد ، وعرفتها .

ـ آ ، نسيت أن سيارتي مَعْلم مشهور ! . . ميادة !

ـ نعم ، استاذ ؟

ـ أراكِ جئت وحدك . أين الصديقة الموعودة ؟

ضحكت بخبث وقالت :

ـ هل أنا مجنونة إلى ذلك الحد ؟

فقلت وأنا أدخل بها الدار :

ـ استغفر الله ! أنا المجنون إلى ذلك الحد ، وأكثر !

أجالت ميادة بصرها في الغرفة الكبيرة ، والشمس دافقة فيها .

واتجهت نحو المنضدة التي كانت الأوراق والكتب مبعثرة عليها ، والمسجلة السوداء الصغيرة صامتة بينها . وانحنت فوق ورقة في اعلاها خمسة أسطر أو ستة مما كنت منهمكا في كتابته ذلك الصباح ، وقالت :

ـ إذن ، هنا تكتب ؟

فقلت مازحا :

ـ أرجوك ، لا تقرأي ما على الورقة . . . لم يكمل بعد .

كانت محرجة جداً ، مضطربة جداً ، ولم أحاول اسعافها . فقد كنت في أشد برودي ، وقد صممت على معاملتها كزائرة ، أقدّر منها زيارتها ، واحتفظ بموقفي منها كإحدى طالباتي .

فالتفتت إلى المسجّلة ، وقالت :

ـ وأي موسيقى كنت تسمع ؟

ومدت يدها عبر الأوراق وضغطت على زر العزف . وانطلقت الموسيقى بصوت عال . أصغتُ إليها ، ثم رفعت عينيها إليّ متسائلة ، فقلت :

ـ رباعية « الموت والعذراء » . . . أتشربين القهوة؟
ـ هل عندك من يغليها ؟
ـ سأغليها بنفسي .
ـ هل أساعدك ؟
ـ في تحضير القهوة ؟ لا ، لا . ولكني سأطلب مساعدتك فيها بعد .

تركتها وحدها ، واسرعت إلى المطبخ لصنع القهوة . ولما خرجت إليها أحمل الفنجانين قلت ، وأنا أقدم لها فنجانها :

ـ سأطلب منك مساعدتك بعد قليل في تحضير الغداء . اتطبخين ، أم أنك تسوقين السيارة ، وترسمين ، ولا تحسنين أي شيء آخر ؟
ـ إذا كنتَ مستعداً لأكل ما اطبخ . . . وإذا كان مطبخك يحوي ما يؤكل أصلاً . . .
ـ ميادة ، ولو ! بيت الأسد لا يخلو من عظام .

ولأول مرة بدا لي أنها استعادت تحكمها بالموقف ، وقالت بغنج ظاهر :

ـ ومن قال إنني سأبقى هنا حتى الغداء ؟

ـ فكرة ، وخطرت ببالي !

ـ قهوتك لذيذة . . .

ـ عال . تفضلي أجلسي . واغفري لي فوضى غرفتي . . .

عندما مددت يدي لأوقف الموسيقى ، قالت :

ـ لا ، استاذ . . . هل عندك مانع ؟

وران بيننا من خلال الموسيقى صمت قصير ، تأملتها فيه ، محاولاً أن أراها ـ موضوعيا . هل هي حقاً جميلة ؟ وما الذي تريده بالضبط ؟ معرفة احوالي ؟ إغرائي ؟ إجراء مقابلة صحفية ، ربما ؟ لا شك أنها أحست بالمسافة التي تقصدت أنا أن أوجدها بيننا . هل ظنت أنني حالما ادخلها بيتي سآخذها بين ذراعيّ ، ثم أجلسها على ركبتي واحدثها عن روعة الحب ؟

وفجأة خُيّل إليّ انها تعرف نجوى ، وتعرف علاقتي بها ، وتعرف عن لقاءاتنا هنا ـ وجاءت لتمتحنني . وبلمح البصر ، تخيلتها وقد راهنت مع نجوى ـ أو على الأقل مع إحدى صديقاتها ـ على أن باستطاعتها أن تقتحم بيت هذا الأعزب المغرور ، وتقصيه عن حبه الجنوني بأشارة من يدها ، أو برفع تنورتها قليلا عن ركبتها . . .

ولكن ميادة كانت محتشمة جداً . وما زالت على شيء من الحرج . ووجدتها جميلة العينين بشكل خاص : اعجبني طول اهدابها السوداء ، وهي تتقوّس إلى الأعلى . وانتبهت إلى أن شعرها القصير يكشف عن إحدى اذنيها ، وقد تعلقت بها حلقة ذهبية صغيرة . ولحظت من جديد ما كنت لا أوليه اهتماما كثيراً في ساعات التدريس في الصف ، كيف ينتصب ظهرها وهي جالسة ، فيرتفع نهداها ككرتين منفصلتين ـ وشككت ، للحظتين ، أنها لا تلبس شيئا بين قميصها الذي بلا ردنين ، ونهديها .

وإذا هي تضع فنجان القهوة جانبا ، وتسألني :

ـ استاذ علاء ، لم تسألني حتى الآن لماذا جئت إليك .

فقلت :

ـ ألاّ تعرفين عادات العرب ؟ نحن لا نسأل ضيفنا عن حاجته إلاّ بعد مرور أيام ثلاثة .

رنّت الغرفة بضحكة عالية منها :

ـ إذن ، استطيع البقاء عندك أياما ثلاثة قبل أن تسألني ؟

ـ بكل سرور ، لو لا أنني سأضطر إلى تركك هنا وحيدة غداً وبعد غد ، لأنني لا استطيع التغيب عن عملي . وسأضطر إلى تسجيلك غائبة عن محاضراتي ليومين . . .

ضحكنا ، واسترسلنا في كلام لا يقول شيئا بالتحديد : عن الدروس ، عن الاساتذة ، عن الطلاب ، عن الموسيقى ،ولم أسألها لماذا جاءت . ولم تتبرع هي بالافصاح عن سبب زيارتها .

وبعد ساعتين ساعدتني في فتح بعض المعلبات في المطبخ . وتناولنا غداء اضافت إليه لمساتها الخاصة بطريقة ترتيبها للصحون ، وبالسَّلطَة اللذيذة التي هيأتها .

فجأة نظرت إلى ساعتها وهتفت :

ـ أوه ! الساعة الثالثة ! يجب أن أعود إلى عمورية .

قامت والتقطت حقيبة يدها ، وفتحتها واخرجت منها مفاتيح السيارة . وخرجت معها إلى سيارتها ، واطمأننت على سلامة اطاراتها ، وسألتها هل الرادياتور بحاجة إلى ماء ، وهل لديها بنزين كاف للمسافة التي ستقطعها ؟

صافحتها ، وبتلقائية لا إرادة لي فيها ، ربتُّ على رأسها ، ومسّدت شعرها قليلا . فنظرتْ إليّ وفي عينيها التماعة فرح ، ولا أدري ما الذي أفرحها . وانخفضت يدي إلى ذراعها العارية ولمست بشرتها ، ثم ضغطت

عليها بأصابعي . ولم يقل كلانا شيئا ، إلى أن استقرت وراء السكان ، ثم تحركت ، وقالت بصوت عال بعض الشيء ، وهي تلوّح بذراعها اليسرى خارج نافذتها :

ـ إلى اللقاء في عمورية . . . باي باي !

لوحت لها بذراعي ، وانتظرت إلى أن انحدرت إلى الطريق العام ، وعدت إلى الداخل . وتمنيت ، دونما منطق ، لو أن نجوى تظهر فجأة في تلك اللحظة ، كما في بعض المسرحيات ، كأن تنزل إليّ من الغرفة العليا ، وتقول : « علاء، يا مسكينِ ، أمن أجلي أنا رفضتَ أن تغازل هذه الفتاة الضائعة المفتونة؟» وشعرتُ بوحشة غريبة ـ لقد هجرني العالم كله .

بدّلت الكاسيتة في المسجلة ، ورفعت صوتها ، وذهبت إلى المطبخ ، وهيأت لي كوبا كبيراً من الشاي . وخيّل إليّ أنني اشم في الدار بقايا عطر لحوح أينما تحركت .

عدت إلى أوراقي ، وبقيت احدّق في الأسطر التي كنت كتبتها في الصباح ، دون أن أعي لها معنى . وعندما ركزّت فيها ، وجدت أنني كنت قد كتبت هذه الأسطر :

« غير أن في النفس البشرية ظمأ يتكرر ، وبحثا عن الماء الذي قد يرويه . وأغلب الظن أنه ما زال هناك في الكثير من الناس توق إلى شخصيّة الكاتب الكبير ، الروائي الكبير ، الذي ما عادوا ينظرون إليه كمجرد رجل يحكي حكايات ويسرد مُلَحا ونوادر ، بل كصوفي اتيح له بين الحين والحين أن يكشف الحُجُب ، كصوفي هو الوحيد الذي يعرف الطريق المؤدية إلى الحقيقة . »

تساءلت ، هل قرأت ميادة هذا الكلام في غفلة مني ؟ والتقطت القلم ، عازما على شطب العبارتين الأخيرتين : أي صوفي ، وأي كشف ، وأي طريق إلى الحقيقة ! ثم غيَّرت فكري ، شاعراً بأن عليّ أن استمر . ففكرت ، وفكرت ، وعادت إليّ رائحة العطر الغريبة ، ولم أجد

كلمة واحدة اكتبها لملء الفراغ المتبقي من الصفحة ـ لملء الفراغ الذي بتُّ أحس أنه يقوّض عليّ نفسي ، يقوّض الدار ، يقوّض الدنيا كلها .

هل قلت ان ميادة فاتحتني برغبتها في زيارتي، وانني ، رغم اعطائها أعلى الدرجات في الصف ، كنت الطرف السالب في تحركها نحوي ؟ مراوغة أخرى ! فأنا طيلة الأشهر الستة الماضية حرصت على لفت نظرها ، على الإيحاء لها بأنني أجدها ممتعة ، جذابة ، ذكية ، وهل في الدنيا امرأة لا تحدس باهتمام رجل بها ؟ ربما كنت أخشى أن تستجيب ، ربما كنت آمل أن تتغافل ، ربما كنت أقول إن نجوى بانشغالها اللعين بشؤونها الخاصة تستحق مني انشغالا ، مهما يكن ضئيلاً وعابرا ، بشخص آخر . ولما التفت إليّ الشخص الآخر باهتمام ، فزعت . اقبلتُ وأدبرت . وعندما شعرت بفراغ الدار من صوت ميادة ، ادركت أن عليّ أن ابطل في الحال مفعول الفخ الذي نصبته لنفسي . فالبدايات قد تبدو بريئة ، أما مؤشراتها ؟

وعدت مرة أخرى إلى الصفحة نصف المكتوبة ، وقرأت اسطرها ثانية . هل كنت أعي تماما ما كنت أفعله بحياتي ، حتى يتاح لي ، كروائي ، ذلك الكشف الذي دأبت في البحث عنه ، ذلك الكشف الذي أبغي التواصل به مع حياة الآخرين ـ حشود الآخرين ، المجهولين، الذين ولدوا ، ويولدون ، ولم يولدوا بعد ؟ ربما كان عليّ أن أجعل كل جزء في حياتي يحوي شيئا من كل جزء في حياة الأناس الآخرين ـ كما في الرواية ، حيث كل جزء يتصل حيويا بالكل . ربما في مكان ما من عقلي ، في مكان ما من دخيلتي ، كانت تجري عملية بعضها ظاهر ، ومعظمها خفي ، توحي بأن حياتي أضحت هي الرواية التي اكتبها ـ أو كأنني بالفعل اجعل الرواية هي الحياة التي احياها . وبقدر ما تنسرد الرواية صفحة إثر صفحة ، فصلا إثر فصل ، محكومة بقوانينها الخاصة ، تنسرد حياتي فعلاً إثر فعل ، قولا إثر قول ، ولكن محكومة بقوانين الرواية التي اكتبها ، فيتشكل في حياتي ـ أردت أم لم أرد ـ التناغم والتضاد ، التداخل والتباعد ، التجسد والتلاشي ، بدفع عميق غامض لا يفسر ، من العبث

أن اطالبه أنا بأي وضوح أو تفسير .

هل كانت ميادة إذن فخا نصبته لنفسي ، فأبطل مفعوله ؟ أي جنون ذاك ؟ ألم تكن ضرورية لي في تلك اللحظات ضرورة الهواء الذي اتنفسه ، والموسيقى التي اسمعها ؟ لماذا تركتها تذهب بتلك السهولة ؟ لئن كنت عاجزا عن استردادحسام الرعد ، أو أدهم ، أو أبي ، أو شهاب خالد ، فقد كان الكثير من مفردات حياة كل منهم في الصميم من مفردات حياتي . . . ونجوى - هل فقدتها فأستردها ؟ ربما لم افقدها بعد . أم أنني سأسمح لها أن تنزلق من بين اصابعي ، وحياتي لم تمتلىء بها بعد ، كما سمحت لعمورية أن تنزلق ؟ آه ، المدينة ! كانت المدينة هي الشيء الرائع الخارق الذي يجب أن احتويه ، أن اجعل في كل جزء مني بعضا من كل جزء منه . . . هل كانت نجوى طريقي إلى المدينة ، وهي مثلها احبها وأريد محقها ، أكرهها وأريد أن اتمرغ حتى الجنون في لحمها ؟ والآن ، ميادة . . . أكثر من عشرات اللواتي جئن وذهبن فيما مضى وأنا في حالة من الغيبوبة بالنسبة للحياة نفسها ، ميادة انبثقت من قلب المدينة نفسها . ميادة جاءت ، كنجوى ، وأنا في القمة من وعيي ، في الريعان من فكري وأحاسيسي . وعليّ بجعلها جزءاً من اجزائي ، بشكل ما قد لا أفهمه . إنها عموريتي الجديدة . . . أم أنها نجوى أخرى ؟

علاء نجيب ! لقد جننت ، جننت ، جننت !

[٣٨]

البيت الكبير الذي بناه أبي في منتصف الأربعينات ، وكان سببا للخصام والتعليقات والاهتمام والحسد ، والذي حدد عمورية من جهة الشمال ، على طريق العمادية ، هذا البيت الذي رفضت أمي الانتقال إليه في بداية الأمر ، لبعده ولأنه يقطع الانسان ويجعله يحس وكأنه في سجن ، والذي أثار تعليقات واهتمام الكثيرين لكبره ونوعية المواد التي استعملها أبي في بنائه ، خاصة إذا ذكر المبلغ الذي انفق على تشييده . . . هذا البيت الذي كان جديدا وبعيداً وكبيراً ، بدأ مع الوقت في التغير والتحول : صفاء تركه في وقت مبكر ، أمي عاشت فيه وقتا طويلاً ، كان أول الأمر مصدر تعاسة وشكوى ثم ما لبث أن أصبح جنة لا يمكن أن تستبدله أو تتخلى عنه ، إلى أن ماتت . وأبي ظل وفيا للشرفة الجنوبية ، حيث كان يقضي معظم لياليه ، إن كان موجودا في عمورية ، وكان حريصا على أن يزرع الياسمين والزنابق في هذه الجهة بالذات ، ويقضي وقتا في ترتيب امتداد الدالية والنباتات المتسلقة وغيرها لكي يضفي على هذه الشرفة الوانا بهجة ورائحة زكية . هذه الشرفة ما لبثت أن تحولت بمرور الأيام إلى شرفة مليئة بالحشرات والزواحف ، التي تتعشق الرطوبة والضوء والأغصان اليابسة ، الأمر الذي اضطره في أخريات أيامه إلى اقتلاع النباتات المتسلقة والأشجار التي سدت الفضاء ، وأضطره أيضاً إلى إعادة صبغ الشرفة والجدار الذي إلى جانبها ووضع بعض المواد الكيمياوية لكي يتخلص من تلك المخلوقات التي كانت تتزايد شهراً بعد آخر ، وربما كتعويض عن النقص الذي أخذ يزداد في هذا البيت !

ظللنا ، بعد وفاة أبي ، أنا وصبا والعمة نصرت نحرس هذه القلعة . وإذا كنت قد غفلت عن القدم الذي أخذ يتسرب يوماً بعد آخر إلى البيت ، وإذا كانت عمتي نصرت تعتبره إحدى النقاط القوية في الدفاع ، لأنه يبعدها عن عمورية التي تعرفها ، ولأنه كان أقرب إلى

المطلة ـ أو هكذا كان قبل أن تتغير الطرق في الفترة الأخيرة ، فإن صبا هي الأولى ، وربما الوحيدة التي انتبهت ، وحاولت أن تنبِّهني أيضاً ، إلى أن هذه القلعة لم تعد مكانا ملائما للاقامة والسكن . وإذا كانت صبا قد وافقت ، لاعتبارات كثيرة في البداية ، أن تبقى ، وأن تأخذ الجناح الذي كان يسكنه أبي وأمي وتستقر فيه هي ونبيل ، فقد بدأ الأمر يأخذ شكلاً جديدا في السنين الأخيرة . بدأت شكواها تزداد نتيجة الخراب المتزايد في انابيب المياه واسلاك الكهرباء ، وبدأت تقسو على سعيد والفلاح الذي يستعين به إذا بدا منهما أقل أهمال ، وبالغت في قطع عدد من الأشجار الكبيرة بحجة أنها تمنع الشمس ، « ثم أنها أصبحت وكرا للبوم »، كما كانت تقول وتؤكد . ورغم المحاولات العديدة في الترميم والاصلاح ، وبعض الاحيان بالتجديد ، إلّا أن الأمر أخذ شكلاً جديداً ، إذ ما لبثت صبا ، ذات يوم ، أن اعلنت عن قرب تركها للبيت لأن نبيل حصل على بيت جامعي . وحقيقة الأمر أن الجامعة شيدت مجموعة من الأبنية ، بتسهيلات معينة للذين لا يملكون دورا للسكن ، وعرضت هذه الأبنية للإيجار في المرحلة الأولى ، على أن يُبَتّ في الملكية في وقت لاحق ، وكان نبيل من أوائل الذين سجلوا على هذه الدور ، ومن أوائل الذين حصلوا على واحدة منها أيضاً .

لا أريد أن استرسل طويلا حول هذا الأمر ، أو أن أقارن بين السكن الجديد الذي انتقلت إليه صبا ونبيل وبين المكان الواسع ، والمستقل ، الذي كان لهما في البيت الكبير . إن مقارنة من هذا النوع لن تكون مجدية ما دامت هناك اسباب ودوافع من نوع مختلف . ما أريد الاشارة إليه هنا هو أننا أصبحنا أنا والعمة نصرت وحيدين في هذه القلعة . أما سعيد وكلثومة ، ثم الأبناء الثلاثة الذين ولدوا لهما خلال السنوات الأخيرة ، فكانوا يحتلون البيت الجانبي في طرف الحديقة ، وكانوا ، بعد أن تغيب الشمس وينتهي آذان المغرب ، يبطئون بحركتهم ، حتى إذا حان آذان العشاء كان الصمت والظلام يخيمان على ذلك البيت الجانبي ، ويشعر الإنسان أنهم غرقوا في نوم عميق !

كنتُ إذن والعمة نصرت الوحيدين في هذه القلعة التي بدأت تشيخ

وتحس بوطأة الأيام ومرور الأحداث. كان تقسيم البيت، منذ البداية ، قد جعلني في الطابق الأرضي ، وجعل العمة نصرت في الطابق الأعلى ، حتى ما يكاد الواحد يحس بوجود الآخر إلّا إذا تعمد أن يمر ويسأل ، ويصعد بعض الأدراج ويجتاز بعض الممرات . إن هذا الوضع الجديد ، خاصة في البداية ، بعد انتقال نبيل وصبا ، خلق جوا من الانقباض ، هذا الانقباض الذي يتولد من الصمت القاسي ومن الغبار المتراكم ومن افتقاد الآخرين . وإذا كنت قد تعودت على الوحدة وأصبحت شديد الألفة لها ، ولا أكاد احسها ، من خلال انشغالات عديدة ، سواء بالكتابة أو سماع الموسيقى ، فإن لحظات معينة تجعلها شديدة الحضور والقسوة ، خاصة في الليل المتأخر ، أو من خلال حاجة الإنسان إلى أشياء معينة أو ذهابه إلى اماكن معينة . عندئذ يحس الإنسان أنه وحيد ، بل ويحس أنه لا يحتمل مثل هذا الجو ، ولا يعرف كيف تعوده وألفه !

في هذه الفترة ، وكنت لا التقي بالعمة نصرت إلّا في أوقات متباعدة ، وقد تمر أيام لا أراها ولا أسمع صوتها ، اكتشفت ذات صباح وأنا أخرج متوجها إلى الأكاديمية ، وقد نظرت إلى العمة وهي واقفة في الشرفة المطلة على الباب الخارجي ، ومن خلال كلمات سريعة ، وكنت دائماً أميل معها إلى المداعبة والمزاح ـ اكتشفت شيئا جديدا : العمة نصرت لم تعد مثل ما كانت ، لقد تحولت فجأة إلى الصمم. اكتشفت الأمر نتيجة الكلمات التي قلتها ، وبدا أنها لم تسمعها ، رغم أنني وجهتها إليها بما يشبه الصياح ، ثم عندما بدأت تتكلم أخذت تتكلم بصوت عال ، عن سيارة وقفت بالباب ثم مضت ، وهل كانت تلك سيارة موزع الحليب ـ علما بأن موزعي الحليب انقطعوا عن التجوال في احيائنا منذ سنوات .

ظللت في شك ، ولكن ظل صوتها يتابعني حتى بعد أن ركبت سيارتي وخرجت بها إلى عرض الطريق ، وبدأت اتذكر أن عددا من الأصدقاء أكدوا لي أنهم اتصلوا بي تلفونيا مرات كثيرة ، ولم يجبهم أحد ، رغم وجود جهاز تلفون في مكان قريب من غرفة العمة نصرت ، غير

الجهاز الذي في مكتبتي . وإذا كنت قد عزوت هذا الأمر إلى حالة الغرق المتزايد في الطرق الصوفية التي تميز حياة العمة وسلوكها ، فقد تذكرت المرات الكثيرة التي كانت تردّ فيها على التلفون إذا لم أكن في البيت ، وتستفسر من الذين يريدون الاتصال بي ، من يكونون وماذا يريدون . وكيف كانت لا تنام قبل أن تنهي إليّ بكل ذلك . . . إذا كانت العمة نصرت هكذا حتى وقت قريب ، أي إلى ما قبل بضعة أشـهر، فهل يمكن أن تتحول وتغير سلوكها هكذا فجأة ؟ قلت في محاولة لاقناع نفسي : « ربما بسبب كثافة الغطاء الذي وضعته . . . وقد يكون المرض أو الذهول » .

وفي الصباح التالي ، صعدت إليها ، وقد جلست على كرسي عند حافة الشرفة ، فلم تحس باقترابي منها ، إلى أن واجهتها . وإذا هي تنهض واقفة ، وترفع يديها إلى وجهي وتدنيه منها ، وتقبلني على خدّي . ثم تقول بصوت عال وعيناها الأوسع مما كنت احسب ، تنظران في اعماق عيني :

ـ علاء يا حبيبي ، أين أدهم ؟ لماذا لا أراه يوما بعد يوم بعد يوم ؟

فتقصدت رفع صوتي بالجواب :

ـ في لبنان ، عمة . مع الفدائيين .

ولكنني أدركت أنها لم تسمع ما قلت . واعادت السؤال :

ـ أسألك أين أدهم ؟ رأيته في حلمي البارحة . كان يبكي ، حبيبي أدهم . ثم رأيتك أنت أيضاً . كنت تضحك كثيراً ، مع امرأة . اللهم اجعلها خيراً . لا تغرّك الشمس المشرقة . . . ما أكثر ما رأيتها وأنا صبية ، ولم آخذ الحذر. ليس كل رجل رجلا ولا كل امرأة امرأة . . .

وتقصدت هنا خفض صوتي بممازحتها ، رغم أنني تأكدت أنها لن تسمعني :

ـ اعادت حليمة إلى عادتها القديمة ؟

ولكن عينيها بقيتا شاخصتين ، تريان ولا تـريان ، وإذا بهـما تغرورقان بدموع كبيرة تنهمر على خديها الغضـين وترتجف شفتاها الرقيقتان

الشاحبتان ، بكلمات غير منطوقة . وتداعت شيئا فشيئا على كرسيها ، وعيناها الغائرتان مركزتان في عيني .

وكنت قبل ذلك بيومين أو ثلاثة قد اكتشفت أمراً هزّني حتى العظم . لم يكن بوسعي أن اتحدث فيه مع أحد . فقد جاءني نبيل في المساء شديد الإضطراب ، بشكل لم أره فيه من قبل . وفاجأني بسؤاله :

ـ اتعرف هادي عدّاي ؟

ـ هادي عدّاي ؟ آ . . . أبن . . زوجة أبي ، الأخرى . . .

ـ أبن زهور ، اياها .

ـ نعم ، نعم . هل تراه هذه الأيام ؟

ـ أنا ؟ أراه ؟ أبن الراقصة القديمة ؟

ـ أرجوك ، نبيل ! هذه الراقصة تزوجّها ابي ، رحمه الله ، وربّى ابنها . وعلمّه على نفقته. وأنا كنت وما زلت احترم إرادة أبي . أنت تعلم اننا لم نرها أبداً في أثناء حياته . كنا نتجاهل وجودها . . . ولكنها بعد موته تجسّدت فجأة أمام اعيننا . وكان علينا أن نحترمها . هي وأبنها .

ـ طالبت بحصتها من ميراث ابيك . أليس كذلك ؟

ـ بلى . واستعمل صفاء دهاءه العمليّ ، واسترضاها ، وانتهت القضية . مالذي يقلقك حول الأمر ؟

عضّ نبيل على شفته كأنه يغالب ألماً يمزّقه من الداخل ، وبدا لي أنه سينفجر بالبكاء ، فكررت السؤال : « ما الذي يقلقك هكذا ؟ »

شهق شهقة عميقة ، وأشاح بوجهه . ثم قال والكلمات تكاد تعصى بين شفتيه : « أبنها ، هادي . . . اتضح لي أن صبا . . . »

صعقت . وإذ عجز نبيل عن الاستمرار بالكلام ، تذكرت هادي عدّاي ، خريج السوربون ، الشاب الوسيم ، الناظر إلى الآخرين من عليائه كأن أمه دوقة من آل بوربون وليست راقصة استقعدها أبي خليلة ، ثم تزوجها مخافة منه لله ، وسترا لها في شيخوختها .

لم أره إلاّ مرة أومرتين بمحض الصدفة بعد انتهائنا من القسّام الشرعي ـ

ولا أذكر كم مرة جاءنا بحجة متابعة قضية الأرث ، وفي بيتنا كان يرى صبا ، بالطبع . أمّا بعد زواجها ، فلم يزرنا قط ـ فيما أعلم . لأنه أحس بكراهيتي له ، ولا شك . وأما أخي صفاء فكان يرفض أن يقابله إلاّ عند الإضطرار .

أية شياطين من خلق عمتي نصرت كانت تتعارك على صبا ، ونحن لا نعلم ؟ أي بؤس كان في انتظارها ، وأنتظار نبيل ، حين أصرت صبا على ترك دارنا ، للأستقلال بدارهما الصغيرة ؟ هل كان لهادي علاقة بالموضوع ؟ هل كانت تراه سراً ، وخشيت أن ينفضح الأمر إن هي بقيت مقيمة في بيت الأسرة القديم ؟

لم يقل نبيل كثيراً . وعندما أراد أن يقول المزيد ، رجوته ألاّ يتكلم . لا أريد معرفة التفاصيل . حسبي ما في حياتي من اشكالات وهمّ . وقلت له : « نبيل ، لا تتعجّل بالحكم في أمور كهذه . واستعمل الحكمة . قد تكون المسألة أصلاً وهما من أوهامك . . . كلّنا عرضة للشكوك في ساعات الضعف ، أوالغضب. . . ثم إن صبا أذكى من أن تزعزع حياتها الزوجية ـ » وكدت أكمل فأقول ، بعلاقة مع رجل له خلفيّة هادي عدّاي . ولكن صبا ، ألم تكن هي بالذات ابنة رجل تقصّد الخروج على زوجته وأولاده الستة ، ولم تقلقه خلفية المرأة التي اختارها شريكة لمتعته ؟ شعرت كالمطعون من الخلف ، وفي مرارتي في تلك اللحظات ، رفضت أن اسمع أي تفصيل .

هذه التراكمات بشأن الدار والعمة نصرت وأختي صبا دفعت إلى ذهني عشرات الأخيلة ، وطرحت عليّ تساؤلات كنت استبعدها ، لكنها جعلت تهاجمني ، تحاصرني ، وتولد في نفس حالة من الإضطراب أقرب إلى العصبية . وربما بدا أثر ذلك عليّ أثناء المحاضرة ، إذ فقدت تلك الحالة من الرضا والتسامح التي أريدها مع طلبتي ، وبدت ردودي على الأسئلة مليئة بالخشونة والسخرية .

مرت صور أمي وأبي في ذهني عشرات المرات . مرت صورة البيت حين كان بيتا جديدا يلتمع مثل جوهرة وسط مساحات هائلة من

الخضرة . وبدت صورة نجوى مثل نجمة . كانت تتألق ، تظهر وتغيب في كل لحظة . ما الذي ارادت عمتي أن تقوله عنها ، ثم غصت الكلمات في حلقها ؟ وأدهم ، أين هو الآن ، وما الذي يفعل ؟ وما هي حقيقة العلاقة ـ إن وجدت ـ بين صبا وهادي عداي ؟ كنت شديد الاضطراب والارتباك. إنها إحدى المرات التي احس فيها أني وحيد ، وحيد تماما ، وأن كل شيء حولي ليست له أية قيمة ، بل وبدت الأشياء حولي معادية ، قاسية ، منفرة . وكأني لا أعرفها ، ولا تربطني بها أية علاقة .

بعد انتهاء محاضرتي الثانية ، اعتذرت عن الندوة التي كانت مكرسة لمناقشة أثر الفن البابلي على فنون الشرق القديمة ، وقررت الخروج في سيارتي لأسرح في طرقات عمورية ، لأن ذلك أقصى ما استطيع أن أواجه به نفسي .

وإذ جعلت أسوق ببطء بين الطلاب الكثيرين الذين يملأون الساحة الصغيرة بين موقف السيارات ومدخل الأكاديمية ، رأيت ميادة تركض باتجاهي وتؤمىء إليّ بأن اقف . فتوقفت . وجاءتني تلهث وهي تحتضن كتبها :

ـ استاذ ، هل توصلني إلى رأس الطريق ؟

ـ تفضلي .

حالما صعدت إلى جانبي ، استأنفت السير وقلت لها :

ـ إلى رأس الطريق ، فقط ؟

ـ إلى أبعد من ذلك ، إذا وافقت .

ـ تعرفين أنني هربت من الندوة التي كان المفروض أن تحضريها أنتِ .

ـ وأنا هربت من الندوة التي كان المفروض أن تتكلم فيها أنت .

ـ أريد أن أسرح . . . أهيم على وجهي . باستطاعتي أن أوصلك إينما شئت .

ـ ألا تريد مرافقا ؟

ـ في المتاهة التي هي عمورية ؟ وما الفائدة ؟
ـ لا فائدة ، أبداً . مجرد عبث .
ـ اتعرفين ، إنك تذكرينني بفتاة . . . معينة .
ـ أهي أيضاً تحب العبث ؟
ـ جداً . . .
ـ إذن انزلني عند أول الشارع العام .
ـ لا . أنتِ تلميذتي . تحتاجين إلى مساعدتي .
ـ شكراً .

ثم ضحكتُ ، ساخرا من نفسي . وقلت :

ـ ميادة ، المسألة ، ككل المسائل في هذه الدنيا اللعينة ، لها وجهان .

ـ استاذ ، اتصور أن المسألة لها مئة وجه . أتذهب إلى عين فجار ثانية يوم الجمعة القادم ؟

ـ الجمعة القادم ؟ كيف استطيع التفكير حتى ذلك اليوم البعيد ؟ لا استطيع التفكير فيما سأفعل بعد ساعة. . . عندما تجدين الحياة الرائعة الجميلة ، بغيضة وقبيحة ، وابغض واقبح منها الناس جميعا ، وخصوصا الأقربين إلى نفسك والذين تظنين أنك تحبينهم ويحبونك ـ ماذا تفعلين ؟

ـ ابكي ، ابكي ، ابكي . . .

ـ البكاء يفيدك ، لأنكِ ما زلت صغيرة . . . نسيت أن أسألك : هل بلغت الواحدة والعشرين ؟

ـ والحمد لله . وأنت استاذ علاء ، بلغت المئة ، أليس كذلك ؟

ـ أنا ؟ أنا بلغت عمر نوح . وفلكي نخرته الديدان ، وقرضته الجرذان . اتعرفين شعور رجل عاش منذ ما قبل الطوفان ، ولما انحسر الطوفان وجد نفسه على رأس جبل ، وحيداً ، لا بشر حوله ولا حيوان . . .

ـ ربما كان الأفضل لو غرق مع الآخرين ؟

ـ ها ! تلك نهاية سهلة . . . الأصعب ، ميادة ، هو أن يبقى كسارية سفينة محطمة ، سارية جرداء لا معنى لها ، واقفة عاليا على رأس جبل . أتعرفين ، الأصعب ليس أن يموت المرء ، بل أن يموت الذين حوله ـ كلهم ، ويبقى هو حيا .

ـ القنبلة الذرية ؟

ـ لا ، لا ، ميادة . أين ذكاؤك ؟ سأعطيك صفرا في الامتحان القادم . . كل الذين حولي أحياء ، جسديا . ولكنهم ، بالنسبة لي ، أموات ، أموات . . . ما عدت استطيع أن اتفاهم مع أحد . اتفهمينني ؟

ـ ربما . ولكنني الآن أفضل ألاّ أفهمك .

ـ أأنت أيضاً !

ـ . . . .

ـ ساكتة ؟ اتبتسمين ؟ انظري إليّ .

ـ وما الفائدة ؟

ـ مجرد عبث . لست أنتِ العابثة الوحيدة ، كما ترين .

ـ إذن اتفقنا .

ـ على ماذا ؟ نحن لم نتفق على شيء سوى أن ترافقيني في المتاهة التي هي هذه المدينة الرهيبة . هل أنت بائسة ، مثلي ؟

ـ بائسة ؟ أنا ؟ لا ، لست بائسة .

ـ إذن لماذا تريدين مرافقة بائس مثلي ؟

ـ أكرر : مجرد عبث . ثم إنك تثير اهتمامي .

ـ شكراً ! أخيراً وجدت من أثير اهتمامه . . .

ـ أكثر مما تتصور .

ـ هل أنا آخر رجل بقي في العالم ؟

ـ والعالم مليء بالرجال . منذ أن جئت إلى الأكاديمية .

ـ منذ ما قبل الطوفان ؟

ـ إن شئت .

ـ اتعرفين شيئا عني ، سوى أنني أدّرس في الأكاديمية التي ستتخرجين قريباً منها ؟

ـ الكثير . ولكنك لا تلتفت إلى أحد .
ـ ماذا تعرفين عني ؟
ـ قلت لك، الكثير.
ـ قرأت كتبي ، إذن ؟
ـ طبعا .
ـ مقالاتي؟
ـ طبعا .
ـ وسألت عني ؟ اتعرفين أين اسكن في عمورية ؟
ـ طبعا . وهذا أقل ما أعرفه اهمية .
ـ ماذا تعرفين أيضاً ؟
ـ اسأل فأجيب .
ـ اتعرفين حسام الرعد ، مثلاً ؟
ـ المشرّد ، الذي جاء صباح يوم قبل سنتين إلى الأكاديمية والقى علينا محاضرة في الساحة ؟
ـ من كان حسام الرعد ؟
ـ خالك ، أظن .
ـ كان أميرا متنكراً في زي صعلوك . . لعله كان صعلوكا متنكرا في زي صعلوك . . .

قهقهت ميادة ،وتلذذت أنا بقهقهتها.وفجأة توقفت عن ضحكتها ، وقالت ، وكأنها لا تخاطبني أنا بل نفسها :

ـ أنبيٌّ من أنبياء العصور السالفة ؟
ـ وصفاء نجيب ؟
ـ سمعت به . أخوك ، ولا شك .
ـ طيب ، طيب ، طيب .
ـ اسأل ، استاذ . . .
ـ اهلكتني بالأستذة يا امرأة .
ـ . . .
ـ في هذه السيارة ، التي هي من عهد ما قبل الطوفان ، أنا لست

استاذا . أنا رجل سماه أبوه ، متفائلاً ، خطأ ، علاء . أتسعمين ؟ في الأكاديمية سمني ما شئت .

ـ نعم .

ـ ميادة ، لماذا لم اغازلك يوم الجمعة في عين فجّار ؟ اعني ، لماذا لم . . . أوه . . .

ـ احترمتني . ربما ؟ أم . . .

ـ احترمتك ! ها ها! أنا احترم الدنيا كلها . . . احترم الذين لا احبهم بوجه خاص . أما الذين احبهم . . .

ـ إذن لم تحبني ! لأنك تحب أناسا آخرين ؟

ـ ميادة !

ـ ألا تحب أناسا آخرين ؟

ـ أأنت أيضاً !

ـ مرة أخرى ، أنا أيضاً . اتراني اخونك ؟

ـ لا ، لا . أنت مخلصة ـ بقدر ما استطيع أن أرى من هذه المسافة بيني وبينك .

ـ ألا تحب أناسا آخرين ؟

ـ إن كنت تعرفين الكثير عني ، كما تقولين ، فلماذا السؤال ، والجواب عندك ؟

ـ أريد أن اتأكد أن معلوماتي صحيحة .

ـ كلها صحيحة ، ميادة .

ـ أو كلها خاطئة ـ على الأقل ، غير دقيقة .

ـ اتعرفين أين نحن الآن ؟

ـ نحن في سيارتك .

ـ صحيح ؟ شيطانة ! اتعرفين هذه المنطقة ؟

ـ لا . . . الواقع ، لم أنظر إلى الشوارع بانتباه .

ـ هذه المنطقة هي أول حي الخميلة .

ـ آه ، نعم ، نعم !

ـ أين تسكنين أنتِ ؟

ـ في العمادية .

ـ لا! معقول ؟

ـ لم لا ؟ هل لك علاقة بها ؟

ـ لا . . .

رفضت أن اعود إلى ذكرياتي مع حسام الرعد . هل يسكنني هذا الرجل إلى ما لا نهاية ، هو ونجوى ؟ لن اتحدث عن أي منهما . وأنا اعرف أن هذه الشابة الماكرة تريد أن تجرني إلى الحديث عن نجوى ، ولن أسهّل الأمر عليها . وإذا هي تسأل :

ـ لك اصدقاء في حي الخميلة هذا . أليس كذلك ؟

ـ ميادة ، ياجميلة العينين ، لي اصدقاء في كل حي ، وأنا ما زلت بائسا .

ـ هه هه . . . أنت بائس ، وتعتقد أن عينيّ جميلتان ؟

ـ وهل يمنع البؤس . . .

ـ في تجربتي المحدودة ، إن البائس يرى كل شيء بائسا .

ـ سوى العيون الجميلة . . . اسمحي لي بهذا الاستثناء . في مدينة تعج بالمتكالبين على كل سلعة تلتمع كالتنك ، اسمحي لي أن اتكالب على شيء مختلف .

ـ سمحت لك ! انظر في عينيّ .

ـ وأنا أسوق ؟

ـ لا . قف قليلاً إلى جانب الرصيف .

ـ لا، لا! لا حاجة إلى الوقوف . لا تزيدي في بؤسي ، أرجوك . . . سآخذك إلى مطعم الفردوس ، المطل على البحر . ما رأيك ؟

ـ وإذا رآك فيه الناس مع إحدى تلميذاتك ؟

ـ ليشربوا البحر .

ـ تركنا الخميلة وراءنا !

ـ ياليت ، ياليت !

ـ بل تركناها . . .

في مطعم الفردوس (ما أسخف الأسم !) جلسنا على مائدة قرب النافذة العريضة المشرفة على الشاطىء المليء بالزوارق ، والبحر من ورائها يمتد إلى ما لا نهاية ـ امتداد بعض الصور التي تملأ ذهني امواجا عاصفة . واصرت ميادة على أن تجلس قبالتي ، وظهرها إلى البحر. ولما طلبت إليها أن تقتعد الكرسي الذي بجانبي ، رفضت ، وقالت :

ـ لكي تنظر في عينيّ ، طويلا .

ولما احتججت : « ولكن البحر والشمس . . . » اضافت وهي تضحك (وادركت أن ضحكتها تطيب لي بشكل خاص) :

ـ لكي تختلط عليك الأمور تماما !

وهكذا بدأت الأمور تختلط عليّ اختلاطا رهيبا ، لذيذا . وزاد من اختلاطها أنه لم تمربضعة أيام حتى اخبرتني نجوى ، وهي في أشد الإثارة ، أن « المجنونة » جاهزة . ومتى ، متى سنذهب إليها ظهر يوم قائظ لنفقد فيها ما تبقى من عقلنا ؟

[٣٩]

لو كان الناس يَصْدُقون بقدر ما يظلمون ، لأطلقوا على عشرات الدور في كل مدينة اسم « دار المجنونة » . أما الدار التي اشترتها نجوى فلم نعرف بالضبط هل جاءتها التسمية عن صدق أو ظلم ، أو كليهما معا .

كانت دارا من حجر خشن بنيت على ما يشبه الرابط بين صخرتين كبيرتين على ساحل البحر ، في منطقة الصيّادية شمالي العاصمة ، حيث قامت بعض المنازل البسيطة البناء التي يسكنها صيادو السمك منذ اجيال ، ليكونوا قريبين من مراكبهم وشباكهم - مورد رزقهم الشاق . وكانت هذه الدار بالذات قد لفتت نظرنا أنا ونجوى منذ أيامنا الأولى معا في عين فجار ، إذ كنا ننزل احيانا في الأصباح الباكرة من الجبل ونتجول في حي الصيادين ، ونمشي بين الصخور التي تكاد تكون عند المدّ في وسط الموج - فهناك كنا مطمئنين أن أحدا لا يعرفنا . كانت نوافذها المقوسة ، مع جثومها كطير كبير قلق بين الصخور وفوقها ، على حافة الموج بالذات ، واحيانا في وسطه ، قد جعلتنا نعلق على الروعة الممكنة في أن يسكنها واحد منا . . . وقد لحظنا أنها مهجورة ، بل إن مدخلها مهدّم ، ولعله كان مهدّما منذ زمن بعيد .

سألنا عنها أحد الصيادين ذات يوم ، فقال ، مؤشراً بيده نحوها : « تقصدون دار المجنونة تلك ؟ لا أحد يسكنها . ولا أحد يريد أن يسكنها . . . » وكان على وشك أن يغادرنا ، كأنه مشغول بأمر أهم من الحديث عنها ، غير أننا سرنا معه ، والحت نجوى عليه بالسؤال . ولعله استجابة لجمال هذه المستطرقة الغريبة تبرع بالمزيد ، وهو يسرع في اتجاه زورق جماعته . قال إن أحدا لا يريد السكنى في تلك الدار ، لأن أهل الحي يتشاءمون منها . كان قد بناها منذ اربعين سنة أو أكثر صياد شاب ، وجاء بعروسه إليها . وبعد زفافه بأيام ، بأيام قليلة ، ذهب بشبكته وزورقه الى البحر ، ولم يعد . وجعلت زوجته تخرج كل صباح وكل مساء

حافية ، منسرحة الشعر ، ممزقة الثياب ، وتسأل الصيادين العائدين هل رأوا ياسين ؟ هل عاد ياسين ؟ متى سيعود ياسين ؟ جُنّت المسكينة ، وأخذ الجميع يسايرونها على قدر عقلها ، ويقولون لها : سيعود ياسين قريبا ، نعم رأيناه ، ياسين ما زال في مركبه في عرض البحر . . . وفي انتظار عودة عريسها لم تترك المرأة الدار التي بناها لها ، رغم محاولات أهلها . حتى نسي الناس اسمها ، وأخذ الصبية يسمونها المجنونة . . . وحتى الدار جعل أهل الحي يسمّونها المجنونة ، ويبتعدون عنها . إلى أن ماتت صاحبتها بعد عشرين ، ثلاثين ، سنة من هذه الحال . . . «كثيراً ما كنت أنا ، في أول شبابي ، آتي لها بشيء من الطعام بين الحين والحين . فهل كفّت عن السؤال يوما واحداً ؟ لا والله ! كانت تعرفنا واحدا واحدا ، وكانت النساء يتشاءمن إذا رأينها وهي تخاطب واحدا منا . . . أوه . . . هل عاد ياسين ! لا والله ، لم يعد ياسين ـ حاله حال الكثيرين . . . »

وفي إحدى غدواتنا إلى الحي دخلنا « المجنونة » وفينا شيء من الرهبة ، وشيء من الأسى . وقالت نجوى : « ألا تظن أنها مسكونة ؟ » ومن خلال الردم والحطام ، ونسيج العناكب ، والاخشاب المحروقة وغيرها من آثار النيران التي لا بد أن البعض اشعلها في أيامٍ من البرد والبَلَل ، قلت لها : « لم يبق فيها ما تسكنه حتى روح هائمة . . . » كانت القصارة قد تقشرت وتساقطت عن الجدران ، وفي الصدر نافذة مزدوجة ذات قوس كبير لم يبق من زجاجها شيء ، والبحر يُرى من خلالها في هياجه الأبدي . « هذا المشهد غير حقيقي ! نحن نحلم ! » قلت . وهناك قبلّت نجوى على فمها قبلة حارة ، كأننا نؤكد أننا أقوى من مخلّفات الموت والزمن .

« انشتريها ، ونعيد بناءها ؟ » قالت نجوى ، وهي بين ذراعي .

فقبلتها مرة أخرى : « ما دمنا نحلم ، لم لا ؟ »

وعندها طفرت فوق الردم إلى أن بلغت النافذة ، ورمت ذراعيها كالمصلوبة ، وهي تواجه المياه المتلاطمة : « وهنا ستكتب أنت ! وسأكتب أنا أيضاً ! سأكتب أنا أيضاً ! وسنقول للدنيا وبحارها ، ثوري وأزبدي

كيفما شئت ! نحن الأقوى ، ونحن الأجمل ! »

وهبط قلبي ، إذ تذكرت زوجة ياسين ـ ولكن لثانية واحدة ، نسيتها بعدها ، حين قفزت من بين الركام إلى اروع مخلوقة قذفتها امواج عمورية الى وجه الأرض ، واحتضنتها من خلفها ودفنت وجهي في شعرها المرسل الطويل ، وأنا أعضعض عنقها ، ورذاذ الأمواج العالية من خلال النافذة يداعب جنوننا ، مرة بعد مرة ، ولا يكف .

بعد الذي رأيت من نجوى في الأشهر اللاحقة ، لم يكن صعبا عليها أن تشتري « المجنونة » وألف مجنونة أخرى ، وتعيد بناءها . واكتشافها أنها ليست ابنة محسن سليمان العامري لم يغير شيئا في حياتها . كانت مصرّة على التمتع بميراثه الضخم . في أيامنا الأولى حسبت أنني سأستطيع اقناعها بأن تترك خلدون ، ونتزوج ، وإذا أثار أحد قضية الميراث ، فلن يقلقنا الأمر : ففي أحسن الأحوال سيصعب جداً إبراز أي بيّنة على أن نجوى ليست أبنة محسن . وفي اسوأ الأحوال ـ وهذا ما كنت بيني وبين نفسي اتمناه ـ فإن نجوى إذا استطاع أحد أن يفقدها ميراثها لقاء استعادة أبيها الحقيقي ستجد عندي ما يكفينا لحياة كريمة ، قد تخلو من المال الفائض ، ولكن يملأها الحب ، والإباء العائلي . غير أن نجوى كانت تطلب التريث ، ريثما يموت « ابوها » الشيخ ، الذي كانت تحبه ، ولا تريد له زعزعة تؤلمه في أيامه الأخيرة . وكان علي أن أدرك أن تشابك المصالح بين اسرة الثغراني واسرتها ، قد زاد من تعقيده زواجها من تلك الأسرة ، ودخول أخي صفاء طرفا في هذه المصالح ، اضاف تعقيداً آخر . خيوط كثيرة جعلت تتوالد وتتقاطع ، وأنا الوحيد الذي بقيت خارج الشبكة على طريقتي ، بالضبط كما بقي أدهم بعيداً عن كل هذه الدسائس العائلية المالية على طريقته ، رشاشه في يد ، وقصائده (الهجائية في معظمها) في يد . « صراع التجار »، كان يسميه ، ويضيف : « جشع الطفيليين »، وينصرف إلى شؤون الجبهة التي كرس لها حياته .

لم يكد محسن العامري يوارى التراب ، حتى تبين أن ما كنت حذّرت نجوى بشأنه قد وقع . فأخت عائشة ، مديحة ، خالة نجوى

الحقيقية ، التي كانت مع زوجها عبد الله محيي سفير عمورية في القاهرة ، لم تكن وحدها التي تعرف سرّ العلاقة بين نجوى وبين الرجل الذي تبناها . كان هناك اخو مديحة ، سليمان فؤاد العامري ، أبن أخي محسن ـ وخال نجوى الحقيقي ـ الذي كان ثريا آخر بما ورثه من أموال أبيه ، والذي لم يرض أن ترث نجوى ممتلكات عمه كلها ـ من أراض وعقار ، وأسهم ، وارصدة في البنوك . لم يشأ سليمان هذا أن يكشف القضية علنا بأبلاغها المحاكم ، غير أنه لم يتردد في « الدخول في مفاوضات » (كما اسمتها نجوى) مع ابنة اخته وزوجها خلدون لتحقيق « تسوية » مرضية للطرفين ، دون اللجوء إلى القضاء . كانت حجته أن محسن العامري ، بموته دون ولد من صلبه ، تؤول امواله شرعا الى اخيه المتوفىً فؤاد ، وبالتالي إلى ذرية فؤاد ـ أي إلى عائشة (المتوفاة)، واختها مديحة ، واخيها سليمان . ولكونه ذكرا ، ستكون له هو حصة الأسد ، ولن يبقى لنجوى سوى حصة امها . هذه كانت خلاصة القضية التي قدمها بشكل تفصيلي لخلدون ونجوى ، وبتكتم شديد . ولكنه ، بحسّ رجل الأعمال اضافة إلى حسه السياسي (وكان صوته عالياً في المجلس النيابي)، استعد « للتنازل عن الكثير ». فاقترح أن تتخلى نجوى (على نحو منظم هيأ له مخططا لا يلفت نظر الفضوليين ، فيبقى سرا ضمن حدود الأسرة وحدها) عن نصف ميراثها « فقط »، له ولاخته مديحة . وعلى كل ، فهو سيعطي اخته ما يرضيها « منعا لاثارة المشاكل »...

كانت تلك فترة قاسية على نجوى : كانت تأتيني ، وهي لابسة ثياب الحداد ، لاهثة كمن هو هارب من كلاب مسعورة . وكنت الرجل الوحيد غير زوجها وسليمان العامري الذي يعرف التفاصيل . اختلي بها ما استطعت لساعة ، أو لنصف ساعة ، لأنزع ثيابها السوداء عن جسدها الفتي المشدود بلذة حارقة . وحالما تستعيد توازنها وصحوها ، هل كانت تطلب رأيا مني ؟ أبداً ! تريدني أن أؤ يدها بالرفض ، والتشبث ، وليفعلوا ما يشاؤون! اعطيها حبا والحب يعطيها شجاعة ، رغم خوفها المتصاعد من الفضيحة ، فتشتد تصلبا وتعنتا . ستبقى الأموال اموالها ، ولن تتخلى عن فلس واحد ، وتريدني أن ادخل معها في ادارة هذا العمل أو ذاك .

وأنا أرفض ، شهرا بعد شهر ، وقد اضحى التملك والعشق لديها جنونا واحدا . . . ويبدو أن سليمان العامري هدد وتوعد ، وكرر التهديد والوعيد ، ونجوى تخطط للتوسع في بناء أمبراطوريتها المالية ، دونما تحفظ ، بمساعدة من خلدون ـ الذي جعل الآن يتصرف تصرف اصحاب الثروات العريضة ـ وأخي صفاء . ثم جاء وقت كف فيه خالها عن الكلام ، بصورة تثير الدهشة والتساؤل ، وانقطعت الصلات العائلية دفعة واحدة بينه وبين نجوى وخلدون .

« هكذا ارادني محسن منذ أن فتحت عينيّ » قالت نجوى مرة . « اراد أن يعوّض بي عن الولد الذي لم يرزقه الله به . اطلعني على خصوصياته المالية قبل أن ابلغ العشرين من عمري . كنت اشعر أنه في دخيلته لسبب ما ، لا يحب اخاه ، أو أنه يحسده على شيء ما ـ ربما أولاده ـ ويقول أنه لا يريد عند وفاته أن يتحول شبر واحد من اراضيه ، أو كوخ واحد من عقاراته ، إلى أي من أسرة فؤاد . . . وما كدت ابلغ الواحدة والعشرين ، حتى اعطاني عددا من الوكالات الخاصة التي تتعلق بثلاث شركات ، والمبالغ المودعة باسمه في البنك الوطني في عمورية وبنك لويدز المركزي في لندن . كانت تلك البداية . ويوم كثر الحديث عن الاشتراكية ، سجل ملكية اثنتين من عماراته في « الخميلة » بأسمي . فهل يجوز لي اليوم أن أخون ثقته ، وأبدد تركته ؟ . . » ثم تخفض صوتها ، وتكاد تهمس في اذني واصابعها تعبث بشعري : « وكيف اسمح لاحد من اسرة العامري ، سليمان أو غيره ، أن يستفيد من مال هو الآن ميراث لشهاب خالد ؟ أليس انتقاما من السماء وعدالة منها أن تؤول ثروة اعدائه وقاتليه إلى ابنته التي انكروها عليه ؟ . . ولذلك ـ اسمع يا علاء ، انتبه لما أقول ـ حالما أكون مهيأة نفسيّاً للحبل ، ربما بعد سنتين أو ثلاث ، حالما اتخطى الثلاثين ، أريد ولداً منك . . . منك أنت . أتسمع ؟ وسنعرف أنا وأنت فقط أنه سويلمي آخر ، لا ثغراني ولا عامري . . . » .

كنت ارقب واسمع هذا كله ، وقد سئمت الأمر لكثرة ما تكرر حتى ما عدت أريد أن اسمع شيئا عنه . شعرت ، وأنا الخارج عن الموضوع

كليا ، أنني أنا الضحية لهذا الهوس الشيطاني الذي اصاب نجوى بعد وفاة محسن العامري . ما كنت اصبر على يوم واحد لا أراها فيه أو لا اسمع صوتها على التلفون ، واستبد بي شبق لها لم أعرف مثله حدة والحاحا تجاه أية أمرأة أيام كنت في العشرينات ، أو أوائل الثلاثينات، من عمري . كنت أقبل على الأربعين ، مليئا بالتجربة والكتابات والأفكار والخيبات ، وما اعتبرت أنه النضج الذي بتُّ أهلاً له بعد كل ما فعلت وكل ما كتبت . ولكني اقبلت على الأربعين وأنا عاجز كليا عن التحكم بالزوبعة التي تعصف بي تجاه هذه السويلمية الساحرة ، الرهيبة ، التي تعمل اظفارها واسنانها في جسدي فأقول لها : قطّعيني ، وبالغي في تقطيعي ، إنه ألذّ من أموال ابيك المزعوم كلها . . . وكنت أنا الضحية لأنني تأكدت أخيراً أن نجوى لن تتخلى عن شيء في سبيل أحد ، وأنها تعتبرني جزءاً من ميراثها ، رغم أنني لا امتلكها إلاّ في ساعات الغزل المحموم . وكلّما عضضت عنقها ، ولهمت حلمتيها ، فقدت المزيد من ارادتي ، وكيفت شؤوني كلها لكي تنسجم مع أوقات فراغها ، واشكالات ظروفها ، ونصوص ارادتها . والشيء الوحيد الذي بقي لي خالصا من سيطرتها ، أو هكذا تصورت ، كان الكتابة ، فأنا لم انقطع عن الكتابة بهذا الشكل أو ذاك . وبعد صدور « شجرة النار » بشهر أو أقل بدأت رواية جديدة ، أردت أن أجعل منها وسيلة استقصاء لمشكلة الكتابة نفسها ، وكانت نجوى تصر على قراءة ما أكتب أولاً بأول ، وتتمتع باضافة جملة هنا وجملة هناك ، وتقحم احيانا فقرات كاملة في السياق ، فضلا عن ملاحظات تكتبها بخط دقيق في هوامش الصفحات ، لا تخلو من حدة ، أو سخرية . ولا أنكر أنني كنت راضيا عن ذلك : كنت اشعر أنني أداخل فكرها بفكري ، كأني احتويها جسديا ، ويبقى ما أكتب هو المسيطر وهو المتحكم . وتقول كل مرة ، بملء التحدّي : « حالما يتم تعمير المجنونة ، سأكتب ما يذهلك ! » كأنها لم تذهلني بما يكفيني بشخصها ، باندفاعها ، بطيشها ، بلذاتها .

بعد قرابة السنتين من ذلك كله، كان لا بد من ميّادة أمين . ولو لم توجد ميادة ، لكان عليّ أن اخترعها . ولكنها كانت هناك ، أمامي ، من

لحم ودم . وكنت في حالة تسرع بي إلى الانهيار ، والمرض ، وبحاجة إلى الانقاذ .

[٤٠]

عزيزي علاء،

أعترف، منذ البداية، أني لا اجيد كتابة الرسائل، ولا احبذها. وفي المرات القليلة التي اضطررت إلى الكتابة كتبت رسائل مبتورة، لا تفي بحاجتي. اتذكر الرسائل التي بعثت بها إليك قبل سنوات؟ حين اتذكر تلك الرسائل، اضحك على نفسي، وتعود لي صورة تلك الفتاة التي كنتها. كنت أقرب إلى المغرورة، وكنت جاهلة، وكنت عنيدة أيضاً. عليّ أن اصارحك: أريد أن أقول أشياء كثيرة، لكن لشد ما اعجب عندما تضيع مني هذه الأشياء جميعا وتحل مكانها أشياء أخرى، وبدوافع الغيظ والعجز الشاق في تعاملي مع الكلمات التي كتبتها، أبدأ الرحلة الخطرة، أصبح فيلسوفة وأحاول تفسير كل كلمة قلتها، وأحاول متابعة هـذه اللعبة، فأكتشف في وقت متأخر أنني أمرأة معذبة، ممزقة، مهما تقل أنت.

هذه الرسالة التي اكتبها الآن لا تختلف عن الرسائل الأخرى التي شرعت بها ولم أكملها. حاولت مرارا أن أكتب إليك، والسبب الذي يدفعني الى ذلك هو أني عند لقائنا لا استطيع أن أنقل لك بدقة ما يتواثب في نفسي. ثم إن مشاركتك الطاغية في كل ما أحاول أن أقوله تجعلني أكثر عجزا عن نقل الأفكار التي كانت تدور في رأسي... تصور، في الليل أرتب افكاري، احدد ما أريد أن أقوله لك ـ ولديّ أشياء كثيرة رائعة أريد أن أقولها لك ـ لكن ما أكاد انظر إلى عينيك، ما أكاد أبدأ، حتى أحس أنني، كما قلت لي أنت يوماً بغضب، ممثلة فاشلة. تضيع عندي الأفكار، تغيب، تتهافت، ثم تتدخل أنت، ويأخذ الحديث مجرى أو نسقا معينا، وعند ذاك اتنازل بطواعية عن كل ما أردت قوله، واعيش لساعات في الجو الذي

تخلقه أنت. وتمّر الأشهر وأنا راضية بغرقي في دوّامة المشكلات التي خلّفها لي موت أبي.

هل تغضب يا علاء إذا قلت إنك ساحر؟ كيف تستطيع أن تسرق افكار الناس واحلامهم؟ كيف تطاوعك الكلمات بهذا الشكل، وتقطع الطريق على الآخرين؟ ولماذا لا تكتب كما تتحدث؟ اعرف أنك شتغضب، سيثور فيك الفنان، لأن ما أقوله الآن لن تعتبره مدحا أو ميزة لك، ستعتبره تعريضا وانتقاصا من فنك- وصفة الفنان، الفنان الذي يخاطب الآلاف ويطل عليهم من خلال كتبه، هي أقوى الصفات فيك، ومع هذا فإن كتبك لم تقل حتى الآن عشر ما يفيض في حديثك. كما لا يرضيك أبداً أن تقول امرأة واحدة، مثلي، إن حديثك يتفوق كثيراً على ما تكتب، لأن امرأة واحدة لا ترضيك. لا تنكر! وهذا الأمر يقلقني يا علاء. . وهذا بالذات شيء واحد من اشياء كثيرة أردت أن أقولها، لكني كما ذكرت لك في البداية، حالما أجلس إلى المنضدة واكتب، تتهافت الأفكار والكلمات- ربما لشدة حضورك في ذهني؟ ما الذي يجعل حضورك مثيراً ومقلقا لي اليوم بالضبط كما كان أيام لقائنا الأولى؟ لماذا أبقى أحبك وأخشاك دائما؟ وما الذي فيك يجعلني أشعر أنه يعطل قواي العقلية؟

إنني أحب أن أعيش بجنون، ويمكن أن أعمل أي شيء. أنت تتحدث كثيراً عن الحرية والشجاعة، لكنك لا تفعل شيئا حقيقيا للتعبير عن الحرية والشجاعة. هل تريد أكثر من كل هذا؟ هل تحتمل؟ دعني إذن أقول لك: أنت غير مقتنع بأية كلمة أو فكرة واردة في رواياتك ودراساتك. هناك فرق كبير بين ما تكتب وما تعيش، بين ما تصرّح به وما تؤمن به جديا. وهذا الفرق يجعلني شديدة الحيرة: هذا الرجل ماذا يريد مني؟ وإلى أي حد يمكن الوثوق بما يقول؟ وما يقوله- هل هو ما يكتبه في رواياته أم هو ما يحكيه أثناء جلساتنا؟ أليس الكلام تعويضا عن الفعل؟ قرأت ذات

مرة أن أكثر الذين يتخذون المواقف الجريئة هم أقل الناس حديثا عن الجرأة! اتتصور أنني أحرّضك؟ اتحداك؟ ثق أني لم أفكر بهذا الأمر، لكن ما وصلت إليه من ضيق في الفترة الأخيرة اضطرني إلى كتابة هذه الرسالة.

خلدون أصبح متعبا خلال الشهور الأخيرة. ليس متعبا فقط، بل وأصبح إنسانا مختلفا غريب الأطوار. وإذا كنت قد استطعت أن أعيش معه طوال هذه المدة وكان يغريني بشتى الوسائل لكي أظل راضية، فإنه لم يعد يحفل برضاي الآن. بل وأصبح يبحث عن المتاعب والمشاكل في أقل التصرفات وأكثرها تفاهة. وكلما اقتضت شؤوننا سفراً منه إلى الخارج لمتابعتها بنفسه، أبدى تردّداً وممانعة. وأنت تعرف السبب.

أنت تعرف الكثير وترى بعينك، ولكن يجب أن تعرف أنني لم أعد قادرة على الاحتمال أكثر، لم أعد قادرة على السكوت والأستمرار. هل أنت مستعد لمغامرة ما، لجنون من نوع ما؟ أكرر عليك السؤال قبل أن أتخذ قرارا بمفردي، ويصبح تغيير القرار أمراً مستحيلاً!

عزيزي علاء

مرة أخرى أقول إنني لا اجيد الكتابة، كما لا أدعي أنني أمتلك امكانيات فنان مثلك، لكي أعبر عما يدور في نفسي. ومع ذلك فقد قلت أشياء في هذه الرسالة قريبة مما يدور في نفسي. مع حبي.. وجنوني.. وجنوني مرة أخرى.. وحاول أن تفهم.

نجوى

حاول أن تفهم! لم تكن المحاولة عسيرة. غير أن الذي فهمته، وكنت أفهمه على طول الخط، هو أن نجوى قد تتصور نفسها، في ساعة من التجليّ، مستعدة للمغامرة، ولكنها بعد يوم أو يومين تضع حدودا للمغامرة تجعلها بحكم الملغاة. وكيفما نظرت الى القضية، وجدت

أن التضحيات تقع كلها عليها . اتتخلى عن ميراثها ـ أو جزء كبير منه ؟ اتتخلى عن زوجها ، وقد أصبح المحور الأهم في اعمالها الكبيرة ؟ وهل يبرر كل ذلك قولها أنها عادت أخيراً إلى الرجل الذي تحّب ، مع ما سيجر ذلك من تعقيدات اجتماعية ، وشيء غير قليل من الفضيحة؟

ادهشتني رسالتها . ومع أنها أكدّت على الاضطراب أو ربما ، كما قالت، التمزق الذي تعانيه ، فإنها لم تقنعني بأن نجوى فعلاً ستتفق معي على قرار احسمه بشأننا ، فأي قرار من هذا القبيل سيكون في صالحي ، وينطوي على ضرر كبير لها . ولا سيما بعد أن أدركت أن ذلك الرأس البديع ، الذي تسكره القبلات في غفلة عن البشر ، يحوي عقلا عمليا تسكره المقتنيات أمام أعين البشر . ولم استبعد أن الذي دفعها إلى كتابة الرسالة كان شيئا آخر ، غير هذا كله : كان ذلك الهوس النسائي بالرجل عندما يبدو أنه على وشك الانفلات . هل علمت بعلاقتي مع ميادة ، فدفعتها الغيرة إلى اعادة التشبث بي على هذا النحو اللامنطقي ، الذي تعرف أنني لا أُخدع به ؟

ولماذا الرسالة ، أصلاً ؟ لقد هيأت نفسي لاستلام رسالة أخرى مستعجلة بعد يوم أو يومين لتنفي ما التزمته بالرسالة السابقة . كما هيأت نفسي لمخابرة تلفونية مقتضبة تتفق فيها معي على زيارة للمجنونة . ولكنني قطعت عليها الطريق . تلفنت لها في مكتبها في شارع أبن سينا ، والرسالة ما زالت بيدي .

غير أنها ، هاتفيا ، جعلت تراوغ ، وتكرر المجاملات ، لتفهمني أنها ليست وحدها في مكتبها . قلت لها إن الرسالة أمامي ، فضحكت ببراءة ، وقالت « أرجو أنها راقت لك . » قلت ، إنها راقت لي ، ولكنها لم تقنعني . فضحكت مرة أخرى ، وقالت ، مموهةً على السامع المحتمل ، إن عشرات الرسائل تصدر عن المكتب ، بعضها يحقق الغرض المطلوب ، وبعضها لا يحقق . فقلت ، لو أن كل ما يخطر بالبال في الليل ، في لحظات من الحلم والنشوة ، يتحقق في اليوم التالي، لكانت الدنيا غير هذه الدنيا . قهقهت بتمثيليتها المصطنعة ، وقالت : « ولكن ليس لنا إلاّ هذه الدنيا ،

بكل مكسوراتها وعيوبها »، ثم اضافت : « متى سنراك ثانية ؟ خلدون يقول إن الطعام في مطعم الفردوس جيد ، وان المشهد هناك جميل ، جميل جداً » . فتلاءمت قائلاً ، وقد أدركت معنى اشارتها الخفية : « ولا سيما إذا كان الإنسان مع شخص جميل محبوب . . » واستمرت الضحكة إياها من خلال جوابها : « بالضبط ، بالضبط . . . » وانتهت المكالمة ، وطويت الرسالة ، واعدتها إلى غلافها ، ووضعتها في الدرج .

[٤١]

كنت أظن أن صفاء وحده يتصف بهذه الشهوة العارمة للمال ، وأن الآخرين الذين اعرفهم ، أو ارتبط معهم بعلاقات ، لا ينظرون إلى المال هذه النظرة ، بل وكنت اظنهم يشاركونني رأيي ووجهة نظري . لكن كم اشعر الآن بخيبة الأمل ، وكم اشعر بالتعاسة ، لأن أكثر الآخرين الذين كانوا على اتفاق معي ، أو هكذا يتظاهرون ، كانوا كذلك لأنهم لا يملكون ، أو لم يدخلوا بعد في التجربة . الآن ، في هذا المحيط الصغير في إطار المجموعة التي اعيش بينها أو قريبا منها لا أرى إلا شيئا واحداً : المال ، وأنا الوحيد الذي أبدو مختلفاً أو شاذاً ، أو كما يقولون ، كالخروف الأسود في القطيع الأبيض .

ربما كان الخطأ ، منذ البداية ، خطأي ، لأني لم أعرف ولم أفهم ، ولذلك افاجأ بهذا التطور أو التحول ، مع العلم أن نواة العاصفة كانت موجودة ، موجودة بقوة ، فقط كانت تتطلب عيونا قوية نافذة لكي تكتشف وترى !

وإذا كنت اسلّم بهذا الخطأ بالنسبة للكثيرين ولا اشعر بحرج فإني لا أقوى على التسليم بالمفاجأة التي تذهلني كل يوم . . . مفاجأة نجوى ! اصبحت أكثر اهتماما من خلدون . أصبحت كثيرة الشرود والتفكير في مشاريع وخطط لا اعرف كيف تغزو رأسها ، وهذا التغير الذي ظهر وأخذ يتزايد يوما بعد آخر لم يقتصر على الرغبة في زيادة الثروة وتنميتها باساليب لا حصر لها ، إذ امتدّ إلى شكل نجوى ذاته ، وإلى لغتها أيضاً . ولا ابالغ إذا قلت إنني جعلت انكرها في حالات كثيرة ، فإذا كنت في غرفة أخرى وسمعت صوتها يسأل أو يجيب حول بعض المشاريع فقد كنت مستعداً لانكار أية علاقة بين ذلك الصوت الذي اعرفه ، الذي احببته ، والصوت الذي كان يسقط حاداً وبعض الاحيان متحشرجا نتيجة الاسراف بالتدخين !

أين تلك المقاطع الجميلة التي كنا نرددها ، أو بالأحرى كانت نجوى ترددها ، قبل سنتين أو ثلاث ؟ هل لا تزال تحفظ أيا من تلك المقاطع أو تتذكرها ؟ هل تعني شيئا بالنسبة لها ؟ ومن أين اكتسبت هذه الخبرة المفاجئة ، وهذه المصطلحات والأفكار ؟

أخي صفاء شيطان في ملابس جميلة ، يرسم على شفتيه ابتسامة شديدة العذوبة والاغراء ، وفي أحيان كثيرة يخطىء من لا يعرفه فيظنه عازفا موسيقيا أو رساما ، لفرط الرقة والعذوبة التي تبدر منه حين يساعد امرأة في ارتداء معطفها أو حين يسألها عن المشروب الذي تفضله . صفاء ذاته حين يبدأ العمل يصبح رجلاً آخر . ينشدّ وجهه ، تفارقه الابتسامة ، ويغمض عينيه قليلاً لكي يجمع فكره كله في بؤرة واحدة : المال !

نجوى اكتسبت منه تلك العادة . صحيح أن كلاًّ منهما يعبر عن مفاهيمه بطريقة مختلفة عن الآخر ، لكن من ينظر إليهما ، في مثل تلك الحالة ، يحسّ وكأنهما في مباراة ضارية . إنها تأكل اظفارها ، أو بعض الأحيان تلف على ابهامها خصلة من الشعر وتداعبها بقوة ، وفي لحظات التفكير العميق تمد جزءا من هذه الخصلة إلى فمها ، وكأنها تريد أن تستوحيها ، أن تستنطقها . أما تلك الاسارير المرتاحة المسترخية فإنها تتراجع لتحل مكانها تجاعيد صغيرة على شكل خطوط متقطعة متداخلة على الجبين وإلى جانب العينين .

سألت صبا مرة ، وادهم الصغير يمشي ويتعثر في الغرفة ، وقد ملأها بدمى الارانب والدببة والبط ، هل لاحظت تغيرا في نجوى ؟ نظرت إليّ صبا نظرة طويلة متسائلة ومستغربة ، كأنها لا تريد أن تتكلم . وحين وجدتني منتظرا والتساؤ ل يملأ وجهي قالت :

ـ نجوى هكذا منذ البداية .

وحين رأت دهشتي واستغرابي اضافت :

ـ نعم ، نجوى تريد كل شيء أو لا شيء ، هكذا كانت من يوم عرفتها !

قلت بمرارة :

ـ غريب ، لم الاحظ !

ـ أنتم الرجال ترون ما تريدون رؤ يته ، وبعض الاحيان تتوهمون أو تحلمون !

قلت بانفعال ، محاولاً استدراجها :

ـ نجوى لم تكن بهذا الشكل ، ولا بد أن شيئا غيّرها !

ردّت بحزن :

ـ يمكن أن تقول أي شيء الآن ، ويمكن أن تبرر كل شيء مضى !
ـ ولكن أريد أن أعرف الحقيقة .
ـ أية حقيقة ؟
ـ هل كانت نجوى بهذا الشكل أم أن شيئا غيّرها ؟ زواجها ربما ؟
ـ إذا أردت رأيي ، نجوى هكذا كانت دائماً ، منذ عرفتها في كلية الآداب.
ـ ألم تتغير؟
ـ ماذا تقصد ؟
ـ كانت لطيفة ،كانت اهتماماتها مختلفة .كانت تمزح، تضحك، لا تنظر إلى المادة والمال مثلما تفعل الآن !

قالت صبا وهي تضحك بأسى :

ـ ما تزال لطيفة ، تمزح ، تضحك . . .

توقفت لحظة ثم اضافت :

ـ ألاّ يجوز أن تكون أنت الذي تغيرت ؟ وأنت الذي تراها بشكل ما ، ألا يجوز أنك كنت لا ترى إلاّ ما تحبّ ، أو ما تريد ؟
ـ ولكنها لم تكن بهذا الشكل !

قطبّت صبا وقالت بحزم :

ـ علاء. . . اسمح لي أن أقول لك إنك غلطان . نجوى بهذا

الشكل منذ اليوم الذي خلقها الله فيه . صحيح أنها كانت معك لطيفة ، وكانت . . وكانت ، ولكنها كانت تريد أن تمتلك ، أن تسيطر . ومن أجل التملك والسيطرة لا تحلّل ولا تحرّم . . . إنها تفعل كل شيء !

بدا لي كلام صبا قاسيا، ورغم أني كنت مستعدا لسماع كل شيء ، كنت أعلم أن عواطفي تجاه نجوى أخذت تتغير . إلاّ أني لم أكن مقدراً مدى الإضطراب والجيشان اللذين يتفاعلان داخلي وحولي . صبا تضعني في الزاوية الصعبة ، إنها تكشف لي فجأة ودفعة واحدة ماضيا كاملا ومثقلاً . إنها الآن تقول ، دون كلمات مباشرة أو كثيرة ، كم كنت غبيا ومنساقا ، وكيف أني لم أرَ إلاّ ما أردت رؤ يته ، وأني لم أسمع إلاّ ما كان يتردد في اعماقي !

جلست على الأرض لألاعب أدهم ، وأقذف له بالأرانب والدببة ، وأنا أتساءل بصمت : هل كانت نجوى فعلاً هكذا ؟ وأنا ، هل كنت كما أنا الآن ؟ هل تغيّرنا كلنا في هذه السنوات القليلة ؟ وصبا ، ألم تتغيّر هي أيضاً ؟ هنا أردت للجرح أن يعمق ، أردت له أن يزيد في ايذائي ووجعي . فسألتها ، ولأول مرة :

ـ وأنت يا صبا ، ما مسألة هادي عدّاي معك ؟

بوغتت صبا حقا . اصفرّ وجهها الجميل ، وغدا كأنه نحت من الشمع . واتسعت عيناها بشكل مذهل ، وهي تنظر إليّ عاجزة عن النطق .

نظرت إليها متوجعا ، صامتا . وبعد لحظات طويلة كالدهر ، التقطتْ أدهم من على الأرض واحتضنته . وقالت بشفتين بدا فيهما الجفاف :

ـ هل تحدث إليك نبيل عن هادي ؟ ألم يستطع أن يبقي شكوكه السخيفة بين هذه الجدران الأربعة ؟

هززت رأسي ، ولم أجب . وبعد صمت طويل آخر ، أخذ بعض لونها يعود إليها . قالت ، وهي تضع أرنباً بين يدي طفلها :

ـ عـلاء، حبيبي . لا تسألني عن هادي ، أرجوك. أسألني عن نجوى . . . كما تسألني هي عنك ، كلما انفردت بي . عـلاء، حكايتك معها بلغت حد الفضيحة ـ وأنتما غافلان عن الناس . . . هادي . . . أوه ، لا أهمية له في حياتي ، مطلقا . وإذا أردت أن تعرف . . .

قاطعتها وقد ادركت أنني لا أريد أن أعرف :

ـ صبا ، لا تقولي شيئا . إنْسَيْ أنني سألتك عنه . ولن أسألك عنه بعد اليوم أو عن نجوى . أبداً .

وإذا هي تنفجر بلهجة لم أعهدها فيها :

ـ إنها لعنة العمة نصرت . . . يلهج لسانها بذكر الله ، وقلبها تسبرح فيه الشياطين . ألم تكن هي التي شجعت أبي على اهمال أمي ، والتعلق بأم هادي ؟

ـ كفى ، أرجوك ، صبا . أنا إنما أردت لك ألاّ تعرفي الألم . . . أتدرين ؟ إنك أعز من في الدنيا عليّ . . .

وفجأة ، وضعت عنها ابنها وانخرطت في بكـاء ذكرّني بـأيام طفولتها .

قمت ، وانحنيت فوقها ، وقبّلتها على رأسها ، وربتُّ على كتفها . وبقيت هي في بكائها .

رفعت أدهم بين يديّ ، وقبّلته على خدّه الطريّ . ثم أعدته إلى حضنها ، وخرجت .

[٤٢]

بعد كل ما قالته صبا ، بعد كل ما حصل ، وفي اليوم الذي تم الاتفاق على تأسيس « شركة سالم » جاءتني نجوى ، دون موعد ، ودون اتصال . كنت على موعد مع ميادة مساء ذلك اليوم بالذات ، ولكن نجوى جاءت لحسن الحظ في الصباح . جاءت حوالي الحادية عشرة والنصف، وأخذت تزمّر ببوق سيارتها بالحاح . كان لمجيئها احتفال صاخب . فسعيد الذي لم يرها منذ وقت طويل ، وكلثومة التي كانت تنظر إليها بارتياب منذ المرة الأولى التي رأتها فيها عندي ، أيام كانت صبا ما تزال تعيش معنا ، ثم عمتي نصرت التي كانت تنشر ثوبا في الشرفة المطلة على الحديقة الأمامية ، واطفال سعيد الذين كانوا يتعاركون ويصخبون في مثل هذه الساعة من النهار . . . كل هؤلاء تغيروا فجأة . ارتكنت عمتي نصرت حافة الشرفة وأخذت تنظر بتساؤ ل مرتاب ، ولم تردّ على تحية نجوى لما رفعت إليها يدها وحيتها ، وسعيد بعد أن حياها باهتمام وانفعال تركها راكضا لكي يبلّغني ، أما كلثومة فقد ابتعدت قليلاً وحاولت أن تجمع الأطفال حولها وكأنها تخاف نجوى ، وبدت مترددة أيضاً حين وقفت نجوى قليلاً لكي تتحدث مع الأطفال وتقدم لهم قطع الشكولاته التي جلبتها معها . كنت من نافذة غرفتي أرى واتابع ، وبدا لي كل شيء غريبا ، مثيرا ومضحكا في نفس الوقت ، لأن نجوى لم تتعود أن تأتي في مثل هذه الساعة ، وعمتي تصوّرت أن نجوى لا تأتي إلاّ من أجل صبا ، وربما اعتقد الآخرون كذلك ، أما أنها تأتي الآن ، وبهذا الوقت ، وبتلك الطريقة العلنية جداً ، فقد أثارت التساؤ ل والارتياب . وإذا كنت أنا قد استغربت مجيئها بهذا الشكل ، دون موعد أو اتصال ، فقد بدا الأمر للآخرين مثيراً للتساؤل، وربما للظنون ! وما كدت أسألها عن أحوالها وما إذا كانت تفضل أن تتناول مشروبا بارداً أو فنجاناً من القهوة ، حتى قالت بانفعال :

ـ يجب أن نغادر بسرعة !

وغمزت بعينها بطريقة لا تترك مجالاً للشك . قلت ببرودة اعصاب :

ـ ولكني غير مستعد الآن .

ونظرتُ إلى ملابسي وإلى أوراقي التي على المنضدة الكبيرة . فقالت بحدة مع ضحكة ذات دلالة :

ـ إذا كان مطلوبا مني الأنتظار ريثما تغير ملابسك ، فسوف أذهب إلى العمة نصرت وأدردش معها !

قلت بطريقة متحدية :

ـ ومن قال لك اني سأخرج ؟
ـ أنا أقول !
ـ وإذا لم أوافق ؟
ـ لدي أشياء هامة يجب أن أخبرك بها .
ـ يمكن أن تتحدثي هنا عن أي شيء تريدين .
ـ لدي أسرار لا أستطيع أن أقولها هنا .
ـ المكان أمين ويمكن أن تقولي أي شيء ، ولا أحد يسمع !

مشت في الغرفة ، القت نظرة على نفسها في المرآة التي فوق البوفيه ، اصلحت شعرها قليلاً ، ابتسمت ، ثم التفتت إليّ :

ـ أريدك . . . الآن . . .

عندما نظرت إلّي في تلك اللحظة زعزعتني . كانت تمتلىء شهوة . كانت تتدفق ، تصخب ، وكانت مستعدة لأن تفعل كل شيء في تلك اللحظة ، مهما كلفها الأمر . ظهر كل ذلك واضحا متحديا ، ولو حاولتُ شيئا آخر لارتكبتْ حماقة . قلت في محاولة لانتزاع الفتيل :

ـ إلى أين تريديننا أن نذهب ؟
ـ إلى المجنونة . . .

وتخلصاً من الموقف الذي وضعتني فيه ، وافقت .

ولكن منذ اللحظة التي بدأت عندها اغيّر ملابسي في غرفتي ، بعد الموافقة البطيئة المترددة ، اخذت تداعبني بطريقة لم اتعودها ، وقد لحقت بي إليها . كانت تمسك طرف البنطلون لا تريد لرجلي أن تدخل فيه ، فإذا تركت رجلي ، تعلّقت برقبتي ، تقبلني بصوت عالٍ . وحتى اللحظات الأخيرة ، وأنا القي نظرة أخيرة على غرفتي ، راحت تقرصني ، تثيرني ، حتى قلت لها قبل أن نخرج من الغرفة :

ـ اسمعي ، إذا كنت لا تصبرين فأنا مستعد أن أفعل كل شيء الآن . . وأمام الجميع . . . ماذا تقولين ؟

دفعتني دفعا ونحن نخرج ، وقالت همساً حين رأت سعيد واقفاً عند الباب الخارجي :

ـ قل لهم إنك لن ترجع قبل يوم أو يومين !

كان سعيد يبتسم بمكر ، أما زوجته فقد وقفت في طرف بعيد . وكانت تحاول أن تجمع الأطفال مرة أخرى قريباً منها. والعمة نصرت ظلت مرتكنة إلى الشرفة تنظر ببلاهة متسائلة ، كأنها لا تصدق أن تدخل نجوى الدار بتلك الوقاحة ، فصاحت تقول لها بطريقة ساخرة :

ـ صبا رحلت ، رحلت قبل سنة !

ونظرت إلى نجوى بسخرية الأطفال ، وكأنها تقول لها ، أعرف لماذا أتيت ، وكيف أتيت !

حركت نجوى يدها بتحية فيها حرارة وخفة للعمة نصرت ، لكن العمة لم تجب . أما حين نظرت إليها متسائلا كيف سوف نذهب ، فقد قالت وكأنها خططت لكل شيء :

ـ أنت تذهب بسيارتك وأنا بسيارتي !

ولم تترك لي مجالا للمناقشة ، واتجهت إلى سيارتها وهي تحيي سعيد بمرح زائد . وقفت حائرا ، إذ لم نتعود أن نذهب إلى هناك بسيارتين ، بل

كنا في الأغلب نذهب في سيارة أجرة اقصاء للأنظار . ولم نتعود أن نتعامل بهذه الطريقة ، لكن نجوى كانت واضحة ومصممة ، إذ لم تلبث أن دخلت سيارتها ، وشغلت المحرك ، وقالت :

ـ سوف انتظرك ، لكي تسير أمامي .

لا أعرف كيف استسلمت ؛ إذ ما لبثت أن توجهت إلى سيارتي ، وبهدوء ركبت وأدرت المحرك ، وخلال لحظات سبقتها في الطريق الخارجي إلى المجنونة .

طوال الطريق لم تترك لي فرصة للهدوء . كانت في حالة من العبث اقرب للشقاوة . كانت تسبقني في بعض المنعطفات برعونة زائدة ، معرضة نفسها للخطر ، ثم لا تلبث أن تتباطأ وتنتظرني ، حتى إذا تجاوزتها بقيت ورائي كما لو أنها تخاف أن أهرب . وكانت في بعض الأحيان تغيب عني وكأنّا لن نلتقي مرة أخرى !

عندما وصلنا المجنونة ادعت أنها نسيت المفتاح ! وسألتني ما إذا كنت احمل مفتاحي ، وتظاهرت بالاضطراب والحيرة ، وفجأة استخرجت المفتاح وهي تضحك ، بطريقة توحي بأنها في تمام السيطرة على كل شيء .

أما حين دخلنا واصبحنا وحيدين في المجنونة فقد احسست أنني أراها لأول مرة : كانت مغرية ، أكثر من أية مرة سابقة ، وشديدة الارتباك أكثر مما تعودت ، وراغبة شَبِقة لا تقوى على الانتظار . لم تكن تريد أن تتكلم ، أن تشير إلى حديث سابق أو حادثة مضت ، وكأن فترة الغياب التي امتدت ما يزيد على الشهرين لا تعني شيئا بالنسبة لها . فكل ما يهمها هو الآن وهنا . أما تلك السهرة التي تكلمت أنا خلالها الكثير ، بعد الكأس أو الكأسين ، وشتمت وصخبت ، فقد اعتبرتها وكأنها لم تكن ، لأن خلدون الذي اتصل في اليوم التالي بدا مرحا ، ولم يشر إلا عرضا إلى بعض الكلمات ، ولم يحمل كلامه أي معنى من معاني اللوم أو العتب ، وأن كنت من جانبي قد لمت نفسي جداً وقررت أن اقطع علاقاتي ، أو على الأقل احفظ مسافة بيني وبينهم جميعا ، بحراسة من ميّادة

الوفية ، الرقيقة ، المخلصة .

التقينا مرتين عرضا بعد ذلك ، المرة الأولى أثناء زيارتي لصبا وقد جاءت نجوى وأنا أودع صبا خارجا ولم أشأ البقاء ، متذرعا بوجود موعد سابق لا استطع أن اتخلف عنه ، ولو أنني وقفت عند البوابة لحظات لاتبادل معها بضع كلمات. والمرة الثانية في معرض أنيس المفتي ، وكان الجو من الضجيج إلى درجة لا يمكن عندها لاثنين أن يتبادلا أكثر من تحية أو تعليق عابر . ما عدا هاتين المرتين لم التق بنجوى ، ولم أدرِ مدى معرفتها بعلاقتي مع ميادة . صحيح أن الاتصالات التلفونية لم تنقطع ، وكان خلدون هو المبادر دائما ، وكأن التلفون يعني شيئا هاما بالنسبة له ، ويشعر بنوع من السعادة في هذه الثرثرة العادية . . . ما عدا الاتصالات التلفونية ، فقد ظللت بعيداً ، خاصة وأن فترة الامتحانات أوجدت لي عذرا قويا ومقنعا بالنسبة لي وللآخرين !

وفجأة تأتي نجوى في ذلك الوقت من النهار ، في ذلك اليوم القائظ من أيام تموز المتأخرة ، وكلمة وحيدة كأنها البشارة ، تطلقها دون أن تكلف نفسها أي تفسير : « شركة سالم اصبحت حقيقة منذ اليوم! » ونخرج من البيت إلى المجنونة بهذه الطريقة الطائشة ، وهي تبدو شهية ، شبقة وخائفة معا ، لا تريد أن تثرثر مثلما تعودت . . . نجوى التي أراها أمامي لا اعرفها ، اني أراها لأول مرة . ولكي تحاول أن تتغلب على الارتباك أو تختصره ، تندفع إلى غرفة النوم ، وخلال دقائق ترجع إليّ ، في فستان فضفاض طويل يشبه نوار التفاح ببياضه الضارب إلى حمرة خفيفة ، وكأنه الدم في مرحلة تكوينه الأولى . وتبدو متألقة ، فتضع يديها الاثنتين على عارضتي الباب وتنحني قليلاً فيندفع النهدان بصخب وكأنهما يعلنان بداية الخطيئة الأولى ، وتقول بطريقة مراسيمية :

ـ ماذا يشرب مولاي ؟

وحين اهز كتفي حيرة ، أو دلالة على استعدادي لشرب أي شيء تقدمه ، تقول بنفس اللهجة :

ـ ماذا يقول سيدي ومولاي بالجن مع الليمون ؟

قلت بسخرية :

ـ هل تفضل مولاتي هذا ؟

ارتفعت قليلا ، عدلت وقفتها ، ارتفق نهدها حافة الباب فبان صارخا بالحلمة البارزة والخط الذي رسمه مع الحافة ، وهزت رأسها دلالة الإيجاب ، ودون أن ترفع قدمها استدارت على كعبها بطريقة شديدة الإغراء ، وكأنها تستعرض لي كل شيء في جسدها . ولما اطمأنت أني رأيت ارتجاج ردفيها ، ضحكت بطيش وهي تندفع مثل طفلة تركض نحو المطبخ .

لماذا اتذكر كل اللحظات والتفاصيل ؟ لماذا اتذكر البحر والمجنونة والنهار ونجوى بهذا الوضوح الحاد ؟ وهل كان في أي وقت أبدا أحد منهم مثلما كان في تلك اللحظات ؟

كان البحر صقيلا يشبه صفحة الموسى . لامعا كمرايا الجن ، ممتدا عميقا إلى ما لا نهاية ، وكان موجودا في كل شيء ، في رائحة الهواء ، في المسام ، في نكهة الأشياء . أما المجنونة فلم تكن أبداً بهذه الالفة والدفء البارد اللذيذ . كانت شديدة النعومة والإثارة . والنهار في تلك الساعة كان مشعًا كثيفا متداخلا مع الظلال الداخلية بحيث أن الشمس والظلمة يلتقيان ، يتمازجان ، ثم يولدان من جديد وكأنهما لم يفترقا أبدا . كان نهارا يشبه المطر ، كنت استحم بحبات الضياء والظلمة ، واراها تسبح على شكل اجزاء صغيرة ثم لا تلبث أن تتحد وتشع كالنيازك !

ونجوى . . . هي الداء والدواء ، هي اللعنة والرحمة ، كانت تدندن وهي تعصر الليمون ، كانت تدندن بمقطع من اغنية من تلك الاغاني التي إذا حُرِّفت قليلا اكتسبت جرْسا لذيذا حين يغنيها الإنسان لنفسه أو يغنيها في الفراش ، أما لو سمعها من آخرين ، في مكان عام ، فلا يلبث أن يثور ويغضب . كانت نجوى تدندن بلحن حوّرته قليلاً فأصبح ممتعا وبذيئا ، بريئا ونابيا ، محبوبا ومرفوضا ، وما كدت افطن للتحريف والكلمات الجديدة حتى صرخت :

ـ سوف اقطع لسانك يا . . .

وبخفة قطة جاءت ، تركت كل شيء وجاءت ، وقفت على الباب ومدت لسانها كطفلة شقية متحدية ، ثم بعد لحظات اضفت على وجهها علائم الجدية وسألتني :

ـ ماذا قلت ؟

ـ سأقطع لسانك !

ـ لأنك تحبني ؟

ـ لأني لا أحب الاغاني السفيهة .

ـ إذن سأغني لك « شروقي » .

توقفت لحظة ثم سألت :

ـ إذا غنيت لك أغاني محترمة هل تحبني ؟

وقفت . اتجهت نحوها . بدت مثل قطة متحفزة للهرب . لما اقتربت ولم يبق بيننا سوى خطوة واحدة مدت لسانها وهربت . اثارتني . خضت دمي . كنت اشتهيها . كنت أريدها في تلك اللحظة . اتجهت إلى المطبخ وبدأت تعصر الليمون من جديد ، لكن كانت تريدني أن اغتصبها ، أن امددها في نفس المكان وأهوي فوقها ، كانت تتلفت بطريقة مغرية ، تحرّضني . حين أصبحت وراءها تماما القيت رأسي على رقبتها . دفنت وجهي بشعرها ورقبتها وظهرها . كانت دافئة إلى درجة الاشتعال ، وكانت الرطوبة الفياضة الممزوجة بتلك الرائحة الخاصة شديدة التحريض . كانت نجوى تتهاوى تحت ثقل القبلات . كانت تتراخى ، تتحرك بتلك الطريقة التي لا تحسنها سوى الافاعي . صرخت بلذة . هوت أمامي حتى خفت أن تقع . رفعت رأسها إليّ وهي قريبة من الأرض وقالت بحدة :

ـ ستقطع لساني ؟ ها ؟

ـ ساقطع لسانك . . . ورقبتك .

وجاءت ضحكة مفاجئة متحدية . احتكّ رأسها بساقي . هجت . اشتعلت . قلت لها :

ـ أريد أن أشرب كأساً من الزقنابوت .

قالت وهي تنهض مثل قطة وتلتفت إليّ :

ـ الزقنابوت أكل أم شراب ؟

ـ الزقنابوت الذي تصنعينه أنتِ ، مهما يكن .

وبطريقة مسرحية قالت :

ـ إذا كان مولاي قد تضايق من تأخري فسوف أهيّىء كل شيء في لحظة .

إزاء النافذة المطلة على البحر، تعاونّا على تهيئة مائدة ملكية. هيأنا كل شيء . معلبات ، فواكه ، مكسرات ، وما كدنا نرفع الكأس الأولى ونشرب قليلاً حتى اشتعلنا . إنها مرة من المرات القليلة في الحياة التي تبدو فيها الأشياء مختلفة تماما . الجنّ مع الليمون يصبح لذيذا محرّضا إلى درجة لا يستطيع الانسان عندها أن يقاوم . الخيار الذي بدا ذابلاً مكتويا أول الأمر ما لبث أن انتصب وأصبح لذيذا ، والبندورة الجبلية الكبيرة التي قسمناها شرائح اصبحت لذيذة . وهكذا حبات الزيتون واللحم المقدد والسردين ، ولا اعرف أية اشياء أخرى ، استطاعت نجوى أن تحضرها وترتبها على المائدة الملكية بتلك السرعة والنعومة بين القبلات واللمسات .

بعد أن احتسيت رشفتين أو ثلاثا من كأس الجن ، شعرت بالعنفوان ، وأصبحت أقرب إلى طلب المبارزة . قلت لنجوى :

ـ هل أخبرت خلدون أنكِ هنا؟

مدت شفتيها بطريقة غامضة، وظللت انتظر الجواب . سألتها من جديد :

ـ هل يعرف ؟

قالت بعصبية :

ـ علاء . . . أرجوك ، لا أريد أن أفسد هذه اللحظات .

ـ ماذا تقصدين ؟

ـ أريد أن استمتع ، أن أُجَن .

ـ وخلدون ؟
ـ أوف . . . أترك خلدون الآن !
ـ ولكني أريد أن أعرف .
ـ تعرف ماذا ؟
ـ هل يعرف أنكِ هنا ؟
ـ قلت له اني أريد أن احتفل وحدي بتأسيس شركة سالم ، وأريد أن احتفل بهذه المناسبة على طريقتي وحسب مزاجي .
ـ ولكن هل يعرف أنكِ هنا ؟
ـ لم أقل له شيئا محددا !

وهجمت عليّ ، جلست في حضني ، كانت ثقيلة كثيفة. شعرت بثقلها وكثافتها . بدت لي من هذه المسافة القريبة ، وأنا أنظر إليها بهذا الشكل الجانبي، كتلة من اللحم الدسم ، الحار الرطب . رفعت كأسي ، شربت. قالت مصطنعة :

ـ اتشرب وحدك ؟

ناولتها الكأس دون كلمات . شربت ، شربت ببطء وكأنها تتمتع بكل رشفة . استبقت الكأس في يدها ، ادراته بإتجاه البحر وهي تنظر عبر حافتها الفارغة ، هزت رأسها دلالة الأسف ، أو ربما الحزن ، رفعت الكأس أكثر وكأنها تمتحن الرؤ ية . اعادتها إلى حالتها السابقة ، شربت رشفة كبيرة ، أكثر مما تعودت، أخذت الكأس ، نظرت إليّ ، وفجأة هجمت عليّ ، قبلتني بقوة . كانت بقايا الجنّ في فمها . وكانت لكلينا لذيذة . شربتُ قليلا ، استبقيتُ كمية من الجن في حلقي ثم قبلتها . كانت قبلة كالجنون ، كان كل شيء ينقلب ، يتحول ، يتغير . تحركت ، غيرت وضعها وهي لا تزال في احضاني . شعرت أن الدنيا تتغير ، تنخض ، تموج . ألقت بصدرها على صدري ، والنهدان مكشوفان ، صارخان . كانا مثل تلّتين صخريّتين ، وبان جزء من البطن وأنا أنظر عبر هذه النافذة التي تفوق البحر . مددت يدي ، تراجعت ، سحبت الكأس من يدي . شربتْ ثم هجمت عليّ . دلقت نصف الجن في حلقي وهي

تقبلني . امتدت يدي إلى الحلمتين تداعبهما . نزلت اليدان أكثر . استقرت على السرة . كانت الأمكنة دافئة لذيذة رطبة. قالت وهي تنتفض :

ـ أنت حجر .

قلت بسخرية :

ـ أنا حجر !

ـ تكلم . . قل كلمة . اشتم ، غنِّ، قل أي شيء .

ـ سوف اقتلك ، نعم سوف اقتلك .

ـ تقتلني ؟

ـ بكل تأكيد !

وبطريقة احتفالية شديدة الروعة نهضت . وقفت أمامي . كانت متوردة ، حافلة ، شيقة ، واثقة، قالت :

ـ اتمنى أن تقتلني !

توقفت لحظة ثم اضافت بلهجة مختلفة :

ـ الموت بين يديك امنية ! أتعلم أن في مجرّ تلك الطاولة مسدساً محشوا ؟

ـ صحيح ؟ رائع !

سحبتني بقوة ، كانت قوية وواثقة ، وبخطوات مضطربة مشينا . كنا لا نقوى على المشي . نتكىء على بعض ، نريد أن نفترش الأرض قبل أن نصل ، أن نبلغ الذروة قبل السرير والفراش . كنا نطير . كنا في حالة من الاغتلام نادرا ما تمر بالانسان .

خلال الخطوات القليلة بين الباب والسرير كنت انزع عنها ذلك الثوب الشعري الذي يشبه نوار التفاح بلونه وملمسه . برزت عارية تماما . لم تكن تلبس أي شيء تحت الثوب . بدت متألقة ، سخية ، ناعمة ، بذلك العطر الذي لا يمكن أن يتولد من أية قارورة ، وإنما يولده الجسد البشري ، خاصة جسد الأنثى ، وجسد نجوى بالذات .

في الفراش ، كانت الأمواج والنيازك والزلازل تحطم الاضلاع والانفاس وتسد كل الفراغات . شعرت للمرة الأولى في حياتي أني لا أقوى على احتمال نجوى ، وقررت أن أقتلها وأخلص منها . وبين موجة وأخرى ، بين نيزك وآخر وفي وسط الزلازل المدمرة كنت اضع يدي على رقبتها وأشد ، وكانت تصرخ بلذة :

ـ اقتلني . . . يجب أن تقتلني .

فأقول وأنا أضحك من اللذة والألم والجنون :

ـ نهايتك على يدي .

دق جرس التلفون ، فقالت بسرعة :

غلط . . إنهم يخطئون بالرقم . . كل مرة .

أما حين دق مرة أخرى . فقد قالت بعصبية :

ـ لا يتركون للإنسان لحظة واحدة من الهدوء ، لحظة واحدة من الحب .

ولما دق للمرة الثالثة قالت بغضب :

ـ لن أرد حتى لو كان الله !

ولما سألتها إن كان خلدون يعرف أنها هنا أم لا ، أجابت بعصبية وخشونة :

ـ اترك خلدون ، لا يهمني أيعرف أو لا يعرف !
ـ وإذا عرف ؟
ـ ليبلّط البحر !

وفي تلك اللحظة بدت نجوى أكثر جنونا من البحر والرياح العاصفة ، وأكثر عنفاً من الأمواج الغاضبة والزلازل ، وعندما دق التلفون في تلك اللحظة ، أمسكت به بشراسة والقت به إلى الأرض ، فهوى في ثلاث أو أربع ِقطع .

ظللنا كذلك وقتا . . . لا حد لهذا الزمن أبداً . وحين نهضت

وأرتديت ملابسي ، ظلت هي في السرير . كانت متعبة ، مسترخية ، وكأنها لا تريد أن تفارق تلك الحالة . جلست أول الأمر على مقعد قرب النافذة. صَببتُ لنفسي كأساً وسألتها إن كانت ترغب في كأس. وحين لم تجب ، شربت وحدي . وكما كنت أفعل دائما كلما عاد إليّ هدوء ما بعد الحب ، نزلت إلى الشاطىء ، وابتعدت في السير ، ثم جلست على الصخور . ظللت أتأمل البحر والأمواج والنوارس ، وبعض غيوم تعبر بسرعة في السماء . وعلى بعد ، كانت بعض زوارق الصيادين تعود إلى الساحل .

ماذا فعلت نجوى بعد ذلك ؟ إلى أي وقت ظلت في السرير؟ وهل رتبت السرير والملابس والأشياء الأخرى ؟

في وقت متأخر ، حين بدأت الشمس تنحدر ، وأصبح النظر إلى البحر باتجاه الغرب يؤذي العين ، نهضت .

ما زلت اتذكر هيئة الرجل الذي تراءى لي على شرفة المجنونة . كانت المسافة بعيدة نسبيا ، ولكني ميزّت خلدون . لم يبق إلاّ ثواني قليلة وهو ينظر في أكثر من اتجاه ، ثم لم أعد أراه .

حين رجعت كانت نجوى تلبس بنطلونا من الجينز وفوقه قميصا موردا ، وبدت أقرب إلى العبوس والعصبية . كانت صامتة تجمع بقايا المائدة من قرب النافذة فسألتها بقلق :

ـ هل جاء خلدون ؟

تنهدت بعصبية ولم تجب .

دخلت بهدوء . ألقيت نظرة على الفراش ، وجدته مرتبا وكأن يدا لم تمسه منذ أيام ، ووجدت النافذة المطلة على الشارع مفتوحة والهواء يتلاعب بالستارة . سألتها مرة أخرى :

ـ هل جاء خلدون ؟

ـ جاء . . . وذهب .

ـ ورأى سيارتي في الخارج مع سيارتك ؟

التفتت إليّ بنصف وجهها وهي تجمع بقايا الليمون الذي ظل على المائدة ، وقالت :

ـ ادعيت أنك جئت بالصدفة ، ولما وجدتني وحدي ، ذهبت وتمشيت على الشاطىء . ولكنه غضب جداً لأني لم أرد على التلفون .

ـ هو الذي اتصل ؟

ـ هكذا يقول !

وبدأت ظلمة الغروب تسري في الجو . بدأت أول الأمر من خلال غيوم عبرت وحجبت الشمس . ثم تزايدت شيئا فشيئا .

ولست أدري أي شيطان ركبني في تلك الساعة الواقعة بين الغروب والظلمة ، حين سألتها :

ـ وصفاء ، أخي ، هل يعرف شيئا عن العلاقة التي بيننا ؟

ـ صفاء داهية . إذا لم يحزر حتى الآن . . .

ـ نجوى ، هل يحبك هو أيضاً ؟

ضحكت باستهزاء غريب :

ـ ما اسخف سؤالك يا علاء .

ـ اتحبينه أنتِ ؟

ـ بعد جنوني هذا كله بك ، تسألني مثل هذا السؤال ؟ هل تريد مادة جديدة لروايتك ؟

ـ اجيبي !

ـ أبداً ، علاء ، أبداً لن اجيب على اسئلة من هذا النوع .

ودنت مني بأغراء متجدد ، ومدت يديها لتمسك بوجهي بينهما ، وهمّت بتقبيلي . غير أنني دفعتها عني بخشونة ، وقلت :

ـ ابعدي عني ! ابعدي ! ما عدت اطيق التحمل !

وخرجت ، صافقا الباب ورائي ، ونزلت إلى سيارتي . كنت متأكدا ، وأنا اغادر المجنونة وحدي ، وهدير البحر يملأ رأسي ، أني لا أكره نجوى فقط ، بل أني مستعد لأكثر من ذلك ، كنت مستعدا لقتلها .

وشمخت ميّادة في ذاكرتي مثل اغنية تصلني عبر أمواج البحر وصخور الساحل ، كعلامـة متوهجة تحدد الطريق واتجاه السير والمستقبل . وقررت أن أفعل شيئا ، أن أفعل شيئا خطيراً .

[٤٣]

لقد افقدتني نجوى شعوري بالزمن . ولكن عندما نظرت إلى ساعتي لأول مرة ، تذكرت موعدي مع ميادة ، ووجدت أن لديّ أقل من ثلاثين دقيقة . فأسرعت إلى البيت ، لكي أكون فيه قبل حلول الثامنة . وفي الثامنة بالضبط ، كنت في مكتبتي ، اتطلع قلقا من بين الستائر إلى الشارع ، متوقعا قدوم ميادة في أية لحظة . لم يكن في البيت أحد ، فيما عدا العمة نصرت التي ربما كانت غارقة في أحدى نشواتها الصامتة في حجرتها العليا . وكانت عائلة سعيد قد آوت إلى بيتها في مؤخرة الحديقة .

وبعد قليل سمعت سيارة تقف عند الباب الخارجي ، وخرجت مسرعا ، لاستقبل ميادة وهي تترجل ، وسحبتها من يدها بسرعة إلى الداخل . كانت رائحتها لذيذة، ويدها ناعمة الملمس ، باردة . وفاجأتني بقولها ، وكأنها لا تعرف همّا في الدنيا :

ـ أنت مضطرب . . . ألأنني جئت ؟

فأخذتها بين ذراعي ، وهمستُ عند أذنها :

ـ آه ، لو تعرفين ، لو تعرفين .

دفعتني عنها قليلاً ، ونظرت في عيني نظرة نافذة ، وسألتني عاتبة ، وكأنها تحاسبني على آفة تمحقني ولا استطيع الخلاص منها :

ـ هل ذهبت إلى المجنونة مرة أخرى ؟

ـ للمرة الأخيرة ، ميادة. للمرة الأخيرة .

لم تبتعد عني ، ومسحت بشفتيها شفتيّ ، وهي تقول حائرة ، مستسلمة ، ولكن بشيء يشبه بداية الغضب :

ـ كيف اشفيك منها ؟ كيف اشفيك ؟

ـ اشفيني ، ارجوك .

واستعدت شيئا من تمالك النفس ، وصحت :

ـ ميادة ! اسمعي !

ضحكت : « أنا قربك ! لا حاجة للصراخ ! لماذا أنت مضطرب هكذا ؟ »

ـ اسمعي ! اتأتين معي إلى المجنونة ؟

ـ متى ؟

ـ الآن ! في هذه اللحظة .

ـ مستحيل .

ـ إذا أردت أن تشفيني منها ـ الآن !

ـ وماذا نفعل هناك ؟

ـ لن نرتكب جريمة . اطمئني .

ـ ولكن يجب أن أعود قبل العاشرة . .

ـ موافق ، يلّا !

ـ في سيارتك أم سيارتي ؟

ـ في سيارتي ، طبعا .

ودفعتها أمامي دفعا ، وهي تتضاحك : « على مهلك ، علاء ، على مهلك . . . » وشعرت أنني استصحب معي ملاكا في سفرة رهيبة إلى الجحيم ، والملاك لا يدري . أملي الأخير !

رغم محاولتي ضبط اعصابي في الطريق ، احسّت ميّادة بأن شيئا غريباً ، شاذا ، يجري أمام عينيها ، وبان عليها الذعر . كنت مصمما حال وصولنا إلى المجنونة على الدخول بها على نجوى ، لأقول لها : « هذه هي ميّادة ! تعرّفي عليها جيدا . اترين ما أروعها ؟ إذن اعتقيني ، قبل أن أجن ! »

« لا تسرع ! ارجوك ، علاء ، لا تسرع هكذا . . » انتبهت إليها وهي تصيح ، واعتذرت . وابطأت السير ، غير أنها كررت بعد قليل : « أرجوك ! لا تسرع ! إنك تخيفني . ماذا تريد أن تفعل بي ؟ »

ضغطت بقدمي على الكابح استجابة لها ، وبدرت مني قهقهة هستيرية : « اريد أن اجعل منك ملكة عمورية ! »

- بعد أن تقتلني ؟

- حبيبتي ميادة، لا تتحدثي عن القتل. القتل لغيرك تحدثي عن الحياة، الحياة، الحياة!!

- في بيت على حافة الأمواج الحالمة ؟

- في بيت في خضم الأمواج المتلاطمة . . . وسط الرعب والتهديد والـ . . .

- اشكرك على هديتك الحلوة هذه .

- اتعرفين نجوى العامري ؟

- دوّختني بها .

- لآخر مرة .

- لآخرة مرة ؟ وعد ؟

- سأعرّفك عليها الآن .

- إذن ، هذا ما خبأت لي وراء سياقتك الجنونية هذه ؟ بالنسبة لي ، إنها ليست مفاجأة . إنها شيء آخر .

- ماذا مثلاً ؟

- إنها مصيبة ، فخ ، حَرَج أنا في غنى عنه .

- اتريدين انقاذي ؟

- للمرة الأخيرة ، كما تقول ؟

- للمرة الأخيرة ، الفاصلة ، الحاسمة .

- طيب ، للمرة الأخيرة !

عند وصولنا المجنونة ، فرحت لوجود سيارة نجوى في الطريق ، ولكنني لاحظت أن لا ضوء يبدو من وراء ستارة النافذة الجانبية . لم تنزل ميادة في الحال ، وذهبت إلى ناحيتها ، وفتحت باب السيارة ، وأنا أقول لها :

- يلّا ، ميادة . كوني شجاعة . ساعديني ، ارجوك . إن كنت تحبينني ، هيا انزلي .

تأففت ، ونزلت مكرهة ، واختطفت منها قبلة سريعة ، وصعدنا إلى باب الدار والمفتاح بيدي ، وخبطته بقبضتي ، أولاً ، ثم فتحته ، وسحبت ميادة ورائي ، وهي تحاول التراجع حتى في تلك اللحظة . وعندما مددت يدي إلى زر النور لاشعله ، امسكت ميادة بذراعي ، وجرتها وهمست : « أوه ، بديع ـ أنظر إلى البحر من تلك النافذة ! لا تشعل النور ! »

ولست أدري لماذا أجبتها أنا أيضاً همسا ، وقد فاجأني خوف جديد :

ـ يبدو أنها ذهبت . ولكن سيارتها في الخارج . . .

ـ غير مهم ، غير مهم .

قالت ذلك ، واتجهت بحذر نحو النافذة العريضة التي في الصدر ، وهي تجرني من يدي ، وتقول : «رائع ، رائع . . إذن هنا تخونني كل يوم ، وأنت تنظر إلى هذه المياه الرهيبة ، وتسمع هذا الهدير . . . » واستلقت على الحافة العريضة ، وفتحتْ اقرب درفات الشباك إليها ، واشتد صخب البحر . . « قتلتني رعبا . . . تعال . اجلس هنا . . . علاء . . . ألا تراني ؟»

ـ أراك ؟ أنا لا أرى شيئا . أنا اسمعك فقط . . .

ـ كذاب ! أنت دائما تكذب عليّ ! وأنا اغفر لك ! للمرة الأخيرة . . .

وامسكت بيدي ، وسحبتني إليها .

ـ لم اعرف امرأة في حياتي من قبل ! هذا أول اغراء اتعرض له !

واستلقيت فوقها ، بائسا ، مرتعبا ، معذبا ، واخذت التهم شفتيها ، خديها ، عنقها ، نهديها ، وارفع عن فخذيها تنورتها باصابع مرتعشة تائهة .

ـ أوه ، علاء ، لا تحطمّني ، أرجوك ، لا تكسّرني ، لا تهشمني . . . ما الذك ، أنت والبحر . .

أنا والبحر ، أنا والبحر . فليصخب البحر عني ، وليلهث ، وليشهق ، وليحتدم ، ويغتلم ، وليرعد ويقرع الطبول الوحشية . والملاك بين ذراعيّ يبكي . الله ! ميّادة تبكي ، حنجرتها ملأى بالدموع ، وأنا اجيش صامتا كالبحر في الظلام .

ـ أوه ، القمر ! مال في اتجاهنا القمر . أنظر ، أنظر ، علاء ، أنظر . . .

ونظرت خلفي إلى فلقة القمر المطلة من زاوية النافذة العليا . . . ولما عدت بعيني إلى ميادة ، فكرت ، هل جُنّ القمر أيضاً وراح يغازل بشعاعه الأخضر صدرها ووجهها ؟

صرخت : « جمالك رهيب ، رهيب ! »

فأخذتني بين ذراعيها وقالت : « جمالي أنا ، أم القمر ؟ »

وإذ زرعت فمي مغمغما في عنقها ، زاغت مني نظرة عبر كتفها العاري إلى ركن الغرفة القريب ، ورأيت شعاعا من القمر قد سقط أيضاً على وجه آخر . . . وعينين أخريين ، مفتوحتين ، وصدر آخر . . .

ـ نجوى ! . .

ـ . . .

ـ ألا تكفي عن هذه اللعبة الخبيثة ؟

ـ . . .

غير أن وجه نجوى لم يتحرك ، ولم تتحرك عيناها . وقفزت مرتعبا إلى مفتاح النور ، واشعلته . وفي الحال زعقت ميادة زعقة ملأت رحاب البحر ورحاب السماء ، وبلغت حتى القمر .

كانت نجوى ملقاة في الركن ، وقد اتكأ رأسها على الحائط ، ممزقة القميص ، مشعثة الشعر ، وعيناها تحدقان في الفراغ ، وحولها بركة من الدم .

وصحت : « نجوى !!! »

وردّد البحر الصدّى عبر عمورية كلها ، عبر الدنيا كلها .

ملحق

خاص وسرّي جداً

م : ـ تقرير عن مقتل نجوى العامري

سعادة السيد وزير الداخلية المحترم

اشارة إلى كتابكم المرقم ٧٥٤٨/ د ت /٦٥، والمؤرخ في ٢ شباط ١٩٧٩ ، والحاقاً بكتابنا المرقم ٤٥٨١/ج ق، والمؤرخ في ١٧ كانون الثاني ١٩٧٩ حيث ذكرنا أوليات الجريمة التي هي موضوع هذا التقرير ،

نرفع إلى سعادتكم فيما يلي خلاصة لما توصلنا إليه من تحقيق في حادث مقتل المدعوة نجوى محسن سليمان العامري ، راغبين التأكيد على أن النتائج المبدأية والمستندة إلى تقرير الطبيب الشرعي ، تشير إلى احتمال أن يكون قد رافق القتل محاولة لاغتصاب المجنى عليها ، وأن المغدورة قد قاومت ذلك ، إذ وجد إلى جانب الضحية بعض الآثار من الجاني مثل زرّ مقطوع وخصلة من شعر القتيلة ، وكان جهاز التلفون محطّماً .

أما نتائج التحقيق التي تم التوصل إليها حتى الآن فإنه يصعب الاطمئنان إلى صحة أي منها قبل أن تمضي مدة أخرى ، نكون فيها قد استكملنا متابعة عدد من الخيوط التي لم نتمكن حتى الآن من بلوغ نهاياتها لاسباب نوردها في سياقها ادناه :

١ ـ المتهم المدعو علاء الدين نجيب سليم أدهم آل سلّوم ، الموضوع الآن تحت الإقامة الجبرية ريثما يكمل التحقيق :

ما زال الموما إليه يراوح في افاداته بين الإقرار والإنكار . وقد تبين أنه كان على علاقة حميمة مع المغدورة نجوى العامري ، وأنه كانت بينهما علاقة حب قبل زواجها ، واستمرت هذه العلاقة بعد زواجها من المدعو

خلدون عبد العظيم مانع الثغراني . وقد افترضنا أن دافعه إلى قتلها ، إذا كان هو الذي ارتكب جناية القتل ، هو الغيرة الشديدة ، والغضب من اعراضها عنه . وكنا قد اكتشفنا أيضاً أن أبن عم أبيه ، المدعو شهاب خالد أدهم ، المجرم الذي اعدم عام ١٩٤٩ ، قد تزوج في الأشهر الأخيرة من حياته السيدة عائشة ، أبنه السيد المرحوم فؤاد سليمان العامري . وأثرنا معه امكانية أن يكون قد عرف بأن للسيد المرحوم محسن سليمان العامري ، عمّ المغدورة ، الذي ربى المغدورة نجوى على أنها ابنته ، علاقة بتجريم أبن عم والده ، فوجد في ذلك دافعا إلى الانتقام منه بشكل غامض ، وذلك بالتعديّ على ابنته . وقد انكر المتهم ذلك ، وقال كلاما كثيراً متناقضاً جعلنا نشك في سلامة عقله ، واحلناه أخيراً على طبيب الأمراض النفسية ، الدكتور زياد الحايك ، باقتراح من مدير عام الطب الجنائي في وزارة العدل . وما زلنا في انتظار نتائج الاختبارات والفحوص الطبية .

وقد افرجنا مؤخراً عنه بناء على اقتراح الطبيب بكفالة اخيه السيد صفاء نجيب سليم أدهم ، على أن يقيم في داره الكائنة في عين فجار ، وكلفنا مركز شرطة القرية المذكورة بمراقبته ومطالبته بتسجيل أسمه لدى الشرطة مرتين يوميا . وقد افادنا الطبيب المعالج ، باعتبار أن الموما إليه من كتّاب القصص ، أنه ربما يستطيع أن يتوصل إلى نتائج ايجابية في حال اطلاعه على ما يكتبه الآن الموما إليه في أثناء اقامته الجبرية في عين فجار ، حيث يقضي معظم أوقاته في الكتابة . وفي النية ، إذا اقتضى الأمر فيما بعد ، مصادرة ما يكتب إذا مانع في اطلاعنا عليه .

٢ ـ المتهم خلدون عبد العظيم مانع الثغراني ، زوج المغدورة :

اصدرنا أمراً بالقاء القبض عليه وتوقيفه حال عودته من الخارج .
وقد تبين أنه لم يكن متواجدا في عمورية يوم وجدت المغدورة قتيلة بالرصاص في دارهم البحرية في الصيادية ، وأنه كان قد سافر إلى فرنسا في اليوم السابق للجريمة . ونعتقد أن الجريمة التي يحتمل أنه هو الذي دبّرها ، نفّذها رجل ، أو رجلان ، علمنا من مصادر الشرطة والأهلين في الصيادية

أنهم رأوهما يوم الجريمة يسألان عن الدار البحرية التي يظهر أنهم يسمونها المجنونة . ولكن لم نعثر لهما على أثر حتى الآن . والمتهم المذكور ينكر ما نسبنا إليه باستمرار ، ولكنه في أحد الأيام أنهار واعترف ثم عاد وأنكر اعترافه بشدة في اليوم التالي . والذي يبرر لنا إتهامه هو ما توصلنا إليه بعد التحقيق مع عدد من الذين لهم علاقات عائلية وارتباطات اعمال مع المدعو خلدون عبد العظيم الثغراني ، وهو أنه كان قد اكتشف أن زوجته ، المغدورة الموما إليها ، كانت على علاقة آثمة بصديقه المدعو علاء الدين نجيب ، المتهم الذي ورد ذكره في الفقرة (١) اعلاه ، فقرر قتلها في الدار التي كانت قد جعلت منها عشا للخيانة الزوجية ، سواء بواسطة آخرين مأجورين ، أو بنفسه . وفي الحالة الأخيرة ، أي إذا كان هو القاتل ، تكون الجريمة قد وقعت في اليوم السابق لاكتشافنا إياها ، فيكون هو بسبق الإصرار قد هيأ سفرته لتتم بعد ارتكابة الجريمة مباشرة ، مؤمّلا بذلك أن يصرف الانظار عن نفسه بحجة غيابه عن القطر عند مقتل زوجته .

٣ ـ المتهم المجهول :

تبيّن لدينا من مصادر اخبارية سابقة أن والدة نجوى لم تكن زوجة المرحوم محسن سليمان العامري ، بل اخته المدعوة زينب ، المجهولة الإقامة في الخارج ، (وقد تكون متوفاة)، وأن أباها الحقيقي كان سائقا عند محسن العامري ، يدعى علي رجب الظاهر ، جاء إلى عمورية العاصمة من إحدى القرى المجاورة ـ والتحقيق ما زال جاريا في المطلة ، وغسرين ، والعامرية ، لمعرفة هويته الحقيقية وما إذا كان على علم بأن جاءته ابنة واصبحت ثرية ، مع الإشارة إلى أن ما نورده هنا ، في حال صحته ، يعود إلى ما قبل اثنتين وثلاثين سنة . حملت المدعوة زينب العامري سفاحا من السائق الموما إليه ، فأبعدها اخوها السيد المرحوم محسن العامري إلى بيروت حيث ولدت نجوى ، فتبناها ، بينما هرب السائق واختفى خوفا من الأذى الذي قد تنزله به اسرة العامري . وبعد سنين طويلة اكتشف السائق السابق أن ابنته ، المغدورة نجوى ، قد أصبحت ثرية حين استلمت تركة محسن العامري ، فذهب إليها ليكشف

لها عن سرّ ابوته لها ، طمعا في شيء من مالها . فقتل على أيدي رجال مجهولين ، ووجدت جثته في شارع ١٨ في حي الخميلة ، ولم يأت أحد حتى الآن للمطالبة بها . وقد توصلنا إلى الرأي بأن أحد ابنائه أو أحد اقربائه الساكنين في قريته قام بعد ذلك بقتل المجني عليها ، انتقاما له . وما زلنا نعتقد أن هذا القاتل ، إن وجد ، وإن صح ما نذهب إليه ، سيكشف عن نفسه قريباً ، اعتزازا منه بالثأر الذي حققه لاسرته وعشيرته .

٤ ـ وجدنا بين أوراق المغدورة الموما إليها ، في دارها في حي الخميلة ، دفترا فيه ملاحظات ويوميات متباعدة ، يدور معظمها حول الأعمال التي أخذت تقوم بأعبائها بعد وفاة محسن العامري . وقد وقعنا على فقرة ، يتكرر فحواها ثلاث مرات في ثلاث يوميات مختلفة ، نوردها هنا بتحفظ شديد :

أ ـ « سليمان يطالب بثلثي الميراث ، أو على الأقل بنصفه !!! يريد أن يشارك خالتي مديحة معه ، بكل وقاحة !! لن اتزعزع عن موقفي » .

ب ـ « سليمان افندي يهدد خلدون من طرف خفي أولاً ، ثم بصراحة ، إن أنا لم اتنازل . . . إلى متى يبقى هذا المغرور الصلف يطالب ويطالب ، ولا يخجل ! من هم هؤلاء المساكين المغفلون الذين ينتخبونه ، هو وأمثاله ، إلى عضوية المجلس النيابي ؟ » . . إلخ .

جـ ـ « حياتي مهدّدة ؟! لن أتنازل ، وسأريه من هو الأقوى » .

وقد استنتجنا أن سليمان المذكور ، يقصد به السيد سليمان فؤاد العامري . ولما كان يتمتع بالحصانة النيابية ، قررنا أن نفاتحكم بالموضوع ، لطفا ، قبل اتخاذ أي اجراء تحقيقي بشأنه .

ـ وهنا نذكر أن المتهم علاء الدين نجيب ، الموما إليه في الفقرة (١) اعلاه ، ذكر في إحدى إفاداته المضطربة أن نجوى « سويلمية » (هذه هي الكلمة التي استعملها)، لأنها ـ وهكذا فهمنا من هذيانه ـ أبنة شهاب خالد من زوجته عائشة ، أبنة فؤاد سليمان ، كما في الفقرة (١) اعلاه .

وهذا التطور يجعلنا نرى صلة محتملة بين السيد سليمان فؤاد العامري والمغدورة ، لم تكن داخلة في تقديراتنا عندما فتحنا التحقيق .

٥ ـ يؤسفنا أننا بعد أكثر من ستة أشهر من التحقيق ما زلنا في شك من الكثير من الوقائع ولا نستطيع الجزم حتى هذه الساعة إن كان لهذه الجريمة صبغة سياسية ، وهل لها علاقة باجرائم التسع الأخرى التي ذكرناها في كتابنا المذكور اعلاه . الأوراق المرفقة تشير إلى الاحتمالات السياسية التي هي الآن مثار شك كبير لدينا ، رغم ادعاء صاحبها أنها جزء من قصة كان يكتبها ، وأنه كتبها في أواخر عام ١٩٧٦ .

إن اضبارة التحقيق والافادات المتوالية تتضخم يوما بعد يوم ، نضعها تحت تصرفكم حالما ترغبون في ذلك .

ولكم الأمر، سيدي

رئيس هيئة التحقيق
(توقيع)
محمود شهاب أبو الهنا

مرفق : نسخة طبق الأصل صوّرناها عن الصفحات التي وجدناها في إضباره بين أوراق المتهم علاء الدين نجيب سليم آل سلّوم يوم إلقاء القبض عليه ، والتي تبدو أنها جزء من مقال كان ينوي نشره ـ علنا أو سرا . ونرى أن لها علاقة بالفقرة (٥) اعلاه . ولا سيما إذا اضيفت إلى بعض مقالاته المنشورة إلى ما قبل حوالي السنتين في جريدة « الميزان ».

المرفق :

الأحداث تعصف في كل مكان ، الزوابع تولّد دويّاً في كل الانحاء ، وإذا ظلت حتى الآن تنكسر قبل أن تصل جبال عمورية فلا تبلغها إلا الأصداء الباهتة ، والدويّ المكتوم ، وإذا سمعها الناس كذّبوا آذانهم وقالوا شيئا ثم حاولوا النسيان ، فإن هذا لن يدوم طويلاً !

لأهل المدينة أن يناموا مطمئنين سنة أو اثنتين ، غير أن العواصف

سوف تصلهم ، وهي لن تصلهم هذه المرة كأصداء أو انكسارات ، وإنما كحمم وزلازل وبراكين ، سوف تمطر فوق رؤوسهم كما تمطر الطيور الخرافية ، وعندها سوف يموت الناجون منهم بالفزع ، وإذا قدّر لعدد محدود أن يصل إلى اطراف الصحراء أو شواطىء البحر ، فسوف يموت من العطش أو الكمد . وإن سؤالاً مريراً قاسياً لسوف ينطلق من افواههم حتى لو لم يريدوا : « أين كنا ؟ لماذا لم نسمع ؟ لماذا لم نفعل شيئا ؟ »

لا يمكن لعمورية أن تبقى حصنا في أعالي الجبال ، بعيدة معزولة . مدينتنا ، مثلها مثل كل المدن والقرى من الماء إلى الماء ، حلقة في سلسلة ، خرزة في مسبحة ، ومهما حاولت أن تبتعد ، أن تتوارى ، فلن تنجو .

ليس من حقي أن أدين المدينة فأقول انها لم تكن موجودة عام ١٩٤٨ ، وأنها لم تستطع أن تصل عام ١٩٦٧ ، وأنها لم تقتنع عام ١٩٧٣ . لا أريد أن أقول هذا ، لأنه ليس دقيقا ، ولأن المدينة الضجة ، الاذاعة والصحافة وبعض القطع العسكرية الرمزية ، كانت موجودة ـ أو حاولت أن تكون موجودة !

في اعماقها كانت المدينة غافية ، ولعلها ما تزال كذلك . إنها تشعر بنوع من الاستقرار والثقة وتحاول أن تتهرب أو تؤجل الكثير من الأمور ، لعلها تنام ليلة وتقوم فتجد كل شيء وقد وجد حلاً له !

اطمئني أيتها المدينة . . أنت مدينة من هذه المنطقة ، وأنت موجودة لانك امتداد لها ، ولن تستطيعي أن تبقي أو أن تستمري إلا إذا كنت كذلك .

رجل واحد ، بعد أن مات رافضا ، لا يملك إلا جسده وعقله ، جعلني أخيراً أعيد النظر والتفكير في كل شيء يقع في هذه البقعة من الأرض التي هي أنت . لماذا أراه ينفجر هكذا في وجهي ؟ أكاد اطالع وجهه ، ابتسامته ، حتى صمته ، في وجوه الآخرين ، إنه الآن ، أكثر من أي وقت مضى ، شديد الشبه بالوجوه التي اقابلها كل يوم . إنه في الأصوات ، في الملامح ، في العصبيّة وربما في الرفض الذي بدأ يتكون

ويكتنز في أهل عمورية . انهم الآن أكثر من أي وقت مضى شديدو الخطورة . لقد بدأوا الصمت . والصمت إذا بدأ بدأت بعده المآسي ، والزلازل ، والكوارث الكبرى ، إذا لم تجد المدينة حلا مناسبا لتوتّرها . ولكن ما هو الحل المناسب ، وكيف سيأتي ؟

في فترة سابقة كنت شديد الاطمئنان ، كنت أقول رأيي مهما بدا قاسيا ، أو غير مقنع للآخرين . أما الآن فأتردد . قد لا يسمعه أحد ، قد لا يؤثر ، وإذا سمع أو أثّر، ففي آذان أولئك الجلاوزة فقط الذين يحاسبون الإنسان على احلامه وأفكاره ، قبل أن يحاسبوه على أفعاله ونتائج هذه الأفعال !

هل يمكن أرجاع السبب في الحال التي اعاني منها إلى أنني قد عديت بيأس الآخرين ، بالرغبة مثلهم في إراحة رأسي من عناء لا يؤدي إلى نتيجة ؟ صحيح أنني لم أعد أثق بالمؤسسات والرموز التي تملأ الدنيا ضجيجا ، وأنني أرى أن هذه المؤسسات ورموزها قد افلست ويجب أن تتوارى ، أن تبتعد خجلا ، وأن تحاول التكفير عن أخطائها وما ألحقته بالناس من أذى . لكن هروبي إلى جانب ذلك إنما هو محاولة للبحث عن الراحة ، عن السلامة . وهكذا جعلت بصورة دائمة امضغ حجرا : إنني اضع في حلقي شيئا لا استطيع أن أبلعه ، ولا استطيع أن الفظه .

أحاول الآن اقناع نفسي واقناع الآخرين معا . أريد أن احتفظ بشيء من البراءة والجدارة بنظر نفسي وبنظر الآخرين ، وأريد أن أصرخ بأعلى صوتي لكي اقتنع ويقتنع الآخرون : لا زلت أحيا بحياتكم ! لا زلت أشقى لشقائكم وأهنأ بهنائكم ! حاولت ، حاولت أكثر من مرة ، وبأكثر من وسيلة ، لكن محاولتي لم تؤدِ حتى الآن إلى نتيجة ، وعللتّ ذلك بأسباب خارجة عن إرادتي وإرادة الآخرين .

ولكن عليّ ، من هذه اللحظة ، أن أتوقف عن إدانة الآخرين . إذا كان من حقي إصدار حكم بالإدانة فيجب أن يكون هذا الحكم عليّ ، على نفسي . أما أن أحمّل الآخرين مسؤولية الخيبة ، فأنا أضلّل نفسي ، اكذّب عقلي .

إن حيرة من نوع جارف تملؤ ني . لكني سأتجاوزها . لا يمكنني أن اتخلى عن مدينتي . لا أتصور ، للحظة ، أن تحارب عمورية وحدها بدوني ، أن أبقى بعيداً أو متفرجا وفي وريدي دم ينبض ، وأنا بقدر ما أكرهها ، أعشقها . لكن لا استطيع أيضاً أن أكون جزءاً من الجوقة ، أو مخّدرا يتخّدر به الآخرون . يجب أن أتروى قليلا لكي أعيد النظر في كل شيء !

وثمة سؤال واضح على كل أنسان أن يطرحه على نفسه ، كما اطرحه على نفسي ، في هذه الأيام الصعبة المخيفة ، والعواصف على الأبواب : « أين مكاني من هذا كله ؟ هل سأجده ؟ هل سأكون جديراً بالمستقبل ؟ »

هذا هو السؤال .

أما أنا ، فإذا أستطعت أن أصحو ، أن استعيد ثقتي بالبشر والأشياء ، أن اكتشف نقطة الضوء،

(هنا تنتهي الصفحة ، ولم
نعثر على الصفحات التي تليها .)

انتهت

عالمٌ بلا خرائط

تتداخل الأسئلة والأجوبة في هذه الرواية، بحيث يصعب القول أحياناً أيها هي الأسئلة، وأيها هي الأجوبة. وفي متابعة الجدلية القائمة في فصولها، يبقى الشك مثاراً، ومثيراً، باستمرار.

لماذا تبقى عمورية عالماً بلا خرائط؟ وعلاء الدين نجيب، هل له من طريق للخلاص من متاهاتها في اعترافاته الحارة، المضطربة، المتناقضة، عن مصرع نجوى العامري، المرأة المدهشة التي تجمع بين هوج السوالمة وشبقهم، وبين حسابات الربح والخسارة التي نشأت عليها في أسرتها ومجتمعها؟

وأين يقع ذلك كله من قصته مع ماضيه، مع أخويه صفاء وأدهم، وخاله حسام الرعد، وعمته نصرت، وأسلافه القرويين والعشائريين وصولاً إلى المتمرد الأول فيهم، حمدي سويلم؟ أم أن ذلك كله جزء من قصته الأخرى، قصته مع المستحيل والجنون، الكامنين في نجوى العامري، في نفسه هو، في عصره، في عمورية كلها؟

روائيان كبيران، جبرا إبراهيم جبرا وعبد الرحمن منيف، تضافرت مواهبهما تضافراً مذهلاً في عمل إبداعي متفرد، لإثارة جو عابق بالحيرة والسخط، بالرغب والنشوة، في خلق هذه المدينة، عمورية، التي لم يزرها قارىء يوماً من قبل، والتي بعد أن يزورها ستسكنه تهاويلها إلى وقت طويل.

الخطوط : قنوع
صمم الغلاف : نذير نبعة

المؤسسة العربية للدراسات والنشر
بيروت، ساقية الجنزير، بناية برج الكارلتون، ص.ب: ٥٤٦٠-١١
العنوان البرقي: موكيالي، هـ ١/٨٠٧٩٠٠
تلكس: LE/DIRKAY ٤٠٠٦٧